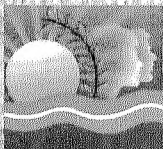


دراسات في تاريخ العرب (٢)

العصر العباسي الأول

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلاميه
كلية الاداب - جامعة الاسكندرية



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
عش / مصطفى مشرفة
ت / ٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

0188857



Bibliotheca Alexandrina

دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول

المجلد الثالث

مؤلف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والمطالع والمؤلف
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

مؤسسة شباب الجامعة
د. الدكتور مصطفى مشرفة
٢٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

قامت الدولة العربية الاسلامية بقيام دولة الرسول في المدينة ، واتسعت بالفتوحات الاسلامية في الشرق والغرب في عهود خلفائه الراشدين الذين اسبقوهم بأرائه ، وانتدوا بقيادته القائمة على الشورى والمساواة، ثم ازدهرت هذه الدولة في عصر الخلفاء الأمويين الذين استندوا في الحكم على مبدأ الوراثة، واعتمدوا على العنصر العربي دون الأعجمي في القيادة والادارة ، باعتبار أن العرب وحدهم يشكلون جوهر الدولة ومادة الاسلام ، ولهذا السبب عرف هذا العصر بعصر الدولة العربية ، لأنه العصر الذي انتصر فيه العنصر العربي ، وانتشر في آفاق البلاد المفتوحة ، وانتشرت فيه اللغة العربية، وتعربت الدواوين، وسكت العملة العربية الاسلامية ، وأصبح للعرب المكان الأول ، إلى أن سقطت الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وقامت الدولة العباسية ، وعندئذ فقط بدأ عصر جديد في تاريخ العرب ، اعتمد فيه العباسيون - مع كونهم عربا - على العناصر الأعجمية (١) في تصريف شؤون دولتهم ، وقدموهم على العرب في المناصب القيادية ، ولهذا السبب عرف العصر الأموي بعصر الدولة العربية ، والعصر العباسي بعصر الدولة الاسلامية ، وقالوا : دولة بنى أمية دولة عربية ، ودولة بنى العباس إسلامية ، أو كما قيل إن « دولة بنى العباس

(١) ساد العنصر الفارسي ابان العصر العباسي الأول والثالث ، والتكى في العصر العباسي الثاني والرابع ، كما ساد العنصر البربري في غرب العالم الاسلامي منذ قيام الدولة العباسية .

أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان أموية عربية (١) ، وفى ذلك يقول السيوطي : « فى دولة بنى العباس افترقت كلمة الاسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الأتراك فى الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، فصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ملك الأرض عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالصف ويملكهم بالقهر » (٢) .

٢ - ولقد دامت الدولة العباسية أكثر من خمسة قرون الى أن سقطت بغداد فى أيدي المغول فى سنة ١٢٠٨ م ، وفقد للخلافة العباسية أن تستمر فى القاهرة بعد ذلك فى ظل دولة سلاطين المماليك حتى الفتح العثماني لمصر والشام فى سنة ١٥١٧ م .

وقد شهد العصر العباسي تفككا خطيرا فى وحدة الدولة الاسلامية أدى الى قيام حركات انفصالية (٣) ، وإلى ظهور خلافتات ثلاث فى شرق العالم الاسلامي وغربه (٤) ، كما شهد صراعا سياسيا بين القوى السنية والقوى الشيعية فى شرق العالم الاسلامي وغربه ، وكان لذلك أعظم الأثر فى حالة التفتت

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٠٦ . برنارد لوبس ، العرب فى التاريخ ، تحرير نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ص ١١٤ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ص ٢٤١ .

(٣) أمثال الدولة الأموية فى الاندلس ، ودولة الاغالبة فى المغرب الأدنى والرسامة فى المغرب الاوسط والادارة وبنى مدرار فى المغرب الأعلى ، ثم دولة الفاطميين فى أنقاض دولتي الاغالبة والرسامة ، والدولة الطولونية ثم الاخشيدية ثم الفاطمية فى ليبيا فى مصر ، والدولة الحمدانية فى الشام ودولة بنى عقيل فى الموصل والدولة الظاهرية ثم الصغارية فى فارس والسامانية ثم الغزنوية فى الهند وقسم من فارس وبلاد ما وراء النهر .

(٤) الى جانب الخلافة العباسية السنية فى بغداد . قامت فى الاندلس خلافة أموية من سنة ٨٣١٦ الى ٤٢٢ هـ فى المغرب ومصر والشام خلافة فاطمية شيعية .



السياسي التي أصابت الدولة العباسية ، رأت إلى ظهور موجات غزوية تركية انطلقت من أواسط آسيا، وتمثل في قوة الأتراك السلاجقة ، ثم في قوة المغول المدمرة (التي قضت على الخلافة العباسية في بغداد) وغريبة مسيحية تمثلت في الحركة الصليبية التي اجتاحت الشرق الأدنى الاسلامي ، كما داهمت الجناح الغربي للعالم الاسلامي في قلب الاندلس بل وعلى التراب المغربي .

والدولة العباسية تنسب إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، هم الرسول، وكان العباس من أشرف سادات بني هاشم ، وتجمع المصادر على أنه وقف بجانب الرسول في يعة العقبة الثانية ، وكان يوافي النبي (صلعم) بأخبار مكة ويحذر كانهاضه ، وهاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة، وحضر مع النبي فتحها ، وتوسط لأبي سفيان عند النبي ، وكان العباس ينادي بـاصر على بن ابي طالب ويرشحه للخلافة .

وتوفي العباس في خلافة عثمان في ١٤ رجب سنة ٥٣٢هـ، وأعقب من الأبناء: الفضل أكبر أبنائه ، وعبد الله ، وعبيد الله، وعبد الرحمن ، وقثم ، ومعبد ، وأم حبيبة، وكثير، وتمام، وصفية واسمية، والحارث ، ومعظم ذرية العباس انتشرت من نسل ابنه عبد الله. أما عبد الله بن عباس، فشخصية إسلامية بارزة، وصحابي جليل ، ولد قبل الهجرة بستين ، وكان الرسول يحبوه ويدعو الله ان يعلوه التأويل ، فكان ابن عباس أعلم الناس بآيات القرآن وتفسيره وأكثر المسلمين تفقها في الدين (١) . وكان موضع احترام الخلفاء الراشدين وإجلالهم ، وقد

(١) أخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور هبيل الدوي ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٢٥ . وقيل في هله : عبد الله بن عباس خير هذه الأمة .

ترك البصرة التي ولاه الامام على عليها وذلك بعد أن قتل عبد الرحمن بن ملجم عليها ، وأقام بالطائف معتزلاً للفتنة الى ان توفي في سنة ٢٨ هـ . ومن أشهر أولاد عبد الله بن عباس ابنه علي ، أقطعه بنو أمية قرية بالشام يقال لها الحميمة وتقع في طريق المدينة بالقرب من الشوبك بإقليم البلقاء . وفي هذه القرية عاش علي بن عبد الله العباسي حتي توفي في سنة ١١٧ هـ . وأنجب علي ٢٢ ولدا ذكراً و ١١ بنتاً ، ومن أبنائه انتشر البيت العباسي . ومن أبرز أبنائه وأشهرهم محمد الذي كان أول من تطلع من بنى العباس الى الظفر بالخلافة وسعي اليها ، ومن أجلها بدأ التنظيم العقائدي السري الذي انتهى بفوز العباسيين بالخلافة على يد أبنائه ابراهيم الامام ، وأبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور .

ويتفق المؤرخين المحدثون على أن الدولة العباسية التي عمرت مايزيد على خمسة قرون ، مرت بمراحل زمنية أربعة تنقسم كل مرحلة منها بمظاهر مميزة ، وفيما يلي عرض لهذه العصور الأربعة للدولة العباسية :

العصر العباسي الاول : (١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م) .

ويعرف هذا العصر بعصر النفوذ الفارسي الأول باعتبار أن هناك عصرًا ثانيًا لهذا النفوذ هو العصر العباسي الثالث ، ونعني به العصر البويهى ، ويعرف هذا العصر الأول أيضًا بعصر الخلفاء العباسيين العظام ، إذ نشهد فيه سيطرة العنصر الفارسي الذي قامت عليه الدولة العباسية ، وغلبته على جميع مناحي الحياة ، أدبية ومادية ، فقد كان من الطبيعي أن يعتمد العباسيون على الفرس وعلى أهل خراسان بوجه خاص في تصريف شؤون دولتهم اعترافًا منهم بفضلهم عليهم ، فكان أبو جعفر المنصور يقول : « يا أهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا

وأهل دعوتنا» (١) ، وعندما حضرته الوفاة ، أوصى ولده المهدي بهم ، فقال : «وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم عما كان منهم ، وتحاف من مات منهم في أهله وولده» (٢) ، ولذلك أسلم الخلفاء العباسيون في هذا العصر آزمة أمـورهم الى الفرس ، وأفسحوا لهم المجال في تولي المناصب الكبرى بعد أن كانت هذه المناصب تقتصر في العصر الأموي على العرب ، وفي ذلك المعنى يقول السيوطي : «وهو أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها» (٣) . وهكذا تولي الموالى الوزارة ، أولهم أبو أيوب المورياتي ، ثم يعقوب بن داود ، والقيص بن أبي صالح ، وغيرهم ، إلى أن استبدت البرامكة بالوزارة زمن هارون الرشيد . وكان البرامكة في الأصل سدة لمعبد نوبهار ببلخ من معابد النار ، وقد وصل البرامكة إلى أوج نفوذهم في عهد الرشيد (٤) الذي يدين ليحيى بن خالد البرمكي بخلافته ، فما أن تولي الرشيد الخلافة حتى عرف ليحيى فضله وخدمته ، فقلده وزارته ، ومنحه سلطة تكاد تكون مطلقة ، وأطلق له يده في تصريف شؤون دولته ، إذ كان يدين له

(١) المسودي ، مروج الذهب ، القاهرة ١٣٤٦ هـ . ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) السيوطي ، ص ٢٥١ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ص ١٦ - الاربلي ، خلاصة الذهب السوك . بغداد ١٩٦٤ ، ص ٩٠ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ١٥٨ .

٨

يا الفضل في ظفرك بالخلافة (١)، ويقول له: «يا أبت: أنت أجلسنى هذا الجاس بركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنى إليك، فأحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض من رأيت، واسقط من رأيت» فأنى غير ناظر معك في شيء» (٢).

كذلك ظهر التأثير الفارسى في الحركات الدينية التي شغلت معظم فترات العصر العباسى الأول، والتي اتجهت اتجاها قوميا شعويا يستهدف الطعن في السيادة العربية وفي الجنس العربى، وإحياء المجد الفارسى القديم. وقد عمد الشعوب إلى الزندقة لمحاربة الإسلام، كما عمدوا إلى تمجيد العنصر الفارسى والحط من شأن العرب، والتعصب للعجمية أدبيا ونياسيا واجتماعيا.

ومن الحركات الدينية التي ظهرت في العصر العباسى الأول: حركة الراوندية (٣) التي ظهرت في خلافة المنصور، وحركة المقتنية نسبة إلى زعيمها المقتنع الخراسانى الذى أعلن الثورة على المهدي في ١٥٩ هـ (٤)، وقد اتخذ المقتنع لنفسه قنصا من الذهب، وادعى الألوهية، وقال بالتناسخ والحلول، وأسقط الزكاة والصوم والحج، وأباح المحرمات. ثم الحركة البايكية، أنباع

(١) كان موسى الهادى يرشح ابنه -مفر للخلافة من بعده بدلا من أخيه هارون. وعندما أبدى رفضه تلك إلى هارون، وأوشك هذا على التنازل عن ولاية العهد، نصحه يحيى بالرفض وثبته، وكان ذلك سببا في تحامل الهادى على يحيى البرمكى، فأمر بعبسه، وعزم على قتله، ولكن الهادى لم يلبث أن توفي بعد ليلة واحدة من سجنه ليحيى. ويرجع سبب ميل يحيى البرمكى لهارون إلى أنه تولى تأديبه وتربيته في سفره، وأنه لقنه الآداب الفارسية القديمة فنشا هارون متأثرا بها.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، ١٩٦٦، ج ٨، ص ٢٣٣ - الجبشيارى، الوزراء والكتب، القاهرة ١٩٢٨، ص ١٧٧ - ابن الأثير، ج ٦، ص ٤٤.

(٣) نسبة إلى بلدة راوند الواقعة بالقرب من أصفهان، ولا يعتقد الراوندية بقتل المسيح الأرواح وم الذين ألخوا المنصور. ومع ذلك فقد حاصروا قصره وأرادوا قتله سنة ١١١ هـ. أما لقتله أبى مسام الخراسانى.

(٤) راجع في ذلك التوحيلى، فرق الشيعة، استنبول ١٩٣١، ص ٤٣.

بابك الحرمي، وكانت استمراراً لحركتي الراوندية والمقنعية، ثم حركة الزنادقة التي تشبه المانوية وإن كانت قد انقلبت إلى نزعة تحريرية تهاجم التقاليد، وتدعو إلى الديموقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات. وهكذا جنح الشعوييون الفرس إلى هذه الحركات الدينية لمحاربة الإسلام والعرب، ثم بدأوا يصنفون الكتب في مناقب المعجم وذم العرب وإظهار مثالبهم، ووضعوا الأحاديث في فضل الفرس وأسندوها إلى الصحابة والتابعين، واستعانوا بشعراء وكتاب أبرزوا فضائل المعجم أمثال بشار بن برد والشاعر الذي كان يفخر بأصله الفارسي ويحط من قدر العرب، وإن كان يعتز في نفس الوقت بالعرب ويمضّر وقيس (١)، وفي كثير من أشعاره نراه يحمل على العرب ويهجوهم هجاء فاحشاً، ويزدرهم في قسوة، وكانت له أشعار تحت طي الفساد، وتدعو إلى الانحلال الأخلاقي، مما يرجح أنه كان زنديقاً في بداية أمره (٢). وهناك شعراء آخرون أشاعوا المجون والانحلال في المجتمع العربي الإسلامي، وصوروا اللذة وشهوات النفس والشذوذ الجنسي، ومنهم أبو نواس الذي ابتكر لونا جديداً في الشعر العربي هو الغزل بالمذكر.

العصر العباسي الثاني (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م) .

وهو المعروف، أيضاً بالعصر التركي الأول، لأنه العصر الذي زاد فيه نفوذ الأتراك، وقد بدأ العصر التركي يتغلغل في جسم الدولة العباسية منذ أيام الخليفة المأمون الذي استكثر من الأتراك في جيشه، ثم بالغ المعتصم في ذلك واستخدمهم في قيادة الجيوش وفي الإدارة. ويعتبر المعتصم بحق أول من

-
- (١) مصطلح الشكامة، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، بيروت ١٩٧١ ص ٤٩١ .
 (٢) يتهمه الجاحظ في البيان والتبيين بأنه كان يدين بالرجمة ويكفر جميع الأمة (ج ١، بيروت ١٩٦٨ ص ٢١) وأنه قام بلذر إبليس في أن النار خير من الأرض .

أدخل الأتراك في ميدان السياسة إذ كانت مقائراً في ذلك بأمة التركية ،
وفي عهده زاد نفوذ الأتراك بحيث اضطرت الخلافة إلى تأسيس مدينة لهم - هي
مدينة سامرا - في سنة ٢١١ هـ . ثم استفحل أمر هؤلاء الأتراك حتى أصبح
في أيديهم عزل وتولية الخلفاء ، فقام جرضوا محمد المنتصر بن المتوكل على
قتل أبيه ، فهاجم عليه بغلمان من الأتراك كان قد واطأهم على قتله ، فقتلوه في
سنة ٢٤٧ هـ (١) ، فلما تولى المنتصر الخلافة وأحس باستبداد الترك ، سبهم ولقبهم
بقتلة الخلفاء ، فدسوا له السم فمات (٢) ، ويكفي للتعبير عن سطوة الأتراك
من ذكر مارواه ابن طباطبا في كتابه الفخرى في الآداب السلطانية ، إذ
يذكر أنه لما ولي الخلافة المعتز الخلافة وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال :
« أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول أنه يعيش
وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك » (٣) وقد حدث ما توقعه ، إذ طالبه
الأتراك ببعض المال ، فلما اعتذر لهم بخلو خزائنه اتفقوا على خلعه وقتله ،
فلما ذهبوا إلى بابه أرسلوا إليه ليحضر إليهم ، فلما اعتذر لمرضه هجموا عليه
وجروا برجله ، وضربوه بالدبابيس ، وأقاموه في الشمس في يوم صائف
وهم يلطمون وجهه ويقولون : اخلع نفسك . ثم خلعوه ، وبايعوا محمد بن الواثق ،
ثم اقتادوا المعتز بعد خمس ليال من خلعه فأدخلوه الحمام ، ومنعوا عنه
الماء حتى مات (٤) .

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ١١٥ - الاربيل ، ص ٢٢٦ .

(٢) السيوطي ، ص ٣٣٠ .

(٣) ابن طباطبا ، كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة
١٣١٧ هـ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن الاثير ج ٧ ص ١٩٥ - ابن طباطبا ، ص ٢٢١ - السيوطي ، ص ٣٣٤

العصر العباسي الثالث (٢٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م)

يعرف أيضا بالعصر البويهي بسبب غلبة نفوذ البويهيين الديلمية، أو عصر النفوذ الفارسي الثاني . وكان بنو بويه من متشيعي الفرس ، وفي عهدهم ضعف سلطان الخلافة العباسية ، فاستبدوا بالحكم ، وأصبح لهم الحل والربط ، ولم يعد للخليفة العباسي من السلطان سوى الاسم ، ويرى المؤرخون أن معز الدولة أحمد بن بويه أقدم على خلع الخليفة العباسي المستكفي بالله وسمل عينيه (١) وقد بلغ من سيطرة البويهيين على الخلافة أنهم فكروا في إزالة الخلافة العباسية السنية وإقامة خلافة علوية في بغداد ، وقد ازداد سلطان بني بويه في أيام الخليفة الطائع لله العباسي ، وأصبح عضد الدولة البويهي يحكم البلاد ويذكر اسمه في الخطبة بدلا من الخليفة ، وبالجملة أصبح خلفاء بني العباس ألعوبة في أيدي البويهيين يولونهم الخلافة ويعزلونهم منها متى شاءوا ، بل وصل الضعف بالخلافة العباسية إلى درجة أن اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله كان يذكر على منابر بغداد بدلا من الخليفة القائم وذلك في سنة ٤٥٠ هـ .

العصر العباسي الرابع (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م)

ويعرف أيضا بالعصر التركي الثاني أو العصر السلجوقي . والسلاجقة

(١) لما قوي أمر معز الدولة حصر على الخليفة ، ثم دخل عليه في جمادى الآخرة سنة ٢٣٤ هـ فوقف - والناس واقف على مراتبهم - فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة ، فد يديه منها ظانا أنها يرغبان في تقبيلها ، فجدبا من السرير حتى طرسا إلى الأرض ، وجرا بهامته ، وهجم الديلم على دار الخلافة ونهبوها ، وسأوا المستكفي بالله ما شيا إلى معز الدولة في بيته ، حيث خاضه معز الدولة وأمر بسمل عينيه وحبه (راجع ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٥١ ، السيوطي ص ٣٦٨) .

- ١٢ -

لخرج من قبائل الغز التركية، وكانوا يسكنون في بلاد ما وراء النهر ثم دخلوا في الإسلام، وتمكن طغرل بك حفيد سلجوق من أن يجعل بجيوشه إلى خراسان، ثم يصل إلى بغداد ملياً نداء الخليفة القائم العباسي عندما استنجد به ضمد أبي الحارث الباسيري الذي دعا في بغداد باسم المستنصر بالله الفاطمي، وفي حينما العصر السلجوقي استطاع الخلفاء العباسيون استعادة بعض سلطانهم السليب، ولكن لم يمضِ عهد طويل حتى انتقلت السلطات كلها إلى أيدي السلاجقة، وأصبحوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة، ولم يعد للخليفة من سلطان سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على السكة. وما يروى عن ضعف الخليفة ما ذكره السيوطي من أن ملكشاه السلجوقي أصر على طرد الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ هـ) من بغداد في سنة ٤٨٥ هـ لتدخله في شئون الحكم، فأرسل إليه يقول: «لا بد أن تترك لي بغداد وتذهب إلى أي بلد شئت، فانزعج الخليفة، وقال: أمهلني ولو شهراً، قال: ولا ساعة واحدة. فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام، فانفق مرض السلطان وموته، وعد ذلك كرامة للخليفة» (١). على أن خلفاء بني العباس أخذوا يعملون منذ عهد المسترشد على استرداد نفوذهم منتهزين ضعف السلاجقة، وقد تمكن المقتدى سنة ٥٣٠ هـ من تجديد رسوم الخلافة، وبأشر الأمور بنفسه، وغزا أكثر من مرة. ولما تولى الخليفة الناصر في سنة ٥٧٥ هـ أخذ يبحث الخوارزميين على طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة في العراق، وتمكن علاء الدين تكش خوارزمشاه من قتل طغرل بك في سنة ٥٩٠ هـ، وأرسل رأسه إلى الخليفة العباسي في بغداد. ولحسن تبين للخليفة الناصر العباسي بعد أن استعان بدولة

الخوارزميين للقضاء على السلاجقة أنه أخطأ خطأ فاحشا ، فقد انكشفت له حقيقة الخوارزميين، وتأكدت له مطامعهم في العراق، وثبت له أنهم لا يقلون عن السلاجقة استبدادا وتحكما، وكان بداية العداء بين الخليفة والسلطان تكش الخوارزمي أن تكش طلب في أواخر أيامه أن تقرأ الخطبة باسمه على منابر بغداد نفسها، ولما تولى علاء الدين محمد بن تكش أتابكية خوارزم، عزم على القضاء على الخلافة العباسية ، وإقامة خلافة شيعية في بغداد ، ثم أصدر أمراً بعزل الخليفة وإسقاط اسمه من السكة والخطبة، وأقام على الخلافة رجلا حلويا من مدينة ترمذ .

وبروي المؤرخون أن الخليفة، عندما ضاق به الحال بعد أن قطع خوارزم شاه اسمه من الخطبة، راسل جنكيزخان يحرضه على مهاجمة الدولة الخوارزمية . وعلى الرغم من سقوط القسم الأعظم من دولة الخوارزميين في أيدي المغول في سنة ٦١٨ هـ ، فقد استمر النزاع قائما بين خلفاء بغداد والخوارزميين ، ولم ينته هذا النزاع الا بسقوط الدولة الخوارزمية نهائيا في أيدي المغول ، وذلك على أثر مصرع السلطان جلال الدين منكبرتي في شيرال سنة ٦٠٨ هـ (١١٣١ م) ثم سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

* * *

وبعد فني الصفحات التالية مجموعة من المحاضرات التي أقيمتها في سنة ١٩٧٢ على طـالاب قسم التاريخ بجامعة بيروت العربية ، حاولت أن أعالج من خلالها تاريخ الدولة العباسية في عصرها الأول ، لا على أساس سرد لسير الخلفاء أو ذكر لحروبهم ووقائعهم فحسب ، وإنما رأيت أن أتعرض أولا لدراسة التاريخ

السياسى لهذا العصر بوجه عام مع التركيز على السياسة الخارجية للدولة العباسية في الشرق والغرب ، ثم دراسة نظم العباسيين ورسومهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ، مع الاهتمام بالآثار الحضارية التي ترتبت على عملية المزج في الأمة العربية الاسلامية بالعناصر الأعجمية التي كان لها أعظم الأثر في إمداد الحضارة الاسلامية بدماء فنية جديدة ، ومادة حيوية ، تواصلت ثم تفاعلت مع الأصول الأولى ، وأعانت على تطوير النظم الحضارية في العالم الاسلامى في مراكزه المتعددة .

ولعلني وفقت في الصفحات التالية في أن أرسم صورة متكاملة لتاريخ العصر العباسى الأول سواء ما يتعلق بجانبه السياسى أو ما يتصل بجوانبه الحضارية والله الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية في ١٢ ربيع الثانى ١٣٩٨ هـ

وإلى صاحب شرطته وحرسه مرة ثانية وعرفت بالكيسانية^(١) ، وإلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية مرة ثالثة وعرفت بالهاشمية . ولما توفي محمد بن الحنفية الذي كان يزهد في الخلافة لنفسه ، وباع عبد الملك بن مروان على أثر اعماله من القضاء على حركة ابن الزبير ، والذي تبرأ من الآراء الخطيرة التي نادى بها كيسان وما تضمنته من أباطيل ذات لون شعوبي^(٢) ، ولما توفي ابن الحنفية اضطربت أفكار الشيعة وتعددت فرقهم : فرقة استمرت على ولائها لابن الحنفية وقالت بغيته ورجعته ، وفرقة نادى بامامة ابنه أبي هاشم عبد الله ، بالإضافة الى فرقة الامامية التي سبق أن تحدثنا عنها . وفي هذه الآونة أقام على ابن عبد الله بن عباس وابنه محمد بالحميمة التي كان الوليد بن عبد الملك قد أقطعه إياها ، ونزل عنده بها أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية عندما انضحت له الذوايا السيئة التي يضمها سليمان بن عبد الملك نحوه ، وحدث أن توفي على زين العابدين بن الحسين في المدينة في أول سنة ٩١ هـ . وقد ترك من الأبناء ولدين في مطلع شبابهما هما محمد الباقر وزيد ، ولم يمض على ذلك خمس سنين حتى توفي أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في سنة ٩٩ هـ من سم سقيه عند عودته من الشام ، وضع عليه سليمان بن عبد الملك من سقاء

(١) الشهرستاني ، المال والنحل ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٩٦ .

(٢) ذهب الكيسانية الى القول بأن لكل ظاهر باطن ، ولكل شخص روح ، ولكل تدين تأويل ، وقد ساعد قولهم بالباطنية على تسرب كثير من العقائد ذير الاسلامية الى آرائهم ، فقد قالوا بتناسخ الارواح وبالرحمة أى رحمة الامام بعد موته ، ولهذا زعموا بعد وفاة محمد بن الحنفية بأنه ذهب الى مقره في السماء وأنه سيمود .

(راجع : المجتمع العربي ومناخضة الشعوبية ، ص ٢٦) .

له تخلصاً منه بعد ان لمس فيه العلم الواسع والذكاء المتقدم والنشاط الوافر . فلما أحس أبو هاشم بذنو أجله عاد إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو بالحقيقة ، « فعرفه حاله ، وأعلمه ان الخلافة صائرة الى ولده ، وأعلمه كيف يصنع ، ثم مات عنده » (١) . وكان أبو هاشم قد أبلغ شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم اليه أن الأمر صائر الى ولد محمد بن علي ، وأمرهم بقصده بعده . والظاهر أن أبا هاشم عندما أحس بالسم يسرى في جسده، وأدرك ذنو أجله، قد أمد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بأسماء دعاة الشيعة في الكوفة التي كانت المركز الرئيسي للدعوة الشيعية في العراق وخراسان ، أو أنه سلمه كتباً يعثرون بها إلى هؤلاء الدعاة تؤكداً لوصيته ، وكان معظم هؤلاء الدعاة الشيعة من أصول فارسية (٢) ، وعلى أساس هذه الوصية، ورث محمد بن علي العباسي حق الكيسانية في الإمامة، فلما كاد أبو هاشم يموت حتى قصده الشيعة وبايعوه ، ثم عادوا إلى مراكزهم ، وبدأوا في نشر الدعوة لمحمد بن علي العباسي عن طريق الدعاة . (٣)

ويرد بعض المؤرخين المحدثين على هذه الرواية التي تفسر كيفية تنازل أبي هاشم عن حقه في الخلافة إلى محمد بن علي العباسي ، ويستندون في ردهم على أن الدعوة العباسية شقت طريقها بعد ذلك باسم الدعوة لآل البيت أو للرضا من آل محمد (أي الذي يرتضونه من آل النبي) تمويهاً على الشيعة بوجه خاص مما يسقط رواية الوصية ، فلو ان الإمامة انتقلت حقاً من أبي هاشم الى

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١ .

(٢) إبراهيم أحمد المدوي ، المجتمع العربي وماهضة الشموعية ، القاهرة ١٩٦١

محمد بن علي لكان قد صرح بذلك، ولكن الدعوة وجهت لآل العباس في ذلك الحين. ويستندون كذلك في ردهم على أن العباسيين بعد أن استأثروا بالخلافة العباسية، عمدوا إلى تدعيم موقفهم أمام دعاوى الشيعة، فاستندوا إلى أن حق الوراثة في التشريع الإسلامي يتيح لهم وراثة النبي، لأن التشريع يقدم العم في الميراث على ابن البنت، وإن العباسيين باعتبارهم من نسل العباس - وكان ما يزال حياً بعد وفاة النبي حتى خلافة عثمان - أولى بالخلافة من نسل فاطمة بنت رسول الله (١).

ومن المرجح أن العباسيين انغمسوا إلى الشيعة الكيسانية، وتسموا بالهاشمية (٢) ستاراً لمطامعهم، وتغريباً على الفرق الشيعية الأخرى بأنهم يدعون لآل البيت أو للرضا من آل محمد.

(١) أورد ابن الأثير في كتاب وجهه أبو جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية رداً على كتابه، وقد جاء في جلة ما جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم». أما بعد، فقد باغنى كلامك وقرأت كتابك، فإذا جل فخر بك بقرابة النساء لتضل به الجفافة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالمعمومة والآباء، ولا كالمصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كانت اختيار الله لهم على قدر قرابتهم، كانت آمنة أقربهم رحماً، وأعظمهم حقاً... وأما قولك أنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى يقول في كتابه: (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) وليكنكم بنو بنته، وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث، ولا تترك الولاية ولا يجوز لها الإمامة، كيف تورث بها؟ ولقد طلبها أبوك بكل وجه، فأخرج فاطمة نهاراً، ورضعها سراً، ودفعها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أباً الأم والخال والخالة لا يورثون»

راجع ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٨٨ وما يليها.

(٢) أما نسبة إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وشيعته المعروفين بالكيسانية أو نسبة إلى هاشم بن عبد مناف

كان محمد بن علي العباسي شخصية مستنيرة تميزت بالذكاء الحاد، والنشاط، والآنزان، ورجاحة العقل، وحسن البصيرة، وقد أهلكته هذه الصفات ليقدر أبعاد الموقف تقديراً واقعياً، فأدرك بثاقب نظره أن الدعوة يجب أن تتخذ منطلقاً بعيداً عن مركز الخلافة الأموية، وأن تتوفر لها العناصر المؤيدة لآل البيت والمناهضة للدولة الأموية، كما أدرك أهمية التزام السرية التامة لأهدافها البعيدة مع اتخاذ هدف قريب تستر وراءه وهو «الرضا من آل محمد»، ويقصد به أي شخص من آل البيت الذوي يتفق عليه في الوقت المناسب، ذرءاً وتقيية لما قد يعصيب الدعوة من أخطار إذا ما اكتشفت السلطات الأموية سرها، وفي نفس الوقت كسبا لأنصار جدد من شيعة فارس الذين كانوا يعملون - سواء عن إيمان عقائدي راسخ أو بدافع من الشعور النقوي - للعلويين (١)، وزيادة في تعمية الأمر على الأمويين والعلويين، وتجنبا لآثار الشبهات في نوايا الحقيقة . واختار محمد - بتوجيه من أبيه علي - الكوفة وخراسان مراكز لدعوته . أما الكوفة فلأنها قاعدة الشيعة ومهد التشيع لآل البيت منذ أن اتخذها الإمام علي مكرراً له، وأما خراسان، فلبعدها عن دمشق دار الخلافة الأموية من جهة، ولأنه أدرك أن الخراسانيين أسهل قياداً لتأييد الدعوة العباسية من العراقيين، وبلادهم أكثر أقاليم الإسلام استعداداً لنصرة الدعوة وتأييدها بسبب عداوة أهلها الفرس للأمويين العرب

(١) لأت الحسين بن علي كان قد تزوج من شهربانو بنت كسري يزرجرد الثالث آخر أسرة الدولة الساسانية البائدة، ولهذا السبب أبدوا أئمة الشيعة لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي، وإن كانوا قد وجدوا في هذا التأيد سبيلاً إلى التسلسل ضد «عرب وانتزاع السلطان» منهم (المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص ٢٥).

من جهة ثانيه (١) ونضيف إلى ماسبق أنه أراد أن يصرف نظر الأمويين وأنصارهم عن المركز الرئيسى لنشاطه التنظيمى وهو الحميمية حيث قام هو فى حياة أبيه ثم بعد وفاته فى سنة ١١٨ هـ على تنظيم الدعوة ، ولضمان السرية التامة للدعوة فى خراسان والكوفة رأى أن يكون الطريق الذى يسلكه الدعاة فى تردهم ما بين خراسان والحميمة من الطرق الرئيسة التى يكثر استخدامها حتى لا ينكشف سر الدعوة ، ولهذا اختر طريق الكوفة - خراسان التجارى ، وأوحى إلى الدعاة والقباء بالتمكر فى زى التجار ، ولم يسمح لأحد منهم أن يتصل بالحميمة إلا عن طريق داعى الدعاة بالكوفة (٢) . وتوضح أهمية خراسان بالنسبة للدعوة العباسية فى قول محمد بن على العباسى لدعاته عندما أراد أن يوجههم إلى الأمصار : « أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده ، وأما البصرة وسوادها فعتائية تدين بالكف وتقول كنى عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة (٣) ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان (٤) وطاعة بنى مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولعن

(١) كان العباسيون يحذرون حساب رد الفعل الشيعى أو العربى عامة بعد اكتشاف سر دھوتهم فيها بعد ، ويعدون لذلك العدة . ولهذا ركزوا همهم على أن يكون معظم أنصار دھوتهم من الفرس والخراسانيين بوجه خاص ، وطالبوا دعاتهم فيها بعد بقتل كنى من يكلم بالاسان العربى فى خراسان .

(٢) محمد بن على ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٠ وما يليها .

(٣) فى نص المقدسى البشارى : « حرورية صادقة وأعراب كأهل الجرح ومسلمون فى أخلاق النصارى » المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٩٣ .

(٤) فى نص المقدسى : فلا يعرفون غير معاوية وجاعة بنى أمية .

عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل (١) ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب (٢) ، وأصوات هائلة ، ولغات فضمة تخرج من أجواف منكرة (٣) . وبعد ، فاني أتفاهل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » (٤) .

والظاهر أن علي العباسي كان الرأس المدبر للدعوة في الفترة من ٩٩ هـ إلى ١١٨ هـ التي توفي فيها (٥) ، ولا شك أن محمدا بن علي ، يوم وزع دعواته على العراق وخراسان ، لم يظهر لهم أهدافه الحقيقية في الاستئثار بالأمر لنفسه ولبنيه دون العلويين ، وإنما أظهر أمامهم سعيه لقلب نظام الحكم الأموي وإعادة الحق إلى أصحابه الشرعيين حتى يجتذب اليه الأنصار والمؤيدين (٦) بدليل أن أبا سلمة الخلال الذي تلقب بقلب وزير آل محمد ، حاول - بعد أن كشف دور السرية في الحركة قبيل إعلان الخلافة العباسية - أن يقيم خلافة علوية ، ورشح لذلك ثلاثة من أئمة الشيعة هم جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين ، ولكنه فشل في ذلك (٧) .

-
- (١) في نص المقدسي : لم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد .
 - (٢) يقصد بذلك أنهم رجال يعتمد عليهم .
 - (٣) يعني بذلك أنهم أكثر الشعوب الإسلامية سخطا وتدمرا على الأمويين وأكثرهم جرأة على مناهضتهم .
 - (٤) ابن النقيع الحمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، لندن ١٨٨٥ ، ص ٢١٥ .
 - (٥) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٩٦ .
 - (٦) فهاوازن ، الدولة العربية ، ترجمة الدكتور العشي ص ٤٠٨ .
 - (٧) الجبشيارى ، ص ٨١ ، ما يليها - ابن تقيية ، الامامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٩ ج ٢ ص ٣٣١ .

وبذلك نرى ابن الأثير أن محمد بن علي أخذ يوجه منذ سنة ١٠٠ هـ الدعاة في الآفاق ، فوجه ميسرة العبدى إلى العراق ، كما وجه محمد بن خنيس ، وأبا عكرمة السراج (وهو أبو محمد الصادق) ، وحيان العطار ، خال إبراهيم ابن سلمة ، إلى خراسان ، « وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا . ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي ، فدفعوها إلى ميسرة ، فبعث بها ميسرة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلاً نقيباً (١) » .

وبمقتضى هذا التنظيم السرى توزع عدد من الدعاة في العراق وعدد آخر في خراسان ، فكان للعراق ثلاثة دعاة على التوالي هم : ميسرة العبدى (١٠٢-١٠٥ هـ) ، ثم بكير بن ماهان (١٠٥-١٢٧ هـ) ، ثم أبو سلمة الخلال (١٢٧-١٣٢ هـ) ، كانوا يتنكرون في ثياب التجار أو الحرفيين أو المؤدبين ثم يندسون بين الناس دون أن يعرفهم أحد . أما دعاة خراسان فكانوا سبعة ، أولهم أبو عكرمة السراج . وبلى طبقة الدعاة في المرتبة طائفة النقباء الذين يأتهمون بأمرهم ويجهلون لإمام الوقت ، وكان لكل داعية ١٢ نقيباً ، ولكل نقيب سبعون حاملاً يدبرون الوحدات المتفرعة ، ويشرفون على الخلايا السرية المنبثة في مختلف الأقاليم . وكان الدعاة والنقباء يتميزون باخلاصهم الشديد للدعوة ، وتفانيهم في نشرها ، كما كانوا يتصفون بعبء النظر والقدرة على فهم نفسيات الناس وتمييز عناصرهم ، تمهيداً لاجتذابهم إلى دعوتهم ، وبالبراعة في التخفى والتنكر ، مع حفظ كبير من الثقافة والعلوم الدينية واللغوية .

ويعتبر بكير بن ماهان داعي دعاة العباسيين في العراق من الشخصيات البارزة في تاريخ الدعوة العباسية ، إذ يعود اليه الفضل الأعظم في تنظيم الدعوة السرية في العراق زهاء ٢٢ سنة . وكان موسراً ، فلم يضمن بأمواله في النفقة عليها (١) . وخلفه أبو سلمة الخلال ، واسمـه حفص بن سليمان الفارسي ، وكان سمحاً ، كريماً ، فصيحاً ، عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير (٢) ، ويرجع إلى أبي سلمة الفضل في قيادة الدعوة العباسية في العراق في السنوات الخمس الأخيرة التي سبقت قيام الدولة العباسية .

أما خراسان ، فقد تعرضت الدعوة فيها زمن ولاية أسد بن عبدالله القسري لمحن شديدة ، فعلى الرغم من السرية المحكمة وشئ رجل من كندة إليه يجمع من دعاة العباسيين في سنة ١٠٧ هـ ، فاستقدمهم وفيهم أبو عكرمة السراج ومحمد بن خنيس ومامة أصحابه ، ونجما عمار العبادي ، فقطع أسد أيدي من ظفر به منهم وصلبهم ، وأقبل عمار العبادي إلى بكير بن ماهان فأبلغه الخبر ، فكتب إلى عهد بن علي بذلك (٣) وقدم إلى خراسان في سنة ٩ هـ أيضاً في ولاية أسد داعية بث به عهد بن علي العباسي يقال له زياد أبو عهد ، أقام بمرو ، ودعا لبني العباس ، فأخبر به أسد ، فتخوف من جانبه ، فاستقدمه إليه وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة (٤) وفي سنة ١١٧ هـ ظفر أسد في بداية ولايته الثانية على خراسان بجماعة من دعاة بني العباس ، فقتل بعضهم ومثل

-
- (١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٢٥ - الشيخ الحفري ، محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ١٩٠٩ ص ١٦
 (٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٦ .
 (٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٣٦ .
 (٤) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .



بعضهم وسجن البعض ، وكان فيمن وقع يده « سليمان بن عثيرة ، ومالك
ابن الهيثم ، وموسي بن كعب ، ولاهر بن قريظ ، وخالد بن ابراهيم ،
وطلحة بن زريق . فأتى بهم ، فقال لهم : يا فسقة... ألم يقل الله تعالى :
(عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه) فقال له سليمان : نحن والله
كما قال الشاعر

لو بغير الماء حللى شرق . . . كنت كالفصان بالماء اجتصارى

صيدت والله المقارب يديك ! إنا ناس من قومك ، وإن المضربة رفعوا
إليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم ، فطلبوا بثأرهم . فبعث بهم
إلى الحبس (١) . وفي العام التالي رجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى
خراسان داعيا لبني العباس ، فنزل مرو ، وتسمى بخدش ، ودعا إلى آل
البيت ، فسارع إليه الناس وأطاعوه ، ثم غير ما دعاهم إليه ، وأظهر دين الحرمية ،
ودعا إليه ، ورخص لبعضهم في نساء بعض ، وقال لهم انه لا صوم ولا صلاة
ولا حج مؤولا الصوم بمعنى الصوم عن ذكر الامام ، والصلاة أى بالدعاء له ،
والحج بمعنى القصد اليه . فبلغ خبره أسد بن عبد الله فظفر به ، فأغلظ القول
لأسد ، ففقطع لسانه ، وسمل عينيه ، ثم أمر بقتله ، فقتل ثم صلب بأمل (٢) .
ومنذ ذلك الحين انقطع محمد بن علي العباسي عن مكاتبة دعائه بخراسان .
إلا أن الدعوة في خراسان لم تعزز تقديما ملحوظا إلا منذ وفاة

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٩٧ .

أسد بن عبد الله في سنة ١٢٠ هـ .

وكانت مهمة الدعاة والنقباء في خراسان تقسوم على ترديد بعض الشعارات التي ينادي بها العباسيون، كتحقيق مبدأ المساواة الذي كانت تستر وراءه نزعات متباينة ، والذي أيدته جماعة كبيرة من الشعوبيين العجيم لأنه يحقق لهم مكاسب تهدف إلى إحياء المجد الفارسي القديم وإدالة دولة الجبابرة (أي الدولة العريضة) كما أيدته آخرون من العرب (١) على أساس تسوية الموالي بالعرب استناداً إلى مبدأ الفقهاء في الإصلاح، ومحاربه الظلم والفساد . كذلك طالب الدعاة بالدعوة إلى الإصلاح ، وبقصده به الدعوة إلى الكتاب والسنة . وقد أدت هذه الشعارات إلى ازدياد عدد المؤيدين للدعوة في خراسان للرضا من آل محمد ، وانتشارها في بلاد فارس وخراسان وخوارزم وبلاد ما وراء النهر .

ثم توفي محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) بعد أن أوصى بالامامة من بعده لابنه ابراهيم . وفي عهد ابراهيم يبدأ دور

(١) على الرغم من أن الثورة العباسية اتخذت لها واحات متعددة ورفعت لنفسها شعارات مختلفة حاولت فيها على حد قول الدكتور فاروق عمر كسب كل المتذمرين ضد الحكم الأموي، إلا أنها اعتمدت بوجه خاص في رأي الدكتور فاروق على القائل العربية بخراسان التي كانت تكون القوة القمالة في الجيش الخراساني الذي تقى على نصرته سيار .

(فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٢٧٧ وما يليها)

ومم أن الدكتور قدورة ترى أن المنعصر العربي في خراسان كان شيئاً لا زاهية قدورة ، الشموية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، بيروت ١٩٧٢ ص ٦٨) إلا أنها تؤكد أن الدعوة العباسية كانت في صميمها عربية ومؤسستها عربية عريق النسب في العرب ، وهذا نقل الخلافة من فرع عربي إلى فرع عربي آخر . (نفس المرجع ص ٧٦)

جديد من تاريخ الدعوة العباسية هو دور العمل والنفصال الحربي ، الذي تألفت فيه شخصيتان بارزتان كان لهما أعظم الأثر في نجاح الدعوة هما : حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال الذي تولى رئاسة الدعوة بعد وفاة بكير بن ماهان ، وشخصية أبي مسلم الخراساني الشاب المغامر الذي يرجح اليه الفضل في قيادة الثورة العباسية الى النصر في الثورة من ١٢٩ هـ الى ١٣٢ هـ .

(٢)

عوامل نجاح الدعوة العباسية

تهيأت لدعاة العباسيين فرص النجاح في بث دعوتهم ونشرها في الآفاق قبل أن تصطدم حرياً بقوة الأمويين ، بسبب التنظيم العقائدي المحكم للدعوة على النحو الذي شرحناه ، وبسبب عوامل أخرى مختلفة أدت إلى تصدع دعائم الدولة الأموية في الداخل والخارج ، مما سهل على العناصر الثورية مهمة قلب نظام الحكم الأموي . ومن عوامل التصدع في كيان الدولة الأموية ما يلي :

أولاً - انتشار الاسلام بين الفرس :

كان لانتشار الاسلام في بلاد الفرس بالسرعة الهائلة التي تم بها ، واشتراك الفرس المسلمين في الحركات الثورية التي قامت في العصر الأموي كالأزهرية والمختارية وحركة التوابين ، كما كان لتجالفهم مع الشيعة خاصة ، في أعقاب ~~سكربلاء~~ ، كان لكل ذلك أعظم الأثر في نجاح الثورة العباسية وانتصارها في النهاية . ومن المعروف أن الاسلام انتشر انتشاراً هائلاً في فارس في عصر عبد الملك ، بدليل السياسة الاقتصادية التي أخذ الحجاج الثقفي يطبقها في فارس وخراسان ، فقد اقترن انتشار الاسلام هناك بتناقص واضح في الموارد المالية للدولة الأموية ، الأمر الذي دفع الحجاج إلى فرض الجزية على من أسلم من الموالي ، وترك ضريبة الخراج على مثل ما كانت عليه ، كما اضطرت

الدولة الأموية الى إعادة المهاجرين من مسلمي فارس الى قراهم (١)، ومقاومة تيار الهجرة الى الحواضر بقصد العكس من وراء الاشتغال بالحرف والصناعات التي يأنف العرب الاشتغال بها . وأدى ذلك الى استياء المسلمين للفرس ، والقراء العرب ، فقامت حركات ثورية كالثورة المنسوبة الى عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث ، وكانت ثورة فارسية لأن معظم من شارك فيها كانوا فرساً أو ممن حرص من العرب على تطبيق مبادئ الاسلام ، والمطالبة بتطبيق مبدأ المساواة على الفرس المسلمين ومساواتهم بالعرب .

وانتهت مرحلة مقاومة الأمويين للحركة الاسلامية في فارس بوقفة الحجاج ، وتبعها مرحلة التراجع عن هذه السياسة زمن سليمان بن عبد الملك رغبة في استرضاء طبقات المسلمين ، واستمرت هذه السياسة سارية المفعول في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان من أهدافها التوفيق بين التيار الاسلامي وبين المضالحي الأموية (٢) ، بل إن الحركة الاسلامية لم تلبث أن اتخذت صورة جديدة قوامها التحالف مع الدعوة الهاشمية ، وعادت الهجرة الفارسية من الريف إلى المدن تحقق للمهاجرين أرباحاً ضخمة ، وأدى اشتداد حركة الهجرة وتدافعها إلى المدن في النصف الثاني من العصر الأموي إلى تكوين طبقات كبيرة من العاطلين الساخطين في مدن خراسان وفارس ، وكانوا وقوداً هشا للثورة العباسية .

(١) «تب عمل الحجاج اليه : » ان الخراج قد اسكس وان أهل الدمنة قد أساءوا ولحقوا بالامصار . فكتب الى البصرة وغيرها ان من كان له اصل في قرية فليخرج اليها . فخرج الناس فمكسروا ، فجعلوا يكون وينادون يا محمداه ! يا محمداه ، وذهبوا لا يدرون أين يذهبون » الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٨ ص ٢٥

(٢) حسن محمود ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٨

ثانياً — موجات الاستياء العامة ضد الحكم الأموي :

هناك أسباب عديدة لمساويء الحكم الأموي ، منها خروج معاوية على القاعدته التي سنها الخلفاء الراشدون ، واستحداث نظام الوراثة في الحكم ، ومنها ميل الأمويين إلى الملوكية ومظاهر الابهة واللهو ، ومبالغة بعضهم في ذلك إلى جد الانحراف إلى اللهو والخلاعة ، والانحراف عن القيم الاخلاقية والمثل الدينية وقد أثار ذلك مشاعر الجماهير الاسلامية وأطاح بهيبة الخلفاء ، وجهرأ المعارضين للدولة على السعي لتقويضها ، فيزيد بن معاوية كان « موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء » ، وكان معروفاً بقبح سيرته ومجاهرته بالمعاصي واشتهاره بالقبائح (١) ، وفي أيامه استشهد الحسين بن علي ، وضربت السكينة بالمجانين واستبيحت المدينة. ويزيد بن عبد الملك كان خليع بنى أمية (٢) وكذلك عرف الوايد بن يزيد بن عبد الملك بخليع بنى مروان (٣) . وكان الوليد صاحب شراب وهو وسماح غناه ، وفيه يقول المسعودي : « هو أول من حمل الملقبين من البلدان إليه » ، وجالس الماهين ، وأظهر الشرب والملاهي والعزف .. وكان متهكاً ماجناً خليعاً (٤) ، وبذكر ابن الاثير أنه كان يوقع بالعود ، ويضرب بالطبل والدف ، وكان الغناء أحب إليه من كل لذة

(١) ابن طياتبا ، ١٣ .

(٢) نفسه ص ٩١٧ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢١٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢١٣ . وذكر السيوطي أنه كان فاسقاً شريباً للخمر متهكاً حرامات الله ، أراد الحج ليشرب فوق ظهر السكينة ، ففقت الناس لنفسه وخرجوا عليه ، فقتل في جادى الآخرة سنة ١٢٦ (السيوطي ، ص ٢٢٣) .

وأشهى الى نفسه من الماء الى ذى الغلة (١) . وذكروا أنه كان يسعى التصرف
عند سكره ، فقد قرأ يوما : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه
جهنم ويسقى من ماء صديد) ، فدعا بالمصحف ، فنصبه هدفا للشباب ، وأقبل
يرميه وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فما أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب خرقني الوليد

ومن أسباب استياء المسلمين من الحكم الأموي انحراف الولاة عن تهرى
العدل مع الموالي ، واستبدادهم بهم ، وحيادهم عن مبادئ الاسلام الخفيف في
التكافل الاجتماعي والعدالة والمساواة بين العرب والفرس ، فقد عز على أمة
الفرس المغلوبة أن يقهرهم العرب ، ويخمدوا أن تناس قوميتهم بسياسة الانصهار
والتعريب التي جرى عليها الروانيون منذ خلافة عبد الملك ، ولم يفس الفرس ،
رغم اعتناق معظمهم الاسلام ، ماضيهم الحافل بالأمجاد ، واعتبروا سيطرة العرب
عليهم نوعا من السيادة العنصرية التي يجب التخلص منها . وعندئذ بدأت طلائع
الشعوبيين تتسلل في كيان الدولة العربية تحت ستار التعاليم الاسلامية ، بدعوى
المطالبة بالمساواة ، مستندين الى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم
من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله
أتقاكم) . وقد اتخذ الفرس الميسادى الاسلامية سلاحا شهروه على الأمويين
لقلب حكومتهم انتصارا للحق على الاستبداد والعنف ، وانضمت الاحزاب
المعارضة للحكومة الأموية الى جانب الثوار كالحوارج والمرجئة والشيعة ، ووجد

الفرس في التشيع سيفاً مسلطاً على العرب ، فارتفعوا في أحضانه لا لأن التشيع يوافق عقلية الفرس وبلائها من حيث التشابه في نظام الحكم الالهي المتوارث ، ولا لأن هنالك ثمة قرابة بينهم وبين الشيعة نتيجة لمصاهرة الامام الحسين بن علي لهم ، وانما بدافع التحرر من السيطرة العربية .

وطامل ثالث نضيفه الى ما سبق تعليلاً لازدياد الشعور بالنقمة على الأمويين هو أن الأمويين أقاموا دولتهم على الخديعة والفساد والقهر والسفك ، وأنهم اضطهدوا العلويين بعد أن اغتصبوا منهم حقهم الشرعي في الخلافة ، وتبعوهم بالقتل ، فقتلوا مسلم بن عقيل عندما توجه الى الكوفة ممهداً لخروج الحسين ، وقتلوا الحسين بن علي وأصحابه وذويه في كربلاء التي كانت عاملاً رئيسياً في توحيد صفوف الشيعة واستثارة مشاعرهم للانتقام من قتل الحسين ، فظهر منهم التوايون والمختارية والامامية ، وأصبح التشيع منذ ذلك الحين عقيدة راسخة في النفوس ، وازداد سخط المسلمين على الأمويين ونقمتهم عليهم باستشهاد زيد بن علي زين العابدين بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك ، وصلبه عرباناً مدة خمسين شهراً ، وحرق جسده الطاهر في أيام الوليد بن يزيد ، وباستشهاد ولده يحيى بن زيد في الجوزجان من بلاد خراسان ، وفصل رأسه وصلب جسده في أيام الوليد بن يزيد نفسه .

وطامل رابع استشار مشاعر المفلولين من البربر في غرب العالم الاسلامي على الحكم الاموي ، ونفى به تشبه ولاية الامويين في المغرب بالحجاج ، أمثال يزيد بن مسلم كاتب الحجاج (١) وكان ظلوماً غشوماً ، ومثل عبيدة بن

(١) كان كاتباً للحجاج وصاحب شرطته ، وممن أن تولى المربقية سنة ١٠٢ هـ حتى شرع في تطبيق سياسة الحجاج مع أهل العراق على البربر ، وفي ذلك يذكر الطبري ١٠٦ هـ ص ٢٠٠

عبد الرحمن السلمي (١) ، ومثل عبيد الله بن الحجاج (٢) وقد بالغ هؤلاء
الولاة في الاستبداد بالبربر ، والاستخفاف بهم ، والتشدد عليهم في الجزيات ، بل
لأنهم لم يتورعوا عن الهجوم على نساءهم ، وسبيهم ، وقتل قطعان أغنامهم ، مما دفع هؤلاء
البربر إلى الانتفاض والثورة (٣) . وكان الخلفاء الأمويون يصحبون طرائف
المغرب ونسائه ، ويبعثون إلى عمال المغرب بطلبهن ، فكان العمال يحرصون على
اتحاق الخلفاء بالنساء المسييات ، وهو أمر أنكره البربر عليهم (٤) ، وهكذا
كانت نفوس أهل المغرب تغلي لهذه المظالم ، فطالبوا الخلفاء بانصافهم ، فلما
أعرضوا عن إجابة مطالبهم ، انتفض البربر على العرب ، واضطرم المغرب
على اثر ذلك نارا (٥) .

ثالثا : المنازعات الداخلية :

ترجع أسباب المنازعات الداخلية في الدولة الأموية التي سببت تفتتا خطيرا
في الجبهة الداخلية ، وهيأت المجال للدعوة العباسية أن تنتشر ، دون أن يعدارك

= على أن يسير في البربر « بسيرة الحجاج في أهل الإسلام الذين سكنوا الامصار من
كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، فانه ردهم إلى قراهم ، ووضع
الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم ومكاف « (الطبري ، ج ٥ ص ١٠٢ -
ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٨٢) .

(١) كان شديدا في معاملة البربر ، فأسرف في غزو قبائلهم وسبى نساءهم ، وبالغ في
التعسف معهم . (راجع المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٩٧) .

(٢) أساء معاملة السيرة مع البربر واعتبروهم فيثا للمسلمين وهبيدا لهم ، وتعدوا على
الصدقات (ص ٥٣) .

(٣) ابن هذاري ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن هذاري ، ص ٥٣ .

(٥) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٦ .

الامويون أمرها ، إلى نظام توليه العهد لأكثر من واحد ، والصراع بين العصبية العربية .

أما ما يتعلق بالسبب الأول ، فمن المعروف أن المروانيين اتبعوا سياسة التكتك بولاية العهد ابتداء من مروان بن الحكم حتى نهاية عصر الدولة الأموية ، فلقد بايع مروان ولين لعهد هما خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد ابن العاص (١) ، ولكنه نكت بهذه البيعة عندما عزم على تولية العهد من بعده لابنه عبد الملك ، فاستقدم حسان بن محدل وأرغبه وأرهبه حتى بايع ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وتم تحويل ولاية العهد إليها ، وترتب على ذلك أن غضب خالد بن يزيد لخلعه من ولاية العهد ، وحدث أمه في ذلك ، وكان مروان قد تزوجها ، فعمدت إلى قتله (٢) . فلما تولى عبد الملك الخلافة أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويباع لابنه الوليد بن عبد الملك ، فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب ، متولى الخاتم والسكة ، ولكن وفاة عبد العزيز في جمادى الأولى سنة ٨٥ هـ (٣) وضعت حدا لما كان قد عزم عليه ، وكتب عبد الملك بالبيعة لابنه الوليد وسليمان . ولما ظفر الوليد بالخلافة أراد أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويباع لولده عبد العزيز ، فأبى سليمان ، فكتب الوليد إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك ، فلم يجبه سوى الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخوادم من الناس ، فكتب الوليد إلى سليمان بأمره بالقدوم عليه فأبطأ ، فعزم الوليد على السير إليه لخلعه ، وأعد العدة للخروج ، فمات قبل أن

(١) البقوي ، تاريخ البقوي ، ج ٢ ص ٢٥٦ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٨

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٦٦٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٠

يسير إليه في سنة ٩٦، وتولى سليمان الخلافة، فصب جام انتقامه على أهل الحجاج وصنائعهم، كما أمر بقتل قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان وقتل أهله . ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، بايع بولاية العهد لأخيه هشام وبعده لابته الوليد بن يزيد، لصغر سن الوليد، فلما هاشم يزيد حتى بلغ ابنه الوليد، كان إذا رآه يقول : « الله يني وبين من جعل هشاماً يني وبينك (١) » (يقصد مسئلة بن عبد الملك) .

وقد كان من نتائج هذه السياسة إغيار القلوب، وتفتت الروابط الأسرية بين أفراد البيت الأموي، وإثارة الفتن والفتائل والمنازعات بعد وفاة كل خليفة، وقد عجل ذلك بتعديع الكيان الأموي .

وأما السبب الثاني، وأعنى به الصراع بين العصبية العربية، فكان أخطر وأكثر وبالا من السبب الأول، فلقد مهدت السياسة الحزبية للدولة الأموية وظهور الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج وزيرية السبيل لانبعاث العصبية القبلية القديمة، على الرغم من أن الاسلام أضعف من هذه العصبية، وحد من المنازعات القديمة بين اليمنية والقيسية . وبينما نجح معاوية بسياسة المعتدلة في تجميع هذه العصبية، وارتفع فوق مستواها، أخفق المروانيون في هذه السياسة، بل هم الذين أذكوا نيرانها وزادوا وقودها، فلقد تعصب مروان بن الحكم لليمنية ضد المضرية، واعتمد على اليمنية بزعامة حسان بن مالك في صراعه مع الضحالك بن قيس الفهري، فاجتمعت له حشود من كلب وغسان والسكاسك والسكون، بينما اعتمد الضحالك على جموع هائلة من

القيسية والمضربة والتزارية ، واشعبك الفريقان في مرج راهط في ذى القعدة سنة ٦٤ هـ في قتال عنيف انتهى بهزيمة العدنانية . وكان لهذه الموقعة آثار خطيرة في انبعاث العداء التقليدى القديم بين العصبيتين اليمنية والقيسية ، وإشعال نار الفتن في سائر أنحاء العالم الاسلامى ، فقامت الحرب بين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدولة العربية : في الشام والعراق وفارس والمغرب والأندلس ، وأدى الصراع بين هذه العصبيات وتطاحنهما إلى تداعى الصف العربى . ومما زاد في احتدام نارهما ، إخفاق الخلفاء الرواليين في النصف الثانى من العصر الأموى في حفظ التوازن بين العصبيتين ، ذلك لأن الخلفاء أصبحوا يؤيدون عصبية منها على أخرى ، فيثيرون بذلك النزاع بين العصبية الأخرى والعصبية التى اعتمدوا عليها : فالوليد بن عبد الملك اعتمد على المضربة ، بينما انحاز أخوه سليمان إلى اليمنية ، وحاول عمر بن عبد العزيز أن يمسك العصا من الوسط ولكن هذه السياسة الحكيمة قضى عليها بعد وفاته ، فقد اعتمد يزيد بن عبد الملك على المضربة ، في حين اعتمد هشام بأدى . ذى بدو على اليمنية (١) ، ثم تحول من ذلك فانحاز إلى المضربة ، منذ سنة ١١١ هـ عندما استعمل على خراسان الجنيد

(١) عندما تولى الخلافة تمصّب لليمنية . ويورد ابن الاثير رواية تعبر عن ذلك ، فقد ذكر أن عمر بن يزيد بن عبد الاسيدي دخل على هشام ولديه خالد بن عبد الله القسرى ، وكان قد ولاء على العراق ، فسمعه يذكر طاعة أهل اليمن ، فهاج عمر بن يزيد على ذلك بقوله : « والله ما رأيت هكذا خطأ وخطلا ، والله ما فتحت فتنة في الاسلام الا بأهل اليمن ، هم قتالوا هتاه ، وهم ضاعوا عبد الملك ، وان سيوفنا لتقطع من دماء أهل المهاب » فسمعه رجل من آل مروان فقال له « يا أبا بنى تميم ورت بك زنادى ، وقد سمعت مقاتلك وأمير المؤمنين قد ولي خالد العراق وليست لك بدار » (ابن الاثير ، ص ١٢٤) .

ابن عبد الرحمن، الذي لم يتخذ من العمال الا من كان مضريا (١) فأغضب ذلك اليمنية. وفي عهد الوليد الثاني تحيز الخليفة المضربة ، فوثب عليه اليمنية وقتلوه (٢). ولما تولى يزيد بن الوليد الخلافة أيد اليمنية ، واعتمد عليهم لأنهم ساعدوه في التوصل الى الخلافة، وأخذ اليمنية يتأرون من المضربة ، فثار هؤلاء في حمص وفلسطين والأردن ، واضطرب أمر بني أمية ، وهاجت الفتنة ، ولكن الخليفة تمكن في نهاية الأمر من التغلب على الثوار . ولما تولى مروان بن محمد الخلافة سنة ١٢٧، تعصب للمضربة على اليمنية ، فثار اليمنية بحمص ، فدخلها مروان عنوة في ١٢٨ ، وقتل جماعة من الثوار ، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة، ودمر جانباً من سورها (٣). كذلك ثار أهل فلسطين فترة، ولكنهم لم يلبثوا أن أذعنوا له بالطاعة .

وقد أتاحت هذه الاضطرابات الفرصة لظهور الدعوة العباسية ، وتثبيت أركانها ، إذ شغل مروان بن محمد عنها باخماد الفتنة ، ولم يفتن الى حقيقة الأوضاع في خراسان على الرغم من التقارير التي كانت تصل اليه من نصر بن سيار عن سوء الأحوال بها . كذلك انعكس صدى هذه الأحداث في غرب العالم الاسلامي وشرقه . ففي الأندلس انحاز اليها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الى اليمنية بحكم كونه كلييا ، ونازع زعيم القيسية هناك وهو الصميل ابن حاتم بن ذى الجوشن ، مما أدى الى قيام حرب طاحنة بين العصبيتين اليمنية

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨١ .

(٣) نفسه ، ص ٣٢٩ .

والمضربة جنوبى قرطبة ، وانتهى الأمر بهزيمة اليمانية (١) . واستمر الصراع قائما فى الأندلس بين العصيتين حتى قيام دولة عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس .

وفى المشرق قامت المنازعات القبلية فى خراسان بين القبائل اليمانية والمضربة التى كانت قد استقرت فى خراسان منذ أمد بعيد ونقلت معها نزاعاتها القبلية (٢) . ومن المعروف أن هذه العناصر العربية التى استقرت بخراسان منذ فترة الامصار انما قدمت من البصرة والكوفة حيث يسود التنافس القبلى والفتن وتقلب الاهواء . بدأ النزاع بين القبائل العربية فى خراسان منذ أن قام الحارث ابن سريج بثورته ضد الحكم الاموى هناك ، وساندته فيها بعض القبائل العربية ، وتبع ذلك اشتعال نار الفتن ، وأصبحت خراسان على هذا النحو مسرحا للصراع بين اليمانية والمضربة ، ونجح دعاة العباسيين فى استثارة هذا الصراع لصالح دعوتهم (٣) ، كما نجح أبو مسلم الخراسانى فى تفريق كلمة العرب فى خراسان ودفعهم إلى القتال ، ودخل مرو والفريقان يقتتلان ، فأمرهما بالكف وهو يتلوم من كتاب الله : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) وصفت مرو لأبى مسلم (٤) .

(١) راجع : أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، ص ٥٨ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٢ ، وأنظر التفاصيل فى كتابى : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٦٠ - ١٦٧ .

(٢) برنارد لويس ، ص ١١٠ . وفى الوقائع بين مضر واليمن فى خراسان راجع ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٢٧ ، ٢٠٢ وما يلىها .

(٣) راجع : ابراهيم العدوى ، المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، ص ٤٧ - ٦٧ ، حسن محمود ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٤٠ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٧٩ وما يلىها .

رابعاً - تقويض أسطورة العرب :

في أواخر عصر الدولة الأموية منى العرب بهزائم بشعة في الخارج شرقاً وغرباً أسقطت هيبة العرب أمام الشعوب الأعجمية ، وقوضت أسطورة القوة التي جهد الفاتحون في زمن الخلافة الراشدة والعصر الأموي الأول في ترسيخها .

ففي عهد هشام بن عبد الملك تمكن خاقان الترك من التغلغل إلى شرقى إيران منذ عام ١٠٨ هـ وحتى ١١٩ هـ عندما نجح العرب بعد جهود مضنية في التغلب عليه ، وسقط خاقان صريعا ، وتفرق الترك من بعده (١) .

كذلك تلقى العرب في عهد هشام هزيمة نكراء على أيدي البيزنطيين زمن الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٢) ، في موقعه أقرن (أفيون قره حصار حاليا) Akroion الواقعة بالقرب من عمورية ، وذلك في سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، وفي هذه الموقعة قتل القائد عبد الله أبو الحسين الانطاكي المعروف بالبطل في جماعة من المسلمين (٣) ، وقد ترتب على هذه الهزيمة أن جلا العرب عن القسم الغربى من آسيا الصغرى وتراجعوا إلى الشرق ، واقترن اسم الموقعة بأسطورة البطل التركي المعروف باسم السيد البطل الغازى الذى لا يزال قبره قائماً في قرية تقع جنوبى اسكى شهر الحالية (٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٠٥

(٢) Ch. Diehl & G. Marcais , Histoire du Moyen Age t. III (٢)
Le monde oriental Paris 1936, p.2٠٢ .

أسد رستم ، الروم والعرب ج ١ ص ٢١٣

(٣) الطبرى ، ج ٨ ص ٢٧٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٤) السيد الباز العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ .

— ٤٢ —

مكذلك كان للهزيمة الساحقة التي تلقاها المسلمون في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٩٤ م (٧٣٢ هـ) على أيدي الفرنجة ، ومصرع القائد العربي عبد الرحمن القافق وجموع هائلة من أجناده أعظم الأثر في تقويض أسطورة العرب ، وتصعد كيان الدولة الاموية . وقد وضعت هذه الكارثة حدا لتوسع المسلمين في غالة وأطاحت ببيتهم حتى في داخل شبه جزيرة أيبيريا ، فتجرات العناصر القوطية الأيبيرية على مناوئة سلطان المسلمين ، واستقطاع ممالك كانت المنطلق الاول لحركة الاسترداد الإسباني للاندلس .

(٢) راجع : شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٠٣ - حسين مؤنس ، هجر الاندلس ، ص ٢٧٥ - عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٤٦ .

(٣)

اقتصار الثورة العباسية وآثاره في التاريخ الاسلامي العام

ذكرنا فيما سبق أن الدعوة العباسية تحولت بعد عام ١٢٨ هـ من دور الستر إلى دور الجهر ، أو من دور النشاط السري إلى دور العمل والكفاح المسلح ، وذكرنا من أسباب هذا التحول انضمام شاب فارسي مغامر إلى الدعوة ، اسمه أبو مسلم الخراساني ، دفعه الطموح إلى الاتصال بكبير الدعاة ، ولم يلبث أن اختاره الإمام إبراهيم داعياً للدعاة في خراسان ، وارتضاه الخراسانيون زعيماً للثورة يحقق أحلامهم ، ويرضى آمالهم في إسقاط دولة الجبابة (الدولة العريسة) وإحياء دولة العجم ممثلة في الدولة العباسية المستقبلية .

وأبو مسلم عبد الرحمن الخراساني كان مولى فارسي الأصل ، اشتراه بكبير بن ماهان ، ولقنه أصول التشيع ، ثم اتصل أبو مسلم بمحمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ ، ثم بابنه إبراهيم من بعده ، فلمح فيه صفات العزم والذكاء الخارق ، ووجد فيه ضالته الملتبسة . وكانت الدعوة بخراسان في حاجة إلى مثل أبي مسلم في تلك الفترة بالذات التي اشتد فيها الصراع في خراسان بين العصبية العربية وما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف (١) ، فوجهه إلى خراسان سنة ١٢٨ هـ ، وكان عمره يومئذ ١٩ سنة ، وأوصاه بقوله : « أنظر هذا الحمى من اليمن طأ زمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم (٢) » ، فاتهم ربيعة في أمرهم ، وأما بنصر فانهم العدو القريب الدار (٣) ، واقفل من

(١) الشيخ محمد الحفري . محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ، ص ٢١

(٢) لأن اليمنية وقتئذ كانوا أهدأ للدولة الأموية .

(٣) كان المضربة زمن مروان بن محمد الدعاة التي تستند عليها الدولة الأموية

شككت فيه ، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ - يعنى سليمان ابن كثير - ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتشف به منى « (١) . ثم ارسل اليه الامام ابراهيم راية النصر ، وبذلك انتقلت الدعوة العباسية الى مرحلة العمل الايجابي .

وفي هذه الأثناء حاول نصر بن سيار والى خراسان أن يوحد بين صفوف العرب ضد الفرس ، ويقضى على منازعاتهم ، كما حاول استئالة اليمينية رغم كونه مضرباً ، ولكنه أخفق في محاولته ، فرفض اليمينية مصالحته ، واشترطزعيمهم جديع بن شبيب المعروف بالكرماني أن يترك منصبه ، فقامت الحرب بينه وبين الكرماني ، وانتهت بانقصار الأخير واستيلائه على مرو (٢) .

ثم نزل أبو مسلم على سليمان بن كثير الخزاعي في رمضان سنة ١٢٩ بقرية سفيدنج من قرى مرو ، وهناك بث دعائه في الناس ، فأظهر أمره ، فتوافد عليه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٢) من قوله يحذر العرب من عواقب الفرقة والانقسام أمام عدو ضار يترسبهم السوء : أبلغ ربيعة في مرو وأخوتها . . . أن ينفذوا قبل الا ينفع الغضب ما بالكم تلقحون الحرب بينكم . . . كأن أهل الحجى من فعا - كم غيب وتكون عدوا قد أظلمكم . . . ممن تأشب لائين ولا سب ليسوا الى عرب منا فعرهم . . . ولا صميم الموالى ان هم نسبوا فن يكن سائل عن أصل دينهم . . . فان دينهم أن تقتل العرب (الدينوري ، الاخبار الطوال ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم طامر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٦١ - ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٦٨) .

في ليلة واحدة سكان سبعين قرية. وفي ٢٥ من رمضان من نفس السنة عقد اللواء الذي بعث به الامام اليه على رمح وعقد الراية وهو يقول : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) ، ثم لبس السواد (١) هو وعلميان بن كثير ومواليه وشيعته ممن أجاب الدعوة من أهل سفينج ، وهناك تقاطرت عليه جموع كثيفة من هرمز ومرو ، فشرع أبو مسلم في ترميم حصن سفينج وأقام فيه بمن معه (٢) .

ثم وقع الاشتباك بين قوات نصر بن سيار بقية ادة مولاة زيد وبين قوات أبي مسلم في قرية آلين من قرى مرو ، وانتهى القتال بانتصار أبي مسلم ، ووقع زيد في أسره ، ولكن أبو مسلم لم يلبث أن أطلقه من الأسر حتى يروى لنصر ابن سيار ما شاهده من ضخامة قوى أبي مسلم . وتكاثر أنصار أبي مسلم حتى ضاقت بهم سفينج ، فاضطر الى الرحيل الى الماخوان من قرى مرو أيضا ، فحاصنها وخندق حولها ، وأقام معه في الخندق سبعة آلاف مقاتل .

وكان نصر بن سيار قد شغل بمقاتلة اليمنية ومحاربة الكرمانى حتى قتله ،

(١) أمدج السواد شعارا للعباسيين ، ولعلمهم اتحدوه تعبيرا عن حزنهم على الشهداء من أهل البيت ، وذكروا في ذلك أن بختي بن ماهان قال : « قد تنامت على آل رسول الله مصائب لا يتكر معها ٠٠٠ لأشيائهم لباس السواد نمتي يدركوا بتأثرهم » . ولكن بعض المؤرخين يرون أنه قد سبق لبعض الخوارج أن جأوا اللواء الاسود في حروبهم ضد (أهل الضلالة) من الأمويين ، وقد يكون للسواد في هذه الحالة دلالة بأهل الضلال فدمرهم للحد والعدل (الدرر ، العصر العباسي الأول ، ص ٣٦) ، بدليل أن الرسول كانت له راية من صوف أسود مربعة كان يحدها في حروبه ضد المشركين ، وكانت لعلي بن أبي طالب راية سوداء ، وكان محمد بن علي العباسي يقول : « هايسكم بالسواد فليكن لباسكم » (راجع : اخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤٥) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

فاستغل أبو مسلم هذه الفرصة (١) ، وبعث قواده للاستيلاء على البلاد، ونجح في ضم علي بن الكرماني والهمينية المؤتورين اليه ، وأحس نصر بن سيار بخاطر أبي مسلم على كيان الدولة الأموية ، فكتب الى مروان بن محمد يحذره ويصف له خطورة الوضع في خراسان ، ويبلغه أن أبا مسلم يدعو الناس الى ابراهيم ابن محمد العباسي ، وجاء فيما كتبه اليه الأبيات الشعرية التالية:

أرى بين الرماد وميض جمر	ويوشك أن يحرقن له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحووا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى من رحالك ثم قولي	على الاسلام والعرب السلام (٢)

ولكن هذه الصرخات لم تجد نفعا ، فقد اكتفى مروان بأن كتب اليه يقول : « ان الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحسم الثؤلؤل قبلك » (٣). وحدث أن وقع في يد مروان بن محمد كتاب فضج سر صاحب الدعوة ، كان قد بعث به الامام ابراهيم الى أبي مسلم يأمره فيه الا يدع بخراسان متكلم بالعربية الا قتله ، فلما قرأ مروان الكتاب ، كتب الى عامله بالبلقاء يأمره بالتوجه الى الحميمة ، والقبض على ابراهيم الامام ، وشد وثاقه ، وإرساله اليه ، ففعل ذلك ، فسمجنه مروان في سجن حران حيث مات مسموما (٤) .

وكان ابراهيم الامام - عندما تم القبض عليه في الحميمة - نعى نفسه

(١) أهي فرصة ضعف الفريقين المريين ، فريق نصر وفريق الكرماني .

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٥٧ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٦

(٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٦٦

(٤) ابن طباطبا ، ص ١٢٦

الى أهل بيته ، وأمرهم بالسير الى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله ، وأوصى الى أبي العباس ، وجعله الخليفة بعده . فمضى أبو العباس ومن معه من بيت الامام الى الكوفة حيث أنزلهم أبو سلمة الخلال داعي العباسيين في دار لأحد أتباعه ، وكنم أمرهم نحو من أربعين ليلة ، وحاول ان يحول الأمير الى آل علي بن أبي طالب عندما بلغه نبأ وفاة ابراهيم الامام ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، واضطر الى مبايعة أبي العباس عبد الله بالخلافة . ولم يستطع محمد بن خالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة أن يصمد أمام العباسيين ، فسلم لهم الكوفة ، وعلى أثر ذلك ظهر أبو العباس ، ودخل الجامع ويبيع له بالخلافة في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ (١) وخطب على المنبر خطبة افتتحها بمدح آل النبي ، والطعن في السبئية الضلال الذين نادوا بأحقية الرئاسة والخلافة لغير العباسيين (يقصد لآل علي) ، ثم سب الأمويين بنى حرب وبنى مروان الذين اجزوا الخلافة ، واستأثروا بها وظلموا أهلها الى أن ردت الى أصحابها . ثم خاطب أهل الكوفة قائلا : « يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تغفروا عن ذلك ولم يشككم عنه تعامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا ، وأناكم الله بدولتنا . فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدناكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح الميسح والثائر المبير » (٢) . ثم خرج العباس بعد الخطبة الى معسكر أبي سلمة حيث أقام شهرا ، ثم ارتحل من هناك فنزل المدينة الهاشمية بهضر الامارة .

أما أبو مسلم فكان خطره قد استفحل بعد أن فرق بين قبائل العرب ، فزحف في ربيع الثاني من سنة ١٣٠ هـ (ديسمبر ٧٤٧ م) على مرو ، وتمكن

(١) ابن الأثير . ج ٥ ص ٤١١ .

(٢) طالع الخطبة في ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١١ . ٤١٥ - السيوطي ، ص ٢٤٠ .

من دخولها بمساعدة على بن الكرمانى ، وقتل من العرب فيها نحو ٦٠٠ شخص ، وأما نصر بن سيار فقد فر مستخفيا نحو العراق مارا بنيسابور ، فقتلته جيوش أبى مسلم ، ولكنه توفى ببلدة ساوة من نواحي الرى فى نفس السنة .

ثم تمكن أبو مسلم من افتتاح أيبورد وبلخ وترمد ، وعقد له تخلص من على وعثمان ولدى الكرمانى ، فقتلها وقتل معظم أصحابها (١) .

وهكذا تغلب أبو مسلم الخراسانى على خراسان كلها ، فبعث العمال على البلاد ، ثم وجه قحطبة بن شبيب إلى طوس ليفتحها ، فتم له ذلك ، وبلغ عدد القتلى هناك من أنصار نصر بن سيار بضعة عشر ألفاً . ثم أمره أبو مسلم بالزحف إلى نيسابور حيث نزل نصر ، فلما بلغ نصراً ذاك ، فر فيمن معه إلى قومس ، فدخل قحطبة نيسابور . وما زال يتكبع نصراً من مدينة إلى مدينة حتى توفى نصر بنواحي الرى ، واستولى قحطبة على الرى ، وتم للعباسيين على هذا النحو فتح خراسان وبلاد الجبل . ثم تابع قحطبة وولده الحسن زحفهما ، فاستولى الحسن على همدان ، وافتتح أبوه نهساوند وشهرزور (٢) والموصل ، وتوغل فى العراق ، ولكنه توفى قبل أن يشتبك مع القائد يريد بن عمر بن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، فخلفه على القيادة ابنه الحسن الذى تمكن من إيقاع الهزيمة بجيش ابن هبيرة . وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة بادر واليها محمد بن خالد القسرى مسوداً على النعمو الذى أشرنا إليه .

وتركزت المقاومة الأموية فى موضعين : الأول فى الموصل حيث

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

احتشدت جموع هائلة من الأمويين يبلغ عددها ١٢٠ ألف مقاتل بقيادة مروان بن محمد نفسه . فسير أبو العباس لمقاتلته همه بن علي . وتم الاشتباك على الزاب الأعلى أحد روافد دجلة من جهة الشرق ، وانتهى بهزيمة مروان (١) في ١١ جمادى الآخرة سنة ٣٢ . وفراره (٢) ، بينما غرق معظم الجيش في نهر الزاب بعد أن قطع الجسر . والثاني في واسط حيث تحصن القائل يزيد بن عمر بن هبيرة فسير أبو العباس السفاح إليه أخاه أبا جعفر ، فاحتمى القتال هناك ما يقرب من عام إلى أن بلغ ابن هبيرة نبأ هزاع مروان ، فسمى لطلب الصلح بالامان ، فأجاباه عليه أبو جعفر ، ولكنه لم يرب بوعده ، فأمر بقتله وقتل من كان معه من القادة . وهزاع ابن هبيرة طويط الصنعة الأخيرة من تاريخ الدولة الأموية وبدأ عهد جديد في تاريخ العرب والإسلام.

* * *

(١) نفس المصدر ، ص ٤١٧ وما يليها .

(٢) فر مروان بن محمد إلى حسان ، ثم إلى قنسرين ، ثم دمشق كل ذلك والاسباب يطاردونه هلا هسواة أيها حل ، وكانت دمشق قد أهدت بعض المصاهرة ، واستكن العباسيون اقتحموا المدينة ورفعوا العلم العباسي على قصر بني أمية . أما مروان فزال يفر من بلد إلى بلد عبر الأردن وفلسطين إلى أن نزل بالفسطاط بمصر ، ومنها إلى بوسير التي حيث تعقبه العباسيون وقتله عام ١٢٢ هـ في ٢٧ ذي الحجة ١٢٢ هـ ومات برأسه إلى صالح بن علي ثم احتوى على عسكره ، ودخل إلى الكنيسة التي فيها منقته ونسائه وقعد على فراشه وأكل من طعامه وبلغ أبا العباس ذلك فاستهجن ما فعله عامر وكتب إليه يأموه (راجع المسمودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٤٧ - السكندى ، كتاب الولاة والفضاة ، طبعة رفن جست ، ١٩١٢ ص ٩٦ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٦ وما يليها - الإراني ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٥٨ - الديلمي ، ص ٢٢٨) .

وقد صاحب قيام الدولة العباسية تنبيه جذرى واضح المعالم في جميع مناسخ الحياة الإسلامية ، فن ناحية نظام الحكم شهد العصر العباسى تطورا عميقا في نظم الحكم فأصبحت السطوة عند العباسيين مقدسة معتمدة من الله تعالى لأن الخلافة تستند على نظرية الإمامة التي كانت المحور الرئيسى للدعوة العباسية مع قائل واضح بنظرية الحق الإلهي في الحكم القائمة عند الفرس (١) ، ولعل هذا يفسر ميل الخلفاء إلى الاستبداد والاحتجاب عن الناس من جهة ، كما يفسر بقاء الخلافة العباسية مدة طويلة واستمرارها في مصر حتى بعد زوالها من بغداد (٢) تؤمن جميع الإدارة سيطر الفرس سيطرة تامة على الجيش والإدارة المركزية ، والمناصب الإدارية التي تنحدر من أصول فارسية كنظام الوزارة والحجابة .

(١) خطب المنصور قائلا : أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوحيده وتوحيده وحارسه على ماله (العقد فريد ، القاهرة ١٩٤٤ ، ج ٤ ، ص ٩٩)

(٢) يذكر ابن طباطبا في ذلك أنه على الرغم من استبداد الفرس ثم الأتراك ثم البويهيين ثم السلاجقة بالدولة العباسية في مراحل تاريخها ، « فهذه الدول جميعها طرب على دولة بني العباس ولم تقو نفس أحد على إزالة ملكهم ومحو آثارهم ، وكانت لهم في نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أحد آخر من العالم حتى إن السلطان هو لا يكره أن لا يفتح يده إذا أراد قتل الخليفة أبي أحمد عبد الله المتعصم ألقوا إلى سمعه أنه حتى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع المطر والنبات ، فاستقهر لذلك » (ابن طاطبا ، ص ١٢٥) .

ومن الناحية السياسية نلاحظ أن الدولة العباسية انصرفت بوجهها نحو المشرق ، وبينما مكنت صلاتها بأقاليم أواسط آسيا كبلاد الترك والهند والصين ، فاحتكت بها تجاريا ، قل اهتمامها بالمغرب الاسلامي ، مما أضعف النفوذ العباسي في الغرب ، واكتفى العباسيون بإقامة دولة الأغالة التي اعتبروها بمثابة حاجز يحمي بلاد المشرق الاسلامي من أخطار تسرب المبادئ الخارجية المتطرفة والتشيع .

ومن الناحية الحربية نتج عن تحول الدولة العباسية الى الشرق واتخاذ بغداد مقرا للخلافة العباسية ، أن قل اهتمامها بشؤون البحرية فترة طويلة من الزمان ، كما قل اهتمامها بموانئ البحر المتوسط المشرق في الوقت الذي ازداد اهتمامها بالبحرية التجارية في المحيط الهندي ، مما أدى إلى تألق البصرة وسمرقند وغيرها على الخليج العربي كرافد تجارية هامة .

ومن الناحية الثقافية ظهرت آثار سياسة الانفتاح نحو الشرق في الحركة العلمية ، فكان العصر العباسي عصر إحياء للثقافات الاقليمية وبالذات للثقافات الفارسية القديمة ، وهو العصر الذي بلغت الحياة العلمية أوجها ، ولشغلت حركة الترجمة عن اليونانية والهندية والفارسية .

ومن الناحية الاقتصادية شهد العصر العباسي تطورا اقتصاديا هاما ، فقد حملت الثورة العباسية على تحرير طبقة العمال والفلاحين من السيطرة الاموية ، وإعفاؤهم من الجزية ، والسماح لهم باحتلاك الاراضي ، فقلت الحجرات الى المدن ، وأحدث احتكاك العباسيين بالشرق الأقصى رواجاً اقتصادياً لا نظير له بسبب تفتح الأسواق التجارية مع الصين وتركستان والهند وتدفق المتاجر والساح

الى العراق ، وازدهرت التجارة البحرية مع الصين عبر سواحل الملايو والهند الصينية ، كما امتدت التجارة العباسية الى بلاد البلغار وحوض نهر الفولجا . وترقب على ذلك أيضا ازدهار الصناعات كالخزف والمنسوجات والتحف المعدنية ، واشتهرت بغداد بالعتاب وهو نوع من المنسوجات اختصت به القياية ببغداد ، واشتهرت الموصل بالموصل الذي عرفته أوروبا باسم الموصلين . و بازدهار الصناعات تطورت الفنون الزخرفية والفنون المعمارية بعد أن جذبتها الفنون الايرانية والهندية والبيزنطية والصينية بكثير من تأثيراتها الفنية . وباختصار كان قيام الدولة العباسية نقلة هامة ونقطة تحول في تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية .

الفصل الثاني

التعريف بخلفاء العصر العباسي الأول وأهم أعمالهم

١ - أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابي العباس السفاح

١٣٢ - ١٣٦ * (٧٥٠ - ٧٥٤ م)

هو أول خلفاء الدولة العباسية ، تولى الخلافة في ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ وخطب في صبيحة اليوم التالي لخلافته بجامع الكوفة خطبة مدح فيها آل محمد ، وندد بالأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ، ثم ختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح والثائر المبير » ، ولهذا السبب لقب بالسفاح . واختلف المؤرخون في تفسير كلمة السفاح ويرجح العدد الأعظم منهم أن لقب السفاح يعني السفاك أو الحب للقتل ، وأن هذه الصفة أضقت به لكثرة جرائمه والمذابح التي حدثت في عهده ضد الأمويين وأقرب الأقربين إليه كأن سلة الخلال وزهر آل محمد . ويميل عدد من الباحثين إلى تفسير كلمة السفاح بمعنى الكريم الذي يسطح الدنانير ، وأن هذا المعنى يتفق وما عرف عن أبي العباس من الكرم والعطاء وأنه سمى نفسه بالسفاك المبيح أي الذي يمدق الأموال على المؤمنين ، والثائر المبير الذي لا يتردد في سحق الأعداء والمؤمنين ، ويعتقد هؤلاء الباحثون أن السفاح ، بمعنى القتال ، لم يتلقب به أبو العباس في المصادر التاريخية الأولى الموثوق بها كالطبري واليعقوبي والدينوري والجهشياري ، وأن اسم السفاح لم يرد في كتابات المؤرخين إلا منذ القرن الرابع الهجري ،

ويضيف هؤلاء أن ابن قتيبة صاحب كتاب الامامة والسياسة يطلق اسم السفاح على عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم أبي العباس الذي اشتهر بشدة البطش وسفك الدماء، وهو الذي قتل مروان في مصر ومثل بأهل الشام، وينفي هؤلاء الباحثون صفة القسوة وسفك الدماء من أبي العباس الذي اتصف بالحلم وكرم الاخلاق وكرهيته لسفك الدماء، ويبرأونه من أعمال المذابح التي جرت في بداية قيام الدولة، وينسبونها إلى أعمام أبي العباس، كعبد الله بن علي الذي يسميه البيهقي بالسفاح (١)، وداود، وسليمان، وإسماعيل، وصالح (٢). ولكن مهما دافع عن أبي العباس وبرىء من هذه التهم، فإنه هو المسؤول عن المذابح الشعبة التي اقترنت بقيام الدولة العباسية، أما القول بأن اسم السفاح لم يرد في مدونات القرن الثالث فردود بدليل أن مؤلفا مجهول الاسم (من القرن الثالث الهجري) لعنه ابن النطاح مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله العباسي (٣) يسمي أبا العباس بالسفاح (٤)، ولا نستبعد لذلك أنه لقب بالسفاح لكثرة ما سفك هو من دماء أو ما سفك في هبده من دماء الامويين، وبكفي للدلالة على ذلك أنه خر ساجداً لله عندما وصله رأس مروان بن محمد

(١) راجع: عبد العزيز الحوري، العصر العباسي الأول، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) عبد الحميد البادي، صور وبحوث من التاريخ الاسلامي، ج ٢، ص ٧٠، الاسكندرية ١٩٤٨ - أحمد مختار البادي، في التاريخ العباسي والفاطمي ص ٤١ - ٤٤. ويعمل الزميل الجليل الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد إلى تبرئته من أعمال القتل وسفك الدماء ونأتى في ذلك بشواهد عديدة (راجع عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ج ١، القاهرة ١٩٧٢ ص ٥٠).

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ١٨.

(٤) نفس المصدر، ص ٤١٠ و ٤١٢.

ثم رفع رأسه ، وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرتى بك ، ولم يبق
ثأرى قبلك وقبل رحمتك أعداء الدين ، وتردده اقول الشاعر :

لو يشرىون دى لم يرو شاربهم . . . ولا دماؤهم لفيظ تروينى^(١)

ومن أمثلة سفكه للدماء ما فعله بسلیمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان فى
مجلسه بطننا إلى أمان حصل عليه من الخليفة ، فسمع السفاح مولى له ينشده :

لا يفرك ما ترى من رجال . . . إن تحت الضلوع داء دوا

فضع السيف وارفع السوط حتى . . . لا ترى فوق ظهرك أموى^(٢)

فأمر السفاح فى الحال بقتل خليفته سليمان ، وهذه السياسة الفادرة بدأ
العباسيون مذا بهم ، فمذروا بالامويين فى أبى فطرس ، وحلوا حذو خليفتهم
السفاح ، وأعتقد أنه لو لم يكن أبو العباس هو الذى سن هذه السياسة الانتقامية
وباركها ما تجرأ بنو العباس أمثال عبد الله بن على^(٣) وسليمان بن على^(٤) وغيره
على البطش ببقايا الامويين وتتبع أولادهم وأطفالهم فى كل مكان تصل إليه

(١) للمعتمدى ، ج ٣ ص ٢٥٧ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢٩ - ابن طباطبا ، ص ١٣٤ .

(٣) أمر عبد الله بضرب تسعين رجلا من بنى أمية بالعمد حتى قتلوا وبسط عليهم
الانطاع ، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بطنهم حتى ماتوا جوعا ، وهو الذى أمر بنش
قبور بنى أمية بدمه ، وهو الذى تتبع بنى أمية وقتلهم بنو أبى فطرس . وقد نسب ابن طباطبا
هذا العمل الاجرامى الى السفاح . ص ١٣٤

(٤) قتل سليمان بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشية ، فأمر بهم فمحلوا
(أي جروا من أرجلهم) حتى ماتوا وألقوا على الطريق ، فاكلتهم الكلاب .

عساكر العباسيين . وقد وصف المؤرخون أبا العباس السفاح بأنه كان سريعا الى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله في المشرق والمغرب، وكان مع ذلك جوادا بالمال (١) .

ويمكننا على هذا الأساس أن نفسر وصف السفاح لنفسه بالسفاح بأنه كان يشوهد من ينوى الخروج عليه بسفك دمه ، وأما المنيع فمنها ما الرجل الجواد كثير المطايا ، ولعله كان يقصد أنه بقدر ما هو سفاح فهو كريم يبذل المال لمن استحقه . والواقع أن هذه السياسة الحكيمة التي التزمها أبو العباس وقوامها الشد والجذب، والشدّة واللين، والترهيب والترغيب ، كانت ضرورية في أول قيام الدولة العباسية، فقيام الدولة يقتضيان دائما بمثل ذلك ، ومن المعروف أن معاوية ابن أبي سفيان اتبع نفس السياسة ، كما اتبعها أيضا عبد الرحمن الداخل عندما أسس دولة بني أمية في الأندلس ، واتبعها حفيده عبد الرحمن الناصر عندما تولى إمارة الأندلس والبلاد ممزقة الأوصال ، وهي على العموم سياسة مجدية لأنها تمكن لنفوذ الدولة المجددة .

وأول ما قام به أبو العباس أنه حرم على اتخاذ قهر خلافته يكون قريبا من شيمته وأنصاره بدلا من دمشق حاضرة دولة بني أمية البائدة ، ومن المعروف أنه نزل بأدىء ذي بدء في موضع قريب من الكوفة يسمى هاشمية الكوفة، ولكنه انتقل منها بعد عامين إلى مدينة الأنبار الواقعة على نهر الفرات إلى الشمال من الكوفة، فأقام بها ما عرفت هاشمية الأنبار (٢) اتخذها دارا للخلافة . وظلت

(١) السيوطي ، ص ٢٤١ .

(٢) طي بن الحسين الهاشمي الخطيب النجفي ، تاريخ الأنبار ، بيروت ، ١٩٧٢ ص ٥١ وسبب انتقال السفاح من الكوفة الى الأنبار أنه لم يكن مطمئنا الى أهل الكوفة لولائهم له .

الأخبار مقرأ للدولة العباسية مدة سبع سنوات إلى أن قام المنصور ببناء مدينة بغداد في سنة ١٤٥ هـ .

ورأى أبو العباس ضرورة القضاء على بقايا الأمويين حتى تستقر دعاتهم دولته ويصفو له الأمر ، فقام بإدراج بشعة منها مذبحته بمرأى فطرس عندما أعلن أمانه لكل أسير أموي يسلم نفسه للسلطات العباسية ، وطلب من هؤلاء الأمراء القارين بأن يسلموا أنفسهم ، فلما اجتمعوا لهذا الغرض اقتض عليهم العباسيون بإيعاز من عبد الله بن علي العباسي وقتلهم ، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان ، والنمر بن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد بن عبد الملك . ولم يكف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بني أمية بل عمد إلى التمثيل بجثث الخلفاء المروانيين وإحراقها ، ويأتى المسعودى في ذلك برواية لمرو بن ماضى جاء فيها : « خرجت مع عبد الله بن علي لنهب قبور بني أمية في أيام أبي العباس السفاح ، فأنهينا إلى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه إلا خورمة أنفه ، ففصره عبد الله ابن علي ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (١) ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق فلم نجد منه إلى صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية . وكانت قبورهم بقمسين . ثم أنهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا في قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك ، فما وجدنا إلا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فما وجدنا فيه إلا عظما واحدا ووجدنا مع لحده خطأ أسود كأنما خط بالرماد في الطول

(١) ذكر اليعقوبي أنه وجد في مقبرة علي سريره قد طلى بماء يبيبه ، فأخرجه ، وضرب وجهه بالعمود ، وضربه مائة ومئتين سوطا ثم حرقه (اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٥٧) .

في لحده ، ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم ، (١) .

ونلاحظ أن السفاح لم يرح مواليقه التي كانت يمنحها لأعدائه أو حتى لأتباعه ، فكان كثير التكت بها ، مثل ذلك أنه لما حاصر القائد الأموي ابن هبيرة في واسط ، وطال الحصار إلى سنة كاملة ، أعطاه السفاح أمانا وقعه أبو جعفر المنصور ، وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه من أمان ، ولكن السفاح ألح على أبي جعفر بأمره بقتل ابن هبيرة ، وعلى الرغم من مراجعة أبي جعفر المنصور له في ذلك فإن السفاح كتب إلى أخيه يقول : « وانه انتقلته أولاً رسلان إليه من يخرج من حركتك ثم يتولى قتله (٢) » ، وعندئذ قتل المنصور . ويذكر ابن الأثير أيضاً أن أبا جعفر أمن خالد بن سلة المخزومي من قادة الأمويين — وكان مع ابن هبيرة — ولكن السفاح أمر بقتله ولم يجر أمان أبي جعفر (٣) . كذلك أمر السفاح بقتل وزيره أبي سلة الخلال الذي كان من أهم الشخصيات التي ساعدت في تأسيس الدولة العباسية (٤) ، قتله عن طريق أبي مسلم الخراساني ، وبذلك رسم أبو العباس السفاح الخطوة التي اتبعها من

(١) السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٠٧ ومايليها (طبعة بيروت ، دار الاندلس)

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٤) عن أبي سلة واجم : الجعفي ، ج ٨٥ ، ٨٧ — ابن طباطبغا ص ١٣٦ ومايليها — ابن قتيبة الامامة والعباسة ، ج ٢ ص ٣٣٦ — أبو حنيفة الديلمي ، ص ٣٧٠ — السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٧١ — الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ٦٠ .

خلاته من خلفاء بني العباس في الذر والآنصار، وعلم احترام اليهود والمواثق، الامر الذي دعا المؤرخين الى القول بأن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر، وكان قسم التحميل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة، (١).

وفي عهد السفاح قامت الثورات العربية في مواضع كثيرة من بلاد الشام والجزيرة، وقام الثوار بالتيبيض، أي رفع الألوية البيضاء شعار الدولة الاموية، ففي سنة ١٣٢ هـ بيض حبيب بن مرة المري في البثنية وحموران، ثم بيض أبو الورد مجزة بن انكوثر بن زفر بن الحارث الكلبي في قنشرين، وقدم أهل دمشق عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية المعروف بالسقياني، لاستيانتهم من سياسة القتل التي جرى عليها العباسيون. وكان ابن الورد متوليا لمسكر السقياني (٢). ونجح عبد الله بن علي العباسي في إيقاع الهزيمة بقوات أبي الورد في مرج الأخرم وقتلهم جميعا. أما السقياني فقد فر الى تدمر، ثم لحق بأرض الحجاز، وظل هناك حتى خلافة المنصور ثم قتل. وفي نفس سنة ١٣٢ هـ (٣) بيض أهل الجزيرة، وخلصوا أبا العباس السفاح، وزحفوا الى حران، كذلك بيض أهل قرقيسيا والرقّة ودارا وماردين والرها وسيمساط، ولكن أبا جعفر المنصور تمكن من القضاء على هذه الثورة. كذلك قامت ثورات أخرى في خراسان وهما ومصر، كلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم الدماء.

(١) ابن طباطبا، ص ١٣٢،

(٢) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٥٢،

(٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ١٣٢ — ١٣٤.

وعلى الرغم مما انصف به أبو العباس السفاح من قسوة فإنه كان كريما كثير
البذل، وكان شاعرا يميل الى الادب وسماع الغناء ، وكان يظهر لندمائه ويجهلهم
ويجزل لهم العطاء ، وكانت تعجبه مفاخرات العرب من نزار والخن (١) . وفي
سخائه يقول الصولي : « وكان السفاح أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخرها عن
وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها » (٢) .

٢ - أبو جعفر المنصور : ١٣٦ - ١٥٨ هـ (٧٥٤ - ٧٧٥ م)

كان السفاح قد عقد في سنة ١٣٦ لاختيه أبي جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة
من بعده ، وجعله ولي عهد المسلمين ، على أن يليه في ولاية العهد عيسى بن موسى
ابن عمه العباسي . فلما توفي السفاح كان أبو جعفر بمكة ، فأخذ عيسى بن
موسى البيعة لأبي جعفر وكتب إليه يملئه بوفاة السفاح والبيعة له .

وهكذا ولي المنصور الخلافة والاختار ما تزال محيطة بالدولة ، فهناك
العلويون من آل الحسن وجماعة من أقاربه وأنصاره يكيدون له . وكان أبو
جعفر على حد قول السيوطي « ففعل بنى العباس هيبته ، وشجاعة ، وحزما ،
ورأيا ، وجبروتا ، جماعا للبال ، تاركاً للهو واللعب ، كامل العقل ، جيد
المشاركة في العلم والآداب ، فقيه النفس ، قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه ،
وهو الذي ضرب أبا حنيفة - رحمه الله - على القضاة ثم سجنه ، فمات
بعد أيام » (٣) . ويصفه ابن طباطبا بقوله : « كان المنصور من عظماء الملوك

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٧١

(٢) السيوطي ، ص ٢٤٠

(٣) نفسه ص ٢٤٩

وحزماتهم وعقلاهم وعلماهم وذوى الآراء الصائبة منهم، والتدابير السديدة،
والنوا شديدة الوفاق، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالا لما يكون
من هيب أو مزاح، ويضيف إلى هذه الصفات صفة المكر والتيقظ، وينسب
إليه أصل الدولة و ضبط المملكة وترتيب القواعد وإقامة الناموس (١). ولهذا
كأنه يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية (٢). ولا شك أن
الفترة التي قضاها المنصور في الخلافة العباسية تعتبر من أهم عصور الخلافة إن
لم تكن أهمها على الإطلاق، فقد حكم ما يقرب من ٢٢ عاما حكما استبداديا
اضطلع خلاله العنف والقسوة، وأشاع أنه يحكم بتقويض من الله، كما يتجلى في
قوله: «إنما أنا سلطان الله في أرضه» (٣)، وعلى هذا الأساس عمل العباسيون
على الاحتفاظ بالخلافة في دولة تهوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين،
وكان من أثر ذلك أن أصبحت الخلافة العباسية ذات طابع استبدادي وديني،
وركر الخليفة فيها جميع سلطات الدولة في يده فلم يكن للوزير من
الأمر شيء.

وفي سبيل تثبيت دعائم الدولة العباسية الفشيية لم يتردد أبو جعفر المنصور
في القدر بكثير من أنصاره وبعض أقربائه (٤)، وأصبح القدر سمة تمثل الطابع
الذي التزمته الدولة العباسية طوال تاريخها الطويل وقد استعمل أبو جعفر
عمده بقتل عمه عبد الله بن علي الذي يرجع إليه الفضل الأول في إيقاع الجريمة

(١) ابن طباطبا، ص ١٤١، ١٤٢

(٢) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٥٥

(٣) محمد الفريد، تحقيق الأستاذ أحمد أمين، القاهرة ١٩٤٤ ج ٤ ص ٩٩

(٤) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص ٧٠

بمروان بن محمد في موقعة الزاب ، وهو الذي تتبع الامويين بالقتل والتشريد ، وقضى على الفتن الكبرى التي قامت في الشام ضد الحكم العباسي . ويرجع سبب قتله لعمه الى أن عبد الله بن علي ما كاد يسمع بوفاة أخيه السفاح حتى خرج غلي المنصور ، فجمع جنده ، وطلب منهم أن يبايعوه ، وادعى أن أبا العباس جعل له العهد عندما سيره لمقاتلة مروان بن محمد ، وأنى بشهود شهدوا له بذلك ، وبايعه أكثر أهل الشام (١) رغم كراهيتهم له نكاية لأبي جعفر . ثم سجد أبو جعفر أبا مسلم الخراساني لقتال أخيه عبد الله ، فسار أبو مسلم وهو كاره ، واشتبكت قواته مع قوات عبد الله في قتال طويل الأمد دام خمسة شهور وانتهى بهزيمة عبد الله بن علي في ٧ جمادى سنة ١٢٧ هـ ، ففر عبد الله الى أخيه سليمان وإلى البصرة ، فأخفاه عنده ، ثم سلمه الى أبي جعفر في سنة ١٢٩ هـ بعد أن حصل على الأمان له ، فسجنه المنصور ثم قتله بعد تسع سنين (٢) في سنة ١٤٧ هـ .

كذلك أقدم أبو جعفر المنصور في سنة ١٣٧ هـ على قتل أبي مسلم الخراساني قائد الثورة على الامويين في خراسان ، ويمزون قتل المنصور له إلى الأسباب الآتية :

١ — تمادى أبي مسلم في زهوه (٣) وإسرافه في قتل النفوس البريئة

(١) اليقوى ، ج ٢ ص ٢٦٥ — للمسودى ، ج ٣ ص ٢٨٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٢) للمسودى ، ج ٣ ص ٣٠٥ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٨٢ .

(٣) خاصة بعد اتصاره على عبد الله بن علي عندما أراد المنصور أن يختبر مدى طاعة له ، فأرسل إليه رسولا ليجس عليه المنام ، فغضب وتناول أبا جعفر بلسانه ، وأراد قتل الرسول لولا تدخل أصحابه (المسودى ج ٣ ص ٢٩٠ — اليقوى ، ج ٢ ص ٣٦٦) .

٣ — تقدمه على المنصور في طريق الحج وعدم انتظاره إياه في طريق العودة عندما يلزمه نبأ وفاة أبي العباس السفاح .

٣ — بعد وفاة السفاح أرسل أبو مسلم إلى المنصور رسالة يعزى فيها دون أن يهتبه بالخلافة .

٤ — كان المنصور قد أمر الحسن بن قحطبة ، وإلى الجزيرة ، أن يلحق بأبي مسلم عند توجهه لمقاتلة عبد الله بن علي في الشام ، فكتب ابن قحطبة إلى المأمون يأمر وزير المنصور بقول : « إني قد رأيت بأبي مسلم أنه يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلقي الكتاب من يده إلى مالك بن الحيثم فيقرأه ، ويضحك أن استبزاء » (١) .

٥ — تهرأ على قتل سليمان بن كثير الخواصي أحد شيوخ الدعوة العباسية دون استشارة الخليفة .

٦ — تحديه لأمر المنصور عندما صرفه عن ولاية خراسان وولاه الشام ومصر وقوله : « هو يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي » (١) ، واستمراره في السير إلى خراسان .

٧ — تقديمه لاسمه على اسم الخليفة في رسائله ، وانتمائه إلى سلطه ابن عبد الله بن عباس (٢) .

والواقع أن أبا مسلم تهادى في الإعتداد بنفسه لاستنعماره بأنه صاحب الفضل الأعظم في قيام الدولة العباسية ، وتجاوز حدود سلطانه إلى حد أخاف المنصور منه على خلافته .

وفي عهد المنصور ظهرت عدة فحول دينية أشهرها حركة الراوندية التي ظهرت في قرية راوند بالقرب من أصفهان عقب مقتل أبي مسلم الخراساني

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤١٩ .

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٣) الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٧٥ .

وهي حركة معتمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التي روجها الفرس بدافع
الشمور بالقومية الفارسية . ويمتد أصحاب هذه الحركة بتناسخ الأرواح
ويؤمنون أن روح آدم حلت في عثمان بن نمير (١) ، وأن ربه الذي يطعمهم
ويستقيهم هو المنصور (٢) . وقد اعتبر المنصور هذه النحلة خروجاً على الدين ،
فحارب أصحابها ، فانقلبوا عليه وكادوا يفتكون به ، ولكنه ظفر بهم وقتلهم .
ثم تشككت الراوندية في حركات متفرعة مختلفة منها الخرمية ، وهي فرقة تدعى
أيضاً بالمسلية (٣) ، قطعت بعدم موت أبي مسلم ، ومنها المقنعية نسبة إلى رجل
من مرو من أنصار أبي مسلم ادعى الألوهية واتخذ قنصاعاً يخفى قبج وجهه ،
وأباح المقتنع ترك الصوم والحج والزكاة ، كما أباح النساء لاتباعه ، ولم يتم القضاء
على هذه الحركة إلا في زمن المهدي .

وفي عهد المنصور أخذ العلويون ينادون العباسيين وينابذونهم العداء لأنهم
خدعهم ، واستأثروا بالخلافة دونهم ، وكان يقود العلويين في المدينة
بنو الحسن ، وعلى رأسهم أخوان هما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن
علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية لزمه ونسكه ، وكان يلقب بالمهدي ،
والثاني إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتييل وإخري . فاهتم المنصور اهتماماً

(١) رئيس حرس الخليفة في الهاشمية .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٠٢ — ابن طباطبغا ، ص ١٤٣ .

(٣) من رؤسائها سباز الذي خرج في نيسابور يطالب بدم أبي مسلم الحراساني ، ولكن
المنصور سير إليه جيشاً بقيادة جهور بن مراد العجلي هزمه وقتله وقتل أتباعه وذلك سنة
١٣٧ (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٩٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٨١) .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، طبعة بيروت ١٩٦١ ، ص ١٩١ —

ابن طباطبغا ، ص ١٤٨ .

خاصاً بالقضاء على الحسينيين ، فسير جيشاً ضخمها بقيادة عيسى بن موسى ولي
هماه ، وحسين بن قحطبة ، اشتبك مع انصار النفس الزكية في موضع قريب
من المدينة ، فدارت الدائرة على الحسينيين ، وقتل ابن قحطبة محمد النفس الزكية ،
واحترق رأسه ، وحمله إلى المنصور في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ (١) ، أما أخوه إبراهيم
فقد أعلن الثورة في البصرة ، واستولى عليها ، فأرسل المنصور اليه جيشاً بقيادة
عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم ، واشتبك إبراهيم بن عبيد الله بن الحسن مع
الجيش العباسي في الموضع المعروف باسم باخرى القريب من الكوفة ، فانهزم وقتل
هناك في نفس العام (٢) ، وحزوا رأسه فأثروا به عيسى بن موسى وذلك في ٢٥
من ذي القعدة .

ويقترب اسم المنصور بمدينة بغداد التي شيدها في سنة ١٤٥ هـ ، ويرجع
سبب بنائه لها على حد قول ابن الأثير إلى أنه لما ثارت الراوندية في الهاشمية
الواقعة بنواحي الكوفة ذكره سكانها لذلك ولجؤا أهل الكوفة أيضاً فإنه
كان لا يأمن أهلها على نفسه ، وكانوا قد أسدوا جنده (٣) . فخرج بنفسه
برتماد له موضعاً يسكنه هو وجنده ، فالتحق إلى جرجرايا ، ثم أصعد إلى الموصل ،
وسار نحو الجبل في طلب منزل يبنى له ، حتى انتهى إلى موضع بغداد ، الذي
يجمع بين الماء والزرع ، في موقع يمكن أن تصل إليه السفن من الشام والرقّة
والهيرة من الصين والهند والبصرة وواسط والموصل وأرمينية ، بين أنهار

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٧٦ - المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٦ - أبو الفرج الاصبهاني ،
مقاتل الطالبين ، ص ٢٠٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٠ - ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .
(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٦ - مقاتل الطالبين ، ص ٢٥٢ - ابن الأثير ،
ج ٥ ص ٥٧٠ - ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .
(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ - ابن طباطبا ، ص ١٤٣ .

لا يصل اليه عدوه الا على قنطرة . فاعجبه المكان ، وعزم على اختياره لإنشاء
بنداد ، وأمر باختيار قوم من ذرى العقل والعلم والمعرفة بالهندسة ليتولوا
تخطيط المدينة . فابتدأ المنصور بإنشائها في سنة ١٤٥٠ هـ ، وكتب الى عماله بالشام
والجبل والكوفة وراسط والبصرة يأمرهم بإنفاذ الصنائع والفحسة ، فكان من
أحضر من كبار العقلاء الحجاج بن أرطاه وأبو حنيفة ، وتم البناء في سنة ١٤٦
وبجملها المنصور مدورة (١) ، وفتح في سورها أربعة أبواب (٢) . ومن أسماها
بشداد أو بندان ، والزوراء لانحراف قبلتها إلى اليسار ، وقيل لازورار
نهر دجلة عند مروره بها ، كما سمي الجانب الشرقي منها الروحاء لانبساط مجرى
النهر عنده . وفي وسط المدينة أقام قصره ، والجامع ، ودار حرسه ، ومنازل أولاده
ومنازل من يقوم بخدومتهم ، وقصور الأمراء ورجال الدولة (٣) ، ودور الأهل
تتخللها الأسواق . وقد حرص على تحصينها لتحاكم في العظمة والفخامة والمناعة
القسطنطينية العظمى . ومن أشهر قصور بندان قصر الضيافة المعروف بالخصراء
وكان ينزل فيه السفراء والوافدون على بندان من مختلف الأقاليم حتى يحدد لهم
المنصور وقت مقابلته لهم ، وكان بأعلى هذا القصر تمثال على صورة فارس في
يده رمح يدور مع الريح (٤) ، ووصفت قبة القصر بأنها كانت تاج البلد وعلم
بندان . كذلك بنى قصر الخلد على شاطئ دجلة الغرب خارج بندان ، بينما كان

(١) الأربلي ، ص ٧٤ .

(٢) هي باب خراسان في الشمال الغربي ، وباب البصرة في الجنوب الغربي ، وباب الكوفة
في الجنوب الغربي ، وباب الشام في الشمال الغربي . وعلى كل باب منها مجالس ومباني مذهبة
يصعد اليها على الخيل (البهوتي ، ج ٢ ص ٣٧٣) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٤ .

(٤) الأربلي ، ص ٧٦ .

قصر الذهب في قلب المدينة . وأقام المنصور خارج بغداد على الضفة الشرقية من نهر دجلة، في قبالة المدينة، ربضا سمي برصافة بغداد، اتخذها مكناث لجندته، وسوره وخندق حول السور. وسرطان ما عمرت الرصافة، وأصبحت تضاهي بغداد في العظمة . وفي سنة ١٥٧ هـ أمر المنصور ببناء محلة الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد، ويرجع السبب في بناء الكرخ الى ارتفاع الدخان المتصاعد من الاسواق وتسببه في اسوداد بغداد، الأمر الذي أزعج المنصور وضايقه، فأمر بنقل هذه الاسواق التي كانت تشغل قسما كبيرا من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ . وقيل في سبب نقل الاسواق الى الكرخ أن رسول ملك الروم جاء الى بغداد، فأمر الريح فطاف به في المدينة، فسأله المنصور : كيف رأيته؟ قال : رأيت بناء حسنا إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوق، فلما طاد الرسول عنه أمر بإخراجهم الى ناحية الكرخ، وقيل إنما أخرجهم لأن الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها، وربما كان فيهم الجاسوس (١).

وفي عهد المنصور غزا البيزنطيون بعض أراضى الشام في سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥م) في عهد الامبراطور قسطنطين الخامس، واستولوا على ملطية (٢)، وهدموا سورها، ولكن المنصور تمكن من استردادها في العام التالي، وأقام فيها حامية عسكرية كبيرة . وفي هذه استقل عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخيل بالاندلس عن الخلافة العباسية، فأراد المنصور أن يقضى على سلطان عبد الرحمن الأموي فيمعه العلاء بن منيخ اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن، ولكن الأمير تمكن من ايقاع الجريمة بالعباسيين في قرمونة (٣).

(١) ابن الأثير، ٥٧٤ هـ .

(٢) هـ المنصور، ٤٨٨ هـ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأتباعهم في الأندلس، بيروت

وأنوفى المنصور فى سنة ١٥٨ هـ بالقرب من مكة وهو فى طريقه للحج .

(٣) للمهدى بن المنصور : (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥م)

هو محمد بن عبد الله المنصور ، بويغ له بمكة يوم توفى أبوه ، وحكم المهدى قرابة ١١ سنة قضتها الدولة فى سلام ، وساعد على ذلك ميله إلى السلم واستقرار أمور الدولة فى حياة أبيه . وقد عكف المهدى على الفنون ، وخاصة العمارة ، فأقام سور الرصافة ، وبنى مسجدها ، ووسع المسجد النبوى بالمدينة ، وجمعه بالقسيفة والعمد ، وكسا الكعبة سنة ١٦٠ هـ بالدباج والخز والقباطر ، وبنى جدرانها بالمسك والعنبر (١) ، وبنى على جوانب الطريق المؤدى إلى الحج منازل ومطاط لراحة الحاج (٢) . وأمر كذلك بالزيادة فى المسجد الجامع بالموصل فى سنة ١٦٣ هـ (٣) . وكان المهدى من أكثر الخلفاء العباسيين حبا للموسيقى والغناء ، وكان بلاطه يكتظ بالمغنين وذوى المواهب الفنية أمثال حكم الوادى وسياط وأبراهيم الموصلى ، ويشير ابن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتا ، وكان ابنه أبو اسحق إبراهيم من كبار المغنين والموسيقيين فى بلاط الرشيد والأمين ، وعد إبراهيم زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية الفارسية ، بخلاف اسحق الموصلى الذى تزعم المدرسة التقليدية العربية (٤) .

وكان المهدى شديدا على أهل الضلال والزندقة ، لا تأخذه فى أهلاكهم لومة لائم (٥) ، ففى عهده ظهرت حركة المقتنمية بزعامة المقشع الخراسانى سنة ١٥٩ هـ

(١) المقوفى ، ج ٢ ص ٣٩٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٢ - السيوطى ، ص ٢٥٤ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٦ .

(٤) راجع فارمر ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة

١٩٥٦ ص ١٤٢ .

(٥) ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

قاده رجل من أهل مرو - موطن النحل الفارسية - أعور ، قصير القامة ، دميم الخلق ، اتخذ لوجه قناعاً من ذهب لاختفاء قبح وجهه ، وادعى الألوهية ، وكان يقول أن الله خلق آدم ، فتحوّل في صورته نوح ، وهكذا هلم جراً إلى ابن مسلم الحراساني ، ثم تحوّل إلى هاشم ، وسمى نفسه هاشماً ، وكان يقول بالتناسخ ، فقابله في الضلال خلق كثير ، وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من النواحي ، وكانوا يقولون في الحرب : يا هاشم أعزاء . وتجمع حوله حشد كبير من التابعين وتحصنوا في قلعة بسنام وسنجدة من رساتيق كش ، وأطانه الترك في بخساري والصند (١) . ولكن هذه الحركة لم يطل أمدها ، فقد انتهت بهلاك المقتنع ، ذلك أن المهدي سير إليه جيشاً بقيادة معاذ بن مسلم ، وسعيد الحرشي ، أوقع بأصحاب المقتنع فبزمهم ، فلما أيقن المقتنع بالهلاك ، جمع نساء وأهله وسقاهم السم ، وأمر أن يهرق هو بالنار حتى لا يمتثل بهشته (٢) .

كذلك ظهرت في أيام المهدي حركة الزنادقة ، وكان أصحاب هذه الحركة ينادون بالاباحية المطلقة والفوضى والتحلل من جميع القيم والروابط الاجتماعية ، وقد تتبع المهدي الزنادقة في كل مكان ، ونكّل بهم ، وعين لمطاردتهم رئيساً يعرف بصاحب الزنادقة ، قتل منهم أعداداً هائلة ، وبلغه أن صالح بن أبي عبيد الله كاتبه زنديق ، فأحضره ، فلما تأكد لديه ذلك قتله (٣) . والمهدي أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملاحدين (٤) .

وفي عهد المهدي ساءت العلاقات بين البيزنطيين والعباسيين ، فلم تنقطع

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩ - ابن طباطبا ، ص ١٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢ - ابن طباطبا ، ص ١٦٢ .

(٣) السيويني ، ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٤) السيويني ، ص ٢٥٣ .

الحرب البرية والبحرية بينهما ، فند سنة ١٥٩ هـ توالى حملات المهدي على البزنطيين (١) ، وقد رد البزنطيون على تلك الغارات ، فأغاروا على مرعش وأحرقوها ، فجعل المهدي ابنه هارون في حلب لمهاجمة البزنطيين ، وحمل هارون على مقلاتهم ، فوصل جيشه إلى سواحل الإسفور ، وأرغم الامبراطورة إيرين الوصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين مبلغا قدره سبعون ألف دينار سنويا ، وعقدت الهدنة بين المهدي وإيرين لمدة ثلاث سنوات (٢) .

٤ - الهادي بن المهدي : ١٦٩ - ١٧٠ هـ (٧٨٥ - ٧٨٦ م)

هو أبو محمد موسى الهادي بن المهدي ، بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المهدي ، وفي عهده القصير ضعفت الخلافة العباسية ، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين والمتصلين به من الشعراء وغيرهم ، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن في شؤون الدولة ، مما قلل هيبتها ، فكانت أمه الخيزران حاكمة مستبدة بالأمور الكبار ، وكانت المواكب تندو إلى بابها ، وقيل إنها سعت إلى قتله لما وعك ، فسمته ، وقيل غموا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ .

(٢) نفسه ، ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ - السيوطي ، ص ١٦٠ وما يليها .

يعلمون سبب حملتها عليه بأنه حاول إقصاء أخيه هارون الرشيد من الخلافة والبيعة لابنه جعفر ، فغالت الخيزران على هارون ، وكانت تحبه ، ففعلت بالهادي ما فعلت . وقيل أنه كان شديد الغيرة على الخيزران ، فسكر منها خروجها في المواكب واتهمها بمصاحبة رجل يقال له عبد الله بن مالك ، ففاضبها وأقسم بضرب عنقه (راجع : السعدي ، ج ٣ ص ٣٢٨ ، ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ - ابن طباطبغا ، ص ١٧٣) .

وفى عهد الهادى بدأت ظاهرة استقلال الاطراف فى الدولة العباسية ، وقامت الفتن والمناسازات فى الداخل . فقد ثار العلويون الحسينيون فى الحجاز فى سنة ١٦٩ هـ بزعامه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن ابي طالب ، فأرسل الهادى لاجناد حركتهم جيشا إلى مكة بقيادة محمد بن سليمان وتم الاشتباك فى وادى بطريق مكة يسمى فنج ، فقتل الحسين ومن معه من أهل بيته ، وفر أحد أقاربه وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فأتى مصر ، ومن هناك خرج إلى المغرب الأقصى واستقر بولاية ، فاستجاب له من بها من البربر ، وتمكن بفضل هؤلاء الاتباع من تأسيس دولة الادارسة .

وكان الهادى غنيا فى محاربة الزنادقة فى سنة ١٦٩ هـ التى تولى فيها الخلافة ، فقتل منهم جماعة (١) فيهم على بن يقطين ، ويعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن ابن عباس (٢) .

٥ - هارون الرشيد : ١٧٠ - ١٩٣ هـ (٨٧٦ - ٨٠٩ م)

هو أبو جعفر هارون بن محمد المهدى ، من أعظم خلفاء بنى العباس وأكثرم ذكرا فى التاريخ العباسى ، لما اتصف به من كرم وجود ، ولما وصلت إليه الدولة الاسلامية فى عهده من نهضة حضارية باذات الأوج ، فقد أصبحت بغداد فى أيامه كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة ، حتى أصبح اسمه مقرونا بألف ليلة وليلة . وفى عصره ارتقى فن الغناء والموسيقى بفضل جهود منفيه ابراهيم الموصلى وعواده زلزل ، وظهر فى أيامه شعراء عظام أمثال أبو المتاهية

(١) الإربل ، ص ١٠٦ - السيوطى ، ص ٢٦٠

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٩ .

والعباس بن الأحنف، ومروان بن أبي حفصة، ومؤرخين أمثال الأصمعي والواندي وفي عهده أيضا ظهر التأثير الفارسي في الحياة الاجتماعية، فاحتفل الناس بالأعياد الفارسية القديمة كالنوروز الذي أصبح يحتفل منذ قيام الدولة العباسية ما كان له من عظمة وروعة، ولم يقتصر الاحتفال بهذا العيد على الفرس حسب تقاليدهم القديمة، بل عذ عيدا شعبيا عاما، كما احتفل به الخلفاء احتفالا رسميا (١)، وأصبحت الأزياء تتبع النمط الفارسي كما انتشرت الأطعمة والأشربة الفارسية. ومن أنواع الأطعمة الفارسية التي شاعت في هذا العصر السكباج (٢) والأسفيد باج (٣)، ومن أمثلة الحلوى الفارسية الفالودج (٤) والخشكنانج (٥)،

ويتميز عصر الرشيد بقيام عدة ثورات : منها ثورات العرب في الشام ومصر والموصل، وفتنة الخوارج في الجزيرة (٦)، وخروج العلويين في طبرستان وأفريقية (تونس) وفي عصره نكب البرامكة سنة ١٨٧ هـ بعد أن

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، النوروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢ ص ٤٨.

(٢) الأبنسي، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة ١٢٩٢ ج ١ ص ٢١١.

(٣) البغدادي، الطيخ، تحقيق الدكتور داود الجلي، الموصل، ١٩٣٤ ص ٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٧٨.

(٦) ثار الصمصم الخارجي في الموصل سنة ١٧١ هـ، ونار الفضل الخارجي في صبيح سنة ١٧٦ هـ، والوحيد طريف الشاري في الجزيرة الفراتية سنة ١٧٨ هـ وحزة بن عبد الله الأزرقي في سجستان سنة ١٧٩ هـ، كما خرج كثيرون غيرهم، وقد اضطر الرشيد إلى هدم سور الموصل بسبب كثرة ثورات الخوارج بها (راجع ذلك في : فاروق عمر فوزي، الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والتأثير حزة بن عبد الله الخارجي، المجلة التاريخية، العدد ٣، بغداد ١٩٧٤ ص ٢٦٠ وما يليها).

سيطروا على الدولة اقتصاديا وإداريا، وكانوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة في الحكم، وفي الشؤون المالية، وفي الإدارة وفي العلوم والفنون، وسنتحدث عن نكبتهم بالتفصيل عند تعرضنا لعلاقة العباسيين بالفرس.

أما عن علاقة الدولة العباسية بالدولة البيزنطية فكانت علاقة حرب بخلاف علاقتها بالدولة الكارولنجية التي ارتبطت عاقلها شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) مع الرشيد بعلاقات المودة والصداقة، وتبادل الجانبان الهدايا والسفارات. ومن المعروف أن الرشيد قاد الحملات ضد البيزنطيين بنفسه، ففي سنة ١٨١ هـ خرج على رأس جيش كثيف إلى آسيا الصغرى واجتاز منطقة الثغور، واقتحم المواقع البيزنطية في آسيا الصغرى، وافتتح حصن الصفصاف، كما غزا قائده عبد الملك بن صالح بلاد البيزنطيين في نفس السنة، فبلغ أنقره (١) فاضطرت الإمبراطورة أيرين إلى شراء سلام معين لبيزنطة من العباسيين، ثم قامت في بزنطة حركة انقلابية ضد أيرين في ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) أطاح بها بحكمها، وخلفها الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١ م) الذي نقض الهدنة، وامتنع عن دفع الجزية، وهورى ابن الأئمة هذا الخبر بقوله: «وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريني فخلعتها الروم وملكوا نقفور، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان، وكان قبل أن يملك يلى ديولن الخراج، ومات ريني بعد خمسة أشهر من خلعها. فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلى أقامتكم مقام الخرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أعضائها إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا

قرأت كتابي هذا فاردت ما حصل لك من أموالها ، وافقدت نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك ، (١) . فلما قرأ الرشيد الكتاب استغفره بنفسه حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وكتب على ظهر الكتاب : وبسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تعممه والسلام (٢) . وعلى أثر ذلك زحف بجيوشه مخترقا آسيا الصغرى حتى نزل على هرقله ، ففتحها وغنم غنائم كثيرة ، وانتصر على البيزنطيين في عدة مواقع ، وأرغم الإمبراطور نقفور على إبرام معاهدة صلح تعهد له فيها بدفع الجزية من جديد . ولكن البيزنطيين نقضوا هذه المعاهدة مرة ثانية ، وهاجموا الدولة العباسية والرشيد في طريق عردينه ، وهزموا المسلمين في جنوب آسيا الصغرى منتهزين انفسهم بالخليفة يعض الفتن الداخلية ، ولكن الرشيد خرج في سنة ١٩٠ هـ وفتح هرقله والصفصاف وملقونية وغيرها ، وأسر من البيزنطيين ستة عشر ألفا (٣) ، وفرض جزية عليهم قدرها خمسون ألف دينار .

وتوفي الرشيد وهو غاز بخراسان ، فدفن بطوس في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، وكان قد بايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة : الأمين سنة ١٧٥ هـ ، ثم المأمون سنة ١٨٢ هـ ، ثم المؤتمن سنة ١٨٦ هـ ، وقسم دولته بينهم ، فمهد بالقسم الشرقي إلى المأمون ، وبالجزيرة والمعاصم إلى المؤتمن ، أما الأمين فقتل في الشام والعراق إلى آخر المغرب (٤) .

(١) ابن الأثير ٢ ص ١٨٥

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ص ١٨٥

(٣) السيوطي ، ص ٢٦٨

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٣

٦ - محمد أبو عبدالله الأمين : ١٩٣ - ١٩٨ هـ (٨٠٨ - ٨١٣ م)

هو ولد الرشيد من زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور . ولى الأمر بعد الرشيد صبيحة البيلة التي توفى فيها ، وكان المأمون حينئذ بمرور ، وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهها المؤرخون إليه (١) وأقباله على التمر وانقطاعه إلى معاشرته النجان عن تدبير الدولة ، وتوجيهه إلى جميع البلدان في طلب الملمين ، واستخفافه بأخويه وبقواده ، وإسرافه في الانفاق على ملذاته ومتعه ، على الرغم من ذلك كله ، فقد كان شجاعاً فصيحاً أديباً كريماً (٢) ، أما ما رسمه به المؤرخون فإنما يعبر عن النزعة الشموية التي اعتبرت النزاع بين الأمين والمأمون صراعاً بين القومية العربية والقومية الفارسية ، وكان من الطبيعي أن تجد المناصر للفارسية المأمون في ضراعه ضد الأمين ، لأن المأمون ، بحكم كون أمه فارسية ، يمثل النزعة الفارسية ، وكان وزيره الفضل بن سهل فارسياً ، وكان أبوه أي أبو الفضل - محمداً إلى أن أسلم في زمن الرشيد ، واتصل بالرشيد عن طريق جعفر البرمكي ، فعيّنه الرشيد مع

(١) ذكروا أنه كان سيئ التدين ، كثير التبذير ، ضعيف الرأي ، أرم من لا يصلح للامارة ، وبدلون على ذلك بأنه أمر أول ما يبيع بالخلافة ثاني يوم بيناه مبدان بجوار قصر المنصور لعب الكرة ، وأنه عزل أخاه المؤمن سنة ١٩٤ هـ ، مما كانت الرشيد ولاء ، ووقعت الوحشة بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب سعي الأمين على عزل المأمون ، فأقطع اسم الأمين من الطراز ، وقطع البريد عنه .

(٢) ابن طباطبا ، س ١٩٣ . ومن الأمثلة الدالة على كرم عنصره ، أن الفضل بن الربيع اقترح عليه لما تأزم الموقف بعد هزيمة قوات الأمين أن يأخذ لدى المأمون رهينة حتى يتفقد له مطالبه فإذا أبى تنفيذها قتلها ، فرد عليه الأمين : « أنت امرأى مجنون ، أدهوك إلى ولاية أمانة العرب والمسلمين وطمعك خراج الجبال إلى خراسان وأرفع عنك نفسك على نظرائك من أبناء العراد والملوك ، ولتدعوني إلى قتل ولدي وسفك دماي أهمل بيتي » (ابن الأثير ص ٢٥٤) .

ابنه فى إدارة القسم الشرقى من دولته ، فالفضل بن سهل هو الذى أشعل نار الفتنة بين الأخوين سمها لأقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى القرس ، وهو الذى سعى إلى فصل خراسان عن الدولة العباسية . لهذا لا نستبعد أن يكون ما وصف به الأمين من صفات ذميمة من نسج خصومه وصنائعهم القمويين . وكل ما فى الأمر أن الأمين لم يوفق فى اختيار رجاله ، ولم يفتن إلى حقيقة المؤامرات التى كان يحيكها أعداؤه ضده .

ويرجع سبب الفتنة بين الأمين والمأمون إلى أن الفضل بن الربيع وزير الأمين فطن إلى أن المأمون إذا آلت إليه الخلافة وهو حى لن يبق عليه ، فسمى الفضل إلى إغواء الأمين وحشه على خلع المأمون من ولاية العهد ، والبيعة بولاية العهد لابنه موسى بن الأمين ، فبادر الأمين بالدعاء لابنه بالإمرة بعدالدعاء للمأمون وللوثمن ، ثم خاع المؤتمن ، ووجه إلى المأمون يطلب إليه أن يقدم ابنه موسى على نفسه ويحضر عنده ، فاستشار المأمون وزيره الفضل بن سهل وخاصة ، فأغروه بالامتناع ، فامتنع ، وكتب يعتذر (١) ، وفى نفس الوقت عهد الفضل إلى استمالة العباس بن موسى رئيس وفد الأمين إليه ، ملوحاً له بإمرة بعض مواضع من مصر ، فأجاب إلى بيعة المأمون ، وأصبح العباس عيناً للمأمون يكتب إلى الفضل بن سهل بأخبار الأمين من بغداد (٢) . ثم حمل الفضل بن سهل على توسيع هوة الخلاف بين الأخوين ، فحرض المأمون على الاستقلال بخراسان عندما أرسل الأمين إلى عماله فى خراسان يطلب منهم النزول عن بعض سكورها ، فامتنع المأمون عن إجابة الأمين إلى طلبه ، وأمر بسد الطرق والمنافذ المؤدية إلى خراسان بثقات

(١) ابن طباطبا ، ص ١٩١ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٠ .

رجالاً حتى يذموا أحداً من العبور، فحظر أهل خراسان أن يستأجروا برغبة أو رهبة، وضبط الطرق بثقات أصحابه فلم يمكنوا من دخول خراسان إلا من عرفوه، وأتى بهواز، أو كان تاجراً مروفاً، وفتحت الكتب^(١)، بل عهد المأمون إلى مكاتبة ملك كابل وملوك الترك وخاقان التبت الذين خرجوا على طاعة الأمين وبعث إليهم ببعض الهدايا.

فلما علم الأمين بذلك بايع لولده موسى بولاية العهد، وسماه الناطق بالحق، وأمر بالهداية له على المنابر، وقطع ذكر المأمون والمؤمن في ربيع الأول سنة ٨١٩هـ، وأرسل إلى الكعبة بعض الحجبة فأتوه بكتابي العهد اللذين وضعها الرشيد في الكعبة ببيعة الأمين والمأمون، فأحضرهما عنده، فزقها الفضل بن الربيع. وكان لفك الأمين لمهد أبيه أثر عميق في إغضب أهل خراسان وغيرهم. ثم تطورت الفتنة، وأصبحت نزاعاً بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين، وقد ساند الأمين في موقفه ضد الفرس وزيره الفضل بن الربيع، وعلى بن عيسى بن ماهان، وعبد الرحمن بن جبلة أعظم قواده. أما المأمون فقد وقف إلى جانبه الفضل بن سهل، ومن قواده هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين. وبدأ الأمين يجهز قواته لمواجهة الفتنة، ثم أمر على بن عيسى بن ماهان بقيادتها لحرب المأمون بعد أن جهزه بخمسين ألف فارس، وكتب إلى أبي دلف القاسم بن إدريس العجلي، وهلال بن عبد الله الحضرمي بالانضمام إليه، وخرج على بن عيسى في شعبان سنة ٨١٩هـ، وركب الأمين يشيخه ومعه القواد والجنود.

وفي نفس الوقت كان طاهر بن الحسين يمسك بالري والامداد تأنيبه من خراسان، وكان يتأهب للقتال، فلما بلغ على بن عيسى ذلك - وكان مغروراً

(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ٩٣١ - ابن طباطبאה، ص ١٩٥.

بقوته، خلق بقوله : « إنما طاهر شوكة من أخصائي ، وما مثل طاهر يتسولى
الجهوش » ، وقال لأصحابه : « ما بينكم وبين أن ينصف انقصاص الشجر من
الريح والريح العاصف إلا أن يبلغه هبورنا عقبة همدان ، فإن السهال لا تقوى
على النطاح ، والبنال لا صبر لها على لقاء الأسد ، وإن أقام تعرض لحد السيوف
وأسنه الرماح ، وإذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك فى أعضادهم » (١) .

وحدث الاشتباك بالقرب من الرى ، واستطاع طاهر بن الحسين بسهولة
التغلب على قوات الامين ، ولقى على بن عيسى مصرعه ، وبويع للامون بالخلافة
فى جميع خراسان . ويالغون فى استتار الامين بالخبر ، فيذكرون أن نعى على
ابن عيسى جاءه وهو يصيد سمكا ، فنضب إذ قطع عليه الناعى لذة الصيد ، وقال :
« ويلك دهنى ، فان كوثر ا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما صدت شيئا بعد » (٢)

وتبع ذلك فترة مشحونة بالارتباك والفوضى ، فقد تحمل الامين فى الرد
على الحرمة التى أصيب بها جيشه دون إعداد مسبق أو وفاة لحظة موضوعة ، كما
أنه لم يحسن اختيار القادة ، فقد وجه عبد الرحمن بن جبلة الالبارى فى عشرين
ألف رجل نحو همدان . واستسلمه عليها وهلى كل ما يفتح من بلاد خراسان ،
فلما وصل ابن جبلة الى همدان شرع فى تحصين سورها ، ولكن طاهر بن الحسين
لم يمهله لذلك ، فأتاه الى همدان ، فخرج اليه ابن جبلة على غير تمهئة ، واشتبك
الفرقتان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة جيش المأمون ، ودخل ابن جبلة همدان ،
فأقام بها أياما أعاد خلالها جمع صفوفه ، ثم خرج لقتال طاهر ، فانهزم أصحابه

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٥ - ابن طباطبا ، ص ١٩٥ - السيوطى ، ص ٢٧٧ ،
وكوثر المشار اليه هو خادم خاص خصى كان يحبه الامين .

ووضع فيهم عسكر طاهر السيوف، وامتنع ابن جبلة في المدينة، فحاصره طاهر، فأرسل اليه ابن جبلة يطلب الامان لنفسه ولبن معه، فأمنه، وسلم له ابن جبلة همدان. ولكن ابن جبلة تظاهر بعد ذلك برضائه بأمان طاهر، ثم اغترم وهم آمنون فركب في أصحابه وبادر طاهر بالهجوم دون أن يشعر، وعلى الرغم من ذلك، فقد انهزم ابن جبلة وأصحابه، وظل يقاتل حتى قتل (١). ثم سار الامين للمرة الثالثة جيشا عدته أربعون ألفا لمحاربة طاهر بقيادة أسد بن يزيد بن مزيد، وأحمد بن مزيد، وعبد الله بن حميد بن قحطبة، وسار العسكر الى خائقين، ولكن طاهر بث العيون والجواسيس في معسكر الامين، واحتال في وقوع الاختلاف بينهم، فاختلّفوا، وانتقض أمرهم، وقاتل بعضهم بعضا، ثم السحبوا من خائقين دون أن يواجهوا عسكر طاهر. وحدث بعد ذلك أن انقلب الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان، أحد قادة الامين عليه، وخلمه وحبسه بقصر المنصور، وبايع المأمون، وتبعه في ذلك فريق من العسكر، ولكن فريقا آخر استناب من هذا التصرف، وتبعهم أهل الأرباض، فقاتلوا الحسين بن علي بن عيسى وأسروه، ودخل أسد الحرب على الامين فخاصه من قيوده، وأعادته الى قصر الخلد. ثم استقدم الامين قائدة الاسير، فعاتبه، فاعتذر اليه، وعفا الامين عنه، ثم خلع عليه وولاه العسكر، وأمره بمقاتلة المأمون، فخرج، ثم هرب، واسكن قوما أدركوه وقتلوه (٢). وفي هذه الاثناء كان طاهر بن الحسين يستولى على الأقاليم الخاضعة للامين اقلية بعد اقلية، فضم اقليم الحبشال الواقع جنوبي بحر قزوين، ثم اقليم الأهواز وواسط والمدائن، واقتربت جيوشه من بغداد، وبايع حامل الحجاز المأمون، وتمكن هرثمة بن أعين من محاصرة بغداد من الجانب

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٤٨.

(٢) ابن الأثير، ص ٢٦١، ٢٦٢ - ابن طططا، ص ١٩٦ ومايليها.

الشرقي ، أما طاهر بن الحسين فتولى حصار الجانب الغربي من بغداد ، ودام الحصار مدة ١٥ شهرا ، وقد أصيب همران بغداد من جراء هذا الحصار الطويل بأضرار كبيرة بسبب قذائف المنجنيق والنفط ، فتمت دمت أسوار المدينة ، ودمرت المباني ، واشتعلت النيران في كل مكان ، حتى زالت محاسنها ودرست معالمها ، ونفذت الآفوات في المدينة ، وانتشرت الامراض والجذاعات ، واضطر الامين الى بيع ما في خزائنه من امتعة وتحف لينفق على الجند (١) أما طاهر بن الحسين فقد هجر عن الاستيلاء على بعض احياء بغداد مثل الكرخ ومدينة المنصور وأسواق الخلد ، فبقيا طاهر دار المنكث .

ثم تخرج الامين عندما خذله كثير من اغوانه وقواده ومنهم محمد بن عيسى صاحب شرطته ، وعلى أفراهمرد الموكل بقصر صالح ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة وأخوته ، ويحيى بن علي بن ماهان ، وخزيمة بن خازم ، وترقب على ذلك سقوط أسواق الكوخ في يد طاهر ، وتحصن الامين بمدينة المنصور ، وتولى الدفاع عنه العيارون وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة ، في أواسطهم المآزر ، ونصح به بعض أصحابه بالخروج إلى الشام وإعادة جمع قواته من هناك ، فامتنع بنصيحهم ، وعزم على ذلك ، ولمكن طاهر بن الحسين علم بذلك الخبر ، فكتب إلى عدد من أصحاب الامين يأمرهم باقناع الامين بالدول عن عزمه ، وأثنوه عما أقدم عليه ، ونصح به بعض الناصحين بأن يستسلم لأخيه وينزل له من الخلافة ، فقبل أن يسلم الخاتم والقضيب والبردة وهي من ممتلكات الرسول ، لطاهر ويسلم نفسه إلى هرثمة بن أعين لكبر سنه ، ولما عرفته من قسوة طاهر ، غيّر أن

(١) اضطر الامين الى بيع ما في الخزائن من الامتعة ، وضرب آنية الفضة والذهب دنائير ودرهم (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٠٢ - الإربلي ، ص ١٨٢) .

طاهر خشى ألا يكون الأمين جادا في تنفيذ ما اعتزمه ، لا سيما وقد بلغه من قبل أنه كان ينوى الخروج من بغداد إلى الجزيرة وبلاد الشام . فوضع حول القصر كميناً بالسلاح . فلما أرسل هرثمة إلى الأمين حراسة على باب خراسان ، ونزل الأمين بالحراسة ، أرسل طاهر جماعه من العوامين خرقوها بالسهم ، وقيل قلبوها بمن فيها ، وسبغ الأمين إلى الشاطئ (١) ، فقبض عليه بعض عساكر المأمون ، وذبحوه في المحرم سنة ١٩٨ هـ ، وطافوا برأسه ، فأرسلها طاهر إلى المأمون ، فحزن المأمون لقتله ، وكان يرغب في أن يرسل إليه حياً ليرى فيه رأيه ، فحقد بذلك على طاهر بن الحسين ، وأهمله إلى أن مات طريداً بعيداً (٢) .

٧ - أبو العباس عبد الله المأمون : ١٩٧ هـ - ٢١٨ (٨١٢ - ٨٢٣ م)

هو ابن هارون الرشيد من جارية فارسية تدعى مراحل ، يورع له بالخلافة وهو بخراسان سنة ١٩٧ هـ ، ويورع له البيعة العامة ببغداد سنة ١٩٨ هـ ، وفي هذه الأثناء كان الفضل بن سهل يستبد بأمر الدولة ويدبرها من مرو التي كان ينوى اتخاذها داراً للخلافة ، ويحول الإدارة المركزية من العراق العربي إلى خراسان لفارسية ، ولكي ينفذ هذا المخطط الخطير ، حجر على المأمون ، ومنع أهل بيته وكبار قواده ، من الدخول إليه إلا بأذن منه ، ثم أمر على لسان المأمون بتعيين أخيه الحسن بن سهل على إقليم العراق والحجاز واليمن (٣) ، تمهيداً لاجل بلاد الشرق العربي ولاياته تابعة لخراسان . وقد أثار هذا الوضع ثائرة العرب في

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٤١٢ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٦ - الإبريل ، ص ١٨٥

(٢) السيوطي ، ٢٧٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٩٨

بغداد وغيرها من الحواضر العربية. واستاء له العباسيون، فثار نصر بن سيار ابن شيبث من بني عقيل بشمالى حلب فى أواخر سنة ١٩٨ هـ (٨١٤م) وتغلب على ما جاوره من البلاد، واستولى على سديسات من مدن الجزيرة، وانضم إليه حشد كبير من الأعراب، وكثرت جموعه، فأمر الحسن بن سهل طاهر بن الحسين بالسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شيبث العقيل فى أوائل سنة ١٩٩، بعد أن ولاء الموصل والجزيرة والشام والمغرب. فزحف طاهر واشتبك مع نصر بتواحي كيسوم بالزب من حلب فى قتال شديد أبلى فيه نصر وأتباعه العرب بلاء عظيما، وارتد طاهر إلى الرقة شبه مهزوم، وترتب على ذلك ارتفاع شأن نصر بن شيبث بالجزيرة، فقد قوى من أمره وأعلى شأنه، وتوافد عليه الاتباع والانصار، ولم يرض ابن شيبث أن يعمل من هذا النصر مكسبا شخصيا له، وإنما عبر عن ثباته على المبدأ عندما أتاه نفر من شيعة الطالبين فقالوا له: وقد وترت بنى العباس، وقتلت رجالهم، وأعلقت عنهم العرب، فلو بايتمت لخليفة كان أقوى لأمرك، فقال: من أى الناس؟ قالوا: نبايع لبعض آل على بن أبى طالب، فقال: دأبأبح بعض أولاد السوداءات فيقول أنه هو خلقنى وردنى؟ قالوا: دأفناييع لبعض بنى أمية، فقال: دأولئك قد أدبر أمرهم، والمدبر لا يقتل أبدا، ولو سلم على رجل مدبر لأعدائى إدباراه، وإنما هوأى فى بنى العباس، وإنما حاربتمم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم المعجم، (١).

ولم يوفق المأمون فى إخماد حركة شيبث إلا فى سنة ٢٠٩ هـ عندما حاصره عبد الله بن طاهر بكيسوم وضيق عليه حتى طلب الأمان (٢)، وكما عجز الحسن بن

(١) ابن الأثير، ص ٣٠٨

(٢) نفس المصدر، ص ٣٨٨

سهل عن إخماد ثورة نصر بن شريك العتيل ، أخفى في إخماد النتن التي اشتعلت في العراق - وبالذات في البصرة والكوفة - حيث استغل البلويون هناك ضعف نفوذ الحسن بن سهل واستبداد الفضل بن سهل بالمأمون وأعلنوا ثورتهم عليه ، ففي سنة ١٩٩ هـ ظهر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسين بن علي والكوفة ، ودعا إلى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو المعروف بابن طباطبا ، وقاد الثورة أبو السرايا السري بن منصور ، القيم بأمره في الحرب ، ونجح في إيقاع الخوذة بالجيوش التي وجهها إليه الحسن بن سهل ، واستولى على الكوفة . وعلى الرغم من وفاة محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة ، فقد تولى مكانه محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ، وانتشر الطائيون في البلاد (١) . وضرب أبو السرايا المراهم بالكوفة ، وعاث جيوشه بالبصرة وواسط ونواحيها ، فتنلب على البصرة والمدائن ، ثم ولي عمالا على مكة واليمن والأهواز والبصرة والمدائن ، واستنحل خطر حركة أبي السرايا ، واستعصى على الحسن بن سهل قمعا ، فاستنجد بالقائد هرثمة بن أعين الذي تمكن من هزيمة أبي السرايا وحمله على الفرار من الكوفة في سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إلى القادسية ، ومن هناك مضى إلى خوزستان ، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في يد الحسن بن سهل الذي قتله وبعث برأسه إلى المأمون (٢) . وفي نفس الوقت كانت الثورات

(١) وثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي ، ووثب بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي ، وزيد بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين المعروف بزيد النار لكثرة ما أرق بالبصرة من دور العباسيين ، وظهر في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي ، وفي مكة محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين التي دعت إليه السبطية من فرق الشيعة وقالت بامامته (المسعودي ، ج ٢ ص ٤٣٩ ، اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٤٥) .

(٢) المسعودي ج ٢ ص ٤٤٠ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٩

تحتاج سائر أقاليم الدولة العباسية، لا سيما في الحجاز واليمن ومصر والشام (١)،
ويرجع سبب هذه الثورات الى تغلب الفضل بن سهل على المأمون وأنه أنزله
قصرأ حجه فيه عن أهل بيته وقواده، وأنه يستبد بالامر دونه، فغضب
لذلك بنو هاشم ووجوه الناس، واجتمعوا على الحسن بن سهل،
وما جمع الثمن في الأمصار، (٢).

وفي خضم هذه الأحداث الخطيرة كان الفضل بن سهل يتحكم في أمور
الدولة في مرو، فتلقب بالقب الوزير الأمير، كما تلقب أيضا بلقب ذي الرياستين
لجمعه بين السيف والقلم. ولاصلاح الأمور كان لابد للخليفة المأمون من أن يطلعه
رجل عربي غيور على حقائق الأمور التي كانت تخفى عليه بسبب الحصار المحكم
الذي فرضه الفضل بن سهل على بلاطه، وتمثل هذا الشخص الغيور في شخصية
هرثمة بن أعين القائد العربي، الذي قرر السير الى مرو ليبصر الخليفة
بالمؤامرات التي يبرها بنو سهل وصنائعهم القرس، وفطن ابن سهل الى نوايا
هرثمة، فاستصدر أسرا من الخليفة بتوليته الشام والحجاز حتى يبعده عن
خراسان، ويحول بينه وبين الاتصال بالمأمون، ولكن هرثمة رفض أن يتغذ
هذا الامر، وواصل سيده الى مرو قائلا: لا أرجع حق الق أمير المؤمنين
إدلالا منه عليه، ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه، وأراد أن يعرف المأمون
ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الاخبار، وأنه لا يدعه حتى يردّه
الى بغداد لتوسط سلطانه (٣).

(١) اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٦ وما يليها

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٠٢

(٣) نفس المصدر، ص ٣١٥

وبلغت هذه الكلمات مسامع الفضل ، فأوهم المأمون بأن هرثمة هو الذي أثار عليه البلاد ، وهو الذي دس أبا الصرايا ، وأنه خالف أمر أمير المؤمنين عندما قلده ولاية الشام والحجاز ، وحث الفضل الخليفة على تأديبه حتى يكون عبرة لمن يعتبر . ونجح الفضل في تغيير قلب المأمون على هرثمة ، فلما وصل هرثمة مرو ، أمر الفضل بالطبول فدقت لكي يسمعها المأمون ، فسأل المأمون عنها ، فقالوا له : « هرثمة قد أقبل يرعد ويبق . » وفي نفس الوقت ظن هرثمة أن قرع الطبول يعني قبول قوله ، فأمر المأمون بإدخاله ، ثم وجه إليه تهمة تأليب أبي الصرايا وأهل الكوفة العلويين عليه ، ولم يقبل منه أى عذر أو اعتراض ، فأمر به فديس بطنسه ، وضرب أنفه ، وحبسه ، أما الفضل فقد أمر أعوانه بالتشديد عليه وتعليقه (١) ، وأقام هرثمة أياما في سجنه ثم توفي مقتولا . وثار أهل بغداد على الحسن بن سهل ، وطرّدوا عماله من بغداد ، كما أخرجوا على بن هشام وإلى بغداد من قبل الحسن بن سهل ، وأرادوا أن يبايعوا المنصور بن المهدي العباسي بالخلافة ، فامتنع عن ذلك ، ثم عرضوا عليه الإمرة عليهم على أن يدعو للمأمون بالخلافة ، فأجابهم إليه (٢) في سنة ٢٠١ هـ عند ما أصرّوا على ذلك قائلين : ولا نرضى بالمجوسى بن المجوسى الحسن بن سهل ، (٣) ، وتضامن أهل بغداد على إصلاح ما فسد من أحوال الأمن ووضع حد للجرائم الشطار وقطاع الطرق والمعايشين في بغداد نفسها ، وعرف هؤلاء الذين قهرّدوا لذلك بالمتطوعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة . ووجد الفضل بن سهل — بعد أن تخلص من هرثمة — الطريق أمامه مهيئا لنقل الخلافة من العباسيين إلى

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣١٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٧١

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧٢

العلويين ، فزال يزين الامر للمأمون لتنفيذ هذه الخطوة ، وينفرد من آله العباسيين الذين خرجوا عليه في بغداد ، مستغلا في ذلك ما كان يتحلى به المأمون من مرونة تجاه العلويين^(١) ، حتى أقنعه بأن يختار الامام على الرضا بن موسى الكاظم وليا لعهده في سنة ٢٠١ هـ . ويذكر المؤرخون أن المأمون نظر في بني العباس وبني علي ، فلم يجد أحدا أفضل ولا أروع ولا أعلم منه ، فاستقدمه المأمون إلى مرو ، وأنزله أحسن إنزال ، ثم بايع له بولاية العهد ، ولقبه الرضى من آل محمد (صلعم) ، وأمر جنده بطرح السواد من الثياب والاعلام وليس الثياب الخضراء في رمضان سنة ٢٠١ هـ ، وضرب اسمه على الدراهم والدراهم ، ثم زوجه من أم حبيب ابنته ، وزوج محمد بن علي بن موسى الرضا بابنته أم الفضل^(٢) . والظاهر أن الإمام على الرضا أطلع المأمون على حقيقة الاوضاع ، وأطلعه على سوء الحال من الفتن والحروب والثورات التي استمرت هكذا قتل الامين ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار^(٣) . وهكذا تظاهر المأمون وعلى الرضا برضاها عن تحويل الخلافة الى العلويين ، حتى لا يتهدد ربيعة الفضل ابن سهل .

-
- (١) لمزيد من التفاصيل راجع : فاروق عمر فوزى ، سياسة المأمون تجاه العلويين ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، عدد ١٦ - سنة ١٩٧٣ م ٢٧٥ - ٢٩٨ .
 (٢) المدودي ، ج ٣ ص ٤٤١ - ابن طباطبا ، ص ١٩٩ .
 (٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤٦ . كذلك أبلغه أن الفضل بن سهل كذب عليه وأن الناس يهدون على المأمون مكان الفضل ومسكان أخيه الحسن ومسكان الامام على الرضا ، واستعفى الامام على الرضا عددا من اليهود فأخبروه بأن أهل بغداد يهايسوا لاراهيم ابن المهدي وأنهم سموه الخليفة السني على أساس اتهامهم للمأمون بالفرنس ، ثم اطلعه على أكاذيب الفضل فيما يتعلق بهرمة بن أعين ، وطالبوا المأمون بالخروج إلى بغداد (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤٧) .

ولكن أهل بغداد أبوا أن يخرج الخلافة من ولد العباس ، ووطنوا بأن
تحويلها إلى العلويين حادثة في مؤامرة خططها الفضل بن سهل (١) ، وكانوا قد
استاءوا من منصور بن المهدي لاعتماده على الشطرنج بطانته . فبايعوا إبراهيم
ابن المهدي (٢) بالخلافة ، ولقبوه المبارك ، وخلصوا المأمون في غربة المحرم
سنة ٢٠٢ هـ ، وبايعه سائر بني هاشم ، فاستولى إبراهيم على الكوفة والسواد
كله ، واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس بن موسى الهادي ، وعلى
الجانب الشرقي منها إسحاق بن موسى الهادي .

وعزم المأمون على السير إلى العراق ، فتحرك إلى سرخس ، وهناك اغتيل
الفضل بن سهل في حمامه غيلة في حمام دار المأمون في ٢ من شعبان ، فاستعظم
المأمون ذلك ، وأمر بقتل قتله . وقيل أنه هو الذي أمر بقتل الفضل بن سهل ،
وذلك أنه لما رأى إنكار أهل بغداد لما فعله من نقل الخلافة إلى بن علي ، وأنهم
نسبوا ذلك إلى الفضل بن سهل ، ورأى الفتنة قائمة ، دس جماعة على الفضل
ابن سهل فقتلوه في الحمام ثم أخذهم وقدمهم ليضرب رقابهم ، فقالوا له :
« أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا . فقال : أنا أقتلكم بأقراركم ، وأما ما ادعيتموه على
من أني أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بيينة » (٣) .

وفي مدينة طوس توفي الامام علي الرضا فجأة في صفر سنة ٢٠٣ هـ ، بسبب
غضب أكبر منه ، وقيل لئيب مسموم (٤) ، فحضر عليه المأمون ، ودفنه عند قبر أبيه

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٦

(٢) كان يعرف بابن شكلة (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١)

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٩ ومايليها

(٤) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١ - ابن الأثير ج ٦ ص ٣٥١

الرشيذ . ثم جاء المأمون في المساء إلى بغداد ، فلما علم إبراهيم بن المهدي بقرب وصوله فر من بغداد في ١٢ من ذي الحجة سنة ٢٠٣ ، ووصل المأمون إلى بغداد ، فنزل الرصافة ، ثم تحول ونزل قصره على شاطئ دجلة ، وكان قد استقدم معه طاهر بن الحسين من الرقة ليوافيه بالنهرين ، ويصحبه إلى بغداد . ولما استقر في بغداد ، تلقاه العباسيون ، وسألوه أن يترك لباس الحضرة ويأمر بالعودة إلى السواد ، فأجابهم إلى ذلك في ٢٣ صفر سنة ٢٠٤ .

أما إبراهيم بن المهدي فقد أمر المأمون بالبحث عنه ، فظفر به في سنة ٢١٠ وكان متشكراً في ذي أمراء ، فدعا المأمون عنه ، وأما الحسن بن سهل فقد هربه عن ولاية العراق ، واستوزره بغير المصاحبه بحد قتل أخيه ، وتزوج بابنته يوران في رمضان سنة ٢١٠ . أما طاهر بن الحسين فقد ولاد المأمون خراسان في سنة ٢٠٥ ، بينما ولي ابنه عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر ، وتوفي طاهر في جمادى الأولى سنة ٢٠٧ هـ ، وقيل أنه كان ينوى الاستقلال بخراسان ، وقطع اسم المأمون في الخطبة ، ولكن الموت فاجأه ، فقد ذكر ابن الأثير أن كلثوم بن ثابت بن أبي سعيد ، القائم بالبريد في خراسان قال : فلما كان سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة ، فصعد طاهر المنبر ، فنخطب ؛ فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له ، وقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أوليائك ، واكفنا مؤونة من بنى علينا وحشد فيها ، بلم الشمت وحقق الدماء وإصلاح ذات البين ، (١)

ومن بين الثورات التي قامت في عهد المأمون :

١ - ثورة حرب مصر وأقباطها سنة ٢١٦ هـ :

قامت بالوجه البحري بسبب تعسف الولاة وتشددهم مع الأقباط والعرب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٢

في حيازة الضرائب والجزيات وقد شملت هذه الثورة كل بلاد الوجه البحري ، واضطر المأمون إلى الخروج بنفسه إلى مصر في سنة ٢١٣ . لتهدئة الاحوال ، فأقام بها ٤٧ يوما ، والظاهر أن المأمون استخدم العنف في القضاء على هذه الثورة ، وعهد إلى الافشين بمحاربتهم وخاصة قبط البشرد من أهل الحوف ، فقتل منهم الافشين عددا كبيرا . وسباهم ، فنزلوا على حكم المأمون . واستفق المأمون في ذلك فقياها مالسكيا بمصر يقال له الحارث بن مسكين فقال : إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا تحمل دماؤهم وأموالهم . فقال المأمون : أنت تيس ومالك أتيس منك ، وهؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام ، وليس لهم أن يستنصروا بأسيا فهم ، ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم . وأخرج المنصور رؤسهم فحملهم إلى بغداد (١)

٢ — ثورة الزط (٢) في جنوبي العراق بنواحي البصرة :

قام الزط بثورتهم منذ قيام الفتنة بين الامين والمأمون ، وقد ولي المأمون لمحاربتهم في سنة ٢٠٥ هـ عيسى بن يزيد الجلودى (٢) ، كما عهد في العام التالي لمحاربتهم

(١) البغوي ، ج ٢ ص ٤٦٦ — السكندى ، ولاية مصر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ص ٢١٦ .

(٢) هم في الأصل من أهل السند والبشباب وولعوا في سبي الفرس ، وأسلوا زمين الفتوحات ، فأنزلهم أبو موسى الأشعري في البصرة . كذلك أتى الحجاج بجاعة من زط السند ومعهم أهلهم وأولادهم وجوامعهم فأسكنهم بأهل كسكر ، فقبلوا على البطيحة وتنازلوا بها . ثم انضم اليهم قوم من أباقي العبيد وموالي باهلة وخولة محمد بن سليمان بن علي وغيرهم فجمعهم على قطع الطريق ومبادرة السلطان بالمصيبة ، وكان مهمم بادی ذي بدء اختلاس الشيء الطفيف من أهل السفن ، فتعاضى الناس المرور بهم في أيام المأمون . (راجع البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة الدكتور المنجد ، ج ٢ ص ٤٦٢ . ولزيد من الاخبار عن الزط أو الجت بالهندية راجع : القاضي أطهر مبار كپورى الهندى ، العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت عبد الجليل ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٧ — ٥٨) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٦٤ .

قائده داود بن مسحور وأسند اليه أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين (١)، واستمر الزط يشكون خطرا كبيرا على الموارد الاقتصادية للدولة العباسية، إذ كانوا يقرضون المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد (٢)، ولم تخمد حركتهم إلا في سنة ٢١٩ هـ عندما وجه المعتصم لمحاربهم قائده عفيف بن عنبسة في جمادى الآخرة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وكانوا غلبوا على طريق البصرة، وأخذوا الغلات من البيادر بكسكروا ما يليها من البصرة، وأخافوا السيل، ورتب عفيف الحيل في كل سكة من سكك البريد تركض بالآخبار، فكان يأتي بالآخبار من عفيف في يوم، فسار حتى نزل تحت واسط، وأقام على نهر يقال له بردودا حتى سده، وأتارها آخر كانوا يخرجون منها ويدخلون، وأخذ عليهم الطرق، ثم حاربهم، فأسر منهم في معركة واحدة ٥٠٠ رجل وقتل في المعركة ٣٠٠ رجل فحرب أعناق الأسرى» (٣). ثم خرج الزط إليه، بعد أن أمنهم، في ذي الحجة سنة ٢١٩ هـ، وبلغ عددهم ٢٧ ألفا بما في ذلك النساء والصبيان، والمقاتلة منهم ١٢ ألفا، ثم عبأهم في سفنهم ومعهم البوقات، ونقلوا بعد ذلك إلى عين زربة (٤)، وظلوا هناك إلى أن أجاز البيزنطيون على عين زربة في سنة ٢٤١ هـ في خلافة المتوكل العباسي، فأسروا كل من كان بها من الزط مع نساءهم وذراهم ودوابهم (٥)، ونقلوهم إلى القسطنطينية، ويبدو أنهم انتشروا من هناك في

(١) ابن الأثير، ص ٣٧٩

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٠٨

(٣) ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٤٣

(٤) نفس المصدر، ص ٤٤٦. وذكر اليعقوبي والبلاذري أنه أسكن بعضهم خاقين (البلاذري، فتوح البلدان، ج ٢ ص ٤٦٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٧٢).

(٥) نفس المصدر، ج ٧ ص ٨٠

نواحي أوروبا الغربية ونزل بعضهم إسبانيا ، ولعل الفجر (المسمون بالاسبانية Gitanos) من سلالة هؤلاء الزط لتشابه كلمة زط بالاسم الفارسي لهم وهو جت وتقارب جت من جيتانو الاسبانية ، سيما وأن هؤلاء الزط اشتهروا في المشرق الاسلامي باشتغالهم بالنساء والرقص وإلقاء الجماهر^(١) . وسنعود إلى الحديث عنهم .

٣ - حركة بابك الخرمي :

وبدأت هذه الحركة في سنة ٣٠١ هـ في الجاويدانية ، وم أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ ، وادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه ، وقال بالتناسخ^(٢) . واستفحل خطر هذه الحركة الأمر الذي دفع المأمون إلى محاربة بابك ، فسير إليه في سنة ٣٠٤ قائد يحيى بن معاذ ، ولكنه لم ينجح في مهمته^(٣) ، ثم أعاد المأمون الكرة في سنة ٣٠٦ هـ ، وسير لمحاربة بابك قائد هيسى بن محمد بن أبي خالده ، ولكن بابك هزم قواته المأمون ونكبها^(٤) ، وقابع المأمون تسخير قواته لمهاجمة بابك ، ففي سنة ٣٠٩ هـ عهد إلى علي بن صدقة المعروف بزريق ، واليه على أرمينية وأذربيجان ، بمحاربة بابك ، ولكن بابك أسر أحد القادة الذين سدد زريق لمহারبته^(٥) . وظل أمر بابك

(١) المبادئ ، للرجع السابق ، ص ١٠٨ ، وراجع أيضا الفيصلات من هذا الموضوع في بحثه القيم بعنوان : حركة الزط في العصر العباسي الأول ، من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لعرق الجزيرة العربية ، الدوحة ٧١ - ٢٢ مارس ١٩٧٧ ، ص ٤٤ - ٤٩ من ملخصات البحوث .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٧٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٠ ، أمر بابك القائد أحمد بن الجنييد الإسكافي .

يشدد ، وجموعه تشكأثر ، حتى آلت الخلافة إلى المعتصم ، فشولى قائد. الأفشين
مطاردته على النحو الذى سذشير اليه فيما بعد .

✧ ✧ ✧

وعلى الرغم من الفتن والثورات التى ملأت عهد المأمون ، فإن عصره يعتبر
من أزهى عصور الدولة العباسية من الناحية العلمية ، فقد إهتم بالمسائل العلمية
والفلسفية ، وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم ، فزود دار الحكمة التى كان
الرشيد قد أسسها فى بغداد بمختلف أنواع الكتب من الهند وبلاد الروم والفرس
حتى أصبحت دار الحكمة أشبه بحمامة عليية تضم داراً للكتب يجتمع فيها شيوخ
العصر للترجمة والتأليف والتحصيل ، كما خصص فيها مواضع للنساخين وذكروا
أنه استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص (١) ، واطلع على الكثير
بما جاء فيها ، فكان أول من فحص من الخلفاء ، عن علوم الحكمة وحصل كتبها
وأدر بنقلها إلى العربية وشهرها ، وحل اقليدس ، ونظر فى علوم الأوائل ، وتكلم
فى الطب ، وقرب أهل الحكمة ، (٢) ، وجره ذلك إلى القول بخفى القرآن (٣) ،
وامتحان القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن ، فن أقر أنه مخلوق محدث خلق سبيله
ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه ، ومن امتحنهم فى ذلك الامام أحمد بن حنبل
الذى أصر على أن القرآن كلام الله ، فأمر به فشد فى الحديد ، ثم أمر به فأرسل
إلى طرسوس مع جماعة من خالفوا المأمون فى مقالته (٤) .

(١) السيوطى ، س ٣٠٣ . وقد إهتم بترجمة هذه الكتب وغيرها من لغاتها إلى
العربية ، واشتغل بذلك حنين بن اسحق وبخيشوع والحجاج بن مطر وثابت بن قرة

(٢) ابن طباطبا ، س ١٩٨

(٣) السيوطى ، س ٢٨٤ . أبدت المعتزلة قيا ذهبوا اليه من القول بأن القرآن مخلوق ،

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٢٧

وكان المأمون يحب لعب الشطرنج ، ويولع به ، وكان يمرر ذلك بقوله
« هذا يشبه الدهن » ، واقترح فيها أشياء ، وكان يقول : ولا أسمن أحدا يقول
تمالي حق نلب ، ولكن يقول : نتداول أو نتناقل (١) .

وكان المأمون يشترك في المناظرات في الفقه ، فأوجد مجالس للمناظرة ،
وكان يجلس لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكانت المناظرات تتناول
المسائل الكلامية ، وتجري داخل غرفة مفروشة . وجرت العادة أن يبدأ المأمون
مع من يناظره من الفقهاء يتناول الطعام والشراب ، فإذا فرغوا بخصروا بالمحارم
وطيبوا ، ثم يبدأ في مناظرتهم إلى أن تغرب الشمس ، ثم تنصب الموائد ثمانية
فيطعمون وينصرفون (٢) .

وقد أجمع المؤرخون على أن المأمون كان أفضل رجال بني العباس حزمًا
وعزماً وحلماً ورأياً ودهاءاً ومهابة وشجاعة ، وأنه لم يل الخلافة من بني العباس
أعلم منه (٣) .

وفي عهد المأمون قامت في الدولة البيزنطية ثورة يزعمها توماس الصقلي
ضد الامبراطور البيزنطي ميثيل الثاني العموري في سنة ٩٠١ م (٨٢١ م)
كادت تطوح بمرش الامبراطور ، وقد أيد المأمون ثورة توماس وأمدّها بقوة
إسلامية مقابل أن يتنازل له توماس ، بعد أن يتحقق هدفه ، عن بعض الحصون
البيزنطية ، ولكن ثورة توماس فشلت بعد عامين في سنة ٨٢٣ م .

(١) السيوطي ، ص ٣٠٠

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٣٢ - السيوطي ، ص ٣٠٣

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٧ - السيوطي ، ص ٢٨٤

٨ - أبو اسحق محمد المعتصم : ٢١٨ - ٢٢٧ هـ (٨٣٣ - ٨٤٢ م)

هو ابن الرشيد من ماردة أم ولده التركية ، بويغ له بعد وفاة أخيه المأمون وهو في غزواته الأخيرة إلى بلاد البيزنطيين في رجب سنة ٢١٨ ، وقد سار المعتصم على سياسة أخيه في حمل الناس على القول بخلاف القرآن ، فأهان ابن حنبل إهانة بالغة ، فقد أحضره أول خلافته وامتنع بالقرآن ، فلم يجب إلى القول بخلافه ، فأمر به فجلد جلدًا شديدًا حتى غشي عليه ، وتقطع جلده ، وحبس مقيدًا (١) كذلك تشدد المعتصم مع العلويين ، ففصل من الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى في ٥ من ذي الحجة سنة ٢١٩ ، فقد قيل أن أم الفضل بنت المأمون سمته لما قدمت معه من المدينة إلى المعتصم (٢) ، كذلك قبض على محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين العلوي ، فسجنه في أزج اتخذته في بستان بمدينة سر من رأى ، ثم دس إليه السم فأت (٣) ، وإن كان فرسج من الزودية اعتقدوا أنه لم يموت وأنه مهدي هذه الأمة (٤) .

وكان المعتصم شجاعًا قويًا من أشد الناس بطشًا (٥) ، وكان قائدًا موفقًا في حروبه ، حتى لقد استحق لقب الخليفة القائد ، وهو أول من أدخل الأتراك في الديوان ، وكان يقتببه بملوك الأعاجم ، ويمشي مشيتهم (٦) ، واعتمد المعتصم على

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٥

(٢) السمودي ، ج ٣ ص ٤٦٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦٥

(٤) نفس المصدر

(٥) السمودي ، ج ٣ ص ٤٦٥ — السيوطي ، ص ٣١٠

(٦) نفس المصدر

الأثرak اعمادا كلياً في الجيش (١)، وأسقط العرب من ديوان العطاء ، وأهمل الفرس ، فقويت شوكة الأثرak ، وارتكبوا الكثير من أعمال الشغب ببغداد ، مما أثار عليهم العامة (٢) ، فاضطر المعتصم إلى تأسيس مدينة تلحيف لجند الأثرak ، فأسس مدينة سامرا في سنة ٢٢١ هـ (٢) ، وانتهى من بنائها في ٢٢٣ هـ ، وأقام فيها مسجداً جامعاً ، وأفرد سوقاً لأرباب الحرف والصناعات ، ونقل إليها الأشجار والثمار ، وأقام القصور العظيمة التي بلغ عددها ١٧ قصراً . وفي عهد المعتصم ازداد خطر بابك الخرمي الذي لاذ بالاقاليم الجبلية الشمالية الشرقية منذ سنة ٢٢١ هـ ، ولكن المعتصم وضع كل إمكانياته العسكرية للقضاء عليه ، وعهد بهذه المهمة إلى قائده الأفشين الذي نجح في القبض عليه ، وسيره إلى الخليفة بسامرا حيث قتل شر قتلة في سنة ٢٢٢ هـ (٢) .

والمعتصم هو بطل عمورية ، وفي عهده ساءت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، وكان الامبراطور البيزنطي تيوفيل بن ميشيل العموري يعين بابك الخرمي بمعدونات عسكرية انتقاماً لما فعله العباسيون زمن المأمون من مساعدتهم لتوماس الصقلي ، فقد أغار البيزنطيون في سنة ٢٢٣ هـ على مدينة زبطرة وفتحوها بالسيف ، ثم أغاروا على صلطية وقتلوا ونهبوا وسبوا ،

(١) ذكر المسعودي أنه كان يحب جمع الأثرak وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم ٤ آلاف ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة ، وميزهم في الزى عن سائر جنوده ، وكان قد استطاع قوماً من حوف مصر فساحم المظاربة ، واستكثر من الفراغة والأشروسية (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٦٥)

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦٦

(٣) راجع التفاصيل في : اليعقوبي ، ج ٢ ص ٧٤ - المسعودي ، ج ٣ ص ٤٧٠ ، ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٨

فاستغفر المعتصم قواته ، وسار على رأس جيش ضخم يقوده الافشين وأشناس ، وتمكن من هزيمة الامبراطور البيزنطى فى أنقره ، ثم حاصر محورية ودخلها بالسيوف ، وتركها أربعة أيام نهبا للسلب والتدمير ، وأراد المسير الى القسطنطينية ومحاصرتها برا وبحرا ، فبلغه عزم العباس بن المأمون على الخروج عليه ومكاتبه الامبراطور البيزنطى ، فاجل المعتصم فى مسيره ، وقبض على العباس وأنصاره ، وفى متبج منع عنه الماء فمات بها (١) .

وفى أيام المعتصم خرج المازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان (وكان على ما يظهر من الحرية) على المعتصم فى سنة ٢٢٤ هـ ، ويرجع سبب ثورته الى أنه أراد انتزاع الأرض من كبار الملاك العرب وتوزيعها على الفلاحين ، فأغرى الفلاحين بقتل أرباب امتناع (٢) فأمر المعتصم قائده عبد الله بن طاهر بمحاربته ، فسير اليه عبد الله بن طاهر من نيسابور عمه الحسن بن الحسين ، الذى تمكن من أسره ، وحمله الى سامرا سنة ٢٢٥ هـ ، وهناك أقر بأن الافشين هو الذى حرّضه على العصيان لاتفاقها فى المجوسيه ، فأمر المعتصم بجلده حتى الموت ، ثم صلب الى جانب بابك . أما الافشين فقد مات فى الحبس ، ثم أخرج من سجنه ميتا فصلب بباب العامة بسامرا (٣) .

وفى أيام المعتصم أيضا خرج أبو حرب المبرقع اليماني بفلسطين سنة ٢٢٦ هـ ، ويرجع السبب فى ثورته الى أن بعض الجنود اعتدوا على إحدى نساياه بالسطو فاصابها إصابة دامية ، فغضب وقتل الجندي ثم هرب ، وألبس وجهه برقا ، ودعا

(١) الطوقى ، ج ٢ ص ٤٧٦ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩١ - ٤٩٢

(٢) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٢

(٣) المسودى ، ج ٣ ص ٤٧٤ - ابن الأثير ، ص ٥١٠ ، ٥١٨

الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزعم أنه أموى ، فسمى بالسفهاء ، فلما كثر أتباعه وانضم اليه جمع من رؤساء اليمينية ، خاف المعتصم أن يستفحل أمره ، فسير اليه رجاء بن أيوب الحضاري في نحو ١٠٠ ألف مقاتل ، فرآه رجاء في حشود هائلة ، فسكرو موافقته ، وعسكر تجصاه ، وكان الوقت أو ان الزراعة ، فانصرف من كان مع المبرقع الى عملهم ، وبقي في نحو ألف أو ألفين . وتوفي المعتصم في هذه الاثناء وولى الواثق ، واتفق أن تار القيسية بدمشق أيضا ، فأمر الواثق القائد رجاء بالشروع في إخماد فتنة دمشق والعودة بصد ذلك الى المبرقع ، ولكن المبرقع وقع أسيرا في يد رجاء ، فأرسل الى سامرا (١) .

٩ — الواثق بالله : ٢٢٧ — ٢٢٢ (٨٤٢ — ٨٤٧ م)

هو أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم ، وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ، وكان الواثق يشارك أباه المعتصم في ميوله وآرائه الفلسفية ، ففقده مع الفقهاء ، وألزمهم باعتراف آرائه ، وانتصر للمعتزلة ، وقد أثار بهذه السياسة مشاعر أهل بغداد ، فسخطوا عليه ، وأنكروا القول بخلق القرآن ، وتزعم هذه الحركة أحمد بن نصر الخزاعي في سنة ٢٣١ ، ولكن الواثق توصل الى القبض على زعماء الحركة ، وجلس لهم مجلسا عاما فيه أحمد بن أبي دؤاد قاضى القضاء ، وناظر أحمد بن نصر في مشكلة خلق القرآن . فأفكر عليه ابن نصر ذلك ، فقام الى سيف يقال له الصمصامة وضربه على رقبتة ثم طمئه بطرف سيفه في بطنه ، وأمر بصلب رأسه عند باب الخرمى ببغداد (٢) .

وبوفاة الواثق في سنة ٢٣٢ ينتهى خلفاء العصر العباسى الاول .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٢٢ — ٥٢٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٢ — السيوطى ، ص ٣١٥

الفصل الثالث

السياسة الداخلية

(١)

سياسة خلفاء العصر العباسي الاول مع
الامويين والعلويين والفرس

١ - مع الامويين :

لم تضع معركة الزاب حداً لمقاومة الامويين ، فقد أعلن أنصار الامويين الثورة على العباسيين في حمص وقنسرين والجزيرة وحوران ، واتخذ الشوارب الاعلام البيض شعاراً لهم ، ولكن ابا العباس تمكن من إخماد هذه الثورات بالقوة حيناً وبالتسوية السلبية (الوعود والاموال) حيناً آخر ، واضطر أبو العباس إلى تسيير أخيه أبي جعفر المنصور لمساعدة الحسن بن قحطبة في حصاره لابن هبيرة في واسط ، فاستمر العباسيون يحاصرون هذه المدينة نحو ١١ شهراً لا قوا خلالها مقاومة عنيفة من ابن هبيرة وقواته ، وحاول العباسيون حرق واسط عن طريق سفن ملأوها حطباً وأصروا فيها النار ثم وجهوها إلى المدينة لتحرق ما يتأهلها ، ولكن ابن هبيرة كان يبادر بسحب هذه السفن بواسطة حراقات مزودة بكلايب (١) ، تهر تلك السفن ، ثم هدد أبو العباس إلى التزريق بين قوات ابن هبيرة ، ونجح في تحقيق هذا الهدف ، فأبت اليمنية أن تقاتل ، لتعين مروان بن محمد ، وقالوا : لانعين مروان وآثاره فينا ظاهرة ، ، بينما

رفضت الزارية أن تقا تل حتى يقا تل معها اليمية ، ثم أن أبا العباس أخذ يكاتب اليمية من أتباع ابن هبيرة ، ويطعمهم بالوعود ، فأجابه اليمية وعلى رأسهم زياد بن صالح الحارثي عامل ابن هبيرة السابق على الكوفة وأقرب أصحابه إليه ، وعلى هذا النحو خذل اليمية ابن هبيرة ، ونحلى الزارية عنه ، ولم يبق معه سوى الصماليك والفتيان (١).

ولم يجد ابن هبيرة بدا من فتح باب التفاوض مع العباسيين ، خاصة وقد وصلت له الأنباء بمصرع مروان بن محمد ، فطلب الصلح مع الأمان ، فأجيب إلى طلبه ، وكتب له كتاب أن شرط له فيه ما سأل ، وختمه أبو العباس (٢) . ولكن العباسيين لم يفوا بعهدهم له ، فقد وقع في يد أبي العباس كتب لابن هبيرة إلى محمد بن عبد الله بن حسن يمايع له فيها ويملن له أن لديه أموالا وعدة وسلاحا ، وأن معه عشرين ألف رجل ، فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر المنصور يأمره بضرب عتق ابن هبيرة . كما كتب أبو مسلم الخراساني يحرض المنصور على قتله ، وينصحه بأن يتخاص منه لأن أمر العباسيين لا يستقيم ما دام ابن هبيرة حيا ، فوجه المنصور لقتله رجلا مضريا يقال له خازم بن خزيمية التميمي ، أتاها في جماعة وهو جالس في رحبة القصر بواسطة ، فقتلوه ، وقتلوا قواده وأصحابه عن آخرهم (٣) .

وبذلك تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري ، ولكن بقي عليه أن يتخاص من بقايا البيت الأموي ، ليتحقق له بذلك القضاء على كل نفوذ لهذا البيت بين أنصاره والمتعصبين له ، فلا يفكر هؤلاء الأنصار في البحث عن

(١) المصدر السابق

(٢) البيهقي ، ج ٢ ص ٣٥٣

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٤

أمير أموى يستعيد سلطان الأمويين من جهة ، وليشبع انتقامه الشخصى منهم لما فعلوه ببني هاشم عامة من قتل وسجن وتعذيب وتشريد .

وتنفيزا لهذا المبدأ، تتبع العباسيون بقيادة عبد الله بن على العباسى مروان ابن محمد بالشام حتى فر إلى مصر ، مارا بالأردن وفلسطين ، وكان عبد الله بن على قد وجه وهو على نهر أبى فطرس بفلسطين صالح بن على فى طلب مروان ، فسار صالح إلى الرملة ومنها إلى ساحل البحر حيث جمع السفن ، وتجهز يريد مروان وهو بالقرماء ، فسار على الساحل والسفن حذاءه فى البحر حتى نزل العريش ، ، ولكن مروان فر منها إلى القسطنطينية ثم عبر النيل وقطع البحر ، وذهب صالح يتبعه من موضع إلى آخر حتى أحاط به فى كنيسة نزل بها فى أبى صير ، فقتلوه ، واحتزوا رأسه ، وبعث بها صالح بن على إلى أبى العباس (١) ولما وصل رأس مروان إلى أبى العباس — وكان بالكوفة — ورآه ، سجد ثم رفع رأسه وقال : « الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرن بك ولم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، وتمثل :

لو يشربون دى لم يرو شاربهم . . ولا دماؤهم للغيظ تروينى (٢)

فطلب الثأر من البيت الأموى كان هدفا من أهداف العباسيين ، بدليل ما رواه المسمودى إذ يقول ، عندما تعرض "لذكر مصبرع مروان بن محمد : « فلحقوه بمصر وقد نزل بوسير ، فبايتوه . وجمعوا على عسكره ، وضربوا

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ١٣٦ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧

(٢) ابن الأثير ، ص ٤٢٧ .

بالطبول ، وكبروا ، وتنادوا : يا لثارات ابراهيم ، (١) . وذكر أيضا أنه لما أتاه رأس مروان ، ووضع بين يديه ، سجد وأطال السجود ، ثم حمد الله ، ثم قال : وما أبالي متى طرفني الموت ، فقد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم ، (٢) .

ومثل آخر استدل منه على هدف آخر من أهداف العباسيين ، وهو القضاء على بني أمية ، واستئصال شأفتهم ، حتى يفقد أنصارهم كل أمل في إحياء دولتهم . فقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد استأمن إلى أبي العباس ، و قد قدم معه بائنين له ، فأكرمه أبو العباس وبره وأجلسه وابنيه على المنارق والكراسي ، فكان أبو العباس يجلس بالمشيات ويأذن لحواصه وأهل بيته ، فدخل عليه أبو الجهم ليلة وقد أذن لأهله وخواصه ، فقال له : إن أعرابيا أقبل يوضع على ناقة ، حتى أناخها بالباب وعقلها ، ثم جاء بي وقال : استأذن لي على أمير المؤمنين ، فقلت : اذهب وضع عنك ثياب سترك ، وعد علي ، سأستأذن عليه ، فقال : إني آليت ألا أضع عنى ثوبيا ، ولا أحل لثاما ، حتى أنظر إلى وجهه ، قال (أبو العباس) : فهل أنبيأك من هو ؟ قال : نعم زعم أنه سديف مولاك ، فقال : سديف ؟ أذن له . فدخل أعرابي كأنه محجن ، فوقف ، فسلم عليه بإمرة المؤمنين ، ثم تقدم فقبل بين يديه وربليه ، ثم تأخر ، فوقف مثله ، ثم اندفع فقال :

(١) المسعودي ، ج ٣ من ٢٤٦

(٢) نفس المصدر ، من ٢٥٧

ضم ١٥١

أصبح الملك ثابت الأساس باليهليل من بني العباس
يا أمير المعلمين من الرجب ويارأس منتهى كل رأس
أنت مهدي هاشم وهداهما كم أناس رجوك بعد آياس
لا تقبلن عبد شمس عشارا واقطنن كل رقلة وغراس
أفنها أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شافة الأرجاس
انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتناس
ولقد ساءني وساء قبييلى قريهم من تمارق وكراسى .

فأمر أبو العباس أبا الجهم باخراجهم وضرب أعناقهم ، وفعل . وأثناء
برؤوسهم (١) . وقد تلقى عبد الله بن علي العباسي بالشام بقايا البيت الاموي
رجالا وأطفالا بالقتل تمهيدا للتضاء عليهم وتصفية البيت الاموي من أمرائه
الاسماء ، بل أمر أبو العباس بتهقب هؤلاء الأمراء حيث كانوا ، وقتلهم أينما
وجدوا ، وقد أمر بقطع يدي أبان بن معاوية بن هشام ورجليه ، ثم طيف به
في كور الشام ينادي على رأسه . وهذا أبان بن معاوية فارس بني أمية ، حتى

(١) يعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٠

وروى ابن الأثير هذا الخبر مع تعديل لطيف في الآيات الشعرية ، فذكر أن سديف
دخل على السفاح وعنده سليمان بن حمام بن عبد الملك وقد أكرمه ، فقال سديف :

لا يفرنك ما ترى من الرجال . . . إن تحت الغلوع داء دوبا
ففسح الديف وارفع الوسط . . . لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان قتلتني يا شيخ ، فدخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل . (ابن الأثير ج ٥
ص ٢٩) . أما الآيات المذكورة بالمتن فيلحقها ابن الأثير إلى شبيل بن عبد الله (مولى
بني هاشم) ألقاها على عبد الله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلا إلى الطعام ، فأتته
شبيل الآيات المذكورة ، فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا . (نفس المصدر ،
ص ٤٣٠) .

مات ، كذلك قتلوا النساء والصبيان ، فذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحا (١) وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية ، وأمر بهم فصحوا ، كما قتل يحيى بن محمد العباسي أعداداً كبيرة من أهل الموصل (٢) ، ولهذا تفرق بنو أمية في الأفاق للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم عبد الواحد بن سليمان ، والقمر بن يزيد ، وعمر بن معاوية عمرو بن صفيان بن عقبة ابن أبي سفيان . فعمد بنو العباس إلى التظاهر بالاستغفار والتهم على ما افترقوه من آثام في حق بني أمية ، وبسطوا أماناً لأمرأى بني أمية حتى يجمعوهم ثم يضربوا رقابهم جميعاً ، فيقتضوا عليهم بذلك دفعة واحدة ، فوزع عبد الله بن علي المنشورات في كور الشام ، بأن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان في بني أمية وأحب البقاء ، وقد أمرني بتأمينهم ، فقد أمنتهم ، فلا أعلن أحداً يمرض لهم بمكره (٣) ، فاستأن من الخليفة السفاح بذلك بعضاً وسبعين رجلاً ، وقليل ، ثمانين ، منهم عبد الواحد بن سليمان والقمر بن يزيد والاصمغ بن محمد بن سعيد . وعلى هذا النحو أخذ العباسيون كلهم أماناً أموى قلوبهم وأولوه معسكر صالح بن علي بالقرب من نهر أبي فطر في فلسطين ، وأعطوه العمود والمواثيق ، وتسامع بذلك أمرأى بني أمية الفارين في أنحاء الأرض — وكانوا قد ملوا حياة التشرد وأمنهم تعب للتنقل في ظل الخوف — فتداعوا من كل فج أملا في الظفر بالأمان ، ولسكن نفرا مع أمرأى بني أمية — أكثر حذراً — تفككوا في هذا الأمان ، فلم يضطربوا مع من اضطرب في المعسكر من بني أمية ، ولم يمتثلوا

(١) أخبار معومة في فتح الأندلس ، مدريد ، ١٨٩٧ ، ص ٤٧ .

(٢) وسبب ذلك ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكراهة بني العباس . (ابن الأثير ج ٥ ص ٤٤٤) .

(٣) أخبار معومة ، ص ٤٧

٤٠٤ -

الذهاب طلبا للأمان ، وآثروا الانتظار وترقب الأحداث على مقربة من نهر
أبي نطرس ، فإذا ما حصل الجميع على الأمان أمكنهم ان يقدموا أنفسهم ، ومن
هؤلاء الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذي قدر له أن يحيى دولة بني
أمية في الأندلس (١) . فلما اكتمل بنو أمية في معسكر عبد الله بن علي أمر بهم
فقتلوا ، وكان فيمن قتل : محمد بن عبد الملك بن مروان ، ولعمر بن يزيد بن عبد
الملك ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد بن عبد الملك ، وأبو عبيدة
ابن الوليد بن عبد الملك ، فلما فرغ منهم قال :

بني أمية قد أفديت جميعكم . . . فكيف لي منكم بالاول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم . . . عوضتم من اظاها شر معتاض
منيتكم ، لا أقال الله عزتكم . . . بليت غاب إلى الاعداء نهاض
إن كان غيظي لغوت منكم فلقد . . . منيت منكم بما ربي به راض (٢)

وفي الحجاز قتل داود بن علي العباسي من ظفر بهم من بني أمية بمكة
والمدينة (٣) . وواصل بنو العباس بعد السفاح سياستهم الإنتقامية مع الأمويين ،
حتى في عهد المأمون نفسه ، فقد أمر سنة ٢١٢ بلمن معاوية على منابر بغداد ،
وأعد الكتب الى المحاضرات الإسلامية يأمر فيها عماله بذلك ، فأعظم الناس
ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشبه عليه ترك ذلك ، فأعرض عما كان

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٧٤ وما يليها .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤١٨ . وذكر اليعقوبي أنه أوفى جماعة منهم في المدينة

ووجههم الى الطائف حيث قتلهم (ج ٢ ص ٣٥٢) .

هم به (١)، ويأتى المسعودى برواية تعبر عن كراهية المباسيين للامويين وارتياحهم بالتخلص منهم ، فقد ذكر أن ابن دأب (٢) قال : « دعانى الهادى فى وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعونى فى مثله ، فدخلت إليه ، فاذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه دفتر صغير ينظر فيه ، فقال لى : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : لانى أوقت فى هذه الليلة ، وتداعت إلى الحواطر ، واشتمكت على الحموم ، وهاج لى ما جرت اليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلانا وفلانا حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على ، وهو القاتل بعد سفكه دمائهم :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها . . . أخذى بثأرى من بنى مروان
ومن آل حرب ، ليت شيخى شاهد . . . سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادى ، وظهرت منه أريحية ، فقال : يا عيسى ! داود بن على هو القاتل ذلك ، والقاتل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكر تنبيها حتى كأتى ما سمعتها . قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل أنها لعبد الله بن على ، قالها على نهر أبى فطرس . قال : قد قيل ذلك ، (٣) .

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٠٤ وما يليها .

(٢) هو عيسى بن دأب من أهل الحجاز ، وكان أكثر أهل مصره أدبا وعلمنا ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم ، وكان الهادى يدعو له لسميته ، فيدعو له متكا ، ولم يكن غيره يطعم منه فى ذلك (المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٥) .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٩

بأ - مع العلويين :

كانت الدعوة العباسية منذ البداية تستغل اسم الرضا من آل محمد (أبي بيت الرسول) لكسب الألبان والمؤيدين ، واصطلحت السرية التامة في الإفصاح عن اسم الإمام حتى لا يجهش الشيعة العلويون بخروج الأمر من انتمهم . ثم حدث أن اكتشف مروان بن محمد اسم الامام المنظم للدعوة ، وهو إبراهيم ابن محمد وأمر بالتقبض عليه ، فأدرك الإمام قرب نهايته ، وأوصى إلى أخيه أبي العباس وطلب إليه أن يوصل مع ذويه إلى الكوفة ، حدث بعد ذلك كله أن أبا سلة الخلال - القائم بالدعوة في العراق - أتمر عليهم الحضور إلى الكوفة ، وقال : « خاطروا بأنفسهم وعجلوا » ، ثم أذن لهم بدخول الكوفة على كره منه (١) ، وأنزلهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود ، وكنم أمرهم ، فلم يطلع على خبرهم أحد (٢) نحووا من أربعين يوما ، وقيل شهرين ، حمل خلالها أبو سلة الخلال إلى تحويل الأمر إلى آل أبي طالب ، وأخفى خبر إمامة أبي العباس عن جميع القواد والشيعة العباسيين ، فلما سأله أبو الجهم بن عطية ، أحد كبار رجال الدعوة : « ما فعل الإمام ؟ قال : لم يقدم بعد ، فألح عليه ، فقال ليس هذا رقت خروجه لأن واشطلا لم تفتح بعد . وكان أبو سلة إذا سئل عن الإمام يقول : لأنهم جالوا (٣) .

وفي أثناء ذلك بحث أبو سلة بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم ، وكتب

(١) الجهبباري ، الوزراء والكتائب ، القاهرة ١٩٣٨ م ص ٨٥ وما يليها .

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٣٤٥ - ابن الأثير ج ٥ ص ٤٠٩ - ابن طباطبا ، ص ١٣٠

(٣) الطبري ، ج ٩ ص ١٢٥ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٠

معه كتابين (١) على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي، وإلى أبي محمد عبد الله المحض بن الحسن بن الحسين بن علي يدعوا كلا منها إلى الشيوخ إلى أبيه ليصرف الدعوة إليه، ويجهتد في بيعة أهل خراسان له، وطلب أبو سلمة من مبعوثه أن يسرع قبل أن يقتضح الأمر، وقال له: «الجل العليل، فلا تكونن كوافد عاد» (٢)، فقدم محمد بن عبد الرحمن على أبي عبد الله جعفر في المدينة ودفع إليه كتابه، فأحرقه الإمام جعفر، وكتب إلى أبي سلمة «است بهما حبيكم، فإن صاحبكم بأرض الشراء» (٣)، ثم مضى المبعوث إلى عبد الله بن الحسن، فدفع إليه الكتاب قبله وقرأه وإتبع به، وحادث الإمام جعفر الصادق فيه، فنصحه ألا يتخددع بالمظاهر لأن الشيعة العلويين ليسوا طرفاً في هذه الدعوة ولا يسرفون عن أسرارها شيئاً، فنازعه عبد الله القول حتى قال له: «والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد»، فقال أبو عبد الله جعفر: «والله ما هذا إلا نصيح مني لك»، ولقد كتب إلى أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك فلم يجد رسوله عندى ما وجد عندك، ولقد أحرق كتابه من قبل أن أقرأه» (٤)، فانصرف عبد الله من عند الإمام جعفر منضباً، ولم ينصرف رسول أبي سلمة إليه إلا أن يورج السفاح بالخلافة، وعلم بنوايا أبي سلمة فقتله. ويرجع السبب في فشل خطة أبي سلمة إلى الظروف

(١) وذكر ابن طباطبأ أنه كتب إلى ثلاثة من أئمة الشيعة والثالث هو عمر الأشرف ابن زين العابدين، وأوصى رسوله ألا يمضي إلى هذا الإمام إلا إذا لم يجب عبد الله المحض (ابن طباطبأ، ص ١٣٧).

(٢) المسعودي ج ٣ ص ٣٥٤

(٣) الطبري، ج ٢ ص ٢٤٩

(٤) المسعودي، ج ٣ ص ٢٥٥ - ابن طباطبأ، ص ١٣٨

- ١٠٧ -

وحدها ، فقد حدث أن أبا سلمة أقام ينتظر انصراف رسوله إليه ، فدخل أبو حميد محمد بن إبراهيم الحميري ذاته يوم إلى الكوفة ، فلقى سابقا النخوارزى غلام أبي العباس ، فسأله عن إبراهيم الإمام ، فقال : « قتل مزوان في الحبس ، وكان مروان يومئذ بجران ، فقال أبو حميد : فإني من الوصية ؟ قال : إلى أخيه أبي العباس . قال : وأين هو ؟ قال : معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من هومته وأهل بيته . قال : منذ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين » (١) . فطلب منه أبو حميد أن يأخذه إليه ، فواعده على اليوم التالي ، فانصرف أبو حميد وأخبر جماعة من قواد خراسان في عساكر أبي سلمة بذلك ، منهم أبو الجهم بن عطية وموسى بن كعب ، وأبو غانم عبد الحميد بن ربيع ، وسلمة بن محمد ، وأبو شراحيل ، وعبد الله بن بسام ، واتفق معهم أبو حميد على مقابلة أبي العباس ومبايعة ، فوضوا في اليوم التالي سرا ودخلوا على أبي العباس ، فسلموا عليه بالخلافة ، وألبسه أبو حميد السواد وأخرجوه إلى المسجد الجامع ، وبلغ الخبر أبا سلمة ، فأقبل يركض حتى لحقهم ، فقال : « لاني إنما كنت أدير استقامة الامر والافلا أعمال شيئا فيه » (٢) وذكر الطبري أن أبا سلمة عندما سأله أبو الجهم عن الإمام أجاب : « ليس هذا وقت خروجه لان واسطالم تفتح بعد » (٣) وظل يخفى وجوده بالكوفة عن عسكره وقواده حتى تم اكتشاف موضع أبي العباس على النحو الذي اشرنا إليه .

ثم بويج لأبي العباس في جامع الكوفة في اليوم التالي في ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ ، وخطب خطبة أكلها همه داود بن علي بقوله :

(١) الممoudy ، ج ٢ ، ص ٢٢٥

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٣٥٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١١

(٣) الطبري ، ج ٩ ص ١٢٥

دأبها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الامر لنكثر لجيناً ولا عثيانا ولا نخمر نهرها ولا نبقى قصراً ، وإنما أخرجنا الألفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كثرنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشهد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم واستدلالهم لكم واستئناؤهم بغيركم وصدقاتكم ومناصحتكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبا قبا لبني حرب بن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار النائية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأثام ، واتهكوا المحاسن ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في البعاد ، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسريل الأوزار ، وتجليل الآمار ، ومرسوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الفس ، جهلا باستدراج الله ، وأما لمكر الله ، فأتاهم بأس الله يياتنا وهم نائمون ، فاصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل عرق ، فبعدا للقوم الظالمين ، وأدالسا الله من مروان وقد غره بالله الغرور

يا أهل الكوفة : دأبنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعةنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض به وجوهكم ، وأدالكم عن أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام واعلموا أن هذا الامر فناء ليس بخارج منا حتى نسله

إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين . (١) .

وهكذا رسم العباسيون في هذه الخطبة سياستهم الجديدة التي وعدوا الناس بتطبيقها عليهم ، ولكنهم لم يوفقوا في تنفيذها ، كما كشف عبد الله بن علي بخطبته أن الأمر سيقفل في بيت هاشم لا يخرج منهم حتى يوم القيامة . ولكن اتضح للعلويين فيما بعد أن العباسيين خدعوه واستأثروا بالخلافة دونهم ، فقد كان الظن أن إلى الخلافة بعد السفاح لإمام من العلويين ، ولكن العباسيين جعلوا الخلافة وراثية في ذريتهم ، ولهذا السبب بدأت حركات العلويين تظهر منذ خلافة المنصور بعد أن اتضح لهم أن العباسيين أقصوه نهائياً عن الخلافة منذ أيام السفاح الذي عمد إلى قتل أبي سلمة الخلال بحكم أنه نكث وغير وبدل (٢) . بمحاولته نقل الخلافة إلى بني علي .

وكان الحسينيون أول من طالبوا من العلويين بحقهم في الخلافة وذلك في زمن المنصور وأدرك أبو جعفر المنصور أن هؤلاء الحسينيين يشكلون خطراً كبيراً على دولته لا سيما وأن محمـة النفس الزكية وأخاه إبراهيم تخلفا عن مبايعة أبي العباس من قبل ، وأن أبا سلمة الخلال حاول نقل الخلافة إليهم (٣) . وأن بني الحسن أشاعوا أن بني هاشم وفيهم إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وصالح بن علي ، اجتمعوا بالأهواء من طريق مكة وذلك عندما اضطربت

(١) الطبري ، ج ٩ ص ١٢٧ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٣) عبد العزيز الجوزي ، البصر النباهي الأول ، ص ٦٩ .

أحوال الدولة الأموية وأجروا على مبايعة محمد النفس الزكية (١) ، وأن عبد

(١) الأصمعي ، مقال الطالبيين ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، ١٧٣ - ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ - ابن طباطبا ، ص ١٩٠ ، ١٩١ . وفي ذلك يقول الأصمعي : « أخبرني هيسى بن الحسين قال : حدثنا الخراز قال : حدثني المدائني عن سحيم بن حفس : أن قسرا من بني هاشم اجتمعوا بالأهواء من طريق مكة ، فبهم إبراهيم الامام والسفاح والمنصور وصالح بن علي وعبد الله بن الحسن وابناء محمد وإبراهيم ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان ، فقال لهم صالح بن علي : انكم اليوم القدين تحتد أمين الناس اليهم ، فقد جمعكم الله في هذا الموضع ، فاجتمعوا على بيعة أحدكم ، فتمرقوا في الآفاق ، وادعوا الله لعل الله أن يفتح عليكم وينصركم . فقال أبو جعفر : لأى شيء تخدعون أنفسكم ، والله لقد علمتم ما الناس الى أحد أميل أعناق ولا أسرع اجابة منهم الى هذا الحق - يبنى محمد بن عبد الله - قالوا : قد والله صدقت ، انا لنعلم هذا ، فابصروا جيما محمدا ، وبإيعة إبراهيم الامام والسفاح والمنصور وسائر من حضر ، فذلك القى أغرى القوم لمحمد بالبيعة التي كانت في أعناقهم . وذكر الأصمعي أيضا أن أبا جعفر المنصور لما ولي الخلافة جد في طلب محمد بن عبد الله ابن الحسن (ص ١٩٠ ، ١٩١) ، وفي موضع آخر أشار الى أنه لما ظهرت دولة بني العباس ، « حرس السفاح والمنصور على الظفر بمحمد وإبراهيم لما في أعناقهم من البيعة لمحمد ، وتواريا ، فلم يزلوا ينتقلان في الاستئثار ، والطلب يزعمهما من ناحية الى أخرى حتى ظهرا فقتلا » (ص ١٧٣) . وذكر في موضع آخر قتلا عن عبد الأعلى بن أعين أن حيد الله ابن الحسن قال للبيعتين من بني هاشم (يوم الاجتماع) « لا تفرسوا الى جعفر فانه يقصد عليكم (يبنى به جعفر الصادق) فأبوا . قال : فأناهم وأنا معهم ، فأوسع له عبد الله الى جانبه وقال : قد هلمت ما صنع بنا بنو أمية وقد رأينا أن نبايع هذا الحق (يبنى ابنه محمدا) فقال : لا تضلوا : « فان الأمر لم يأت بعد . فنضب عبد الله وقال : لقد علمت خلاف ما تقول ولكنه يحملك على ذلك الحسد لا يبنى » . . . فقال جعفر : « انما والله ما حى اليك ولا الى بنيك ، ولكنكها لهؤلاء (يقصد السفاح والمنصور) وان ابنك لمقتولان » . فتفرق المجلس ولم يجتمعوا بعدها . فلما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة سمى الصادق فبليت عليه (الأصمعي ، ص ١٨٩) . وعند كرو ابن طباطبا هذا المعنى مؤكدا أن محمد النفس الزكية كانت له في أعناق الباسيين بيعة بالخلافة وأن جميع أعيان العباسيين والطلبيين انفقوا على مبايعة ما عدا الامام جعفر بن محمد الصادق الذي قال لعبد الله المحض والد النفس الزكية : ان اهلك لابنك الخلافة ولينهاها الاصاحب القياء الأصغر ، وكان يبنى المنصور بذلك إذ كان عليه يومئذ قباء أسفر ، فبايعوا محمد النفس الزكية ، ثم ضرب الدهر ضربه ، وانتقل الملك الى بني العباس ، وانتقل من السفاح الى المنصور ، فلم يكن له حمة سوى طلب النفس الزكية ليقته أو ليخلعه ، فطلبه »

إله بن الحسن أشاع عن ابنه محمد النفس الزكية أنه المهدي الذي بشر به (١)
وصريح قريش - وما زاد في مخاوف المنصور أن النفس الزكية كان شخصية
محبوبة في بلاد الحجاز ، وأنه أنفذ دعائه إلى الآفاق ، وبويع له في كثير من
الأمصار (٢) .

وأخذ المنصور يشدد الضغط على محمد النفس الزكية ، فولى رياح بن عثمان
على المدينة في سنة ١٤٤ ، وأوصاه بالتشدد في طلب النفس الزكية ، فاضطر محمد
النفس الزكية إلى التوجه بالخروج قبل أن يتم أمر دعائه الذين أنفذهم إلى
الآفاق ، وخرج في أول رجب سنة ١٤٥ ، وقيل في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٤٥ ،
وأمر بالقبض على رياح ، وأخيه عباس بن عثمان وحبسهما في دار مروان ،
ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس فانه كان من
أمر هذا طاغية عدو الله أبي جعفر مالم يخف عليكم من بناءه القبة الخضراء
التي بناها معاندا الله في ملكه ، وتصنها للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين
قال أنا ربكم الأعلى ، وأن أحن الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين
الاولين والآنصار الموالين ، اللهم انهم قد أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك ،
وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، اللهم فاحصهم عددا واقتلهم بسدا
ولا تفاخر منهم أحدا . أيها الناس انا والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم

المنصور من أبيه عبد الله الحمضي فالزومه المنصور بأحضار ولده محمد النفس الزكية وإبراهيم ،
فاعتذر لمدام علمه بها ، ثم قضى عليه سنة ١٤٠ وعلى أهله من بني الحسن سنة ١٤٤
(ابن طباطبا ، ص ١٤٦ ، ١٤٧) وسجنهم في قصر ابن هبيرة بمصر الكوفة (الاصفهاني
ص ١٥٨ ، ١٦٠) .

(١) الاصفهاني ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ - ١٨١

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٤

عندى أهل قوة ولا شدة، ولكنى اخترتكم لنفسى، والله ما بحثت هذه وفي
الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة (١) ،

وكان المنصور قد أدرك، قبل أن يعلن محمد عن دعوته لنفسه، نواياه في ذلك، فعمد إلى إفساد خططه، فدرس له عيوناً يكيدون له متظاهرين بأنهم اتباعه بهدف الإطلاع على حقيقة خططه وتمويه الحقائق عليه، وهم الذين أوحوا إليه بأن دعوته قد حمت الأقطار، وقد أشار النفس الزكية إلى ذلك في خطبته. ولم يكتف المنصور بذلك بل كان يكتب إليه على ألسنة قواد العباسيين يدعون بهذا النفس الزكية إلى الظهور، ويخبرونه بأنهم معه، فكان محمد النفس الزكية يقول: «لو التفتينا مال إلى القواد كلهم» (٢). وبدأ المنصور يؤمن ظميره، منذ اليوم الذي اعتقل فيه عبد الله بن الحسن وآله، أمام أنصاره الخراسانيين حتى لا يشهد من لديه ميول علوية منهم عليه، فصعد المنبر بالهاشمية وقال: «يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا، ولو بايعتم غديرنا لم تبايعوا خبيراً منا، إن ولد بن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير، فقام فيهم على بن أبي طالب رضي الله عنه، لما أفلح وحكم الحكمين، فاختلفت عليه الأمة، وافتقرت الكلمة، ثم وائب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه» (٣). وما زال يهددهم عن العلويين واحداً واحداً وإخفاقهم جميعاً في الظفر بالخلافة حتى انتهى إلى زهد بن علي وكيف أخربه أهل الكوفة ثم أسلموه وكيف حمله داود بن علي غدر أهل

(١) الطبري، ج ٩ ص ٢٠٤، ٢٠٥

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٠

(٣) المسعودي، ج ٢ ص ٣٠٠

الكوفة فلم يقبل ، فقتل وصلب بالكناسة . ثم قال المنصور : دثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فننفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وانصارا ، فأحيى الله شرفنا وعزنا بكم يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر لنا حقنا ، وأصار إلينا أمرنا وميراثنا من نبيينا صلى الله عليه وسلم ، فقرر الحق في قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وتبوا علينا حسدا منهم لنا وبينا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبنا من بنى أمية ، وجراءة علينا . . . (١) . وما إن انتهى من هذه المرحلة من الحرب الطائفية ضد الحسينيين حتى بدأ يكاتب محمد النفس الزكية ليستشير عليه ويدفعه إلى أن يبادره هو - أي محمد - بالحرب فيمدرسه ، وتبدأ عندئذ المرحلة الثانية من الحرب الطائفية .

ويذكر الطبري أن أبا جعفر المنصور لما بلغه ظهور محمد بن عبد الله بالمدينة كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين

فأبوا من قبل أن تقدموا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم (والى على عهد
الله وميثاقه وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت ورجعت من قبل
أن أقدر عليك ، أن أؤمّنك وجميع ولدك وأخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم
على دماءكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف
درهم وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من
فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبأيمك واتبعك أو دخل
معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحدا منهم بشىء كان منه أبدا . فإن أردت
أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذك منى الأمان والعهد والميثاق
ما تثق به ، (١) .

فكتب إليه محمد بن عبد الله : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المهدي
محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد - (طسم تلك آيات الكتاب المبين فتلوا عليك
من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل
أهل أشيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستعجل نسائهم إنه كان من المفسدين .
ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين .
ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون) .
وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على ، فإن الحق حقا وإنما
ادعيت هذا الأمر بنا وخرجتم له بشية متنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا
كان الوصى وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أسياء . ثم قد علمت أنه
لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وسالنا وشرف آبائنا . واستننا
من أبناء النماء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل

الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل . وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بذت همرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا : فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهم من خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن الولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وأن هاشما ولد عليا مرتين .. ولك علي إن دخلت في طاعق وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حدا من حدود الله أو حتما لمسلم أو معاهد ، فقد ما يلزمك من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأرفى بالمهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيتهم رجلا قبلي ، فأى الأمانات تعطيتني ؟ أمان ابن هبيرة أم أمان همك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم ؟ ، (١) .

ثم رد أبو جعفر المنصور على كسّاب النفس الزكية مفندا حجج الشيعة العلويين التي يستندون عليها في مطالبتهم بالخلافة ومركزا على أن العسم أولى بالإرث من بنت الابن ، وفيما يلي مقتطفات من هذا الكتاب : ، أما بعد ، فقد فقد بلنقى كلامك وقرأت كتابك . فإذا جل فخرك بقراءة النساء لتفضل به الجفأة والنوغاء ، ولم يحمل الله النساء كالمعمومة والآباء ولا كالعصبة الأولياء ، لأن الله جعل المم أباً وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا وأقعد يمدك الله محمدا عليه السلام وله همومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتكم الأقربين) ، فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنتان أحدهما أبي ، وأبي اثنتان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتها منه ولم يحمل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا ، ...

وأما قوالك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) ولكنكم بنو أبنائه ، وإنها اقترابة قريبة ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة ، فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ومرضها سراً ودناها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيعين ، وتفضيلها ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجدد بالأم والحال والحالة لا يرثون ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الضعفة والنساء وحلوم بلا وطاء في المحامل كالسبي المحلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم ، وأدر كننا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم (١) .

والظاهر أن المكاتبات لم تؤد إلى نتيجة ، وعزم أبو جعفر المنتصرون على إخماد حركة النفس الزكية ، فسير إلى المدينة عيسى بن موسى على رأس أربعة آلاف (٢) ، وقيل خرج من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل (٣) ، وأتبعه حميد بن قحطية في جيش كثيف ، وأقبل عيسى بن موسى إلى المدينة فنزل قصر سليمان بن عبد الملك في ١٢ من رمضان سنة ١٤٤ ، ثم طاجل محمدا القتال ولم يشمر أهل المدينة يوم النصف من رمضان إلا بالحيل قد أسخاطت بهم حين أسفروا ، واشتد القتال ، وأصيب أنصار محمد بالمشاب ففرق معظمهم عنه ، فأق دار مروان فصلى الظهر فيها واغتسل وتحنط ، ثم قاتل في نفر قليل من

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢١٢ ، ٢١٣ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) الأسفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ١٩٧ .

(٣) السمودي ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

أصحابه حتى قتل ، قتله حميد بن الحظبة واحتز رأسه (١) .

وتفرق أخوة محمد النفس الزكية وولده في البلدان ، فضى ابنه علي بن محمد إلى مصر فقتل بها ، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان ثم فر منها إلى السند فقتل هناك ، وسار ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات في حبسه ، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة وأخوه يحيى إلى الري ثم إلى طبرستان ، وإدريس بن عبد الله إلى المغرب (٢) ، أما إبراهيم بن عبد الله فقد كان قصد الكوفة وهو لا يشك أن أهلها يثبون معه بأبي جعفر ، فلما أصبح بالكوفة لم يجد ناصرا ، وبلغ المنصور خبره فوضع الارصاد والحرس بكل موضع ، وتحامل على الخروج إلى البصرة وقد بايع أهلها ، فسار في غرة رمضان سنة ١٤٥ واستولى على البصرة ، ووجه المغيرة بن الفزع السعدي إلى الأهواز فتغلب عليه ، ودخل قائده يعقوب ابن الفضل فارس وتمكن هارون بن سعد العجلي من الاستيلاء على ماحول واسط ، وتغلب برد بن لبيد اليشكري على كسكر . ثم خرج في أول ذي العقدة على رأس جيش كثيف وقد عزم على مقاتلة المنصور ، فسهل إليه المنصور عيسى بن موسى في ١٨ ألفا (٣) ، وزحف إبراهيم حتى أصبح في موضع يقال له باخري ، واشتبك الجيشان واشتد القتال ، وكادت الدائرة تدور على عيسى بن موسى ، فعمد إلى الحيلة وأرسل سلم بن قتيبة الباهلي على مؤخرة جيش إبراهيم فتوهموا كميناً ، فانهمزوا به وبقى إبراهيم في ٤٠٠ من الزيدية يقاتل قتال الموت حتى قتل واحتز رأسه ، فوجه به إلى أبي جعفر بالكوفة (٤) .

(١) الأصفهاني ، ص ٢٠٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٤٩ .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٣) وقيل في ١٥ ألفا (ابن الأثير ج ٥ ص ٥٦٧) .

(٤) المقري ، ج ٢ ص ٣٧٨ - الأصفهاني ، ص ٢٣٥ وما يليها - ابن الأثير ، ج ٥

أما عبد الله بن الحسن وأله النفس الزكية وآله الحسينيين، فقد كان المشهور قد شجهم في الكوفة داخل سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار ومواد الليل، وظلوا في سجنهم حتى ماتوا (١)، وقيل إن يعقوب وإسحق ومحمد وإبراهيم بن الحسن قتلوا في الحبس بضروب من القتل، وأن إبراهيم بن الحسن دفن حيا، وأن عبد الله بن الحسن طرح عليه بيت (٢).

ثم قام العلويون (من الفرع الحسن) بثورة ثانية في الحجاز في سنة ١٦٩ هـ في زمن الخليفة العباسي الهادي، وقد اتبع هذا الخليفة مع العلويين سياسة تقوم على العنف بخلاف المهدي الذي حاول استرضاء العلويين (٣)، فألح الهادي في طلبهم، وأخافهم خوفا شديدا وقطع ما كان المهدي يجره لهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم (٤). فلما اشتد خوفهم، وكثر من يطلبهم ويحث عليهم لاذوا بالحسين بن علي بن الحسن بن الحسن الهادي استعمل على المدينة محمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلما وليها حمل على الطالبين وأساء إليهم وأفرط في التعامل على الحسينيين إلى حد أنه اتهم أبا الزلف الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، وسله بن بجندب

(١) المسعودي، ج ٣ ص ٢٩٨.

(٢) الأصفهاني، ص ١٦٩ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٢٧.

(٣) أخرج المهدي عن جنانهم وأمر لهم بجوائز وصلاوات وأرزاق دارة، ثم أطلق سائر الناس (اليهودي، ج ٢ ص ٣٩٤) والظاهر أنه كان يخفى على نفسه من العلويين الحسينيين فأتوزد يعقوب بن داود وكان يعقوب هذا شيعيا - ولعل المهدي أسقطه ليعتد به على نفسه مع بني الحسن (ابن طباطبا ص ١٦٦ - ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٨).

(٤) الطبري، ج ٢ ص ٤٠٤.

الشاهزاده الهذلي، وهر بن سلام على شراب لهم (١)، فأمر بهم فضربوا جميعاً ثمانين سوطاً، وجعل في أعناقهم حبالاً وطيف بهم في المدينة، فجاء الحسين بن علي إلى القمري وقال له: ولقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يربون به إلا ما، فلم تطوف بهم؟ فأمر بهم فردوا وحبسهم، ثم تولى الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن كنفالة الحسن بن محمد، فأخرج من المنجى على أن يقع تحت المراقبة. وحدث أن غاب يومين، فأحضر الوالي الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله، وأغلظ لهما، فوعدها بأن يأتيها به، ثم دخل الحسين بن علي المسجد فصلى ودعا إلى نفسه، فبايعه الناس على كتاب الله وسنة نبيه الملتقى من آل محمد، فلما جاء الوالي ومعه خاله البريدي تصدى يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس الخالد، وقتلاه، وحمل أصحاب الحسين بن علي إلى القمري فجزؤوه وانقسموا بين المال وامتنعوا في المدينة، واشتد القتال في اليوم التالي بين شيعة بني العباس وبين أنصار الحسين بن علي، ثم أقام هو وأصحابه أياماً يترهبون، ثم خرجوا من المدينة في ٢٤ من ذي القعدة (وهم زهاء ثلاثمائة) قاصدين إلى مكة فتصدى لهم عند ذي طوى (٢) سويل عند فتح (٣) الواقعة على بعد ستة أميال من مكة ستة من كبار الشخصيات العباسية اتفق قدامهم إلى مكة لأمرهم فرفضه "الرجل تلك الليلة"، منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وموسى وإسماعيل ابننا عيسى بن موسى، وكان محمد بن سليمان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة حماية له ولأصحابه. وذكر

(١) ابن الأثير، ج ١ ص ٩٠ - الأصفهاني، ص ٢٢٠.

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٩٢.

(٣) المسعودي، ج ٣ ص ٣٢٦ - الأصفهاني، ص ٣١١ - ابن طباطبائي، ص ١٢٢.

المسعودى أن عدة من كان معهم من المسكر بلغ أربعة آلاف فارس ، واشتبك
العباسيون مع الحسين بن على وهو فى قلة من أصحابه ، فقتل ومعظم من كان
معه ، وكان عدد القتلى يزيد على مائة قطعت رؤوسهم من بينهم الحسن بن محمد
ابن عبد الله ، وتركت جثث القتلى ثلاثة أيام فى المراء لم توار حتى أكلتها السباع
والطير ، وأسر العباسيون نفرا من بنى الحسن منهم سليمان بن عبد الله بن
الحسن بن الحسن وإسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، فضربت
رقابهم فى مكة ، بينما أخذ لعبد الله بن الحسن بن على الأمان فحبس عند جعفر
ابن يحيى بن خالد البرمكى ثم قتل بعد ذلك (١) ، وأفلت من المنهزمين إدريس
بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وأخوه يحيى بن عبد الله ، أما إدريس فقد
فر إلى المغرب الأقصى ولزل بولبل حيث تمكن بفضل قبيلة أوربة من تأسيس
دولة هرفاء بدولة الإدارة ، بينما فر يحيى إلى بلاد الديلم ، حيث كثره
جموعه وقريب شوكته واتفق حمله الأنصار ، فأعلن ثورته فى سنة ١٧٦ هـ
فى خلافة الرشيد ، فسهر إليه الفضل بن يحيى فى ٥ ألف مقاتل ، فكانت الفضل
يحيى بن عبد الله ولطف به وحذره ، فأجاب يحيى إلى الصلح ، ولكنه اشترط أن
يكتب له الرشيد أمانا بخطه يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وشيوخ بنى هاشم ،
فأجابه الرشيد إلى ذلك ، وسير الأمان مع تحف وهدايا ، فقدم يحيى مع الفضل
إلى بغداد ، فأحسن الرشيد استقباله ورحب به ومنحه مائتى ألف دينار ، ولم يلبث
الرشيد أن انقلب عليه فسجنه بعد أن استغنى النخهاء فى نقض الأمان ، فمنهم من
أفتى بصحته فعاجه . ومنهم من أفتى ببطالته (٢) ، فأبطل الرشيد الأمان وأخبره

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) ومنهم عبد الله بن مصعب الزهرى وأبو البخترى وهب بن وهب .

حتى جعله سيورا ومات يحيى فى السجن فى قول (١) ، وقتل فى الحبس فى قول آخر (٢) ، ويأتى الاصلان فى رواية تنسب سبب وفاته، فقد ذكر على لسان رجل كان مع يحيى بن عبد الله فى المطبق أن الرشيد أتاه يوما فى سجنه وأمر بضربه مائة عصا وتخفيض جرايته إلى النصف ، ثم كرر ذلك يوما آخر، ثم عاد للبرة الثالثة وقد مرض يحيى، فلما دخل قال : دلى به . قالوا : هو عليل لما به . قال : كم أجريتم عليه ؟ قالوا : رغيفا ووطلين ماء . قال : فاجعلوه على النصف . ثم خرج؛ فلم يلبث يحيى بن عبد الله أن مات ، فأخرج إلى الناس ودفن؛ وقيل إنه بنى عليه أسطوانة بالموافقة وهو حى ، وقيل أيضا إنه دس إليه فى الليل من خنقه ، وقيل إنه سقاء سما ، وقيل أيضا إنه أجاع السباع ثم ألقاه إليها فأكلته. ولكن يبدو أن هذه الأقوال مبالغ فيها، ونرجح الرواية التى يرجع سبب موته إلى تخفيض جرايته فى الطعام يوما بعد يوم ، بدليل أن إدريس بن محمد بن يحيى بن عبد الله قال : د قتل جدى بالجوع والعطش فى الحبس ، وليس بعدا أن يكون الرشيد قد عذبه بالضرب قبل ذلك مما عجل بموته ، فقد ذكروا أن يحيى بعد أن تلقى من الرشيد المائى ألف دينار قضى بها دين الحسين بن على صاحب فسخ فأنار غضب الرشيد عليه (٣) .

وفى عهد الرشيد قبض على موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين وأحضروا فى قبة إلى بغداد ، حيث سجن ثم قتل قتلا خفينا ، وأظهر أنه مات حتف أنفه . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن جماعة من حساد موسى بن جعفر من أقاربه وشى به إلى الرشيد ، وذكر له أن الناس يحملون إلى موسى خمس

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٥ - الأصفهاني ، ص ٣٤٤ .

(٢) الأصفهاني ، ص ٣٤٩ - ابن طباطبائي ، ص ١٢٦ .

(٣) الأصفهاني ، ص ٣٤٨ - ٣٥١ .

أموالهم ويشتدنون إمامهم ، وأنه عزم على الخروج عليه . فلما مات أدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد ، فظنوا اليه ، فلم يحدوا فيه أنرا لجرح أو ما يدل على جرم ، فشهدوا بذلك (١) .

وفي عهد الرشيد أيضا قتل عبد الله بن الحسن بن علي بن علي زين العابدين ، إذ اتهم بأنه يجمع الزيدية ويدعوهم إلى الخروج عليه ، ثم حبسه ، ولكن جعفر ابن يحيى ضرب عنقه ودون أمر الرشيد (٢) .

وحاول المأمون أن يتقرب إلى العلويين إما مدفوعا في ذلك بتأثير الفضل بن سهل وغيره من كبار أعوانه الشيعة في خراسان ، ممن كان يرغب في تحويل الخلافة العباسية السنية إلى خلافة شيعية ، أو رغبة في تحسين علاقته بالعلويين وتمويعهم عما تعرضوا له من اضطهاد في العهد السابقي عليه . ويذكر المؤرخون أن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبي طالب فحملهم إليه من المدينة وميهم على الرضا بن موسى الكاظم ، فقدم بهم على المأمون ، فأنزلهم دارا ، وأنزل على الرضا دارا . ثم عرض الفضل بن سهل وأخوه على الرضا مسألة عقد ولاية العهد له ، فأبى ، فزالا به وهو يأبى ذلك ويتمنع منه حتى هداه بضرب عنقه إن هو خالف رغبة المأمون ، فاضطر على الرضا إلى قبول ما عرضوه عليه سنة ٢٠١ هـ . ثم أعلن الفضل به سهل قرار المأمون في عقد ولاية العهد لثقل الرضا ، وأمر الناس بلبس الخضرة ، وحدد يوما لتلقى البيعة . وفي ذلك اليوم ، وكث الناس من القواد والقضاة وغيرهم من الناس في الخضرة ، وجلس المأمون ووضعت الرضا وسادتين كبيرتين أجلسه عليهما ، ثم أمر ابنه العباس بن المأمون

(١) الأصفهاني ، ص ٣٦٥ - ابن بطاطبا ، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٠٩ .

فبايع له أول الناس ، ثم تابيه الناس . ثم أمر المأمون فضربت له المراهم وطبع عليها اسمه (١) ، وزوج المأمون ابنته أم الفضل من محمد بن علي بن موسى . ثم توفي على الرضا مسموما ، واتهموا المأمون بدس السم له في عنب وقيل في شراب ، ولكن حزن المأمون وبكاه عليه وجـزعه الشديد لفقده يبرئانه من هذه التهمة (٢) وذكروا في ذلك أن المأمون دخل على الرضا يهوده فوجده يهود بنفسه ، فبكى وقال : « أعز على يا أخى بأن أعيش ليومك وقد كان في بقاءك أمل ، وأغلظ على من ذلك وأشد أن الناس يقولون إني سقيتك سما وأنا إلى الله من ذلك برى . فقال له الرضا : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت والله برى . ثم خرج المأمون من عنده ، ودات الرضا ، (٣) وذكروا أن المأمون شوهد يمشى في جنازة الرضا حاسرا في مبطنة بيضاء وهو بين قائمى الشمس يقول : « إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن ، وأنه أقام عند قبره ثلاثة أيام يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فيأكله ، ثم انصرف في اليوم الرابع (٤) .

وواصل المأمون سياسته الودية نحو العلويين حتى بعد وفاة الرضا وبعد أن دخل بغداد ، ولم يغير ملابسه الخضراء إلا بعد أن أخذ عليه ذروه ذلك ، ثم إنه أوصى أخاه المعتصم عندما حانت ساعته فقال : « يا أبا إسحاق ، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتقوم بحق الله في عباده ، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته ، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك . قال : اللهم نعم .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠٤ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٥ .

(٣) الأسفهانى ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) الطوبى ، ص ٤٥٣ .

قال: هؤلاء ينذر همك من ولد أمير المؤمنين على صلوات الله عليه، فأحسن
صحبته، وتجاوز عن مسيئتهم، وأقبل من محبتهم، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة
عند محفلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى، (١).

وفي عهد المعتصم، ثار محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين
الملقب بالصوفي بالطالقان، وكان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد، ويرى
رأى الزيدية الجارودية، وقد وقع في يد عبد الله بن طاهر، فوجه به إلى
المعتصم سنة ٢١٩، فأمر بدفعه إلى مسرور الكبير، فحبسه في سرداب شبيه
بالبئر فكاد يموت فيه، وانتهى ذلك إلى المعتصم فأمر بإخراجه منه، فأخرجه
وحبسه في قبة في بستان موسى مع المعتصم في داره، ففر من محبسه إلى
واسط حيث مات (٢).

ج - مع الفرس :

قامت الدعوة العباسية أساساً في خراسان، واعتمد العباسيون على
الخراسانيين في المكان الأول في تأسيس دولتهم، مستغلين في ذلك نفقتهم
على العرب من جهة، والصراع القبلي بين القبائل العربية من جهة ثانية، ونسى
العباسيون أمراً خطيراً وهو أن خراسان كما كانت مركز الدعوة العباسية لبعدها
عن دار الخلافة، ومصدراً للرجال الذين اعتمد عليهم العباسيون في إدارة
الدولة الأموية، كانت وكراً لمؤامرات الشعوبيين لتزريق وحدة الصف العربي
تمهيداً لإعادة أمجاد الفرس القديمة. وقد يكون العباسيون على علم بهذا الخطر،
ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد للنحالف مع الشيطان إذا لزم الأمر طلباً

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٣١.

(٢) الأصفهاني، ص ٤١٨ - المسعودي، ج ٣ ص ٤٦٥.

لثأرهم من الأمويين (١) الذين أمانوا شرفهم وأذهبوا عزهم ، وقتلواهم وصلبواهم
وشردوهم ، وانتصارا للحق على الباطل وظلم ، وهى عبارة استهوت الموالي
الذين اتهموا الأمويين بأنهم ابتعدوا عن مبادئ الاسلام القائمة على العدل
والمساواة (٢) . وهكذا اجتذبت الدعوة العباسية عناصر حاكمة على الأمويين
معظمها تتعاطف مع آل البيت وبعضها عناصر هدامة نافذة على العرب وتسمى
لإسقاط دولتهم ، وبعضها عناصر عربية ذات عصبية مواتورة تسعى لطلب
الثأر ، ثم كانت مرحلة الصدام المسلح الذى انتهى بانتصار الثورة العباسية وقيام
الدولة . وقد اعتبر الفرس انتصار الثورة العباسية فوزا لهم على العرب ، وكان
من الطبيعى أن يعتمد العباسيون على الفرس فى تصريف شئون دولتهم اعترافا
منهم بفضلهم عليهم وأن يسلبوا إليهم أزمة أمورهم لأنهم يدينون لهم بالخلافة
فيقرّبونهم إليهم ويصطنعونهم فى خدمتهم ، ولذلك السبب اصطفت الدولة
العباسية فى عصرها الاول بالصيغة الفارسية بحيث أصبح الخليفة العباسى - على
حد قول بروكلمان - خلفا للملك الفرس بعد أن كان خلفاء دمشق أقرب إلى شيوخ

(١) وفى سبيل ذلك حاول بعض الدعاة استثارة الشعور القومى الفارسى عند الخراسانيين
ضد العرب عامة والأمويين خاصة ، فهذا قطبة بن شبيب يحطّب فى الخراسانيين فيقول :
« يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على مدوهم لعد لهم
وحسن - ميرتهم حتى بدلوا وظلموا ، فخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع - لظانهم وساط عليهم
أذل أمة فى الأرض كانت عندهم غلبوا على بلادهم . . . واسترقوا أولادهم فسكانوا بذلك
يحسكون بالعهدي وينصرون المظلوم ؟ ثم بدلوا وغشروا وجاروا فى المسكن وأخافوا أهل
البر والتقوى . . . فسلطكم عليهم لينتقم منهم منكم » الطبرى ج ٩ ص ١٠٦ .

(٢) من العوامل الرئيسية التى أدت الى التفاف أهل خراسان خاصة والموالي
عامة حول الدعوة العباسية الشعور بالتهذر الاجتماعى والاقتصادى بين سكان المدن - من لم
يتمتعوا بامتيازات الطبقة الممتازة ، ونفى هؤلاء السكان التجارة والصناعات من الموالي الذين
أساءوا إليها فى الأمصار الإسلامية .

القبائل (١). وكان طبيعياً أيضاً أن تسيطر النظم الفارسية في الحكم وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فقد كان لازماً على الخليفة أن يصطنع أعواناً وموظفين تدعيها لسلطانه ، ويتمثل ازدياد أهمية القوة كمعصر أساسى من عناصر السلطان في المكانة الهامة التي كان يتمتع بها السيف أو الجلاد في البلاط العباسى ؛ وتمثلت هيئة الخلافة في قوة جيشه وفي ألقابه الجديدة وفي مظاهر الأبهة التي أصبحت تحيط ببلاطه وتراققه ، وفي الجهاز الإدارى المصنوع بالصيغة الفارسية الذى يعتمد عليه وعلى رأسه الوزير والحاجب . وكن من الطبيعى أيضاً أن ترتفع مكانة بعض الشخصيات الفارسية التي لمعت فى مرحلة الكفاح المسلح للدعوة العباسية كشخصية أبى سلمة الخلال وشخصية أبى مسلم الخراسانى فيصبح الأول وزير آل محمد (٢) ، ويتلقب الثانى بأمين آل محمد (٣) ، وقرب الخلفاء المؤسسون للدولة العباسية أهل خراسان وكرمهم باعتبارهم عصب الدولة العباسية وشيعة بنى العباس وأهل دعوتهم وعندما أسس المنصور بغداد خصص لسكنى العجم مواضع منها قطيعة الرواذية وقطيعة المروور وذية وقطيعة رباطة الكرمانى (٤) ، كذلك خصص المعتمد عدداً من القطائع اقواد

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة الدكتور نبيه فارس ، بيروت ١٩٤٩ ج ٢ ص ٩ . ويقول برنارد لويس فى ذلك : « وقد أدى تغير الأسرة الحاكمة إلى إتمام تنظيم الدولة القدى بدأ فى زمن الأمويين ، فبعد أن كان الخليفة مجرد شيخ قبيلة يستمد سلطانه من رضى الطبقة العربية الحاكمة المندوح من غير طيب خاطر ، أصبح حاكماً أو ثوقراطياً يدعى أن سلطانه مقدس ، ويدعم هذا السلطان بجيش نظامى مسلح . . . برنارد لويس ، العرب فى التاريخ ص ١١٧ وما يليها .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥٢ - ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥٢ - المسعودى ، ج ٣ ص ٢٧١ .

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٩١ ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

خراسان عندما أسس سامراء (١) . وكان خلفاء بني العباس يحملون أهل خراسان إلى خد تركهم يدخلون في حضرتهم ويخرجون بدون إذن منهم ، ويسمعون منهم في مجالسهم بالسبق في الكلام (٢) وعلى الرغم من الامتيازات التي تمتع بها الفرس في ظل خلفاء بني العباس وما خصهم به هؤلاء من تمييز وتقدير على العرب ، فقد غلبت على كبار شخصياتهم انقربة مشاعر الشموبية بحيث أصبحوا يشكلون خطرا حقيقيا على سلطان الخلفاء ، وقد فطن أبو العباس السفاح منذ بداية الأمر إلى حقيقة ما يهدف إليه أبو سلة الخلال - رغم ما قدمه للدعوة العباسية من خدمات جليلة في دورها الأخير ورغم عظيم بلائه - من استثمار الثورة لصالح العلويين من جهة (٣) ولسلطوته على الخليفة وإنفاذه للأمر بدون الرجوع إليه من جهة ثانية ، فكان يظهر من الإدلال والقدرة على الخليفة (٤) ويقيم عنده في كل ليلة إلى حين من الليل ، فإذا أراد الرجوع إلى بيته قربت إليه دابته إلى الجبل ، فيركب منه دون غيره (٥) . ولهذا الأسباب نخافة السفاح على نفسه ، وكان لزاما عليه أن يتخلص منه انقاء أشبه (٦) ، ولكن قتل أبي سله من شأنه أن يشير عليه أنصاره ويستثير شكوك أبي مسلم الخراساني (٧) ،

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .

(٢) كان المهدي إذا أراد الشورى جمع خاصة مشورتهم ويسمع الدوال بالألوية في الكلام .

(٣) المهدي ، ج ٣ ص ٣٧٠ — ابن طاطا ، ص ١٢٧ .

(٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) أبو حنيفة الدينوري ، ص ٣٢٠ .

(٧) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥٢ .

لذلك أفضى لأبى مسلم بما أنكره على أبى سلة ، فكتب إليه أبو مسلم ينصحه
 بقتله ، وقال له مبررا قتله : « إنه العدو الغشاش ، الخبيث السريرة (١) » ،
 فكتب إليه أبو العباس يسأله أن يبعث إليه من يقتله ، فوجه أبو مسلم هراد
 ابن أنس الضبي ، فقتله . غير أن الدينورى يهزى قتل أبى سلة إلى مشاعر
 الحسد التى انتابت أبى مسلم ، فيذكر أنه « عندما بلغ أبا مسلم بأن الخليفة
 السفاح ولى أبا سلة الدعاى جميع ما وراء يابه وجهه وزيره وأسند إليه جميع
 أموره ، دعا عمروان الضبي - وكان أحد قواده - وقال له: انطلق إلى الكوفة وأخرج
 أبا سلة من عند الإمام أبى العباس واضرب عنقه (٢) » . وأيا ما كانت أسباب
 قتله فإن أبا جعفر أثبت بذلك عن عقلية مفكرة وضعت أمن الدولة وسلامتها
 فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها فوق كل اعتبار ، كما أثبت بتنفيذ عملية
 القتل على يد أبى مسلم الخراسانى براءة فائقة وفها عميقا لأمور السياسة بدون
 أن يشير عليه حقد أنصاره ونقمته ، حفاظا على الروابط المتينة التى تربطه
 بهم . ولكن من جاء بعده من خلفاء بنى العباس لم يتردد فى نكبة من بالغ من
 الفرس فى الاستبداد ودولتهم والتشكيل بهم عندما تبين لهم خطرهم على سلامة
 دولتهم ، وتدل حادثة نكبة أبى مسلم الخراسانى على يد المنصور ، ونكبة
 البرامكة على يد الرشيد ، ونكبة الفضل بن سهل على يد المأمون (إذا جاز ذلك)
 على أن خلفاء بنى العباس قاوموا توثب الفرس وأحبطوا مؤامراتهم الشموية
 وحذروا من تطالهم إلى السيطرة التامة (٣) .

(١) نفس المصدر .

(٢) أبو حنيفة الدينورى ، ص ٣٧٠ .

(٣) عبد القناح السرنجائى ، الدولة العباسية : اضمحلالها وسقوطها ، القاهرة - ١٩٤٠

فأبو مسلم الحنبر اساقى اعداء يوتوته واستخف بالمصور في انشاء خلافة السفاح بل وبعد وفاته ومن أسئلة استغفاره به في خلافة السفاح أنه لما يوسع لأبي العباس السفاح، وجه بأخيه أبي جعفر إلى خراسان لاختذ البيعة على أبي مسلم، فوصل أبو جعفر إلى مرو في ثلاثين فارساً، فلم يحتفل به أبو مسلم، ولم يلتقه، واستخف به، فانصرف واجداً عليه، وشكاه إلى أبي العباس وأعله ما نال منه، وكثر عليه في ما به، فقال أبو العباس: فما الخيلة فيه وقد عرفت موضعه من الإمام ومن إبراهيم، وهو صاحب الدولة والقائم بأمرها؟ . . . وقدم أبو مسلم على أبي العباس، فأكرمه وأعظمه ولم يثر شيئاً من أمر الجنوة بيته وبين أخيه أبي جعفر. ودخل عليه يوماً، وأبو جعفر في المجلس، . . . فسلم عليه وهو قائم، ثم خرج ولم يسلم على أبي جعفر، فقال له أبو العباس: مولاك مولاك!! لم لا تسلم عليه؟ يعني أبا جعفر. فقال: قد رأيته، ولكن لا يقضى في مجلس الخليفة حق أحد غيره (١). . . ومن مظاهر استهائه بالسفاح وبالمصور أنه كتب في سنة ١٢٦ إلى السفاح يستأذنه في التقدم عليه والحج، فكتب إليه السفاح يأمره بالتقدم في خمسمائة من الجنود، فكتب إليه أبو مسلم: . . . إنه قد وترت الناس ولست آمن على نفسي؛ فكتب إليه: أن أقبل في ألف، فإنما أنت في سلطان أملاك ودولتك وطريق مكة لا يتحمل العسكر. فسار في ثمانية آلاف فرقه فيما بين نيسابور والري، وقدم بالأموال والخزائن فخالقها بالري، وجمع أيضاً أموال الجليل، وقدم في ألف، فأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يلتقوه . . . (٢). . . وقيل أن السفاح قدمه على أبي جعفر في الحج،

(١) الطبري، ج ٢ ص ٣٠١.

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤٥٨.

فهرف أبو مسلم خبر وفاة السفايح قبل أن يعرفه المنصور ، ولم يأت له ليخبره بل كتب إليه معزيا مع أنها كانا عاقلين من الحج ، كما أنه لم يهتبه بالخلافة ولم يتوقف في طريقة ليباينه وإنما اكتفى بالكتابة إليه قائلا : « طافك الله ومتع بك ، إنه أتاني أمر أظمنى وبلغ مني مبلغا لم يبلغه مني شيء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك وأصطفى نصيحة لك وحرصا على ما يسرك مني ، (١) ثم مكث يومين وكتب إلى أبي جعفر ببيعتة (٢) .

وذكر الحسن بن قحطبية رسول المنصور إلى أبي مسلم عندما كتب إليه يدعو له إلى مقابلة عبد الله بن علي العباسي أنه رأى أبا مسلم — عندما أتاه بكتاب المنصور — يقرأ الكتاب ثم يلقيه من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرأه ويضعه كان استهزاء ؛ فلما انهزم عبد الله وجمع أبو مسلم ما غنم من عسكره بعث أبو جعفر أبا الخصيب إلى أبي مسلم ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فأراد أبو جعفر قتله ، فتوسط له بعض الحاضرين فخلص سبيله ؛ وعاق وقتشه على كتاب المنصور : « أؤمن على الهدى ولا أؤمن على الأموال » (٣) ، ثم استخف برسل الخليفة إليه وشتمهم ، وتناول أبا جعفر بلسانه ، حتى ذكر أمه وقال : « وبلى على ابن سلامة » (٤) . وبلغ ذلك أبا جعفر المنصور وهو في رومية ، فغضب وزاد

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤٦٢ ، ٤٦٨ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٦٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٩ — ابن طباطبائي ،

ص ١٥٠ .

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

ما في قلبه عليه ، فولى هشام بن عمرو العقيلي مكان أبي مسلم ، فانصرف أبو مسلم وأقبل يريد خراسان مفاخبا لأبي جعفر حتى بشر أهل خراسان عليه ويحصل العباسيين دائما في قبضة يده ، فر بالمدائن ، وأبو جعفر ينزل برومية على مقربة منها ، فلم يسع إلى لقائه ، ونفذ لوجهه حتى جاز حلوان ، فسير إليه المنصور نفرا من أصحابه فاستقوه وعظموا عليه الخطب ، وسألوه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ، وسدروا طافة البنى ونصحوه بالرجوع إلى المنصور ؛ فأقبل إلى العراق ، وقدم على أبي جعفر ، فأمر الناس بتلقيه ، فتلقاء بنو هاشم والناس ، فدخل على المنصور فقبل يده ، وأمر المنصور بأن ينصرف ويروح نفسه ويدخل الحام ، فانصرف ؛ فلما كان الند دعا المنصور عددا من الحرس وأمرهم بالجلوس وراء الرواق فإذا صفق بيديه وثبوا على أبي مسلم فقتلوه ؛ ثم أرسل إلى أبي مسلم لم يستدعيه ، ثم أخذ يدايته على مخائنته له ، فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم : « لا يقال هذا لي بعد ثلاثي وما كان مني » ، قال : يا ابن الحبيشة ، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ، إنما عملت في دولتنا وبريحتنا ، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلها ، فأخذ أبو مسلم بيده يقبلها ويمتدح إليه . فقال له المنصور : « ما رأيت كاليوم أ والله ما زدني إلا غضبا » ، قال أبو مسلم : « دع هذا فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى » ، فغضب المنصور وشتمه ، ثم صفق بيده على الأخرى ، فنخرج عليه الحرس فأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه^(١) ؛ وتم ذلك في شعبان سنة ١٣٦ .

ثم خطب المنصور في الناس بعد أن قتله فقال : « أيها الناس ، لا تخربوا عن أنس الطاعة إلى وسوسة المدعية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش

(١) للمسعودي ، ج ٣ ص ٢٦١ .

إمامه أظهر الله سريره في فلتات لسانه وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه الذي يادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلاجه، إننا لم نبخسكم حقوقكم، ولم نبخس الدين حقه عليكم، إن من نازعنا عروة هذا القميص أو طأناه ما في هذا القميد، وإن أبنا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه، ثم نكث بيعته هو، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمننا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه (١) .

ثم اضطرب اصحاب أبي مسلم بعد قتله، ففرقت فيهم الاموال، فأمسكوا رغبة ورهبة (٢). واعتبر الناس يوم مقتل الخراساني أول خلافة المنصور، لأنه كان يزاحم في السلطان، وكادهم يخلع المنصور (٣) عندما أعلن مخالفته وقصد السير إلى خراسان حيث شيعته وأنصاره من الشعوبيين أمثاله، بدليل أنه لما نهي قتل أبي مسلم إلى خراسان اضطربت الحرورية وهي الطائفة المسماة بالمسلمية وكانت تقول بإمامة أبي مسلم، ومن زعمائها سناذ الجوسي الذي سبق أن تحدثنا عنه .

وبمصرع أبي مسلم الخراساني، قوى مركز المنصور وتوطدت أركان الدولة العباسية، ولا شك أن المنصور بقتله هذا الشعوبيين إنما أثبت سطوته وقدرته على مواجهة المواقف الخطيرة، وكان المنصور أول من أحس خطورة أبي مسلم وتنبه لتسلله ضد العرب وضد الدولة منذ أن قتل خيرة رجال العرب في

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤٧٤ — ٤٧٩؛ ابن طباطبا، ص ١٥٣ .

(٢) للمسعودي، ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٣) الذهبي، العبر في خبر من غير، ١ ص ١٨٦ .

خراسان من يعرفون خطته ومؤامراته ضد العروبة ومنهم سليمان بن كثير كبير الدعاة في خراسان ، فعزول المنصور أن يعرف أخاه السفاح بقتل أبي مسلم الخراساني فقال له : « أظنني وأقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه الغدرة . فقال : قد عرفت بلاءه وما كان منه . فقال أبو جعفر : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ . فقال : كيف نقتله ؟ قال : إذا دخل عليك وحادثته ضربته أنا من خلفه ضربة قتلتها بها . قال : فكيف بأصحابه ؟ قال أبو جعفر : لو قتل لتفرقوا وذلوا . فأمره بقتله ، وخرج أبو جعفر ، ثم ندس السفاح على ذلك فأمر أبا جعفر بالكف عنه ، (١) .

أما نكبة الرشيد، للبرامكة فكانت هي الأخرى دليلا واضحا على يقظة خلفاء بني العباس وتنبههم إلى خطر التسلسل الشعبي ، فالمعروف أن البرامكة من أصل فارسي ينتسبون إلى أشراف بلخ ويتلقبون بالبرامكة من برمك وهي رتبة وراثية لرئيس كهنة معبد نوبهار ببلخ (٢) ، وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين خاله بن برمك الذي أسهم في الدعوة العباسية ، وكان من أبرز رجال أبي مسلم الخراساني الذين اعتمد عليهم في مهمته ، وقد ولّاه قحطبة ابن شبيب الطائي مهمة تقسيم الفنائم عندما انتصر قحطبة على قائد الأمويين في جرجان (٣) ، وأصبح وهو لا يزال في جيش قحطبة يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من السكور ويقوم بتقسيم الفنائم بين الجند تقسيما عادلا أرضي جميع أهل خراسان حتى قيل : « لأنه ما من أحد من أهل خراسان إلا ولحاله عليه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٢) ابن الفقيه الهذلي ، « مختصر كتاب البلدان ص ٣٢٣ —

Bouvat, les Barmecides, Paris, 1912, P. 26٩

(٣) الطبري ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

يدومنة لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله^(١). وقد أعجب السفاح بخاله
إبن برمك لفصاحته وأقره على عمله، ثم أسند إليه ديوان الخراج وديوان
الهند^(٢)، وكان هذا التكريم أول مرحلة من مراحل تدخل البرامكة في شؤون
الدولة وتصرفهم في أموالهم، وأصبح خاله بذلك يؤدي عمل الوزراء في توليته
الخراج، ولكنه تجنب أن يتلقب بالوزير تطهيرا عما جرى لأبى سلمة الخلال^(٣).
وارتفعت منزلة خاله عند السفاح وكثر قصاده والوافدون على بابيه وانتجعه
الناس. ومنذ ذلك الحين بدأ يتعصب لغارميته، فلما بنى المنصور بقسده
وعظم النفقة عليه، أشار عليه وزيره أبو أيوب المورباني بهدم إيوان كسرى
واهتمام أنقاضه، فاستأشار المنصور خالد بن برمك في ذلك فقال: «لا تفعل
يا أمه المؤمنين، فإنه آية الإسلام، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء
لا يزيله إلا أمر سمائي، وهو مع ذلك مصلى على بن أبى طالب عليه السلام والمؤنة
في تحضنه أكثر من نفعه». فقال له المنصور: أبيت يا خالد إلا أميلا إلى العجمية.
ثم أمر المنصور بهدمه، فهدمت منه ثلثة فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها،
فأمسك المنصور عن هدمه، وقال: يا خالد قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم
الإيوان. قال: يا أمير المؤمنين، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك
هجرت عن هدمه، وإنما غيرك. فأعرض عنه وأمسك عن هدمه^(٤).

وفي عهد المهدي، زادت مكانة خالد البرمكي، فولاه الخليفة ولاية فارس،

(١) الجهمياري، الوزراء والكتاب، القاهرة ١٩٤٨، ص ٨٧.

(٢) نفس المصدر، ٨٩.

(٣) ابن طباطبا، ص ١٣٩ — إبراهيم سلمان، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول،
رسالة الماجستير، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٧١.

(٤) ابن طباطبا، ص ١٤١.

فعمل على التقرب من الأهل بالتخفيف عنهم . فأسقط ضريبة العنجر ، وأسرف في السطاء . ولما توفي خاله ، حل ابنه يحيى محله في المكانة الساعية التي كافي يشغلها عند الخليفة ، وأسند إليه المهدي مهمة تربية ابنه هارون في سنة ١٦١ (١) . وإلى يحيى بن خاله يرجع الفضل في ظفر هارون الرشيد بالخلافة ، وقد تعرض يحيى بسبب موقفه لخطب الهادي ، فأمر بسجنه ، ولكنه توفي بعد ليلة واحدة ، فلما تولى هارون الخلافة أخذ نهم يحيى يتألق ، فقلده وزارته وحواله من الساعات وأطلق له يده في تصريح شؤون دولته بحيث إنه أصبح الحاكم الفعلي للدولة ؛ فقد أسند إليه إلى جانب مهام الوزارة جميع الدواوين وديوان الخاتم (٢) . وفي سنة ١٧٨ اصطحب الرشيد الفضل بن يحيى فولاء خراسان وثغورها ، فاتخذ بخراسان جنودا من العجم موالين له سباهم العباسية بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل ، قدم منهم إلى بغداد عشرون ألفا عرفوا هناك بالكردنية (٣) . ثم قرب الرشيد إليه جعفر بن خاله ، وأقصى الفضل بسبب ميله للإمام موسى الكاظم الذي كان سجيناً لديه ، وبمال جعفر حظوة كبيرة عند الرشيد ، فأسند إليه ديوان الخاتم ، وتألق نجم جعفر وأصبحت بيده أزمة الأمور ، وبانح من حب الرشيد له أنه كان لا يرد له مطلباً ، وأنه قلده بريد الآفاق ودور العنبر والطرز في جميع الكور (٤) ؛ وأمر الرشيد بأن ينقش اسم جعفر على دنانير الصلات والأفراح

(١) الطبري ، ج ٨ ص ٣٤٤ (أحداث سنة ١٦٣) .

(٢) الجوهري ، ص ١٧٨ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٦٢ (أحداث سنة ١٧٨) .

(٤) الجوهري ، ص ٢٠٤ .

بمدينة السلام واهمديّة^(١) ثم أسند إليه النظر في المظالم^(٢) لأول مرة في تاريخ القضاء .

وهكذا نال البرامكة من النفوذ والسلطة والجاه والمنزلة ما لم تحظ به أسرة أخرى في تاريخ الدولة العباسية ، ولكنهم لم يحسنوا استعمال السلطة . فضربوا على يد الرشيد واستأثروا بالحكم دونه ، ووزعوا الأموال على الاتباع والأهوان والأنصار إلى حد أن شهرتهم غلبت على شهرة الرشيد وتضائل نفوذه بالنسبة لنفوذهم . وقد فطن الرشيد مؤخرًا إلى أن البرامكة بما ظفروا به من سلطان أصبحوا سيفًا مسلطًا عليه ، وقد عبر عن ذلك لاسد بدمائه بقوله : « ما عد البرامكة في هاشم إلا هبّوهم ، وأنهم هم القولة ، وأن لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها^(٣) » . ثم أخذ الرشيد يعمل بالتدريج على الحد من سلطتهم ، فمزل محمد بن خالد البرمكي عن حجابته في سنة ١٧٩ وقلدها للفضل ابن الربيع^(٤) ، ثم صرف الفضل بن يحيى عن مهامه في سنة ١٨٣ وقلدها لعلّ ابن عيسى بن ماهان ، ثم سحب الإشراف على الحرس من جعفر وأسنده لحرثمة ابن أعين^(٥) ، وبالتدريج أعرض عنهم قبل أن يقدم على نكبتهم ؛ وهناك عوامل دفعت بالرشيد إلى ذلك ، منها :

(١) المقرئى ، شذور المـرد في ذكر النفـود ، تحقيق الطـبـاطبائى ، النـجف ١٣٥٦ هـ ، ص ١٢ .

(٢) الجهمشيارى ، ص ٢٠٤ .

(٣) الأتليدى ، إعلام الناس بما وقع البرامكة مع بني العباس ، القاهرة ١٣٠١ هـ ، ص ٨٨ .

(٤) الجهمشيارى ، ص ٢٢٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

١ - عامل سياسي : كانت البرامكة ميول سياسية ومذهبية تشكل خطرا على سلامة الدولة^(١) ، فقد اتهم الرشيد يحيى بن خاله بجيلة إلى يحيى العلوي وأنه أمدّه بمائتي ألف دينار عندما ثار في بلاد الديلم^(٢) ، كما اتهم البرامكة بمحالاتهم لخصومه السياسيين أمثال عبد الملك بن صالح بن علي العباسي الذي اتهمه الرشيد بأنه يطالب بالخلافة لنفسه^(٣) ، كذلك اتهم موسى بن يحيى بن خاله على لسان علي بن عيسى بن ماهان الذي تولى خراسان بأنه كان يكاتب أهل خراسان ليسهر إليهم ويخرجهم عن الطاعة^(٤) ، وأثرعه هذه التهمة في نفس الرشيد إلى حد أنه أمر بحبس موسى في ٨٨٦ هـ ثم أطلقه لوساطة أم الفضل .

٢ - عامل اقتصادي : سيطر البرامكة على أموال الدولة وأنفقوها على ما اشتبهوا في وجوه شتى ، وبالعوا في ذلك إلى حد أن الرشيد نفسه كان لا يصله مال إلا بأذنهم^(٥) ، وبينما كانوا يقترون على الرشيد مع اكتظاظ خزائن الدولة بالأموال كانوا يسرفون في الإنفاق على أنفسهم وعلى أنصارهم ، فامتلكوا الضياع وبالمنازل في العطايا والهبات .

٣ - عامل التمهيب للفرس : كان البرامكة لا يختلفون في ذلك عن الشعوبية ، فكانوا يتعمدون للفرسية ويعملون على إعادة الأجداد الفارسية القديمة ، فكانوا يستبدون المناصب الهامة في الدولة إلى أنصارهم الفرس ، بل

(١) الدوري ، ص ١٦٨ .

(٢) الجيهشباري ، ص ٢٤٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٨٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٧ .

(٥) المموي ، ج ٣ ص ٣٦٨ .

وأشاع للناس أن البرامكة كانوا زنادقة (١) .

٤ — الاستئثار بالسلطة دون الخليفة : كان الرشيد بإحدى ذى يده يتنازع عما كان يصله من أخبار استبداد البرامكة بشؤون الدولة ونزاهد نفوذهم وفاء منه لخدماتهم ، ولكن مقاديره أخذت تتغير تجاههم إلى حد أنه لم يعد يأمن لهم وأصبح يخشى على مركزه كخليفة للمسلمين بعد أن سيطروا على أجهزة الدولة الإدارية والمالية وصار الناس يلجئون إليهم ويتوافدون على أبوابهم (٢) . ويشهد ابن طباطبا إلى أن جعفرًا وانفضل ابني يحيى بن خالد ظهر منها من الإدلال مالا تحتمله نفوس الملوك ، فتكبهم الرشيد (٣) . ويرى ابن طباطبا أن بختيشوع الطيب دخل يوا على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من بغداد وكان البرامكة يكتنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيل وازدحام الناس على باب يحيى ابن خالد فقال لطيبه : دجى الله يحيى خيرا ، تصدى للأمور وأراحني من الكد ، ووفر أوقاتي على اللذة . ثم دخل عليه طيبه بمددة وقد شرع الرشيد يتنهد عليهم ، فنظر فرأى الخيل كما رآها تلك المرة ، فقال : « استبد يحيى بالآلور دوني ، فالخلافة في الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها (٤) » .

٥ — دور الفضل بن الربيع : لعب الفضل بن الربيع دورا رئيسيا في

(١) ابن العديم ، الفهرست ، ص ٤٧٣ ،

(٢) ابن العلاء الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ هـ ،

ج ١ ص ٣١٢ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

أينار صدر الرشيد على البرامكة والسمي للإيقاع بهم ، إذ ساءه وساء غيره من أعيان العرب استئثار الفرس بالمناصب الحسنة في الدولة وسيطرتهم على شؤونها وتحية النصر العربي . وقد سملت على الفضل بن الربيع مهمة وظيفته كحاجب للرشيد . ويذكر ابن الأثير أن الفضل بن الربيع استقل قيام جعفر ابن يحيى البرمكي بتسهيل مهمة الفرار من المعن للإمام يحيى بن عبد الله بن الحسن ، وأبلغ الرشيد بذلك ، فادعى الرشيد أن هذا تم بمله (١) .

٦ — قصة السياسة أخت الرشيد : وزعموا أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسية بنت المهدي ، وكان إذا أراد الشراب دعاها للحضور معه ، فطالب من جعفر أن يتزوجها زواجا يتيح له مجالستها والنظر إليها والاجتماع في مجالس يضمهما مع الرشيد ، واشترط عليه ألا يقربها ، فأجابته إلى ذلك ، فزوجه الرشيد ، وأشهد له من حضره من خدبه وخاصة مواليه ، وأخذ عليه الرشيد عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يغلوها ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثها ، فحلف له جعفر بذلك ، ورضى به وألومه نفسه ؛ فأحبته السياسة ، وتحملت على أن يحتل بها ، فحملت منه وولدت غلاما ، فوكلت به خادما من خدمها . فلما خافت ظهور خبره وانتشاره وجهت الصبي والخادم والمخاضنة إلى مكة وأمرتها بتربيته ، وعاشت زيدة بالخبر وكانت تكره جعفر بن يحيى الذي لعب دورا هاما في بيعة المأمون بعد ابنها الأمين ، فأبلغت الرشيد ، فسقط في يده ، وتمحق الرشيد من صدقها ، فعزم على نكبة البرامكة (٢) . ويعلم ابن خلدون في صفة هذه الواقعة وينفيها نفيا قاطعا (٣) .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٧٦ .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٣٠٨ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٩ .

ولهذه الأسباب مجتمعة ، أمر الرشيد خادمه معرور بقتل جعفر ، وتم ذلك في آخر المحرم سنة ١٧٨ هـ ، ثم أمر بجس ينجي والفضل ومصادرة أموالهم .

وبنكبة البرامكة انتصر الحزب العربي في بلاط الخليفة الرشيد برعاية الفضل ابن الربيع ، وبدأت ثمرات هذا الانتصار في وصية الرشيد لابنه الأمين إذ قدمه رغم صغر سنه على أخويه المأمون والمعتصم ، لاعتبارات أساسية أهمها أن أمه السيدة زبيدة عربية الأصل . ولكن الرشيد قبل وفاته وقع في خطأ فاحش إذ قسم دولته بين أبنائه الثلاثة ، وخص المأمون بخراسان ، وهذا ظهر الفضل بن سهل الفارسي الذي كان الساعد الأيمن للمأمون في ولايته لخراسان ، وبتأييد الفضل الذي كانت تنلب عليه النزعة القومية الفارسية أن يعمل على زيادة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون بهذا السبيل إلى إقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى الفرس على النحو الذي عرضناه من قبل .

الحركات الدينية الهامة والهرطقات (١)

قامت الدولة العباسية على أساس ديني قوامه إحياء السنة والدين وإعادة حكم العدل ، والمودة إلى نظام الخلافة الحقيقي الذي ينطب عليه الطابع الديني بدلا من نظام الملكية الذي إقامة الأمويون (٢) ، وتنعكس مبادئ العباسيين الجديدة في الخطبة التي ألغاها السفاح غداة أخذ البيعة له ثم أكلها معه داود ، فن قول داود : « علمنا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله (ص) » (٣) . واتخذ العباسيون رسوما للخلافة لها صبغة دينية بحتة ، فكان خلفاؤهم يرتدون بردة النبي (ص) في المناسبات الخاصة كهلالة العيدين والجمعة وعند توليتهم الخلافة ، كرمز لسلطانهم الدينية ، ويحيطون أنفسهم بالتمجدها ويستشيرونهم في مهام الدولة ومشكلاتها ، ويستشيرون على نظرية الإمامة في الحكم توكيدا للمعنى الديني على أساس أنهم ورثة بيت الرسول بسبب قرابتهم للرسول ، وبذلك جمعوا بين الدين والسياسة وهو ما عبر عنه ابن طباطبا بقوله : « واعلم علمت الخلد أن هذه دولة من كبار الدول سادت العالم سياسة مزوجة بالدين والملك ، فكان

(١) فيما يتعلق بموضوع الثورات والفن يرجى الرجوع إلى الفصل الخامس بالتصريف بالخطباء ثم إلى الفصل الثاني الذي يتعلق بسياسة الدولة العباسية مع العلويين . أما بالنسبة للهرطقات فقد سبق أن عالجنا هذا الموضوع مجزئا وباختصار في الفصل الأول ، ولا بأس من مطالعته هنا كبحث موحد ومفصل في آن واحد حتى تم الفائدة وأرجو المائدة إذا حاء تكرار في بعض الأحيان .

(٢) الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٤٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١١٤ .

اخيار الناس وصلح ازم يطيعونها قدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ،
ثم مكثت في الخلافة والملك في حدود ستائة سنة (١) . وخيفت هذه المبادئ التي
قام عليها الحكم العباسي آمال الفرس أنصار الثورة العباسية الذين كان يحسدوهم
الآمل في حكومة ضعيفة سواسية متهاونة دينها ، يستطيعون في ظلها تحقيق
مآربهم التي تهدف إلى قتل من العرب وانزاع السلطان من أيديهم وتحويله إلى
أنفسهم . وكان قد انضم إلى الدعوة العباسية جموع هائلة من أهل خراسان
لا تعرف من الإسلام إلا اليسير تستر بالإسلام كتمية لمحاولة إخفاء مرطقات
ونحل وديانات وثنية قديمة متمسكة بها ، ولكن العباسيين نصبوا أنفسهم
المسؤولين عن إعادة الدين الحق ، وتطبيق مبادئ المساواة والمدالة الاجتماعية
التي كان الموالي يطالبون بها في مصر الأموي . ولكي يجعواوا مآثرات الشعبية
المتسرة وراء إسلامهم الظاهري ، بتشجيعهم للعباسيين ، ناقش المنصور
نفس الزكية في حجة التي استند عليها ، مؤكدا شرعية العباسيين في الحكم .
وحتى نذ اتجه الشعوب الفرس إلى سياسية جديدة في محاربة العرب والإسلام
قوامها إحياء الديانات القديمة في فارس وإغراء عامة الناس والجمهور على
الاخذ بما جاء فيها من تعاليم هدامة فاسدة مليئة بالمنغرات على ارتكاب المحرمات ،
مستهدفين من وراء ذلك تحطيم القيم الدينية الإسلامية (٢) والنيل من سلطان
العرب .

(١) ابن طاطبا ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن الحوزي ، المنتظم في التاريخ ، ج ٥ ، طبعه حيدرآباد الحسن ، ١٣٥٧ هـ ،
ص ١١٠ . ويقول البيهقي إن عبد هذلاء الثمويين « أن يمدول (زردشت) على
الأرض كلها وبزيل ملك العرب وغيرهم ويجمع الخاق على دين واحد » (البيهقي ، الآثار
الغاية ، ص ٢١٣) .

أ — حركة بها فرید :

وأقدم الحركات الدينية المنصيرية التي ظهرت في خراسان حركة قامت في صدر الدولة العباسية قبل ظهور أبي المباساس السفاح ، في ركاب أبي مسلم الخراساني عندما كان يتولى زعامة الدعوة في خراسان ، وصاحب هذه الحركة رجل يقال له بها فرید من قرية روى من أبرشهر ، كان مجوسيا زرد شتيا وهصل الصلوات الخمس بلا سجود ، مقياسرا عن القبلة ، وتكنن ، ودعا المجوس إلى مذهبه فاستجاب له خلق كثير . (١)

وذكر البيروني أنه أمر أصحابه بالسجود لعين الشمس على ركبة واحدة والتوجه نحوها في الصلاة حينما كانت وإرسال الشعور والجسم ويترك الزمزة عند الطعام ، ونهاهم عن شرب الخمر وأكل الميتة ولحاح الأمهات والبنات والاعوات وبنات الأخ ، وهن من صميم التعاليم الزردشية (٢) ، وقال بحلول الروح والرجعة ونهى عن ذبح الحيوان (٣) . فوجه إليه أبو مسلم شبيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضا عليه الإسلام ، وأسلم وسود ، ثم لم يقبل إسلامه لتكنه . فقتل ، ولكن تعاليمه انشرت في خراسان خاصة بعد مصرع أبي مسلم الخراساني ، أمل الشعبية ورمزها .

ب — ثورة سنباذ : وأثار مصرع أبي مسلم غضب الجماهير في خراسان ،

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٤ .

(٢) البيروني الآثار الدائبة ، ليزج ٩٢٣ ، ص ٢١٠ — الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق كيلاني ، ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) Browne (Edward) : A literary History of Persia, London (٣) 308-310 P . 1909 — ابراهيم المدوي ، المجتمع العربي ومنامضة الشعبية ، ص ١٥٢ .

فقد تجسدت في أبي مسلم آمالهم ومبادئهم التي يبتغونها وتهدف إلى إزاحة الدولة العرب ، فلما قتل أظهروا هذه المبادئ ، فظهر سبناذ في خراسان يطالب بدم أبي مسلم والثأر له ، وظهر المسلمية أصحاب أبي مسلم في بلاد ما وراء النهر . أما سبناذ فكان مجوسيا من إحدى قرى نيسابور ، وكان من صنائع أبي مسلم وقائداً من قواده المقربين ، فلما علم الحرمية بقتل أبي مسلم خرج سبناذ من نيسابور في عسكر كثيف من أتباعه — ومعظمهم من أهل الجبال والضياع — فناب على نيسابور وقومس والري وتسمى فيروز أصبهان ، واستولى وهو بالري على خزان أبي مسلم التي خلفها بالري حين شغره إلى أبي العباس السفاح ، وكثرت جموع سبناذ من أهل الجبال وطبرستان ، فمات فسادا في إقليم الجبال وسبى الحرم ونهب الأموال ، وكان يظهر أنه يقصد الكعبة ويهدمها ، فوجه إليه المتصور جيشا عدته عشرة آلاف فارس بقيادة جهمور ابن مراد العجلي فاشتبك مع سبناذ على طرف المفازة ما بين همدان والري ، وعزم جهمور على مطاولته ، فقدم سبناذ السبايا من النساء المصالحات على الجبال فلما رأين عسكر المسلمين قن في الحامل وصرخن : « واهمهذه اذهب الإسلام ، فنفرت الإبل وتراجعت إلى معسكر سبناذ ، فاغتمت صفوف عسكره فقاتلهم جهمور وعسكره قتالا شديدا فولوا الأدبار ودارت عليهم الدائرة وقتل منهم ستون ألفا وسبى من ذرايعهم أعداد كثيرة ، ثم قتل سبناذ بين طبرستان وقومس (١) .

ج — ثورة المسلمية : وفي نفس الوقت ثار المسلمية ، وهم فرقة من الحرمية

(١) الباقوي ، ج ٢ ص ٣٦٨ — الطبري ، ج ٩ ص ١٦٦ (حوادث ١٣٧) — المسعودي ، ج ٢ ص ٢٩٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٨١ — ابن طباطبائي ، ص ١٥٤ .

أتباع ابن مسلم يعتقدون بإمامته ويقولون إنه حتى يرزق لم يمض حتى يظهر
فيملا الأرض عدلاً (١). وتزعم الحركة المسلمية رجل اسمه إسحق التتري لا
بالتتري في بلاد ما وراء النهر، وأقام بها داعية لابن مسلم، وادعى أن أبا مسلم
محبوس في جبال الري، وأنه يخرج في وقت يعرفونه على نحو ما يروونه
الكنيسانية في عهد بن الحنفية (٢). وفريق من المسلمية قطعوا بموته
وقالوا بإمامة أخته طائفة وعرفوا لذلك بالفاطمية (٣). وزعم فريق من
المسلمية أن أبا مسلم نبى أنفذه زرادشت، وادعى أن زرادشت حتى لم
يمض، وأصحابه يعتقدون أنه حتى لا يموت، وأنه يخرج حتى يقم هذا الدين
لهم (٤).

د - حركة الراوندية : ثم ظهرت الراوندية ، وهي فرقة من فرق المسلمية
الحرمية على رأى ابن مسلم ، سميت كذلك نسبة لمدينة راوند مقر دعوتهم (٥) ،
وكانت هذه الفرقة قد انتشرت منذ أواخر العصر الأموي عندما اشتد السخط
والتذمر بين الفرس على العرب الأمويين (٦) ، فهي إذن حركة سابقة على قيام
الحولة العباسية ولكنها ظهرت ظهوراً ذى خطر في عصر المنصور وبالذات في

(١) للسعودى : ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٥ — Brown, op. cit., p. 314 .

(٣) للسعودى : ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٤) ابن النديم ، ص ٣٤٥ .

(٥) هي بلدة تقع بالقرب من قاهان وأسبهان وسامراهاوند بمعنى الخير المضاعف
(يافوت ، معجم البلدان ، مادة راوند) .

(٦) يعتقد الدكتور ماجد أنه ربما كان الراوندية في الأصل أتباع فرقة إسلامية لها
الكنيسانية التي طالبت بحق آل البيت (ماجد ، المرجع السابق ، ص ٧٠) .

أعتاب مصرع أب مسلم الخراساني، شأنهم في ذلك شأن المسلمين والخرمية والفاطمية. وكان الراوندية يعتقدون بالحلول والتناسخ (١) (بحلول روح الله في أشخاص الأئمة من آل علي سترًا للتماثيل الفارسية القديمة وراء شخصيات هرية إسلامية لتجدها قبولاً بين ضعاف النفوس) (٢).

ويذكر الطبري أن رجلاً من الراوندية كان يقال له الأبلق وكان أبرص زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، واستحلوا [أي الراوندية] الحرمات، فكان الرجل منهم يدعو الجماعه منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته، فبلغ ذلك أسد بن عبد الله [القسري] فقتلهم وصلبهم. فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور، وصعدوا إلى الخضراء، فألقوا أنفسهم كأنهم يطهرون، وخرج جماعتهم على الناس بالأسلح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت. قال: فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم، فأقبلوا يقولون وهم يقتلون: أنت أنت؛ (٣) فكانوا يعتقدون أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. وأتوا قصر المنصور بالهاشمية فجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا؛ فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فأغار ذلك غضب عاتقهم، فمزموه على قتله، واحتاط المنصور لنفسه، فأمر بمنع التجمعات، فأعدوا نمشا خالياً، ثم مروا في المدينة حتى اقتربوا من السجن فأخرجوا أصحابهم السجناء، واتجهوا - وقد بلغ عددهم ستائة - نحو القصر،

(١). الطبري، ج ٩ ص ١٧٣.

(٢). المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص ١٠٥.

(٣). الطبري، ج ٩ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

وحاول المنصور أن يخرج للقائهم، فمئنه معن بن زائدة ورعى بنفسه أمامه وحذره من الظهور أمامهم ، وتبادل حراس القصر والراوندية الهجوم ، ولودى فى الأسواق فأقبل الناس يحاربون الراوندية حتى قتلهم (١) . وهكذا قضى المنصور على الراوندية فى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م) .

وما زال ظهور الرواندية وخروجهم على المنصور رغم عبادتهم إياه . يكتنفه الغموض ، ولا يعقل أن تمرى حركتهم إلى رغبته فى الثأر لآبى مسلم ، لأن هذا الأخير قتل فى آخر سنة ١٣٦ وأول ١٣٧ ، فى حين أن حركتهم ضد المنصور قامت فى سنة ١٤١ . وقد ذكرنا فيما سبق أنهم قدموا إلى قصر المنصور فى عدد قليل لا يزيد عن ٦٠٠ ، وأنهم صعدوا إلى قصره الخضراء ، وأخذوا يلغون بأنفسهم كالوكاوا يطيدون وقد تسلطت على حقوقهم فكرة ربه بيه لا يكثرهون لما يصيبهم من الموت ، فتصدى لهم المنصور ، فكانوا يقولون : د أنت أنت . ويورد الطبرى رواية على لسان أبى بكر الهزلى أنه قال : د لى لواقف بباب أمير المؤمنين إذ طلح ، فقال رجل إلى جانبى : هذا رب العزة الذى يطعمنا ويسقينا . فلما رجع أسعد المؤمنين ودخل عليه الناس ، دخلت وخلا وجهه ، فقلت له : سمعت اليوم عجباً ، وحدثته ، فمكث فى الأرض ، وقال : يا هذلى ، يدخلهم الله النار فى طاهتنا ويمتلكهم أحب إلى من أن يدخلهم الجنة بمصيتنا (٢) . فلما حاربهم أبو جعفر المنصور وسجن من زعمائهم مائتين لم يعد له شرعية الحاكم فى نظرهم من الألوهية فجاز لهم قتله (٣) .

(١) راجع التفاصيل فى : الطبرى ، ج ٩ ص ١٧٤ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٠٢ .

(٢) الطبرى ، ج ٩ ص ١٧٥ . والظاهر أن هذا القول ينطبق على حادثة وقعت قبل سنة ١٤١ عندما كان المنصور فى حاجة إلى أنصار يؤيدونه . أما وقد أصبح خليفة للإسلام وحامياً للدين فلم يعد يتقبل من المبادئ ما يتعارض مع الإسلام ، ولهذا حاربهم .

(٣) الدورى ، العصر النجاشى الأول ، ص ٩٠ .

ولم تكن حركة الراوندية ختاماً للحركات الدينية النصرانية أو البدعية والمهرطقات ، ففي سنة ١٥٠ هـ خرج أستاذ سيس على المنصور في سجنستان من بلاد خراسان وأدعى النبوة ، وجمعه عدد كبير من الناس بلغ فيما قيل ثلاثمائة ألف مقاتل ، فتغلب بهم على حامية خراسان ، وعندما نهضت له الأجشمة المروروذي في أهل مرو الروذ قاتلوه قتلاً عنيفاً ، وهزموه وقتل الأجشمة . فاضطر المنصور إلى تسريح جيش بقيادة غازم بن خزعة لمحاربة أستاذ سيس ، وضم غازم إلى جيشه قلوب الأجشمة ، ونزل بموضع خندق حوله عليه وعلى عسكره ، وجعل له أربعة أبواب ، على كل منها ألف من رجاله . وأقبل أتباع أستاذ سيس وقد تسلحوا بالنزوس ومعهم المروروذي ليعدوا الخندق . فقاتلهم عسكر غازم على بابين من الأبواب الأربعة ، ثم أخذ أحد قواده واسمه الهيثم من أحد الأبواب التي شغل عنها أصحاب أستاذ سيس ويطأون عسكره من الخلف ، وفي هذه الأثناء خرج غازم من الخندق وقابل أصحاب أستاذ سيس ليشتلهم ، واشتد القتال ، وإذا بأعلام الهيثم مقبلة ، فانهزم أصحاب أستاذ سيس ووضعت فيهم السيوف ، وبلغ عدد قتلاهم ٧٠ ألفاً وأسراهم ١٤ ألفاً ، وقبض على أستاذ سيس وصعد بالأغلال ، وحمل إلى بغداد حيث قتل في سنة ١٨١ هـ (١) .

٥ - الزنادقة : وفي عهد المهدي ظهر الزنادقة ، وأصلهم من أبرار المانوية وصديقيهم ، ويرجع أن كلمة زنديق مقتبسة من الأصل الآرامي صديق (٢) . ثم أصبحت بالفارسية زنديك . فمرت إلى زنديق بمعنى ملحد ، بدليل أن الزنادقة كانوا يقولون بالثنوية ويتبعون تعاليم ماني ، فقد ذكر المسعودي أنه

(١) الطبري ، ج ٢ ص ٢٨٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٩٢ وما بينهما .

(٢) ابن النديم المهرست ، ٣٣٣ - ٣٣٥ .

قبض في البصرة في زمن المأمون على عشرة من الزنادقة من يذهب إلى قول ماني
ويقول بالنور والظلمة (١) ، وكذلك يربط ابن النديم بين المانية أنبا ماني
وبين الزنادقة ويذكر أسماء رؤساء المانية المتكلمين الذين يظهرون الإسلام
ويبطنون الزندقة (٢) . ثم تطور لفظ الزندقة وأصبح يطلق على جميع أنبا ماني
المرطقة اسم الزندقة الفارسية ، لافرق بين الحرورية والمزدكية والمناوية والمجوسية (٣) ،
ثم تطور مرة ثانية حتى صار يشمل الملحدين أو المتشككين في الدين .

وأول من طارد الزنادقة من خلفاء بني العباس الخليفة المهدي ، ففي سنة
١٦٧ هـ جدد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولى عمر
الكلواذي لتعقبهم ومطاردتهم ، وقبض على يزيد بن القيس ، فأقر فسخه ولكنه
هرب من سجنه (٤) . وذكر ابن طباطبا ، أن المهدي كان شديدًا على أهل
الإلحاد والزندقة لأنهم في إهلاكهم لومة لأثم (٥) . وفي أحداث سنة ١٦٩
يذكر ابن الأثير أنه اشتد في طلب الزنادقة وقتل منهم جماعة من بينهم : علي
ابن يقطين ، يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس الذي أقر بالزندقة (٦) ،
وولده لدارد بن علي العباسي (٧) ؛ ويضيف الطبري إلى هذه الأسماء يوزان بن

(١) المسمودي ، ج ٢ ص ٤٢١ .

(٢) ابن النديم ، ص ٢٣٨ .

(٣) رذك ابن النديم الفرق بين المناوية والبهانية والمجوسية ، ونستدل من
دراسة هذه المذاهب على وجود قرابة واضحة بينها .

(٤) الطبري ، ج ١٠ ص ٩٠ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٥ .

(٥) ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

(٦) قتله الخليفة المأمون وذلك بعد وفاة المهدي .

(٧) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٩ .

بإذن كاتب يقطين^(١) ؛ ويضيف اليعقوبي اسم صالح بن أبي عبيد الله كاتبه^(٢). وأوصى المهدي ابنه الهادي يوماً - وقد قدم إليه زنديق فاستتابه^(٣) ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه - فقال : « يا بني ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدهو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومن الماء الطهور ، وترك قتال الهوام تخرجها وتحوها ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا بكاح الأخوات والبنات ، والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإن رأيت جدك العباس في المنام قلادني بسيقين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين . فقال موسى [الهادي] بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن عشت لأقتل هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطارف . ويقال إنه أمر أن يهيا له ألف جذع ... ومات بعد شهرين ، (٤) .

ومن مظاهر اهتمام المهدي بمطاردة الزنادقة وتبعضهم أنه خصص وظيفة لذلك عرف متوليها بصاحب الزنادقة ، وأول من تولى هذه الوظيفة عمر الكلواذي ،

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٣ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن المهدي استتاب في سنة ١٦٦ داود بن روح بن حاتم ، واسماعيل بن مجاهد ، ومحمد بن أيوب المكي ومحمد بن طيفور ، وأنه أخذ سيلهم (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٣) . وفي هذه السنة قتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة .

(٤) الطبري ، ج ١٠ ص ٤٢ .

فلما توفي في سنة ١٦٨ هـ ولي مكانه محمد بن عيسى بن حمويه ، فقتل من الزنادقة خلقا كثيرا (١) . وذكر السيوطي أنه كان « حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين » (٢) .

والظاهر أن حركة الزنادقة كانت تشكل خطرا شديدا على المجتمع الإسلامي بإباحة الزندقة للموبقات والمحظورات من جهة ولأن شيوع الزندقة كان في حد ذاته كفيلا بإضعاف الدين الإسلامي وبالتالي إضعاف سلطان الخليفة ، وهدم أساس الدولة وتفسخ مقومات المجتمع ، وعلى هذا الأساس يكون الدافع الرئيسى لظهور حركة الزندقة ، كراهية الفرس بوجه خاص للسلطان العربى وللإسلام ؛ ويعبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إما جاءه هذا عن طريق الشعوبية ، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تذهل به حتى يفسخ من الإسلام إذ كانت العرب هى التى جاءت به وكانوا السلف » .

و — المقتضية : وقد اقترن بظلم — ور الزنادقة حركة أخرى عنصرية دينية في مروجها أهدافا إحياء التماثل المجوسية والدعوة إلى إعادة مجد إيران القديم وإنهاء السيادة العربية عليها تنسب إلى المقتنع الخراساني ، واسمه هاشم بن حكيم ، ولقب بالمقتنع لأنه تبرقع بحرير أخضر في رواية (٣) ، أو أنه اتخذ قنصاعا من ذهب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٠ .

(٢) السيوطي ، ص ٢٥٣ .

(٣) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٢١١ - البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

لإخفاء وجهه في رواية ثانية (١) وبينما يطل لإخفاء وجهه عن أتباعه بأن الأحياء لا يستطيعون تحمل نوره، أشاع موزخو العرب أنه كان أتر (٢). وادهى الألوية، وكان يتول بالحلل والتناسخ والإباحتة في النساء، وكان يقول: إن الله خلق آدم، فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، وهكذا إلى أن يصل إلى ابن مسلم الحراساني، ثم تحول إلى هاشم (أى نفسه، لأنه سمي نفسه هاشمًا) (٣). وثابته في مئة. ع. د كبير من ضلال الناس، وكانوا يسجدون له من أى النواحي كانوا، ويستجدون به في الحزب فيقولون: يا هاشم أعضا (٤). وحمد إلى أجرة اب الناس عن طريق الحيل التي ظن الناس في عصره أنها من المعسرات؛ ويذكر القزويني أنه: أنشأ بنخشب بئرا يصعد منها قراء الناس مثل القمر، واشتهر ذلك في الآفاق والناس يقصدون بنخشب لرؤيته ويتمتعون منه، وعوام الناس يحسبونه سحرا، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر، لأنهم وجدوا في قصر البئر طاسا كبيرا ملوء زئبقا، (٥).

وتعتبر حركة المنع اعتبارا الحركة المسامية الزامية، فقد كان على دين الزامية (٦)، والزامية (وهم أتباع رزام بن رزم) فرق من المسلمية (٧).

(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ٣٨ - ابن طباطبا، ص ١٦١.

(٢) ابن الأثير، ج ٦، ص ٣٨ - ابن طباطبا، ص ١٦٢. ولله استهدف من هذا التناقض إخفاء القموص والمبربة على شخصه (الفاروق عمر، حركة المنع الحراساني، المجلة التاريخية، عدد (١)، السنة الأولى، بغداد ١٩٧٠، ص ١٢٧).

(٣) ابن طباطبا، ص ١٦٢.

(٤) ابن الأثير، ج ٦، ص ٣٩ - ابن طباطبا، ص ١٦٢.

(٥) الكزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة سامرة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٦٦.

(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٥٧.

(٧) عبد القاهر بن طاهر، البغدادي، الفرق بين الفرق، القاهرة، تحقيق عمى الدين محمد الحميد، ص ٢٥٦.

ويذكر الشهرستاني أن الررامية سافروا الإمامة إلى ابن مسلم فقالوا : له حظ في الإمامة وادعوا روح الإله فيه ، وقالوا بتناسخ الأرواح (١) . وأباح المقتنع لأتباع الأموال والمهرمات وحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات (٢) . وعلى هذا الأساس تكون مبادئ المقتنع خرمية فارسية رزمية ذات طابع شعوبي ، لأن الرزمية نقلت الإمامة بعد إسقاط إلى ابن مسلم (٣) ، وهذا يفسر رواج هذه النحلة بين أتباع ابن مسلم في بلاد ما وراء النهر ، فظهرت المبيضة ببخارى والصند مسارنين له (٤) ؛ والمقصود بالمبيضة أتباع ابن مسلم في بلاد الترك ، وانتشار الحركة بين الترك ، واشترك العناصر السابقة على العباسيين فيها إنما يدل على أنها حركة عنصرية وسياسية .

ولما ضمن المقتنع أنه كون قوة كبيرة يتمتع عليها . بدأ يتخذ مركزاً لجميع قواته في قلعة بسنم وسنحردة من رسائل كوش سنة ١٥٩ وما إن حشد الخشود من أتباعه وحلفائه حتى بدأ يغير على الذرائع المحاورة ويستولي على أموال المسلمين (٥) ثم قلب على بعض الحصون وعلى نواكث ، وتصدى له من القواد العرب أبو النعمان والجنيد وأبي بن نصر ، وانحسروا منه مرة بعد مرة ، ولكنه تمكن في كل مرة من التغلب عليهم ، وقتل من العرب حسان بن

(١) الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ج ١ ص ١٥٣ ، طعة القاهرة ١٩٦١ .

(٢) البغدادى ، ص ٢٥٨ - الشهرستاني ، ج ١ ص ١٥٤ - القاروق عمر ، حركة المقتنع ، ص ١٤٠ .

(٣) الهوري ، ص ١١٤ .

(٤) البغدادى ، ص ٢٥٧ - ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٩ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩ .

نميم بن نصر بن سيار ، ومحمد بن نصر وغيرهما ، ثم سهر إليهم المهدي القائد جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد ، ولكن جيشه شغل طوال أربعة أشهر بمقابلة المبيضة ببخارى ، فانهزم المبيضة وقتل منهم نحو سبعمائة ، ولحققت فلولهم بالمقنع ، ثم لاحقهم جبرائيل وحاربه ، ولكن حربه السابقة مع المبيضة استنفذت قواه ، فأمدّه المهدي بإمدادات متتالية ، لم تؤد إلى نتائج (١) .

واستتمت حركة المقنع ، بعد انتصاراته السابقة ، فطنى وبغى ، وأصبح القضاء على حركته شاغل المهدي الأول ، فسير في سنة ١٦١ هـ جيشا كثيفا بقيادة معاذ بن مسلم ، جعل على مقدمته سعيد الحرشى ، وخرج من زم جيش آخر بقيادة عقبة بن مسلم ، فالتقى الجيشان في الطواويس حيث أوقعوا بأصحاب المقنع فهزموهم ، وامتنع المنهزمون بقلعة بسنام قاعدة المقنع فحاصروها وحفر حولها خندقا ، وسعى الحرشى إلى الانفراد بالقيادة ، وقنع معاذ بن مسلم بإمداده بتقس من جيشه ، وحاصر المسلمون المقنع سنة ١٦٣ هـ حصارا شديدا ، فلما طال على أصحابه طلبوا الأمان سرا من الحرشى ، فأجابهم إليه ، فخرج منهم نحو ثلاثين ألفا ، ولم يبق مع المقنع سوى ألفين ، ثم اقتحم المسلمون الخندق ، واقترعوا من السور ، فلما أيقن بالهزيمة أن يستسلم ، فجمع نساءه وأهله وسقام السم ، وأمر أن يحرق هو بالنار في تنور بحصنه أذاب فيه النحاس ، لا حتى لا يمثل العرب بجثته ، وقيل إنه أحرق كل من فى قلعته ، ودخلت جيوش المهدي القلعة فألفوها خالية ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على افتتاح من بقي من أتباعه من المبيضة به (٢) إذ اعتقدوا أنه صمد

(١) نفس المصدر ،

(٢) ابن الأثير ٤ ص ٥٢ - ابن طباطبا ٤ ص ١٦٢ .

إلى السماء (١) . وظلت بقية منهم حتى زمن المقدسى (٢) ، بل استمروا حتى أيام ابن العبري (٣) .

ز - البابكية الخرمية : تعتبر هذه الحركة أخطر الحركات الدينية المنهزمة في تاريخ الدولة العباسية على الإطلاق ، وتنسب هذه الحركة إلى بابك الخرمي الذي ظهر في عهد المأمون عندما كان مقبلاً في مرو ، ووضعت خطورة بابك عندما نهج في التغلب على جيش بعث به المأمون لقتاله في سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٦ م) وفي أسر قائد هذا الجيش أحمد بن الجنيد الإسكافي (٤) .

وقبل أن نعرض لموقف العباسيين منهم ، لا بد أن نشير إلى أن البابكية الخرمية كانوا يذهبون مذهب الخرمية والمزدكية من إباحة اللذات والشهوات والمواساة والاختلاط ، ولكنهم يبيعون - بخلاف المزدكية - القتل والنصب والمثلة (٥) . والظاهر أن بابك اتصل في شبابه بزعم الخرمية في جبل البزد واسمه جاويدان بن سهرق ، وحدث أن أصيب جاويدان في إحدى المارك وكانت امرأة جاويدان تتعشق بابكا ، فلما مات جاويدان اتفقه معه على أن تعلن أمام الملأ أن جاويدان قال في لحظة انتقاله : « إني أريد أن أموت في هذه الليلة وإن روحي يخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحي ،

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٩ .

(٢) المقدسى ، ص ٣٢٣ . وظلوا أيضاً في زمن عهد القاهر بن طاهر البغدادى .

(٣) ابن العبري ، مختصر أخبار الدول ، تحقيق الألب أنطون صالحاني ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٩٠ .

(٥) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

وأنه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد ، وأنه يملك الأرض ، ويقتل الجبابرة [أى العرب] ويرد المزدكية ، ويمزق ذليلكم ويضعكم به وضيقكم ، وعندما أعلنت ذلك أمام أتباع جاوهدان ، قبلوا وصيته وارتضوا به زعيما عليهم (١) .

وعظم أمر بابك بالبذ ، وفشل المأمون فى استزاله ، ومزيت الجيوش التى سيرها لذلك بالهزيمة والفشل ، وعرف أصحاب بابك بالمخمرة (٢) لأنهم صبغوا ثيابهم باللون الأحمر شمارهم .

وكان البابكة يهدفون سياسيا إلى القضاء على سلطان العرب السياسى والإسلام كما وضع فى وصية جاوهدان ، لإعادة المزدكية ، ونصرة الجمية ، وكانوا يذهبون إلى القول بالجهاد ضد الجبابرة المتسلطين من العرب ويسمونهم اليهود (٣) . وقد اعتبر العباسيون الخرمية البابكية هرطقة على الرغم من اتخاذ الخرمية لجميع المظاهر الإسلامية من الصوم والصلاة (٤) ، وذلك لأنهم باطنية أى يعطون من تقصد غير ما يظهرون وكانوا يتبعون التقاليد الفارسية القديمة فى معاملتهم التقليدية كالزواج والأعياد والرسوم الجنائزية ويبيعون الهرمات .

بدأ بابك بضم أذربيجان إلى دعوته ، ثم انتشرت دعوته فى إقليم الجبال ،

(١) نفس المصدر ، ص ٣٤٤ .

(٢) اليمقوبى ، ج ٢ ص ٤٧١ - البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٨ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٧٤ .

(٤) يذكر البغدادى أنهم هموا مساجد الله الذين فى جبالهم وأنهم يعملون أولادهم القرآن واسكنهم لا يصلون فى السر ولا يقومون (البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٦٩) .

فدخلت جماعة كبيرة من أهل هذا الإقليم (من همدان وأصبهان وماسبذان
ومرجا نغذق) في دين الحرمية ، وتجمعوا فمسكروا في حمل همدان (١) . ثم
خرجت المحمرة أصحاب بابك بالجبل فقتلوا وقطعوا الطريق وتعرضوا للحاج
خراسان فهزموهم وقتلوا منهم جماعة ، فوجه المعتصم لقتالهم جيها بقيادة
هاشم بن بانيجور ، فاشتبك معهم فهزموه (٢) ، فوجه المعتصم إليهم إسحاق بن
إبراهيم بن مصعب في جيش في شوال سنة ٢١٨ هـ ، فواجههم ، وانتصر عليهم
ويقتل منهم في حمل همدان ستين ألفا ، وفر باقيهم إلى بلاد الروم (٣) بينما أسر
عددا من الحرمية والمستأنسة قدم بهم إلى بغداد في ١١ جمادى الأولى .

واشتدت شوكة بابك ودخل عصمة الكردي صاحب مرند في طاعته ، (٤)
ودخل في الحرمية جماعة من أكراد جبل البند . وفي سنة ٢٢٠ تحاليل محمد بن
البيهت صاحب قلعة شاهي بأذربيجان للقبض على عصمة الكردي ونجح في
مخطته ووقع بعصمة أسيرا في يده ، فقد تظاهر ابن البيهت بمشايسته لبابك ،
وفتح باب حصنه لسراياه ينزلون في ضيافته ، فوجه بابك قائده عصمة في
سرية ، فنزل عصمة في ضيافة ابن البيهت ، فأكرمه هو وأصحابه وأغدق لهم
الخمر حتى سكروا ثم وثب على عصمة فأوثقه ، وقتل من كان معه من أصحابه
ولاذ بعضهم بالفرار ، ثم سبى عصمة إلى المعتصم فسجنه ، وظل سجيناً حتى
أيام الواصل (٥) .

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٠٥ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٣ ص ٤٧١ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٠٥ .

(٤) اليعقوبي ، ص ٤٧٣ .

(٥) اليعقوبي ، ص ٤٧٣ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٨ . ولقد تعرض عصمة
لاستعباد البساسين فدلهم على مورات بابك .

وانشرت الحركة البابكية في طبرستان وجرجان وأرمينية ودخل فيها قسم كبير من الديالة ، واشترك فيها عدد من الدهاقين أمثال المازيار أصبهني طبرستان الذي كان يكاتب بابك (١) ، ومنكجور أحد أقارب الأفشين وكان يتولى أردبيل (٢) - وقيل إنه كان يتولى أذربيجان (٣) - وعندئذ وجه المعتصم قائده الأفشين إلى بلاد بابك ، فنزل برزند (من نواحي تفليس) وعسكر بها ، وضبط الطرق والحصون فيما بين برزند وأردبيل ، ووزع الأفشين رجاله في مواضع مختلفة تحصنوا فيها وطهروها من أتباع بابك ، واتخذوهم عيوناً لهم وأدلة يذلونهم على عورات بابك ومسالك بلاده ، وكان رجال الأفشين إذا ظفروا بأحدهم حملوه إليه ، فكان يحسن إليهم ويسألهم عن الذي يعطيه لهم بابك ، فيضاهفه لهم ويقول لهم : «كونوا جواسيس لنا» (٤) .

وظهرت ثمرة هذه السياسة الموفقة عندما وجه المعتصم بنا الكبير إلى الأفشين ومعه أموال الجند ونفقاتهم ، فلما وصل بنا إلى أردبيل تهيأ بابك لاعتراضه ، فأتصل جاسوس بالأفشين وحذره ، وعلى هذا النحو أعد الأفشين عدته واشتبك مع بابك في قتال عنيف انتهى بهزيمة بابك ، ولم يفلت من رجاله أحد ، ونجا هو في نفر قليل من خيالاته ولاذ بموقان ومنها إلى البذ ، وانتقم بعد ذلك من الأفشين ، فكان يتعرض للقوافل التي تحمل لجند الأفشين ميرتهم وأطعمتهم ويستولي عليها ، وسبب الأفشين بذلك مضايقات كثيرة (٥) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٠٥ .

(٣) الياقوت ، ص ٤٧٧ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٥١ .

وفي سنة ٢٢١ حدثت وقائع بين الأفشين وبين بابك ، انتصر فيها بابك مرة ، وانتصر الأفشين مرة ، ووقع أحد كبار قواد بابك - واسمه طرخان - أسيرا في يد ترك - مولى إسحق بن إبراهيم - فقتله بمراغة .

وأمام اشتداد هجمات المسلمين ومراعاة الأفشين في المنطقة ما بين برزند وأردبيل على مدار السنين ، اضطر فل بابك إلى اللجوء إلى أراضي الدولة البيزنطية حيث أفسح لهم الإمبراطور تيوفيل المجال لدخول أراضيه وقتما شاءوا ، والواقع أن تيوفيل رأى في حركة بابك فرصة للانتقام من الخلافة العباسية التي وقفت موقفا مؤيدا من ثورة توماس الصقلي على أبيه ميشيسيل العموري ، ولهذا السبب احتضن تيوفيل أتباع بابك ، وفتح لهم أبواب بلاده في زمن المأمون ، حيث دخلوا في خدمة الإمبراطور ، عند ما كان يحسن غاراته على الحدود الشرقية لبلاده ، واستمرت الغزوات متبادلة بين المسلمين والبيزنطيين في عهدي المأمون و تيوفيل تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة ، فلما هزم المعتصم على إخماد حركة بابك عزما قاطعا ووجه قائده الأفشين وأمره بإيتاخ وجمهر الخياط ، أرسل بابك إلى تيوفيل يحرضه على مهاجمة أراضي المسلمين حتى يخف بذلك ضغط المعتصم على بابك ، ووعدته في مقابل ذلك باعتناق المسيحية ، فاستجاب تيوفيل لرغبته ، وهاجم حصن زبطرة في سنة ٨٢٢٣ (٨٣٧ م) وأوقع بأهلها (١) ، وكان معه من المحمرة - أي الخرمية - عددا كبيرا يصل إلى ٢٠ ألفا ، ثم أغار على هاتية وسبي المسلمات ومثل بمن وقع في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم ، وطاد بعد ذلك إلى القسطنطينية مظهرا منصورا .

وايكن حملة تيوفيل لم تكن المعتصم عن خطته في القضاء على

(١) ابن الأثير ، ص ٤٧٩ .

بابك ، فقد أمر الأبياد بالانتقام لحادثة زبطرة قبل أن يتخلص نهائيا من بابك ؛ وكانت قوات الأفشين قد اقربت من البذ ، فتحول الأفشين من كلان روذ متجها ببطء إلى مركز قيادة الخرمية في جبل البذ ، وكان بابك قد نصب له عددا من الكمائن ولهذا السبب حرص الأفشين على التسلل ، وكان يأمر الكومبانية (أصحاب الأخبار) بالبحث في قمم الجبال عن مراضع يتحصن فيها عسكره خوفا من هجمات الخرمية من المطاولة ، ففتحوا باب البذ وانطلق منهم جماعة يهاجمون أصحاب جعفر الخياط وارتفعت صرخاتهم ، وكان مع أبي دلق فرقة من المتطوعة ، فتلقوا بالبذ ولسقوه ، وارتفعت صيحاتهم فظن كئنا بابك أن اشتباكا وقع ، فتحركوا ، ففر الأفشين مواضعهم ؛ ثم زحف بجيشه متجها مواضع الكئنا ، وهاجم جعفر والمتطوعة سور البذ ، وأوصى رجاله بأن يرفقوا الأعلام السوداء عندما تخرج لهم كائنات الخرمية ، فم أرسل الأفشين فرقة من الرجال النشابة عدتهم ألف رجل اتسروا في جبال وهرة حتى تصل إلى جبل شامق بدون أن يعلم بهم أحد من رجال بابك ، وأوصاهم ألا يتحركوا حتى يأتيهم خبر منه ، فإذا رأوا أعلام الأفشين في الغدير كبروا أعلامهم في الرماح وانحدروا من فوق الجبل ورموا الخرمية بالنشابة والصخر ، وعلى هذا النحو تمكن الأفشين من تطويق عسكر بابك وإحباط مكائنه ، ودخل البذ ودمر حصور بابك بالنفط وأسر فيها ، ووقع في أيدي قوات المحتشم أبناء بابك ، بينما استطاع هو الفرار بقصد إعادة جمع صفوف أتباعه ومحاربة العرب من جديد ؛ ولكنه وقع أسيرا في يد الطريق سهل بن سنباط بأرمينية ، فسلمه بدوره إلى الأفشين ، فأمر الأفشين له بمليون درهم ومنطقة منفرة بالجواهر وتاج البطرقة مكافأة لما قدمه للعرب بتسليم بابك (١) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦٢ - ٤٧٤

ثم قدم الأفشين ومعه بابك الحثري إلى سامرا في صفر سنة ٢٢٣ ، ففصره
المتصم ، ثم أدخل قصره ، فأمر بإحضار سيف بابك ، فحضر ، فأمره أن
يقطع يديه ورجليه ، ففعل ، ثم أمره بذهبه ، ففعل ، وشق بطنه ، وأفلد رأسه
إلى خراسان ، وحبس يده بساما .

وأحصى ضحايا حرب بابك مدة عشرين سنة فكانوا ٢٥٥٠٠٠ شخص ،
وكان مجموع أسرى بابك من المسلمين ٣٢٠٩ شخصا ، وعديد الأسرى من
الهند والعبيان ٧٩٠٠ شخصا (١) .

وأحدث مقتل بابك رد فعل بين أتباعه الخزمية ، فثار مازيار (المختار بن
قارن بن بنداد هرمز) لصبيح طبرستان على المتصم في سنة ٢٢٤ م ، فوصل
الرغم من أن المصادر الخزمية تشير إلى أن سبب قيامه بالثورة إنما يرجع إلى
خلاف قام بينه وبين عبد الله بن طاهر حول خراج طبرستان ، فكان عبد الله
أن طاهر يطالب المازيار بحمل هذا الخراج إلى الخليفة في حين أصر مازيار على
أن يسلمه لمندوب الخليفة ، فلما قضى الأفشين على حركة بابك طمع في ولاية
خراسان وأراد أن يتزعمها من ابن طاهر ، فكتب يستميل مازيار ويغريه
بإعلان الثورة فيسيره المتصم إلى حربه ، ويتخذ الأفشين ذلك ذريعة لاتخاذ
خراسان من الظاهريين (٢) . ويؤكد الباحثون أن الحركة المازيارية واتصال لها
الآخرين بالأفشين معنى بعيداً ، فقد كان المازيار على اتصال ببابك ، وكان يكاتبه
ويحرضه ويعرض عليه النصرة ، مما يدعو إلى الاعتقاد بوجود أهداف مشتركة

(١) المصدر نفسه ، ج ٦ ص ٤٧٨ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٤٨ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

بينها ؛ ويشير البندادى إلى أن المازيار كان خرميا من المحمرة (١) ؛ كما يشير ابن الأثير إلى أنه كان يأمر أكرة الضياع بانتهاب أربابها (٢) ؛ وكان العدد الأعظم من ملاك الضياع من العرب أو من مواليهم ، ولم يكف بذلك بل إن سرخاستان حامله على سارية كان يأمر الفلاحين بقتل أرباب الضياع (٣) . وهكذا كانت حركة المازيار حركة فارسية دينية سياسية تهدف إلى التحرر من سلطان العرب بل والقضاء عليه وعلى الإسلام . وثبت من تحريات عبدالله بن طاهر وأهوانه أن الأفشين متواطىء مع المازيار ، وأنه كان يبيت أيام حربه ضد بابك بجميع با يتلقاه من هدايا إلى أشروسنة ، وكلما تهاى لديه قدر من المال حمله أو ساط أصحابه بقدر طاقتهم ، فقد فتش جماعة من أعوان الأفشين وصادروا المال ، فكتب له الأفشين يأمره بأن يطلق أهوانه ليمضوا إلى أشروسنة (٤) ، ثم ثبت فيما بعد أن الأفشين كان يكاتب المازيار ويشجعه على الثورة وعلى مخالفة الخليفة (٥) ، ولكن الملتصم تكلم الأمر ولم يفصح عما بنفسه للأفشين وأثر أن يقضى قبل كل شيء على المازيار ثم يتفرغ للأفشين . وكان سرخاستان أعظم قواد المازيار قد استخدم مع السرب — فى المناطق الخاضعة للمازيار — منتهى القسوة والصف فى جمع الأموال ، فأخذ أهل أمل وأهل سارية جميعهم وكبلهم بالحديد ثم نقلهم إلى جبل يقال له هرمز أباذ وحبسهم فيه ، وكان عددهم عشرين ألفا ، ثم أمر بتخريب سور أمل وسور سارية وطميس فخرت (٦) . وفعل

(١) البندادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥١١ .

(٥) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٦٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

المازيار نفس هذه الأفعال في مدن خراسان التابعة له ، فجبي من أموال الخراج في شهرين ما كان يؤخذ في سنة .

وبادر المعتصم بإرسال الجيوش لمحاربة المازيار ووضع حد لأعماله العنيفة ، فسير محمد بن إبراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبري من العراق ، وسيد المند ، وبن الحسن - صاحب دلباوود - إلى الري ليدخل طبرستان من هذه الجهة ، وكان عبد الله بن طاهر قد أنفذ معه الحسن بن الحسين في جيش كثيف للدفاع عن جرجان ، كما وجه حيان بن جبلة في أربعة آلاف إلى قومس (١) وأحدثت القوات العباسية بمازيار من كل جانب ، فعد المازيار إلى اصطناع أقصى وسائل التعذيب مع المعتقلين لاستصفاء أموالهم ، وعهد قائده سرخاستان إلى أن يدعم مركزه بقتل الأهل المعروفين بميولهم نحو العرب والعباسيين ، فجمع منهم نحو ٢٦٠ فتى وقال لأتباعه من الأكر : « ان الأبناء هوام مسع العرب والمسودة ، ولست آمن غدرهم ومكرهم ، وقد جمعت أهل الظنة ممن أخاف أحييته ، فاقتلوهم لتأمنوا ، ولا يكون في عسكركم من يخالف هواه هوامكم (٢) » . فدار بكتلتهم ودفعهم إلى الأكر والفلاحين فقتلوهم عند قذاة ورموا بجثثهم في بحيرة القنأة .

وفي هذه الأثناء ، ضاق حرس سرخاستان بأعماله ، وتأمرؤا مع قوات الحسن ابن الحسين على أن يسهلوا لهم مهمة اقتحام السور ، ونصبوا العلم العباسي على السور في معسكر سرخاستان ، وبلغ سرخاستان الخبر فخرج هاربا من حماه في غلالة ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على معسكر سرخاستان ووقع أخوه

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٥٧ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٥٢ .

عمر يار اسيرنا، اما هو فقد قبض عليه امر من غلامه وسلبوه الى الحسن بن
الحسين فأمر بقتله (١)، ووجه برأسه الى عبد الله بن طاهر، وقلت هل عنته
سنة على تلافى وصرعهم من عزيمة ماز يار، واشقى عليه بونديه لا سوية لدم وجلياته
ياويل من قري يار ابن عجم ماز يار، فاستند عصاه باليد اليمنى مع قري يار وأطاعه
على تركه نيات من تحديده وروى الإفشين كان يفرجه فيها على شق عصا الطاعة على
الطاعة، ثم أيسر إليه منومة الدافع عن ضلالتهم حال طوبستان التي كان يقول لدارها
قول قهلم الملك يار وشوربه وروا طمان ماز يار إلى جندو المنطقية لدار وفيه بكثرة
منضوية من عورق مبال لهما اذ وكل بحمايتها قري يار، وروا قري يار وروا
علاوة على ذلك في الدافع عن هذه المناجاة، فكاتب الحسين بن الحسن بن الحسين
لنضائه إليه العقل على تسليم الماذي إذ شاء تهنيتهم الصلة العظيمة يتولى بذلك
للتألق بالحليمة التي يترجمها لدار له عن ما عهد له، وكما اختلفت رويته السكتب التي كان
يتبادلها الافشين بومان يار، فهو عديم الحسين بتفصيل كل ما طلبة وضمن له أئمة
بمائه إلى اجماله، فخرق قري يار بذلك وروا عدم روي ما يسلم عليه لجليل، فتسلمه
عشكر الحسين، وفي نفس الوقت كان الحجت قد سمر رويها لجليل بقرعة أحمد
قواد ماز يار، فلم يشعر ماز يار وهو في قصره إلا بالخليل على باب قصره،
فأسره الحسين بن الحسين، وأرسله إلى عبد الله بن طاهر واليهم خريسان الذي
سويه إلى المعتصم، وذكروا أن عبد الله بن طاهر استعجب ماز يار عن أمر
الكتب التي أرسلها الإفشين إلى ماز يار وشجع فيها على الثورة ويقول له في استرجاع
دين المحوسبة القديم، واعترف ماز يار فأمر الكتب، فطلبت هذه الكتب فوجدت،
فسورها إلى المعتصم (٢)، فلما سأل المعتصم عن السكتب لم يقر بها، فأمر بضربه

(١) الطبري، ج ١١، ص ٣٥٥ - ابن الأثير، مجمع، ص ٤٧٠.

(٢) الطبري، ج ١٠، ص ٣٦١ - ابن الأثير، مجمع، ص ٤٧٠.

- الفصل -

يحيى الموحدين في ملجأ ما بني صلوات بيته، إلى جانب بابك، وإنهارت بذلك ذيوميل
محرمة يا بليك والخرمية.

أما الأفشين فكان المعتصم قد أمر بالقبض عليه وحجبه قبل أن يترك المازيار
لا يهاب : منها قيام منكجور أحد قرابته بإخفاء أموال في أذربيجان عن
المعتصم وخروجه على الدولة ، ولكن المعتصم نجح في إخماد حركته وسجنه
وعندئذ اتهم الأفشين في أمره (١) : ومنها أن الأفشين تأمر على قتل المعتصم
بدس السم له ، واتفق مع بعض قادته على الفرار إلى بلاد أرمينية ثم بلاد
الخر (٢) : ومنها أن مازيار أقر على الأفشين بأنه يمشي على الخروج والعصيان
للمذهب كانوا اجتماعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية
والجوس (٣) .

ثم عقد المعتصم محاكمة للأفشين في قصره في يوم ٥ ذي القعدة سنة ٢٢٥
بمحذور الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وأعيان الدولة ، ووجهت إليه تهمة
اتآمر على سلامة الدولة وانصالة بجماعة المازيارية ، وتمسكه بالثنوية (٤) ،
وروجه الأفشين في كل اتهام بالشهود والأدلة ، واتضح من محضر المحاكمة -
الذي سجله الطبري كاملاً (٥) - أن الأفشين كان ينفذ العرب ويعمل على

(١) الهمداني، ص ٤٧٨ - الطبري ص ٣٦٣ - ابن الأثير، ج ٦ ص ٥٦ .

(٢) الطبري، ج ١٠ ص ٣٦٤ وما يليها - ابن الأثير، ج ٦ ص ٥١٢ .

(٣) المسعودي، ج ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) وذكروا في هذا الشأن أن الأفشين جلد في أشروسنة مؤذنا وإماما أقالما سجدا
هناك، وأنه مثر عنده على كتاب مزين بالذهب والجواهر والدياج فيه كفر بالله، كما أنهم يأكل
الغرم الخنوقة غير المذبوحة ، وأن أهل أشروسنة كانوا يكتبون إليه «إلى إله الآلهة من عبده
فلان» ، واتهم أيضا بأنه غير مختنق ، وهذه أدلة على أنه من الحرمية (راجع ابن الأثير ،
ج ٦ ص ٥١٣ وما يليها) .

(٥) الطبري، ج ١٠ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

١٩٩

إذا التهم ، وأن إسلامه كان سطوحيا مظهريا، وأنه كان يـطـن الحـرمية أو البوذية،
إذ عثر عنده على أحصنام زعموا أنها كانت تحمل معه (١) وأمر المعتصم بحبس
ولمات في سجنه أحرقت جثته .

وهكذا أسدل الستار على ذيول حركة دينية سياسية هدامة كادت تقضي
على كيان الدولة العباسية .

الفصل الرابع

السياسة الخارجية للدولة العباسية

كان العالم الإسلامي طاماً كبيراً يمتد وسط العالمين الشرقي والغربي، ويحيط بالعالم الإسلامي شعب الروم في آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا الجنوبية، ثم الفرنج في إيطاليا الشمالية وفرنسا، ثم الترك والصينيون على حدوده الشمالية والشرقية، ثم الهنود على حدوده الجنوبية الشرقية. وقد اتصل العباسيون بجميهم جميعاً (١) اتصال حلف على أساس اتفاقات ومعاهدات، أو اتصال حرب — مع الروم وأحياناً مع البياطلة للترك — تنقطع من حين إلى حين بمقتد هدنات قصيرة يفادون فيها أسراهم، ثم كانت هذه الحرب لاتمتنع بعد ذلك من الاتصال السلمي، فكانت التجارات تسير بين البلاد المتحاربة بين العرب والروم في آسيا الصغرى، وبين أهل الأندلس والفرنجية.

والسياسة الخارجية لأي دولة هي العامل الأساسي الذي يؤثر على كيانها، فهي أقوى من السياسة الداخلية، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. فسياسة

(١) في العصر الذهبي الأول تمثل السياسة الخارجية العباسية مكاناً بارزاً في ظل سلام إسلامي ساعد على تسرب حضاري واسع النطاق من الهند والصين وبلاد ماوراءالنهر إلى ومن اليونان والغرب الأوربي، وكان لذلك التسرب أثره الكبير في تشكيل الحضارة الإسلامية، إذ اقتبس العرب من الثقافات اليونانية والهندية والصينية والفارسية عناصر هامة كان لها فضلها في الازدهار الذي أسبغته الحضارة الإسلامية في العصر العباسي. كذلك ساعد السلام الإسلامي والاحتكاك العلمي بين المسلمين وشعوب آسيا الوسطى من جهة والعموب المجاورة لهم في الدمار الغربي على انتشار التجارة وظهور الموانئ الإسلامية الآسيوية كالبحر وسيراف وعدن، وتكدس الأسواق الإسلامية بمناجر الشرق والغرب.

دولة الرسول في المدينة خارسيا من التي لا تاحسبها فوحيد الجزيرة العربية
 وأشأت النظام للتبوي المبروف ، بذلك كاتبت جياسم عمر الخارجية في القموح
 هي العامل الاول في تشكيل الدولة العربية ، كما أن نبات الامويين في مركز
 للخلافة جسطوطيلة - رغم كراهية للشموية للعلماء يرجع في الحقيقة إلى
 يانحهم الخارجية الرامة والله الانتصارات المتواليه للمأجورين وهذا في البر
 والفتن على دولة الزوم .

وبنق سقوط الدولة الاموية منع نهضة الجيش البيزنطي وإخاذه سيطرته على
 يد الأسرة الأمراطورية المروقة بالابنوسية ، ويكاد المؤرخ يرجع اجتماع
 سقوط الدولة الاموية إلى ضالة الانتصارات التي أحرقتها في حرب الزوم
 قرب نهاية الدولة ، فأحس الناس بعثد أن تقوى الجيش البيزنطي أن تقوى
 الامويين لم تعد كما كانت ، ولعل النظرية القائلة بتوكلت كيان الدولة على سياستها
 الخارجية نظرية مستمرة في التاريخ حتى العصر الحديث ، فالعلاقات الخارجية
 لا يملك دولة من الدول يجب أن توضع في المرتبة الاولى .

أولاً -

سياسة الدولة العباسية في حجازها الإسلامية في المغرب والمشرق

(١٠١)

سياسة الدولة العباسية مع الأمويين في الأندلس

مجدد الأمير عبد الرحمن بن معاوية في الإفلات من أيدي العباسيين رغم المحاولات المديدة التي قام بها هؤلاء لأقتناصه. واستطاع أن يصل سلباً إلى كورة فلسطين، وهناك التقى بعلام بدر ويسلم ابن شجاع غلام شقيقته (١). وكانوا يطمحون إليه بمكة وشيثاً من جزمه، وانطلق سحفاً إلى موضع ثم استقر بها حتى وصل إلى مصر، ثم شار منها إلى برقة، فبقى فيها حتى استقرت المدينة، ثم رحل عنها فأوصل إلى القرية وقبضوا علىها عدد من أهل بيته، وكانوا يملكون القرية والمغرب منذ أيام مروان بن محمد سنة ٢٢٩ هـ رجل يعرف بحيد المرحوم ابن خبيب القهرى، استقل بولايته منذ أن دخل مروان وتولى من طاعة الخليفة العباسي السفاح والمنصور، وخاف عبد الرحمن بن حبيب من وجود عبد الرحمن ابن معاوية في المغرب وخاف من نشاطه السياسي وسطوته، الوعد إلى مقلبي طاعته وأقتل من معه وكان عبد الرحمن بن معاوية في الواقع يهدف إلى التكوين لمعاوية الأموية في المغرب أو الأندلس تكون استمراراً للدولة الأموية في المشرق. فقد كان شاباً طموحاً، في العشرين من عمره، ويتدفق حماسه ويقيض لملامه لإسلام هذه الدولة في المغرب، وكان يدفعه إلى ذلك ويحدد عزمه مازعموه من نبوة مسلمة بن عبد الملك له وهو ابن عشرين سنة.

(١) المغربي، فتح الطيب من عهد الأندلس، الطبعة الأولى، ص ١٠١

وقاسى عبد الرحمن بن معاوية مـارة العيش في أرض المغرب طريدا شريدا ،
واحتمل آلام الفرار والاختفاء بدون ضعف أو استسلام ، واستقر به المطاف
أخيرا عند أخواله من قبيلة نفرة وكانت تقيم قريبا من مـبته (١) مـبرا الأندلس .
وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتى والعصبيات
والقبلية ، وهنا لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل ، فلا بد له وهو
سليل خلفاء بني أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع بحالا يحدد فيه
دولة أجداده ، وتملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع في استغلال هذا الوضع
لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التي أخفقت في المغرب .

وانفل وهو بالمغرب بموالى المروانية - الموالين لبني أمية - في الأندلس
عن طريق مولاة بدر ، وبفضل هؤلاء الروانية استطاع أن يمتد على العصية
اليمنية المتوارة من المضربة واهيسية كما سبق أن أسلفنا القول ، وكان اليمنية
يتلمحون الثأر من المضربة الذين أطاحوا بسلاطنتهم ، فلما عرض عليهم بدر
مولى عبد الرحمن الأموى رغبة مولاة في دخول الأندلس بشرط أن تساعد
اليمنية وتدمره رحبوا به ترجيبا بالفا (٢) ، وما إن وصلت هذه الأنباء
الطيبة إلى عبد الرحمن حق بادر بركوب البحر إلى الأندلس فدخلها في آخر
ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٣) (٧٥٥ م) - ولذلك سمى بالداخل - واستقبله
موالى الروانية استقبالا حافلا أساء ما عاناه من آلام ونشريد ، وأقبل اليمنية
إليه من كور الأندلس . واستطاع عبد الرحمن بفضل ألميته وذكائه أن يقتحم

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٦٦٤ .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ المـلين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، ص ٢٥ .

وحده من أمراء بني أمية المشردين هذه البلاد في وقت نشبه فيه الإحن بين العصبيتين اليمينية والمضربة ، فأصمقت اليمينية على أمره وآزرتة ، وبأيمه كثير من جند الأندلس وتوافت إليه جنود الأمصار ، وتضخم عدد أنصاره ، واستمال قلوب الناس بحسن سياسته حتى انعقاد له كل أب وأطاعه كل عصى ، واستطاع أن يزيم وإلى الأندلس يومئذ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ومن أقدم عليهم من القيسية برحامة الصمول بن حاتم بن ذى الجوشن في موقعة المصارة التي جرت في ظاهر قرطبة في ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٨ هـ . وتمتبر هذه الواقعة أخيرة موقعة مرج راحط التي وقعت في أرض الشام في سنة ٦٤ هـ . وبانتصار عبد الرحمن ، تجمدت دولة بني أمية في الأندلس ، إذ دخل قصر قرطبة دخول الأبطال وأصبح أمير الأندلس بنهر منازع (١) .

وشهدت الأندلس في بداية عهد عبد الرحمن الداخل صراعا متواصلا بين الأمير الأموي وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية وتوربين واليمينية الذين انقلبوا عليه ، ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على أعدائه ومناوئيه بفضل دهائه وقوة شكيمته ومضاء عزمه ، كل ذلك بدون أن يتراخى عن تجديد ماطمس لقب أمية في المشرق من معالم الخلافة ، فشيّد الدور ، وأقام القصور وبنى للمسجد بقرطبة وحسن المدينة بسور يدور حولها . وإليه يرجع الفضل الأعظم في تمصير قرطبة وتجهيلها ، وتنظيم شؤون الإدارة والحكم فيها ؛ ويشير ابن حيان إلى ارتقاء الأندلس في عهده من مجرد ولاية تابعة للخلافة في المشرق إلى مصاف الدول الكبرى ، وإلى التطور الكبير الذى طرأ على شؤون

(١) راجع التفصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٨٣ - ١٩٣ ؛
وليس المؤلف : قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس ، ج ١ بيروت ١٩٧١ ، ص ٤٥

الإندلس كما أوحى لهم الحكم في قلل هذه الامور، فيقول: «وما ألقى الأندلس إلا نيراناً
عظاماً حرقاً، من حريق الملك جاسط إلى أرحق أهلها بالطاغية السلطانية، وحسبهم
بالخليفة الموحدة، وأخذهم بالأداجية فليكن بينهم عيال قليل المرزاة، وأقام على
الطريقين وبدا القلوب النواوين وقلمن الاعطية، وهب سلك الأمل به إلى جند
بالأجناد هذا رجع العاصية وأوحى الملايو تاذ به أقام للملك آلتهم، وأخذ السلطان
حقت به فاعتزوا له بذلك أمكابر الملوكة، وحذر من أجايبه من نظامه وأجوزته، ولم
يحبس ثلث دانت له بلاد الأندلس، واستقر لبلد الأندلس، (١) ويرجع المصطفى
نجاحه من يادهم في أول سلطانه ملكه إلى مؤثراته والجناب الذي لم يمس اختيافاً إلى
والتقاعهم من بين من أحتكم الأندلس من ملوكه، وأبويه وإن صرعه، وأحسوا
له، وعمل عبد الرحمن الفاضل على إحاكة نفسهم به أنه أنفق كفة للملك بالبيعة
الخلفاء، فزود جاسرته قرطبة، وروائع المنشآت والمباني، وقامت فيها حركة
عمريانية ومعمارية لم تشهد لها نظيراً من قبل، واتخذت قرطبة منذ ذلك الحين
مظهر المدن الكبيرة، وما هيحت جديده بأن تكون دمشق الأندلس.

ولكن أبان الخلفاء المصورين لم يتركه جند هذه الإماوة، فيسمى بميل حثيثاً على
بخله وإسقاطه وتحويل الأندلس إلى ولاية عباسية... ففي سنة ١٤٦ هـ هجرته
إليه المصور القائد من قواد العباسيين هو الملا بن جيث، اليطبي، عبر البحر
لبن إفريقيا فلول الأندلس والبن السواد، ودعا الملا بن جيث المصور
في بانه في غرب الأندلس، وكان المصور قد أرسل إليه بنجل ولواء، فاجتمع
إليه خلق كثير، وأطلق لكثير الحسل إلى الأندلس إلى خلع جلد الرحمن (٢)، وعلى

(١) القرى، ج ١، ص ٣١٥.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٣ - أخبار مجموعة، ص ١٠٢ -
ابن منار المراكشي، ج ٢، ص ٧٧ - ابن الأثير، ج ٥، ص ٥٧٥.

الأنفص جماعات الألفنية الواغدية العزم على التخلخل من لجن حاروية ويبدو
أن العلاء بن مبيضة احتلوا الواقعة المناسبت للمعاشاة على صورة عبد الرحمن الفتية
فقد كانت الثورات تحتاج الأندلس في شالها لجنه وابه، وكان الأندلس مشغولا
وقبلة بإخراج إحدى ثورات القيسية بمدينة طليطلة، وعلى وهو يقسم الحصار
على هذه المدينة بشورية العلاء وأنضم الثورات إليه، فخرج لمواجهة العلاء،
وإلى ابن الميلاء زحف إليه بجمع كشيعة فاضط الداخا إلى الحصن في
قرمونة الواقعة بالاقسم من إشبيلية، وتجهين عهد للرحمن الداخل بقرمونة مع
مواليه وبقائه رجاله، وقسم العلاء، ونال له بقرمونة، وحاصره بها ما يقرب
من شهرين حتى ساء حاله، ورفضت مؤمنته ودب اليأس برجاله، وكذلك
التخلخل عن العلاء أكثر أنصاره لطول الحصار، وأدرك عبد الرحمن أن هذه
هي فرصته للانقضاض على عكر العلاء، وكان لابد له أن يغامر بكل شيء،
فجمع قواته (وكانوا لا يتجاوزون السبعماية) وأمر بنار فأوقدت عند باب
إشبيلية من أبواب مدينة قرمونة، ثم أمر بإغداد السيوف فطرح في النار
وقال لهم: «أخرجوا معي لهذه الجوع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع» (١)
وسهل سيفه في مقدمة أصحابه وأدفع من باب المدينة وخاضه كساة رجاله،
وانقضوا على جيش العلاء فمدا قوة شر ممزق، حتى بلغ عدد القتلى منه سبعة
آلاف (٢)، وسقط العلاء نفسه صريحا، فأمر عبد الرحمن، بمبالغة منه في
السخرية من خصمه المنصور، أن يبعث رأس العلاء إليه فأتخذ رأس العلاء،
وصدبه ولفه في السجل واللواء، ووضع في سبط، وبعث به مع رجل من أهل
قرطبة كان قاصدا مكة لأداء الحج، وأمره أن يضع السبط في مكة أمام سرادق

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢ ص ٧٧

(٢) المعري، نوح الطيبة، ج ١ ص ٣١١.

المنصور الذي كان يحج هذا العام ، ففعل القرطبي ما أمره به الأمير ، فلما نظر إليه المنصور ارتعاع ، وقال : « إنا لله ، هرحنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » (١) .

وقد شهد له أبو جعفر المنصور بقوة الحيلة وشدة اليأس وسرور المراس ، فذكروا أنه قال يوما لبعض جلسائه : « أخبروني من صقر قریش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين [يقصدونه مو] الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلم شيئا قالوا : فمماوية . قال : لا . قالوا : فعيد الملك بن مروان . قال : ما قلم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قریش عبيد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القمر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه . فصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمة ، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذلاله صعبه ، وعبيد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين يطلب عثرته ، واجتماع شيعته ، وعبيد الرحمن منفرد بنفسه ، مزود برأيه ، مستصحب لعزمه . وطاد الحلالفة بالاندلس ، وافتتح الشنور ، وقتل المارقين ، فأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين (٢) .

وفي خلافة المهدي العباسي ، بدأت الدولة العباسية من جديد فكرة القضاء على إمارة عبد الرحمن الداخل في الأندلس ، واستنادت الدولة العباسية هذه المرة من التجربة الأولى الفاشلة ، فلم تبعث داعية من دعاتها هذه المرة ، ولا جيشا

(١) ابن القوطية ، ص ٣٤ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ ؛ المهري ، ج ١ ص ٣١٠ .

من أفريقية لغزو الأندلس ، وإنما اعتمد المهدي على الدماء والفس ، فقد انفق المهدي مع بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين للوجود الأموي على أن يملئوا ثلاث ثورات في آن واحد في الداخل ، فينتهز شارلمان بن بين القصير ملك الفرنجة الذي كانت تربطه بالخليفة العبّاسي علاقات ودية الفرصة وينزو الأندلس ، ويسقط النظام الأموي .

أما الثوار العرب الذين اعتمد عليهم في الأندلس فهم :

١ — عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي ، وسمى بالصقلي لأنه كان طويلاً أشقر أزرق أسمر (١) ، وقد ثار ابن حبيب بتدمير في سنة ١٦٢ هـ .

٢ — سليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة ، وثار منه بسرقة سلطة محمد بن ابن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة .

٣ — الرماحس بن عبد العزيز الكتاني ، والي الجزيرة الخضراء ، وقد ثار سنة ١٦٤ هـ .

ولم يكن شارلمان يهدف في امتلاك الأندلس ، فقد كان قد فرغ من حروبه في أوروبا ، وخضع إليه لمبارديا وسكسونيا وبافاريا ، وامتد ملكه حتى الدانوب (٢) .

وكان قارلة (شارلمان) يحمل بطرد المسلمين من الأندلس (٣) ، ويطمع في ضم مملكة القوط القديمة إلى إمبراطوريته .

(١) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) Levi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, (٢) Leiden 1950, T, I, P. 120.

(٣) في رؤيا رآه شارلمان ناداه القديس جيمس قائلاً : إن جثاته الذي لا يعرفه

- ١٧٦ -

ويبدو أن الإمارة دبرت بعلم المهدي وموافقته ، وليس أدل على ذلك من
التحاجم الرماح بين عبد العزيز الكتاني إليه بعد أن فشلت ثورته على ابن معاوية
في الجزيرة الخضراء . وهناك دليل آخر هو رسالة أرسلها صاحب الأندلس إلى
المهدي العباسي إليه فيها وسبه ولعنه ، فرد عليه المهدي برسالة مماثلة عدد فيها
مثالب بني أمية (١) .

وبدا عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي بالعبور إلى أفريقيا ، ثم حاد
بمحيش كبير من البربر نزل به في مدينة تدمير ، وبادر بمكاتبة سليمان بن يقطين
بالدخول في أمره ومخارطة عبد الرحمن الأموي والغاء إلى طاعة المهدي (٢) ،
وكان سليمان يترشده ، فلم يخبه ، فاعتناظ عليه ، وقصد بلده فيمنع منه من
الفرار ، فمزقه سليمان ، فماد الصقلي إلى تدمير . وكانت متهمة سليمان بن يقطين
الأعرابي الزحف إلى سرقةطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهما
يحيى النصراني ، أما الرماحس فكان عليه أن يمان الثورة في جنوب
الأندلس في نفس الوقت حتى يمجز عبد الرحمن الداخل عن انقضاء على الثورات
جميعها . ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم ، واختلوا في توقيت حركاتهم ،
فلست طلع عبد الرحمن الداخل أن يقضى على كل ثورة على حدة .

فبدأ عبد الرحمن بأخطارهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي
فسار إليه الأموي في العدد والمدة ، وأحرق السفن تضييقا عليه في الحرب (٣) ،

المسلمون والمسيحيون يرقد في تلك الأرض النائية ، ثم أمر شلمان بأن ينهض وأن يستخلص
جليقية من يد المسلمين . وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسع شلمان إلا أن يلي
النداء في المرة الرابعة (كارلس ديفيز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور الباز السريبي ، القاهرة
١٩٥٥ ، ص ٩٨) .

(١) الطبري ، ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٩ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٤ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٤ .

فهرب الصقلي إلى جبل منيع بناحية بلنسية ، ومن هناك أرسل إلى سليمان بن
يقتان بـرشلونة يدعوه إلى الدخول في أمره ويسأله أن يمدّه بمعونته ، ولكن
سليمان لم يجبه ، فامتنع الفهرى ، ولجأ عند رجل من البربر يقال له مشكار
البربرى ، فاطمأن إليه الصقلي ، وكان عبد الرحمن الداخل قد أعلن أنه يبدل ألف
دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله مشكار طمعا في المكافأة وأتى برأسه ، وتم ذلك في
أواخر سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨ م) (١) .

ثم صرف عبد الرحمن الداخل همه بمد ذلك لمقاتلة الرماحس ، فأرسل إليه
وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش ، باغته بالهجوم على قصره في الجزيرة
الخضراء ، ففر الرماحس على مركب ساجز به البحر ، حتى قدم إلى الخليفة
العباسي .

وأما سليمان الأعرابي ، فقد ثار بسر قسطة ، وثار معه حسين بن يحيى
الانصارى ، في أواخر سنة ١٦٣ هـ ، فبعث إليها ابن معاوية قائد ثعلبة بن عبيد
الجدامى في عسكر كثيف ، فقاتلها ثعلبة قتالا عنيفا ، وحاد يوما إلى مخيمه ،
فاغتنم سليمان غرته ، فخرج عليه وأسرّه ، ففترق عسكره ، وعمل على الإفادة من
أسيره ، فترك على سر قسطة صاحبه حسين بن يحيى الانصارى ومضى هو وأسيره
إلى إفرنجة حيث قابل شارلمان وسلّمه ثعلبة وجرحه على دخول الاندلس (٢) .

(١) أخبار مجموعة ، ص ١١٢ .

(٢) ويرى ليفي بروفنسال أنه من المحتمل أن يكون سليمان قد توجه إلى إفرنجة
وقبضته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو نور ، وكان واليا
على وشقة ، ويستند ليفي في ذلك على فترة من الحوليات الملكية لدولة إفرنجة و يروى
أن ملك إفرنجة تلقى في سنة ٧٧٨ م (١٦٣ هـ) من أبى نور صاحب وشقة وابن
الأعرابي صاحب بـرشلونة وجريدة مددا من الرهائن .

(Lévi - provençal op, cit., p. 123)

ويذكر ابن الأثير أن سليمان د استدعى قارلة ملك الافرنج ، ووعده بتسليم البلد وتعلية إليه ، فلما وصل إليه لم يصبح بيده غير ثعلبية ، فأخذه ، وعاد إلى بلاده ، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء ، فأمله عبد الرحمن مدة ، ثم وضع من طلبه من الفرنج ، فأطلقوه (١) .

وأما ما كان الأمر ، فقد كان شارلمان ملتزماً بالاتفاق المقتضى بينه وبين المهدي ، ولهذا لم يتردد في السير إلى الاندلس ، فخرج على رأس جيوشه في ربيع سنة ٧٧٨ م متجها نحو جبال البرقات (البرانس) ، فاجتازها إلى رنشفالة ، وهاجم بنبلونه واستولى عليها ، ثم واصل زحفه إلى سرقسطة ، وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، إذ كان سليمان قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن حسين بن يحيى الأنصاري طمع في الافراد بولايتهم ، فأغاث أبوابها أمام جيوش شارلمان ، وأصح أذنيه عن توسلات صاحبه سليمان . وطال وقوف شارلمان أمام المدينة عتبا حتى يئس من فتحها ، وكانت قد وصلتته أنباء مزرعة مؤداهما قيام اضطرابات وفتن في بلاده ، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقفل عائدا إلى بلاده ، وقد أرغم سليمان على التراجع معه لعجزه عن تحقيق ما وعده به من إدخاله المدينة .

انسحب شارلمان بجيشه إلى غالة ، ولما بلغ بنبلونه سحب حاميتها الفرنجية وهدم أسوار المدينة ، واسكن عبد الرحمن الداخل لم يتركه يرحل في سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس (٢) ، وكانوا ينتقمون على شارلمان تخريبه حاصمتهم بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحسد دروب شعاب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٤ .

(٢) أخبار بجوة ، ص ١١٤ .

رئشالة وأمطروها وأبلا من السهم وكتل الحجارة حتى قفوا على هذه المؤخرة
قضاء مبرما ، وقتل في رئشالة عدد كبير من أعظم قواده نذكر منهم إيجهار
Eggihard وأنسيلم Anselmo كما قتل صفيه وأعظم قواده رولان Roland ،
فحزن شارلمان لقتله ، وكان مصرعه موضوع أنشودة من شعر الملاحم القرلسي
تعرف بأنشودة رولان .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان الأعرابي من تخليصه ، ورجعا به إلى
سرقطة . وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن على المتآمرين عليه ، واضطر
شارلمان إلى مهادنته ليتفرغ لمشاكله الداخلية ، وفي ذلك يقول المقرئ :
وخطب عبد الرحمن قارلة (أي شارلمان) ملك الإفريج ، وكان من طنسة
الإفريج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، قال معه
[أي شارلمان] إلى المدارة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابته بالسلم ولم
تم المصاهرة (١) . ويؤيد ليفي بروفنسال ما ذكره المقرئ مستندا إلى أن شارلمان
لم يقيم بأي مناصرة أخرى في أسبانيا منذ حملته الفاشلة التي قام بها في سنة ٧٧٨
حتى سقوط برشلونة في سنة ٨٠١ (٢) . وأيقن شارلمان أنه إن يتمكن من بسط
نفوذه على الأندلس طالما لا يرتكن في أسبانيا نفسها على قوى منافئه للامير
الأموي ، كما وضع لديه استخالة تغلبه على الإسلام في أسبانيا ما لم يؤمن ببلاد
الفرنجة والغرب المسيحي ، ولذلك عمد في نفس السنة التي رجع فيها إلى بلاده
من حملته الفاشلة إلى ضم مقاطعة أقطانية إلى مملكته بقصد مراقبة نشاط أمراء
الأندلس المواليين لقرطبة أو الخارجين عن طاعتها على منحوم البرانس ، أو

(١) المرقى ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) l'évi - provençal op. cit. , t. I, p. 121

(٢)

الحد من هذا النشاط . ومنح شارلمان هذه المملكة الكارولنجية إلى ابنه لويس الذي سمى فيما بعد باسم لويس الثاني ، وتألفت من المملكة الكارولنجية وملكتي غسقونية وسبتيانية جبهة قوية تواجه أملاك المسلمين في أسبانيا ؛ وقد أثمرت هذه السياسة الواقعية ، إذ سلم أهل جرنندة مدينتهم في سنة ٧٨٥ م إلى ممثلي السلطات الفرنجية ، وتبع ضياع جرنندة سقوط مدينة برشلونة في يد الفرنجة سنة ٨٠١ .

وبدأ كان جيش شارلمان يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن الداخل يتأهب للسير نحوها للقضاء على سليمان الأعرابي وصاحبه الأنصاري ، وقبل أن يصل الداخل إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيى الأنصاري إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابي في المسجد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) حتى ينفرد بحكم سرقسطة ، ولكن عبد الرحمن الداخل حاصر المدينة ودخلها .

وهكذا فشلت المؤامرة الدولية الكبرى التي دبرها المهدي بالاتفاق مع ثوار الأندلس وشارلمان . ولكن سلسلة المؤامرات العباسية لم تنته بعد ، واستمرت في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل ممثلة في تأييد الأغلبية — التابعة للدولة العباسية — في أفريقية لثوار الأندلس النافقين على أمرائها ، وعلى الأخص الثائر عمر بن حفصون الخارج على الأمير الأموي عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ، وكان ابن حفصون يطمح في الاستيلاء على الأندلس كلها ولايتها هو وأولاده من بعده بدلا من بني أمية ، بدليل أنه أظهر الميل إلى الدعوة العباسية وكاتب ابن الأغلب أمير أفريقية ، ولكن هذه المحاولة فشلت كسابقاتها ، وفقد العباسيون الأمل نهائيا في إسقاط الحكم الأموي بالأندلس .

(٢)

سياسة الدولة العباسية مع دويلات المغرب الاسلامي

١ - موقف العباسيين من الحوارج في المغرب :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحمن بن حبيب استقل بأفريقية في خلافة المنصور، وسبب استقلاله عن العباسيين أنه لما سقطت الدولة الأموية أعلن عبد الرحمن ابن حبيب دخوله في طاعة السفاح، فلما توفي السفاح وبويع لأبي جعفر المنصور بالخلافة أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية أفريقية، وأرسل إليه خاتمة سوداء، وهو أول سواد دخل المغرب. ثم كتب إلى عبد الرحمن يدعوهُ إلى الطاعة فأجابهُ ودعا له وأهداه بعض الهدايا، وكتب إلى المنصور ينهيه عن طلب سبي أو مال لأن أفريقية أصبحت في عهده إسلامية كلها، فغضب المنصور وكتب يتهدده. فلما وصل كتاب المنصور جمع عبد الرحمن الناس للصلاة ثم صعد المنبر وأخذ يسب أبا جعفر ويقول: «إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم بحقي تبين لي خلاف ما بآيمته عليه من إقامة العدل، وإني الآن قد خلعتك كما خلعت نعلي هذا. وقذفه من رجليه، ثم دعا بخلع السواد وأصر بتخريبه» (١). ولكن أنصار الدولة العباسية تأمروا على قتله وتنصيب أخيه إلياس مكانه وإعادة الدعوة لأبي جعفر. ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشيء من تلك المؤامرة، فولى أخاه إلياس على تونس، فأثناء إلياس ليردعه قبل أن يرسل إلى مقر عمله ثم قتله، ففر حبيب بن عبد الرحمن إلى حمه عمران خوفاً من إلياس، واتنقا على محاربة إلياس ولكن إلياس اتفق معهم على أن يكون لحبيب قصبة وقسطنطينية، ولعمران تونس. وصطفورة وباقي أفريقية لإلياس، وتم ذلك الاتفاق في سنة ١٣٨. وكان إلياس يضم السواد بأخيه عمران ويسمى

للتخلص منه ، فغدر به وقتله واسترجع تونس (١) ، وبعث بطاعته إلى أب
جعفر المنصور مع وفد من العرب (٢) .

فاستعان حبيب بن عبد الرحمن بموالي أبيه وزحف على القيروان واشتبك
مع عمه إلياس في قتال عنيف ، فلما أمسى حبيب أوقد نارا وأوهم عمه أنه يقيم
ثم أسرى فدخل القيروان واستولى عليها (٣) ، وهناك كثرت جموعه ، وعاد
إلياس إلى محاربته ، ولكن أكثر جنده تحفل عنه وانضموا إلى عسكر حبيب ،
فطلب حبيب من عمه أن يخرج ليبارزه ، ففعل محرجا أمام عسكره ، فضربه حبيب
ضربة أسقطته وحر رأسه (٤) .

ونزل أخوة إلياس بعد مصرعه بقبيلة ورفجومة وكانوا من خلاة الخوارج
الصفرية ، فطلب حبيب من حاصم بن جميل أمير ورفجومة أن يرد أمهاته ،
ولكن حاصم نصرهم ، فزحف إليه حبيب واشتبك معه في موقعة انتهت بهزيمة
حبيب ، فترجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة ، وكان حاصم زعيمهم كاهنا
ادعى النبوة والكهانة وبدل الدين وأزاد الصلاة وحرف في الأذان . فلما رأى
أهل القيروان تغلب حاصم على أميرهم حبيب ، كتبوا إلى حاصم يدعونه للولاية
عليهم على أن يدعو لأبي جعفر المنصور ، فزحف حاصم بمجموع ضخمه من
البربر ومن انضم إليهم من العرب إلى القيروان ، فخاف قاضي القيروان من

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٥ - ابن خلدون ،

ج ٤ ص ٤٠٩ - السلاوي ، الاستقصا لأخبار المنسرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ،
ج ١ ص ١٢١ .

ارتكبا ورفجومة المحارم إذا ما دخلت القيروان، فخرج مع ألف رجل
يقاتلون حق الموت، فقتل ومعظم أصحابه، ودخل بربر ورفجومة القيروان،
في ذى الحجة سنة ١٢٨ قاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر، وربطوا دوابهم
في جامع القيروان (١)، أما حبيب فقد فر إلى جبل أوراس فطارده حاصم
ونشب القتال بينهما، وانتهى بسقوط حاصم قتيلا، وعاد حبيب إلى القيروان
ليخرج عبد الملك بن أبي الجعد نائب حاصم منها، فهزمه عبد الملك وقتله في
المهرم سنة ١٤٠ (٢).

خضعت أفريقية لورفجومة المتطرفة التي ارتكبت قبيلها الكثير من الفظائع
فسفكوا دماء أهل القيروان وهدموا الحرمات وأساءوا إلى الإسلام. وكان
إقليم طرابلس وكل سكان المغرب الأوسط (الجزائر) إباحية، فبايعوا
أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المسافري إماما عليهم في طرابلس سنة ١٤٠
أي بعد دخول الصفرية القيروان، وكان نفوذه يمتد من خليج سرت إلى قابس،
ولم يلبث سكان المغرب الأوسط من الإباحية أن انضموا تحت لواء أبي الخطاب
وبايعوه بالإمامة، وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الإباحية تضم إقليم طرابلس
وقسم كبير من المغرب الأوسط (٣)، وأصبح المغرب الإسلامي كله بعد انقراضه

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٥.

(٢) ابن الأثير، ص ٣١٦ - ابن عذاري، ج ١ ص ٨١.

(٣) من المعروف أن الخارجية غلبت على المغرب في عصر الدولة الأموية، ولقد استغل
عدد من الخوارج استياء أهل المغرب من مظالم الأمويين وتشكيلهم بهم واسطوا بمبادئهم
القائمة على العدل والمساواة بين البربر مستغلين نزاع المدينة والميسية واشتغال الولاة بهذه
المصائب، ووجد دعاة الخوارج من البربر في المغرب أرضا خصبة للرس تعالىهم القاهم على
المساواة بين المسلمين والثروة على الظالم، ولكن البربر اختلفوا في مدى تقبلهم لهذه
التعاليم، فبربر القسم الغالب من المغرب الأنتمى والأوسط تقبلوا المذهب الإباحي المعدل، بينما

دولة بنى حبيب القهرى فى قبضة الخوارج الإباضية والصفرية والحراطة
البرغواطيين فى إقليم تامسنا (١) .

فلما استولت ورفجومة على القيروان سامت أهلها الظلم والفساد ،
وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى ، ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لائذين
بمحمى أبى الخطاب عبد الأعلى ، وطالعوه بما ارتكبه الوردفجوميون من الفساد
واستباحة الأعراض وتدنيس المساجد . وكان عبد الأعلى عربيا من وجوه
العرب الذين تقبلوا مبادئ الخوارج على المذهب الإباضى المعتدل ، فلما بلغه
ذلك غضب وأبكر من ورفجومة سلوكها ، فتحركت فى نفسه عوامل الغيرة
على الإسلام ، فاستنصر أتباعه الإباضية ، وشايه بربر طرابلس وفى مقدمتهم
هواره ، وزحف بمجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دس ورفجومة ، وتحرير
أهل القيروان من استبدادها وطنيانها . وما إن علم عبد الملك بن أبى الجعد
بذلك حتى خرج من القيروان ، واشتبك المريقتان بالقرب من القيروان فى

تدل بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى مذهب الصفرية المتطرف وكان الفلاح وقد
داخلتهم القموية البربرية يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام أو إسلام
مثير واثنا البربرية . وأول من نصر الإباضية فى المغرب سلمة بن سعد فى أوائل القرن
الثانى وعنه أخذ عبد الرحمن بن وسم الفارسى وعاصم السدراى وأبو الخطاب عبد الأعلى
ابن السمع ، ثم أعلن البربر ثورتهم على العرب بعد أن فشلوا فى مقابلة هشام بن عبد الملك
بدمشق ونسوا من الإصلاح ونجحوا فى هزيمة العرب فى موقعتين حاسمتين : الأسراف
١٢٢ هـ (٧٣٩ م) وبقدورة على وادى سبو ١٢٤ هـ (واجب : عبد العزيز سالم ،
المغرب الإسلامى ، ص ٢٩٣ - ٢٢٧) .

(١) كان زعيمهم طريف بن شمعون قد شرع لهم تشريعا مخالفا للإسلام ، فلما مات
خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية ، وزعم أنه المهدي الذى يكون فى
آخر الزمان . (راجع : ابن عسافى ، ج ١ ص ٦٠ ، ٦١ - ابن الخطيب ، أعمال
الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار المبادئ ، ص ١٨٤) .

صفر سنة ١٤١ هـ واشتد القتال ، ودارت الهائرة على عبد الملك ، إذ غزله أهل القهر وان ، وانزمو عنه ، فأثنى فيهم عبد الاهلى ، وهرمهم ، وقتل منهم أعدادا كبيرة ، من بينهم عبد الملك نفسه ، ودخل عبد الاعلى القيروان (١) . واستخلف عليها زميله فى الكفاح عبد الرحمن بن رستم الفارسى أحد كبار علماء الإباضية ، وهاد هو إلى طرابلس استعدادا للقاء القوات العباسية التى سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

وكان قد وفد على أبى جعفر المنصور بعض أجناد العرب وشيوخهم منهم قاضى أفريقية عبد الرحمن بن أنعم يستصرخونه لإيقاد أفريقية من فسادور فجومة ، كما وفد إليه أيضا جميل السدراتى أحد جنود عبد الاعلى الخارجين عليه ، فولى المنصور محمد بن الأشعث الحزاعى على مصر وأفريقية ، وسهر من مصر جيشا من المسودة بقيادة أبى الاحوص همر بن الاحوص العجلى لاسترجاع أفريقية ؛ وكان ذلك هو السبب فى عودة عبد الاعلى إلى طرابلس سريعا بعد تغلبه على عبد الملك بن أبى الجعد ، فاشتبك عبد الاعلى مع القوات العباسية فى بلدة سرت وهرمهم فى سنة ١٤٢ هـ فعاد فلم إلى مصر (٢) . فمرل المنصور محمد بن الأشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة . فخرج ابن الأشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل (٣) وكان فى جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين نذكر منهم

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ - ابن الأثير ، ج ١ ص ٣١٧ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٠ - السلاوى ، ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣١٧ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ .

(٣) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣١٧ . وذكر ابن عذارى أن عدة جيشه بلغت ٢٠٠ ألف مقاتل (ج ١ ص ٨٢) وهو رقم مبالغ فيه بدليل أنه يذكر فى موضع آخر أن خرج فى أربعين ألفا عليهم ٢٨ قائدا .

الأغلب بن سالم التميمي (جد الأغالبة الذين سيستقلون بثونس) والمحارب بن هلاله والمخارق بن غفار الطائي. وكان جيش عهد الأعلى يضم عسكريا من بربر زناتة وهوارة، فتنازعت القبيلتان، واتهمت زناتة عبد الأعلى بميله إلى هوارة ومحاباتها، ففارقه جماعة كبيرة من الزناتيين، في الوقت الذي أقبلت فيه جيوش العباسيين، وعندما بلغ ابن الأشعث تحلى الزناتيين عن عبد الأعلى قوى عزمه، ثم إنه نفاها بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر، وتباطأ في سيره وتراجع بالفعل مسحة ثلاثة أيام، بحيث إن جواسيس عبيد الأعلى طادوا مخبرونه برجوعه إلى مصر، فتنفر عنه كثير من أتباعه وأطمان الباقون، فعاد ابن الأشعث سريعا وفاجأ قوات عهد الأعلى الباقية وهي على عهد استعداد للحرب وهاجمها، فوضع العباسيون السيوف فيهم، واشتد القتال، وأسفر عن مصرع عبد الأعلى وعامة أصحابه في صفر سنة ١٤٤ هـ (١)؛ ودارت هذه المعركة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس ومصراطه، وأبدى فيها الإباضية رهم قلة أعدادهم وعدم استعدادهم للقتال الكثير من ضروب الشجاعة والإقدام حتى استشهدوا جميعا، فاحتز ابن الأشعث رأس أبي الخطاب وأرسله إلى المنصور.

وكان عبد الأعلى - بعد أن علم بقرب وصول ابن الأشعث - قد استنفر الإباضية للجهاد، فلما انتصر ابن الأشعث على قواته أبي الخطاب وقتله في عامة رجاله ظن أنه ضمن القضاء نهائيا على الإباضية، ولكنه فوجئ بوصول أبي هريرة الزناتي أحد قادة أبي الخطاب في ١٦ ألفا من زناتة وظهر (٢) جاءوا ملبيين نداء أبي الخطاب ولكن بعد فوات الأوان، فتلقاهم ابن الأشعث ومزق صفوفهم،

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٧.

(٢) ابن عذاري، ج ١ ص ٨٣ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٧.

وهزمهم في ربيع الأول سنة ١٤٤ . كذلك كان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب لنجدة أبي الخطاب ، فلما وصل إلى قابس قادما من القيروان بلغه ما انتهى إليه مصير صاحبه أبي الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق بإباضية المغرب الأوسط ، فزل في قبيلة لماية البربرية لحلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا حوله وبأيامه بالإمامة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له في المغرب الأوسط ، فشرع في بناء مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ ، وأتمها واستقر بها في سنة ١٤٥ هـ (١) .

وكان ابن رستم قد استخلف أحد أتباعه على القيروان ، فاورثته أهلها في الحديد وولوا على أنفسهم أحد شيوخ العرب ظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن الأشعث إلى القيروان ودخلها في غرة جمادى الأولى من نفس السنة (٢) . ثم كتب ابن الأشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولى عماله على المغرب ، فأقام على طرابلس القائد المخارق بن غنار الطائي ، كما ولى على طنبجة والزاب الأغلب بن سالم (٣) . وأخذ ابن الأشعث وهو مقيم بالقيروان يظهر أرض ليبيا وتونس من الإباضية ، وفرض سطوته على البربر فأذعنوا له بالطاعة . ولم يشأ ابن الأشعث أن يقاتل الإباضية في المغرب الأوسط ، واكتفى باستيلائه على أفريقية ، إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها في أيديهم لتكون سدا حثيما أمام حركة الخارجية .

(١) السلاوي ، ج ١ ص ١٣٨ ،

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٤ ،

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ ،

ب - سياسة العباسيين في المغرب :

ظل ابن الأشعث يتولى أفريقية حتى سنة ١٤٨ (١) ، وفي هذه الفترة اشتملت نار العصية العربية من جديد في المغرب ، فقد كان ابن الأشعث يمنييا بينما كان معظم عسكريه من المضرية ، فاصطدم بصراع العصبيات ، وانتهى الأمر بأن خلع المضرية ولوا عليهم رجلا من خراسان اسمه عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني ، فاستمر عيسى يقوم بإمارة المغرب حتى ولي المنصور على أفريقية الأغلب بن سالم التيمي (١٤٨ - ١٥٠) وكان من أصحاب أبي مسلم الخراساني وأسهم في نشر الدعوة العباسية بخراسان ، اختاره المنصور لولاية أفريقية لما عهد فيه من الحرم والشجاعة وحسن الرأي ولكونه مضريا يرضاه المضريون ، ولكنه قتل في سنة ١٥٠ على يد بعض الجند . وخلفه عدد من الولاة من قبل بني العباس هم على التوالي :

١ - أبو جعفر عمر بن حفص المعروف بهزار مرد : ولقب بهزار مرد بمعنى ألف رجل بسبب شجاعته وشدة بأسه ، وتولى هزار مرد بأمر المنصور ، وقد أبدى في المارك التي خاضها ضد البربر الإباضية كثرا من ضروب البسالة والإقدام حتى قتل في ١٥ ذى الحجة من سنة ١٥٤ وهو يقاتلهم ؛ وكان سبب هاربتهم أن المنصور اغتر بالنفوذ العباسي في أفريقية ، فتطلع إلى امتلاك المغرب الأوسط ، فأمر هزار مرد بالتوجه إلى طنبنة وتحصينها لتكون قاعدة للعمليات العربية المقبلة ضد عبد الرحمن بن رستم . وأجس الخوارج بالخطر الذي يتهددهم ، فاتفق ابن رستم مع أنصاره في طرابلس وتلسان على محاربة العباسيين ، في غياب هزار مرد عن القيروان ، وتمكنوا من إيقاع الهزيمة بهيش

العباسيين فى القيروان وسحقوهم ، ثم توجهت حشود البربر الخوارج إلى طنبجة ، واشترك فيها أبو قرّة الصفري وعبد الرحمن بن رستم الإباضى وعاصم السدراتى وأبو حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى ، ولكن على الرغم من قلة ما لدى هزارمرد من قوات فقد تمكن بفضل قائمير الأموال من تفريق كلمة البربر ، فانسحب الخوارج ، وطاد هزارمرد إلى القيروان لاستنقاذها ، ولكنه سقط قتيلا فى اشتباكه مع قوات أبى حاتم الإباضى (١) .

٢ — يزيد بن حاتم : كانت أخبار الثورات التى أشعلها البربر فى المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع المنصور ، فبادر بتولية يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب على المغرب وسيره فى جيش عدته ستون ألفا (٢) . وهزم يزيد على القضاء على ثورة البربر الإباضية ، فالتقى مع قوات أبى حاتم ، وسقط نحو ٢٠ ألفا من رجاله صرعى ، وظل العباسيون يقتلون الإباضية فى جبل نفوسة شهرا حتى سحقوهم . وكان يزيد من خيرة ولاية أفريقية ، فقصى على الثورات وضبط البلاد وأمن الناس على معاشهم وأموالهم . وتوفى يزيد فى رمضان سنة ١٧٠ فى خلافة الرشيد (٣) .

٣ — روح بن حاتم بن قبيصة : فى عهد ساد الهدوء فى أفريقية ، فقد هادن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يتاهرت ووادعه (٤) ، ولم يطل عهده إذ توفى فى القيروان فى ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ — ابن الأثير ج ٥ ص ٥٩٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٤ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٩ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ .

٤ — الفضل بن روح بن حاتم : ولاء الرشيد ولاية أفريقية في سنة ١٧٧ ، وفي عهده تجددت الثورات في البلاد ، وثار الجند بقيادة ابن الجارود المعروف بعبد ربه الأنباري والتف حوله كثير من الساخطين على الفضل ، فسير الفضل إليهم جميعا هزمه ابن الجارود ، الذي أقبل يحاصر القيروان وتمكن من اقتحامها في جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وقتل الفضل (١) .

٥ — هرثمة بن أعين : لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب في أفريقية ، ولي عليها هرثمة بن أعين (الذي سينامر فيما بعد ويسمى إلى اختراق السياج الحديدي الذي فرضه الفضل بن سهل على المأمون في "خراسان" ، ويذهب ضحية شجاعته وعروبته الصادقة) ، وأرسل الرشيد إلى ابن الجارود الثائر يحيى بن موسى ليستميل ابن الجارود حتى يعاود الطاعة قبل وصول هرثمة . ونجح يحيى بن موسى في استمالة جند ابن الجارود للفرس وعلى رأسهم محمد بن الفارسي ، ولكن ابن الجارود قتل محمد ابن الفارسي وهزم عسكره ، فترجع يحيى بن موسى إلى طرابلس حيث وصلها هرثمة . وفي غرة ربيع الآخر ١٧٩ وصل هرثمة إلى القيروان فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب القائد إبراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولعا بالبناء فأقام رباط المذستير سنة ١٨٠ وبنى سور طرابلس مما يلي البحر (٢) . وفي سنة ١٨٠ قامت ثورة جديدة في البلاد ضد هرثمة ، وعلى الرغم من نجاحه في إيقاع الهزيمة بالشوار فقد كتب إلى الرشيد يطلب الاستعفاء

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٦ — ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٧٧ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٧ .
(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٩ .

لكثرة مارآه في أفريقية من الاختلاف وتقلب أهواء جندها ، فأمره الرشيد بالقدوم عليه ، فترك أفريقية في رمضان سنة ١٨١ ، واستعمله على فلسطين (١) .

٦ - محمد بن مقاتل العكي : كان أخا المرعبيد في الرضاع فاستعمله الرشيد على أفريقية بعد حرثمة ، فقدم إليها في أول رمضان سنة ١٨١ . ولم ينجح ابن مقاتل في تهدئة نفوس الجند بل هل الضد من ذلك أثار عليه كراهية الجند لسوء سيرته وقبيح ما يؤثر من أخباره ؛ من ذلك إقداحه على قتل القهول بن راشد أحد أئمة البربر الكبار في الشريعة بسبب وعظه له وصارعه له في تصرفاته لاسيما عند ما أمد البيزنطيين في مقلية بالأسلحة ؛ كذلك إساءته السيدة في الجند وفي الرعية واقتطاعه أرزاق الجند ، فتسبب في قيامهم عليه (٢) ، فثار عليه الجند استمجانا لتصرفاته ، وحسف أبو الجهم التميمي حامله على تونس لدخول القهروان واشتباك مع ابن مقاتل فانهزم الأخير ، ودخل أبو الجهم القهروان في رمضان سنة ١٨٢ ، فأمن العكي على دمه وماله ، فخرج العكي من القهروان بعد أن آمنه أبو الجهم ، وسار إلى طرابلس ، فأدركه قوم من الحراسانيين دخل بهم طرابلس وأقام بها وفي هذه الأثناء استاء إبراهيم بن الأغلب التميمي من خروج بني الجهم على الوالي الشرعي ، فجمع جيشا من الزاب سهره إلى القهروان ، ودخلها ، وكتب إلى ابن مقاتل بطرابلس يدعوهم إلى دخول القهروان ، فماد ابن مقاتل ، وانزعج الناس لمودته ولاذوا بأبي الجهم في تونس . فلما استعصر أبو الجهم أن لديه قوة كافية ، عزم على مهاجمة القهروان ، فتصدى له إبراهيم بن الأغلب ، فانهزم أبو الجهم وانسحب إلى تونس

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٤١ .

(٢) ابن مغازي ، ج ١ ص ١١١ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٤ .

وحاصره ابن الاغلب فاضطر إلى طلب الامان فأمته ، وسيره إلى بغداد ، فأمر الرشيد بمحبسه في المطبق (١) وأصبح ابن الاغلب رجل أفريقية القوي بمسد أن هزم أبا الجهم وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن الجند والآهالى كانوا قد ستموا حكم ابن مقاتل وكرهوا استبداده ، فانصل جماعة من الجند والآهالى بابن الاغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلا من ابن مقاتل ، وحلوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على إمارة أفريقية ، فكتب إليه في ذلك ، وأبلغه أنه مستعد في مقابل تتمعه بالإمارة أن يتنازل عن المائة ألف دينار التي كانت تبشها حكومته كل عام معونة لأفريقية بالإضافة إلى استعداده لإرسال أربعين ألف دينار إليه (أى إلى الخليفة) كل عام . فلما عرض الرشيد الأمر على هرثة يستشهده ، أشار عليه بأن يوافق على منحه ولاية أفريقية لكنائته وحرمة ومقدرته الحربية في إخماد الثورات بالإضافة إلى شعبيته . فكتب له الرشيد عهدا بولاية أفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ ، ويسجل هذا التاريخ قيام دولة بنى الاغلب مستقلين استقلالاً جزئياً عن الخلافة (٢) .

* * *

وشهد المغرب الإسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه ، ففى المغرب الادنى بالقهروان قامت دولة الاغالبة ، وفى المغرب الاوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين الخوارج الإباضية ، وفى المغرب الأقصى بفاس قامت دولة الادارسة الحسنيين ، وفى سجلماسة قامت دولة

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩ .

(٢) ابن عفاوى ، ج ١ ص ١١٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٥ — ابن خلدون ،

ج ٤ ص ٤١٩ — السلاوى ، ج ١ ص ١٣٥ .

بنى المدرار الخوارج الصفيرية ، وفي نكور والريف الغربي قامت دولة بنى صالح ابن منصور الحميري ، وفي شالة بنما سنا قامت دولة بنى صالح بن طريف البرغواطى المرابطية . وجميع هذه الدويلات كانت مستقلة عن الخلافة العباسية باستثناء دولة الأغالبة التي كانت ترتبط اسميا بالخلافة العباسية . وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بسياسة الدولة العباسية في المغرب ، فهي سياسة عدائية بالنسبة للدويلات المستقلة التي قامت فيما وراء أفريقية . أما سياستها نحو دولة الأغالبة فكانت ودية ، لأن هذه الدولة كانت تدين بالولاء لبنى العباس . ساعد الرشيد على تأسيسها بمهد منه ، لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية والقوى غير السنية في المغرب بين الأوساط والأقصى خاصة قوة الإدارة الذين كانوا يتطلعون إلى توحيد المغرب والمشرق الإسلاميين تحت قيادتهم^(١) ، فقد وجه لإدريس بن عبد الله مؤسس دولة الإدارة رسالة إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الإدارة بأهل مصر^(٢) .

أما أسرة الأغالبة^(٣) فأسرة راقية في مضمار الحضارة حملت على نشر

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧ هامش رقم ٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أقيمت أحداث أفريقية المتوالية من معارك خاضها العرب ضد الصفيرية والإباضية ومن حركات المرد والشنب التي قام بها الجند ، ومن فنن طاحنة متواصلة ، الرشيد بأد انفصل المغرب عن الدولة العباسية مات حكمة واقعة ، وقد دفعه هذا الشعور بالواقع إلى قول ما عرضه عليه إبراهيم بن لأعاب عال الزاب من قبل ابن مقناتل ، والتسليم باستقلال ولاية أفريقية استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية والاكتفاء بلمعية لمسية لها مقابل مبلغ من المال يضمنه إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد يؤكد كد لقب الإمارة الذي خلعه على بنى الأغلب وإقرار كل خليفة عباسي بهذا لقب

(Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge

(Paris , 1946, p. 59) ولاشك أن الرشيد بإرساله عهد ولاية أفريقية إلى ابن

الخطيب إنما كان يقر استقلاله الفعلي بهذه البلاد مع التبعية الاسمية للخلافة .

الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذهما أى في أفريقية و طرابلس وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور ، وشيدوا المساجد والحصون والاربطة ، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون وحمى أمراء الأغالبة المشرق الأدنى الإسلامى من خطر التغلغل الشيعى والحارجى ، واضطروا إلى الاصطدام عسكريا بالرستميين الحوارج وبالدهاة الإسماعيلية حينما آخر . وظلت دولة بنى الاغلب موالية للعباسيين ، ينعكس ذلك على الإسم الذى أطلقه إبراهيم بن الاغلب على المدينة التى أسسها في سنة ١٨٥ جنوب القيروان فسميها العباسية إمامانا في إظهار ولائه للعباسيين^(١) ، وعلى مؤامرات إبراهيم بن الاغلب ضد دولة الادارة للفتية^(٢) ، إلى أن تولى المأمون العباسى الخلافة ، وأرسل إلى زيادة الله بن إبراهيم الاغلبى (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) التقليد بالإمارة ، فأخلص له زيادة الله حق عندما توثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة ببغداد وتسمى بالمبارك (٢٠٢ - ٢٠٤ هـ) ، فلما دخل المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ هـ وخلعت له الخلافة شكر له ذلك^(٣) . ولكن عندما كتب إليه المأمون يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر أفريقية غضب غضبا شديدا وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بنى إدريس^(٤) ، وفي ذلك تهديد واضح للخليفة بخروج الأغالبة على العباسيين وانضمامهم إلى الادارة لو فكر العباسيون في مس استقلال بنى الاغلب الذاتى .

كذلك ينعكس ولاء الأغالبة للعباسيين في قيامهم بمحاربة البيزنطيين في

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة العباسية .

(٢) ستنترض لذلك في حينه .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٦ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٢٢ - ابن الخطيب ، ص ١٧ .

صقلية منذ سنة ٢١٢ (١) ، وفي مساندة ابن حفصون الشائر على بني أمية في الأندلس . وسقطت دولة الأغالبة في سنة ٢٩٦ هـ . على يد أبي عبد الله الشيعي داعي دعاة الشيعة الإسماعيلية .

أما دولة الإدارة فقد أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي في المغرب الأقصى في أوائل ذلك في سنة ١٧٢ هـ . أي بعد مصرع الحسين بن علي بن الحسن وهزيمة أصحابه في موقعة فخ ، بمكة بثلاث سنوات . وكان إدريس قد اشترك في القتال مع الحسين بن علي ، ونجح في الإفلات مع المهزومين من بني الحسن (٢) ، فاستقر بعض الوقت ، فلما ألح العباسيون في طلبه قصد إلى مصر مع مولاة راشد ، وساعده واضح مولى صالح بن المنصور — وكان يتشيع لملي — على الفرار إلى المغرب ، فيقال إنه حمله على البريد إلى المغرب الأقصى هو وراشد ، فنزلا بوليلي من أعمال طنجة (٣) في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ ، فنزل على إسحق بن عبد الله الأوربي ، أمير قبيلة أوربة البربرية فأجاره وأكرمه ، فأقام في كنفه ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته ، ونجح بفضل فصاحة لسانه وبلاغته في التأثير في نفوس البربر — خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول — فتعلقت آمالهم به واجتمعت عليه قبائل

(١) راجع في ذلك : ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٣٣ ومايليها — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٧ - Margais , op. cit., p. 65 - الحسن عباس ، العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٢ - عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، ص ٣٨٥ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٣ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٣ .

(٣) البكري المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ، ص ١٩٩ . ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٣ - المغرب الإسلامي ، ص ٤٦٨ .

أوربة ومنيلة وصديقة ، وزناته ، وبايعوه بالامامة ، وتمكن إدريس من تكوين جيش وجهه بادية ذي بدء إلى المناطق التي تسكنها قبائل على دين اليهودية والمجوسية وخاصة مناطق شالة وتادلا التي لم يكن الإسلام قد انتشر فيها بعد (١) . وبفضل غزواته وفتوحاته أمكنه أن يؤسس إمارة قوية بالمغرب الأقصى (٢) .

واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس في المغرب من دخول البربر في طاعته وافتتاحه مدن المغرب الأقصى بسيفه ، وأبلغ بحزمه وقوته ، فمظم عليه الأمر ، وخاف أن يقضى الإدارة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسي في أفريقية وطرابلس ، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر ، ولاشك أن اصطناع إدريس ابن عبد الله لسياسة النزول المسلح في نواحي تامسنا وتادلا وتلسان كان يعبر عن رغبته في التوسع ومد نفوذه على المغرب كله ، وكان لذلك صدى عميق في المشرق الإسلامي ، وأصبح الخليفة الملقا على مصير المغرب ومصر ، بل إن صاحب كتاب الروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس يذكر أن الرشيد أخبر بعزم إدريس على غزو أفريقية ، فخاف أن يعظم أمره فيصل إليه ، لما يعلم من فضله وكماله ، رغبة الناس في أهل بيت

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٤ — الجزائري ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشره ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ١٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : لبني برونسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ — والمغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الإسلامي لعبد العزيز سالم ، ص ٤٦٥ - ٤٠٤ .

النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنتم لذلك غما شديدا ، وعظم عليه شأنه ، (١) ،
ففكر الرشيد في اللجوء إلى السيف للقضاء على الدولة الإدريسية الناشئة ،
ولكن الأمر لم يكن من السهل تحقيقه ، فالنفوذ العباسي الفعلي لم يكن
يتجاوز حدود مصر العربية ، وعلى أقصى تحديد الحدود التونسية
الجزائرية ، وذلك إذا اعتبرنا أن أفريقية (أى تونس) ترتبط بالخلافة
العباسية ارتباطا ولاء . فاضطر الرشيد إلى استشارة يحيى بن خالد
البرمكي ، وأخبره بأمر إدريس واستشاره فيه . وقال له : إنه والله على بن
أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي صلعم ، وقد قوى سلطانه ، وكثرت جيوشه
وعلا شأنه ، واشتهر أمره واسمه ، وفتح مدينة تلمسان وهو باب أفريقية ،
ومن ملك الباب يوشك أن يدخل اندلس . وقد عزم على أن أبعث له جيشا
عظيما لقتاله ، ثم إنى فكرت في بعد البلاد وطول المسافة ، وتناسى المغرب عن
المشرق ، ولا طاقة لجيش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب ،
فرجعت عن ذلك ، وقد هالني أمره ، فأشر على برأيك فيه ، (٢) . فأشار
عليه البرمكي بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر
والدهاء مع البلاغة والجرأة ليقاتله ، ووقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير (٣) ،
وقيل سليمان بن جدير (٤) وقيل ابن حريز (٥) المعروف بالشهاخ (٦) . وكان

(١) انظر النس المذكور في : Lévi — Provençal, Extraits des :
historiens arabes du Maroc, Paris, 1948, P. 18

(٢) Ibid., p. 18

(٣) Ibid. — الجزائري ، ص ١٠ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ١٩٣ .

(٥) البرمكي ، ص ١٢٠ — ابن خلدون ، ص ٢٥ .

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩٩ .

وكان سليمان هذا من أهل الشجاعة والدهاء والخصاسة ، فأخبره يحيى بالمهمة التي يهد إليه بها ، ووعده برفعة المنزلة والصلوات السنوية ، وغمره بالأموال والتحف المستطرفة ، وجهره بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية (عطر) مسمومة ، ثم وجهه معه رجلاً يثنى به ويشجاعته ، فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ، وهو متنكر في هيئة طبيب ، وما زال يحد في السفر حتى وصل إلى وابل ، فانصل بإدريس ، فأناله عن اسمه ونسبه ووطنه ، وسبب قدومه إلى المغرب ، فذكر له أنه من بعض موالى أبيه ، وأنه انصل به خبره فأثناء برسم خدمته بسبب محبته لأهل البيت ، فأنس إليه إدريس وسريه ، واتخذ صاحبا ونديما ، لا يجلس إلا معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان إدريس في هذا البلد البربري ، يحن إلى مجالسة العرب ومحادثتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من علمه وأدبه وبلاغته وحواره ما جعل إدريس يتعلق به ويرفقه إلى تلك المنزلة (١) . وأخذ سليمان الشياخ يتصدد فرصة يقتال فيها إدريس بالسم ، فلم يتهيأ له ذلك فملازمة راشد له ، وظل يترقب فرسه مواتية لتنفيذ خطته ، إلى أن اغتم غياب راشد ذات يوم لبعض شؤونه ، فدخل على إدريس فألقاه وحده ، فجلس بين يديه على عادته ، وتحدث معه مليا فلم يظهر راشد ، فانتهر الفرصة ، واغتتم الخسوة فقال : يا سيدي جعلت فداك ، إني جئت من المشرق بقارورة طيب أنطيب بها ، ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها مني فخذها لتطيب بها ، فقد آثرتك على نفسي ، وهو من يعض ما يجب لك على . ثم أخرجها من وعاء وقدمها له ، فشكره إدريس ، وفتح السدادة وشمها . فلما تأكد الشياخ من ذلك استأذن وخرج ، ثم ركب فرسا له قد أعدها لذلك ، وفر

(١) ابن الخطيب ، ص ١٩٢ - الجزناني ، ص ١٠ - الروض القرطاس من كتاب
« مختبرات مؤرخي العرب في المغرب » ، ص ١٩ .

١٩٩

من وليلى . أما إدريس فقد غشى عليه وسقط بالأرض ، والقوم من حوله لا يفهمون ما حل به . وقضى إدريس في غشيته إلى غشى النهار ، فتوفي في مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ ، (١) ، وقيل في سنة ١٧٥ هـ (٢) وهو الأرجح . وانتبه راشد مولى إدريس إلى غيبة الشماخ ، فعلم أنه هو الذى سمه ، فركب في طلبه ، وما زال يفتدى سيره في اتجاه الشرق حتى لحق به بوادى ملوية ، فضربه بسيفه ضربة قطع بها يده ، ولكنه لم يتمكن من الإجماع عليه ، إذ كبا به فرصة ، وتمكن الشماخ من عبور الوادى واحتفى في البرابرة (٣) ، فأمن الشماخ من مطاردة راشد له ، وعصب جراحة ، ووصل إلى بنى داد (٤) ، فولاه الرشيد على بريد مصر (٥) . ودفن إدريس بخسارج باب وليلى في فناء رابطة ليتبرك الناس بتريقته .

وهكذا نفذت مقاومة الرشيد ويحيى البرمكى ، ونجحا فى التخلص من إدريس . ولكن إدريس توفى وقد ترك جارية له حاملا فى السابع من أشهر الحمل ، فاتفق راشد مع زعماء البربر على أن يقوم بأمرهم إلى أن تضع الجارية ، فإذا جاء المولود ذكرا بايعوه ، وإذا كانت بنتا نظروا لأنفسهم (٦) . ووضعت

(١) الروض الفراس - الاستقصاء ج ١ ص ١٥٩ .

(٢) البكرى ، ص ١٢١ - ابن حنارى ، ج ١ ص ٢٩٩ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ - القلشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ج ٥ ص ١٨٠ - الجزائى ، ص ١١ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ .

(٤) البكرى ، ص ١٢١ - ابن حنارى ، ص ٢٩٩ - ابن الخطيب ، ص ١٩٥ - السلاوى ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٥) البكرى ص ١٢١ - ابن الأثير ص ٩٣ .

(٦) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ - ج ١ ص ١٦٠ .

الجارية في ربيع الآخر سنة ٧٥ (١) ، وجاء المولود غلاما أشبه الناس بأبيه لإدريس ، فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر فأعجبوا من شبه الكبير بأبيه ، فقالوا : وهذا إدريس كأنه لم يمض (٢) ، فسمى باسم أبيه ، وقام راشد بأمره وكفله حتى شب ، فأحسن تأديبه وأقرأ القرآن وأحفظه إياه ولم يتجاوز إدريس من العمر ثمانى سنوات بعد ، ثم علمه السنة والفقه وأشعار العرب وأيامهم وسير الملوك ، ودربه على ركوب الخيل والمصارلة وأحكام الرماية بالسهم (٣) ، ولما أتم إدريس من العمر عشر سنوات جدد له راشد البيعة بجامع وليل .

ويذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى ، لإذ ساء استعجال أمر إدريس براشد ، فلم يزل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشدا وسبق رأسه إليه وذلك في سنة ١٨٦ (٤) ، وفي ذلك يقول إبراهيم بن الأغلب يخاطب الرشيد ، ويكذب ادعاء محمد بن مقاتل الديكى الذى نسب إلى نفسه محاولة قتل راشد :

ألم ترني أهلك بالكيد راشدا . وأنى لأخرى لابن إدريس راصدا
وتاه أخو عك بمالك راشدا . وقد كنت فيه ساهرا وهو راقدا (٥)
وتجمع معظم المصادر على أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل

(١) البكري ، ص ١٢٢ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٤ - ابن الخطيب ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ - السلاوي ج ١ ص ١٦٠ .

(٣) نفس المصدر - الجزائى ص ١٢٣ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٠ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٤ .

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٩٧ .

اسمه أبو خاله بن يزيد بن إلياس النبدى (١)، وحدث لإدريس الثاني البيعة في ٧ ربيع الأول سنة ١٨٧ هـ (٢)، وهو ابن ١١ سنة، وبايعته جميع مدعي القبائل من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر، فاستقام له الأمر بالمغرب الأقصى، وقوطد ماسكه وعظم سلطانه، وقوى عسكره ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٣). وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من أفريقية والأندلس من التيسية والأزد والخزرج ومدايج وبني محصب، فسر إدريس بوفادتهم عليه وقر بهم منه وجعلهم بطانته (٤)، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الأزدي.

ولما رأى إبراهيم بن الأغلب - الذي كان أكثر الأغلبية ولاء للعباسيين - عظم قوة إدريس استمال إليه كبير أوربة أبا ليل إسحق بن محمود الأوربي، ويبدو أن إدريس تبين له تنفير إسحق عليه ومبله لابن الأغلب، فقتله في ٦ من ذي الحجة سنة ١٩٢ (٥)، ثم كثرت حاشية إدريس وأنصاره، وضائق وليلى بهم وبمن وفد عليه من عرب القيروان والبربر فأسس لهم ربحر القرويين من مدينة فاس في سنة ١٩٣ (٦) هـ، ثم انتقل من المنطقة التي عرفت فيما بعد بحدوة الاندلسيين - ولم تكن هذه الحدوة

(١) البكري، ص ١٢٢ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٧٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٢ - ابن عذاري، ج ١ ص ٢٩٩ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦.

(٣) الجزائى، ص ٢٣.

(٤) ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦ - الجزائى، ص ١٣.

(٥) البكري، ص ١٢٣ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦.

(٦) نفس المصدر، ص ١٢٣ - ابن عذاري، ج ١ ص ٢٩٩ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦.

من فاس قد أسست بعد — إلى عدوة القرويين حيث بنى دار القيماون وأسس بجوارها جامع الشرفاء بفاس (١) .

ويبدو أن إدريس اتخذ بالإضافة إلى وزيره العربي عمه بن مصعب وزيرا من البربر اسمه بهلول بن عبد الواحد المطفري ، فلما أخضع إدريس خوارج المغرب الأوسط لطاعته . وامتد نفوذه حتى وادي شلف ، وأصبح يهدد نفوذ العباسيين بأفريقية ، فاضطر ابن الأغلب إلى أن يدافع عن حماه ، فلاطف بهلول واستماله إليه بالكتب والهدايا حتى انحرف عن دعوة الأدارسة إلى الدعوة العباسية ، ثم وفد إلى القيروان ، وهناك ذلك الحين استراب إدريس بالبربر فاستكثر من العرب وصالح ابن الأغلب (٢) . وترك الخلافة العباسية دولة الأدارسة وشأنها .

أما دولة الرستميين أصحاب تاهرت فكانت علاقة العباسيين معهم علاقة عداوة ، وتنسب هذه الدولة إلى عبد الرحمن بن رستم الإباضى الفارسى ، ومن المعروف أن المذهب الإباضى انتشر في المغرب انتشارا سريعا ، وساعد على سرعة انتشاره منذ أول القرن الثانى الهجرى أن الدولة العباسية كانت أشد وطأة على الخوارج من الدولة الأموية ، فاستبد العباسيون بالدولة ورفعوا السيف على كل من ناور سلطنتهم . وكان مؤسس هذه الدولة وهو ابن رستم أحد علماء خمسة عرفوا بجملة العلم ، رحلوا إلى البصرة مقر أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة إمام الإباضية ، وقد رأينا فيما سبق أن الإباضية والصفرية تنلبوا على الأمويين في المغرب وأطاحوا بنفوذهم ، ولكن قيام الدولة العباسية كان كارثة بالنسبة

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٠١ - الجزائى ، ص ١٤ ، ٢٠ .

(٢) نفس المصدر - ابن خلدون ، ص ٢٧٠ ، ٢٤٠ .

- ٢٠٣ -

لهم ، إذ أن أبا جعفر المنصور ساءه أن يضيع نفوذ بني العباس في المغرب ، ولهذا السبب عزم على القضاء على الدولة الإباضية التي أسسها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وتمكين السيطرة العباسية على أفريقية ، فأخذ يبعث طاقاته ويحشد لها لهذا الغرض ، ثم كانت حملة ابن الأشعث التي انتهت بمصرع أبو الخطاب في جملة من خيار أصحابه يبلغ عددهم ١٢ ألفاً (١) وكان عبد الرحمن بن رستم يتأهب لتجدة صاحبه أبي الخطاب عندما بلغه وهو في طريقه إليه خبر الهزيمة الشنعاء التي منى بها جيشه ، فآثر أن يترك المغرب الأدنى وشأنه ، ويمضي إلى المغرب الأوسط حيث لا يصل نفوذ المباسيين ، وحيث يتركز جمهور الإباضية الذين انتصروا لأبي الخطاب وله ، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إباضية على نسط دولة أبي الخطاب .

ومن المعروف أن عبد الرحمن بن رستم هذا من أعقاب رستم قائد جيش المرس في السادسة ، وإن كان بعضهم يرفع نسبه إلى بهرام كور كمرى فارس (٢) ، وسلك ابن رستم في فراره إلى المغرب الأوسط مسالك صعبة وطرقاً وعرة إلى أن نزل على وادي سوفجيج ، وكان عامراً بالإباضية ، وهناك تسارعت قبائل موازة ولواته ولماية بالانضمام إليه . ولما علم ابن الأشعث في القيروان بنجاح ابن رستم في الفرار إلى المغرب الأوسط والتفاف القبائل حوله ، جهز جيشاً خرج به إلى هذا الجبل بقصد استئصال ابن رستم قبل أن يستفحل أمره .

(١) ابن عذاري ، ص ٨٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ - أبو الربيع سليمان الهاروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ١٩٣٨ ، ص ٣٤ .

(٢) البكري ، معجم ما استعجم ، مادة قاهرت - قاهوت ، معجم البلدان ، مادة قاهرت - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٧ . وكان ابن رستم مولد لثمان بن عقال ، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين .

٢٠٤ هـ

فلما قدم بجيشه عسكر في سفح الجبل، وحفر خندقاً حول معسكره وبدأ يحاصر ابن رستم، واستمر يحاصره فترة طويلة عجز خلالها عن الوصول إلى معقل خصمه. ولما طال الحصار ستم جنده البقاء لاسياً وقد تنشى وباء الطاعون بينهم، فاضطر ابن الأشعث إلى رفع الحصار والعودة إلى القيروان ثم أسس ابن رستم مدينة تاهرت واتخذها مركزاً للدولة، وذلك في سنة ١٤٤ هـ. وازدهرت تاهرت وأصبحت مركز الحجرات لما شاع من عدل ابن رستم في رعيته وحسن سيرته فيهم، ففتحت أبوابها لكل من طرقها من الخارجين على الدولة العباسية ومن ضاقت نفوسهم من عسف خلفاء بني العباس. ولم يبايع ابن رستم بالإمامة الإباضية إلا في سنة ١٦٠ بعد أن رست قواعد دولته ورسخت دعائمها وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها.

ثم بدأت مرحلة الصراع بين العباسيين ممثلين في الأغلبية وبين الرستميين، فقد كان العباسيون يهدفون إلى القضاء على الصنقرية في تلمسان والإباضية في تاهرت. ولم يكن لإباضية طرابلس - ألقوا سلاحهم بعد استشهاده لإمامهم أبي الخطاب في سنة ١٤٤، وإنما ظلوا يخوضون المعارك ضد العباسيين، متخذين من جبل نفوسة حصناً ومعتلاً يتحصنون فيه وفي ولاية الأغلب بن سالم تمكنت زمامة البربرية في تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبي قررة بن دوناس الصغرى، وكان الأغلب يتولى الاشتباك مع هذه القبيلة، ولكنه في إحدى المعارك مع العرب أصيب بسهم أوداه قتيلاً في سنة ١٥٠. وخلفه عمر بن حفص المعروف بهزار مرد، وكان يهدف إلى تمهين طينة واتخاذها مركزاً لشن غاراته على الإباضية والصغرى، فما كاد يخرج إلى طينة في سنة ١٥٤، وتخلو أفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر باتفاق مسبق مع صغرى تلمسان وإباضية تاهرت وطرابلس وهاجم البربر الجنيد بن بشار في القيروان، واجتمع الإباضية في

طرا بلس وبايعوا أباحاتم يعقوب الإباضى بالإمامة سنة ١٥٤ . فلما هوجم الجنيد، استنجد بهزار مرد، فأمدّه بعسكر لمواجهة الموقف. ولكن قوات الإباضية أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس، فحاصروهم بها أبو حاتم، وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية حتى قيل إن عدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشاً توجهت جميعاً إلى الزاب، ولكن هزار مرد تمكن من فك الحصار عن نفسه عن طريق الرشوة بالمال ، فراجع ابن رستم إلى تاهرت. أما الإباضية طرا بلس ، فعلى الرغم من انتصارهم بقيادة أبي حاتم علي هزار مرد في القيروان ، فقد انتهى أمرهم بالخزيمة على أيدي قوات يزيد بن حاتم وذلك في جبال نفوسة سنة ١٥٠ ، وقتل أبو حاتم وصفوة قواده (١) .

أما ابن رستم فقد تفرغ الإصلاح الداخلى، وبمرور الزمن استطاع أن يسير بدولته في طريق القوة والمثمة ، فها به روح بن حاتم الوالى الباسو بأفريقية ، ورغب في موادعته ، فهادنه في سنة ١٧١ هـ (٢) ، كما وادع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من بعده (٣) .

ولما قامت دولة الأغالبة ، كان من الطبيعي أن يعتبروا الرستميين خصوما لهم بحكم موالاته الأغالبة للعباسيين ، فبدأ أمراء الأغالبة بنازعون الرستميين أملاكهم بنفوسة، فلما استغاثت قبيلة هواة بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم في سنة ١٩٦ ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٤) ، لم

(١) مختصر تاريخ الإباضة ، ص ٣٤ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤١٥ .

(٤) في سنة ١٩٦ تارت قبائل هواة بجبل نفوسة على الباسيين وأعلنت استقلالها فاستنجد عاملها إبراهيم بن الأغلب فمير ابنه أبا العباس عبد الله على رأس جيش عدده =

يتردد في نهجتها، ورحل إلى طرابلس بجيش ضخم، فتحصن عبد الله الأغلب داخل اسوار طرابلس، وعندئذ حاصره الرستميون، وكان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد أغلق أبواب المدينة ولم يترك منها مفتوحا سوى باب هواره لكي يخرج منه لمقاتلة الرستميين (١). وواصل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حصاره لطرابلس إلى أن علم عبد الله الأغلب بوفاة أبيه إبراهيم في ٢٠ شوال سنة ١٩٦، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالإمارة قبل أن ينتصبها منه أحد أخوته، فاصطالح مع عبد الوهاب بن رستم على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغلبية بمدينة طرابلس والساحل (٢).

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغلبية، وكانت تاهرت قد ازدهرت في عهد أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠ هـ) وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله، إذ اجتذبت إليها الحارجين على دولة الأغلبية من الجند وأهالي القيروان، وتضخم ملك الرستميين وتآلق نجمهم في سماء المغرب، وعندئذ عمد أبو العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ) إلى محاربة الرستميين، عن طريق إنشاء مدينة تجاور تاهرت وتنافسها. ففي سنة ٢٣٧ هـ، أسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية. فسكت الإمام أفلح ولم يحاول أن يثنيه عن

= ١٣ ألف فارس، فانهزم المواريون، ودخل الأمير الأغلب طرابلس، وعندئذ استغاثت هواره بالإمام عبد الوهاب.

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٧٠ - الباروني، كتاب الأنوار الربانية في أئمة ملوك الإيباضية، ص ١٤٤.

(٢) ابن الأثير، ص ٢٧٠ - ابن حديد، ج ٤ ص ٤٢١ - الأنوار الربانية ص ١٤٥ - محمد بن تايوت الصاوي، دولة الرستميين، صحيفة النزهة المصرية، مدريد، المجلد الخامس، ١٩٥٧ ص ١١٦.

لإقامتها أو يعترض على تخطيطها ، إلى أن أتم أبو العباس بناءها ، ونظم أسواقها ،
وعندئذ فقط تحرك أفلح ، فوثب عليها بجيوشه وأجلا سكانها عنها ثم أضرم
فيها النيران (١) . ومع ذلك فقد لزم أبو العباس الصمت ولم يعمل على محاربة
الرستميين لمجزرة ، وظل الأغالبة يكيدون للرستميين ويترقبون الفرص لضربهم
إلى أن تمكن إبراهيم بن أحمد الأغلب (٢٦١ — ٢٨٩) من إيفاع المريجة بجيش
الرستميين بقيادة أفلح بن العباس في راقعة قصر مانو سنة ٣٨٣ هـ ، وفي هذه
الموقعة استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتي
الأغالبة والرستميين على أيدي الشيعة الإسماعيلية .

وكان من الطبيعي أن يلتقي أمراء بني أمية في قرطبة بأئمة الرستميين في
تاهرت ، وتقوم بينهم صلات ودية (٢) لعامل مشترك هو أن العباسيين كانوا
يمادون الأمويين في الأندلس والرستميين الإباضية . كما كان من الطبيعي أن
يتحالف ثوار الأندلس مع الأغالبة التابعين للعباسيين ، ويستمر الحال على
ذلك إلى أن تمسوم الدولة الفاطمية وتقضى على الدوائين الأغلبية والرستمية
وتطيح بنفوذ العباسيين نهائيا من بلاد المغرب .

(١) بن خلدون ، ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) كان أبو اليعقوب محمد بن أفلح الرستمي لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته
الا عن رأي الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أمير قرطبة (ابن عذاري ج ٢ ص ١٦١
— ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخامس بالأندلس ، تحقيق ابن بروفنسال ، ص ٢٤) .

(٣)

سياسة العباسيين مع الترك والهنود والصينيين

أ - مع الترك . كانت سياسة الدولة العباسية نحو جيرانها من الترك سياسة سلمية ، وقد آثر العباسيون السلم في هذه النواحي الشرقية لأنهم وجدوا من جيرانهم الترك تقبلا للدعوة الإسلامية ، وتهاوتا على اعتناق الإسلام ، ودور العباسيين في انتشار الإسلام ولو سلميا لا يقل عن دور الأمويين . وقد صاحب قيام الدولة العباسية ظهور أطماع صينية سافرة في الأقاليم الشرقية الواقعة على أطراف إقليم ما وراء النهر ، وهذه الأطماع لم تكن سياسة على أى حال وإنما كان الهدف منها السيطرة على طرق القوافل التي تمر بها متاجر الشرق الانهض إلى بلاد ما وراء النهر والشرق الأدنى الإسلامى وأوروبا .

وتتمثل الأطماع الصينية في قيام الصينيين بغزو أطراف بلاد ما وراء النهر ومهاجرتهم لإقليم الشاش . ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة ١٣٣ هـ أن إخشيد فرغانة نازع ملك الشاش ، فاستمد إخشيد ملك الصين فأمدّه بمائة ألف مقاتل ، وحاصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين ، وعندئذ سار أبو مسلم الحراساني لمحاربتهم انقضاء زياد بن صالح في جيش من المسلمين ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم أعدادا كبيرة وأرغموهم على الانسحاب إلى الصين (١) .

وفي سنة ١٣٤ غزا أبو داود خالد بن إبراهيم أهل كش فقتل ملكهم واستولى منهم على عدد من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة بالم يرمثلها ، ومن السموج ومتاع الصين كله من الديباج والطرف شيئا كثيرا (٢) . ولكن هذين النصيرين

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٣ .

لم يرضوا هذا لأطباع الصين ، فقد عاودوا الظهور ، وقاموا بمحاولة جديدة لإثارة الحكام الوطنيين في بلاد الترك على العرب ، ولكن هذه المحاولة جاءت بالفشل ، ونتج عن ذلك أن الصين خرجت من ميدان المعركة بين العرب وبين الترك في شرق بلاد ما وراء النهر . وأصبح لزاما على هذه الشعوب التركية أن تعتمد على نفسها في مواجهة العرب ، واستطاع العرب — بعد أن تفرقت وحدة الترك وأصبحوا لا يشكلون خطرا على إقليم ما وراء النهر — أن يوقفوا عدوان الأتراك الشرقيين ويقضوا في آن واحد على الخطر الصيني (١) .

ثم تأتى مرحلة الفتح المعنوي عن طريق نشر الإسلام والثقافة بين الأتراك وعدم اللجوء إلى السيف إلا عند الضرورة وفي الأوقات التي يلوح فيها عدوان على أراضي المسلمين أو تقوم خلالها فتن وثورات ، (٢) وقد كان لتمكين نفوذ العباسيين السياسى في بلاد ما وراء النهر أثره الكبير في حالة الأمن التي سادت هذه المناطق مما أتاح الفرصة وساعد بطريق غير مباشرة على امتداد الإسلام وانتشاره ، وواصل العباسيون سياسة دعم هذا الاستقرار السياسى عن طريق اصطناع العنصر التركي في الجيش وفي الإدارات ، فأشأ الفضل بن يحيى البرمكى

(١) حسن محمود ، العالم الإسلامى في العصر العباسى ، ص ١٧١ .

(٢) في أيام المنصور حارب العرب أمير فرغانة وأرغموه على طلب المنح ودفع الجزية . وفي أيام المهدي أخضع العباسيون لإخشيده الصفد وساحب أشروسنة وملك فرغانة وحكام الغزلوق وخاقان الأغوز ، وتنازل العباسيون حتى أخضعوا ملك الأبت . وفي عهد الرشيد توغل العرب في مناطق لم يكونوا قد طرأوا من قبل ومدوا نفوذهم إلى أشروسنة وقلب آسيا الوسطى ، فنهضت لهم هذه البلاد ، وتوالت هجراتهم إلى بلاط المأمون لتقديم فروض الطاعة والولاء ، وهكذا وصل نفوذ العرب حتى أسوار الصين . (راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ٣ ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ - حسن محمود ، العالم الإسلامى في العصر العباسى ، ص ١٧٢) .

فرقة تركية فى خراسان بلغ عددها نحو ٥٠ ألف مقاتل ، سير منهم إلى بغداد ٢٠ ألفا عرفوا باسم الفرقة العباسية ، كما اشترك فى قواته على بن عيسى رجال من الصفد والخورزمية .

وفى عصر المأمون دخل كثير من زعماء الأتراك فى خدمة الخليفة ، وأصبح بلاطه يندس بزعمائهم ، كما اشترك عدد من فرسان الأتراك فى الحرس الخلفى ، وظلت هذه السياسة قائمة إلى أن اعتلى المعتصم دست الخلافة فاستكثر منهم بحيث أصبح العنصر التركى فى خلافته دعائم الخلافة ، وقد ساعد ذلك على تقوية حركة نشر الإسلام فى المناطق المتاخمة لإقليم ما وراء النهر ؛ ومن الملاحظ أن الوثنية لا تقوى أمام الأديان السماوية ، ولذلك لم يكن غريبا أن ينتشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر بمثل هذه القوة بحيث تغلب على هذا الإقليم بأكمله ، بل تجاوزته إلى ما وراء سيمعون وجيحون والبقاع المتاخمة ، وسار التجار بقوافلهم ونهاراتهم إلى الصين ، فنشروا معهم الدين الإسلامى ، ولهذا السبب عقدت علاقات سلمية بين الصين والترك وبين الخلافة العباسية ، ويقال إن المنصور عقد صلحا مع أمبراطور الصين .

ولم يكن الدافع لنشر الإسلام الدين لذاته ، وإنما كان الدافع الحقيقى اكتساب قلوب للترك ، فإن اكتساب القلوب كان فى كل عصر أجدى من اتخاذ الحصون . شحنتها بالحمايات والرجسوع إلى السيف . ولقد جرى الخليفةتان المأمون والمعتصم على هذه السياسة ، فكانا يرسلان إلى هذه النواحي رسلهم تعرض الإسلام على قادة الترك وعلى أبناء ملوكهم ، كما كانت تعرض عليهم الدخول فى الجندية والنزوح إلى أرض الإسلام ، فدخل فى الإسلام وقتشد خلق كثير .

وهناك دافع آخر دعا المأمون ومن بعده الممتصم إلى الاستكثار من العنصر التركي في الجيش، هو الحد من نفوذ العرب والفرس في آن واحد وإيجاد نوع من التوازن بين القوتين وذلك باستخدام العنصر التركي .

ب - مع الهنود : استطاع الأمويون فتح بلاد السند على أيام الوليد بن عبد الملك بفضل الجهود التي بذلها محمد بن القاسم الثقفي ، ولكن تقلص ملك المسلمين في السند في عصر هشام وارتد عدد كبير من الهنود إلى الهندوكية ، وأدرك الأمويون (قرب نهاية دولتهم) أن تمكين الفتح العربي للسند لا يمكن أن يتم بدون إنشاء قواعد عربية، فاضطروا لذلك إلى تأسيس مدينتي المحفوظة الواقعة بالقرب من شاطئ السند غير بعيد من برهمنا باد والمنصورة التي تقع في الأخرى بالقرب من المحفوظة (١) ، وبفضل هذين المصيرين استقرت الأمور لهما ما ورضى القوم بحكم العرب (٢) . وفي العصر العباسي ، احتكك العباسيون بإمارة قنوج وأحزرزوا بعض الانتماءات ، ويشهد البلاذري إلى أنه في عهد المنصور قام القائد هشام بن عمرو التغلبي بفتح ما استغلقت من السند وتمكن عمرو بن جمل من استرجاع قشمير (٣) ، وفتح الملتان والقندهار في السفن ، وعدم البد وبني في موضعه مسجدا .

وفي عهد المهدي غزا المسلمون بلاد الهند سنة ١٥٩ ، وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها هتوة ، وأشعلوا النار في اليد ، وكان قد احتوى

(١) عهد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ٦٢٧ - ٦٣٢ .

(٢) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٤٣ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٩٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

فيه بعض الاهالى فاحترق بعضهم وقتل الباقون . ولكن المسلمين أصيبوا بوباء خطير فأت منهم نحو ألف رجل منهم الربيع بن صبيح ، ثم رجس المسلمون بحرا إلى ساحل فارس ، فلما بلغوا ساحلا يقال له بحر حران عصفت بهم الرياح فتحطمت معظم سفنهم وغرق بعضهم ونجا البعض (١) .

وفي عصر المأمون والمعتصم تابع المسلمون توسعهم شرقا ، فانتشر الإسلام في المناطق الواقعة بين كابل وقشمير والمثلتان ، وأسس المسلمون في ولاية عمران بن موسى مدينة البيضا في عهد المعتصم وشحنوها بالهند . وفتح عمران مدينة قنابل ، وغزا الميد .

ج - مع الصينيين : العلاقات بين الصين والمسلمين علاقات قديمة بدأت منذ العصر الأموي ، ومن المعروف أن الإسلام دخل إلى الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحري الذي كانت تسلكه السفن التجارية (٢) . ويبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبله فرصة البصرة إلى الصين مرة بمان ومبسط والبحرين وهرمز بخايهج فارس (٣) ، ثم ترسو السفن في ملابار وسيلان ومأبد وسومطرة وجاوة وتنسج كنسج (تنكين) . وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب كانتون التي كانت تعرف في المصادر العربية باسم خانفو أعظم مراكز التجارة في الهند الصينية (٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦ .

(٢) ذكرى محمد حسن ، الصين وكون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٩ .

(٣) بدر الدين حمى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٩ .

(٤) جورج فاضل حوراني ، العرب واللاحة في المحيط الهندي ، ص ٢١٦ - محمد

محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة انظر ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٥ .

وقد تزايد اهتمام العباسيين بالشرق الأقصى والصين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، ويعبر عن هذا الاهتمام بمكتبة جغرافية غنية بوصف المسالك والحديث عن السفن والمتاجر ، سجلها سجيل أول من الرحالة المسلمين نذكر منهم سلام الترمذاني الذي قام برحلة إلى سور الصين الشمالي ، وابن وهب القرشي الذي ركب البحر من البصرة إلى سيراف ، واجتاز بمالك الهند حتى بلغ مشارق الصين ثم انتهى إلى ميناء خانفو والتقى بمقابلة ملك الصين ، فأكرمه مدة إقامته في الصين وناقشه في الدين والسياسة ، وعرض عليه حضور بعض الأنبياء كانت تعقد قصوره ، ثم عاد ابن وهب القرشي إلى العراق (١) . وقد كانت هذه الرحلات الناجحة مقدمة لرحلات أخرى كثيرة إلى الهند والصين منها رحلة سليمان السيرافي التي ذيل عليها أبو زيد حسن السيرافي في القرن الرابع الهجري . ونستدل من أقوال الرحالة سليمان السيرافي على وجود جماليات إسلامية بالصين كانت تتمتع في زمانه بامتيازات خاصة (٢) . ومعظم هذه الجماليات من التجار الذين كانوا يحملون من الصين المسك والكافور والذخائر والدار صيني (٣) ، ومن ملبار كانوا يأتون بغشب الساج الذي كان يستخدم في عمارة الدور وفي صناعة السفن . وقد أعجب المسلمون بالتعجب الفنية الصينية كالتصاوير الدقيقة التي تمثل الواقعة (٤) والحزف الصيني المذهب (٥) الذي

(١) الممعددي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦١ .

(٢) Sauvaget, Relation de la Chine et de l' Inde, Paris, 1948

(٣) ابن خردادبه ، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ — ابن الفقيه المذاني ، ص ٢٧٠ .

(٤) للممعددي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٥ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٣ .

قلده المسلمون في بغداد والفسطاط والري ، ولا سيما في مصر في العصر الفاطمي ، فقد حاول الخزاف المشهور سعد ومن حذا حذوه من تلاميذه أن يصنعوا نوعا من الخزاف ذي الزخارف المنقورة تحت الدهان ، وكانوا يقلدون به خرف سونج الصيني (١) .

ثانيا

سياسة الدولة العباسية مع البيزنطيين والفرجة

(١)

مع البيزنطيين

ورث العباسيون في جملة ما ورثوه من الأمويين الجهاد التقليدي ضد بيزنطة بحكم الحدود المشتركة (٢) ، ولكن صراع العباسيين مع البيزنطيين اتسم بسمات دينية فحسب فكان هدفهم المباشرة والجهاد في حين كان الأمويون يتطلمون إلى قهر القسطنطينية والسيطرة على البحر المتوسط الشرق . وعلى هذا الأساس أصبحت الحرب بين العرب والبيزنطيين في العصر العباسي لا تعدو تبادل التفارات وما يصحب ذلك من تدمير وتخريب وقتل ومعي ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى قلة اهتمام البيزنطيين بالبحرية من جهة ومحول السياسة الإسلامية للعباسيين بعد قيام دولتهم إلى الشرق .

في خلافة السفاح : وقد استغل البيزنطيون اشتغال العباسيين بتثبيت

(١) زكي حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٢) عهد العزيز الدوري ، ص ٩١ .

فواحد دولتهم الجديدة زمن السفاح فهاجم الإمبراطور قسطنطين الخامس منطقة الشنور الجزرية ودمر تحصينات الفرات بما في ذلك ملطية والحدث وفي هذه النزوة يقول اليعقوبي : « وغزا بالناس في أيامه - سنة ١٢٣ - أقبل طاغية الروم وهو قسطنطين . حتى أناخ على ملطية ، فحصرها ، فصدولح عنها ، وزسنت إليه موسى بن كعب التميمي فلم يكن بينهما لقاء . وكتب أبو العباس (السفاح) إلى عبد الله بن علي يعلمه أن العدو قد كلب بالغلة عنه ، وأمره أن ينفذ بالجيوش التي معه ، فيبث جيوشه في نواحي الشنور ، وزحف حتى قطع العرب ، ولم يزل يبعث حتى أتاه خبر وفاة أبي العباس ، فانصرف ، (١) . وذكر البلاذري هذه النزوة فقال : « لما كانت سنة ثلاث وثلاثين ومئة أقبل قسطنطين الطاغية عامداً لملطية ، وكنخ يومئذ في أيدي المسلمين ، وعليها رجل من بني سليم . فبعث أهل كنخ الصريح إلى أهل ملطية ، فخرج إلى الروم منهم ثمان مئة فارس ، فواقعتهم خيل الروم فهزمتهم ، ومال الرومي (يقصد قسطنطين) فأناخ على ملطية فحصر من فيها ، والجزيرة يومئذ مفتونة وعاملها موسى بن كعب بجران . فوجهوا رسولا لهم إليه ، فلم يمكنه إغاثتهم . وبلغ قسطنطين ذلك فقال لهم : يا أهل ملطية ، إنني لم آتكم إلا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم . انزلوا على الأمان واختلوا المدينة وأخربها وأمضى منكم . فأبوا ، فوضع عليها المجانيق . فلما جهدهم البلاء واشتد عليهم الحصار ، وسألوه أن يوثق لهم ، ففعل . ثم استعدوا للرحلة وحملوا ما استقد لهم ، وألقوا كثيراً مما ثقل عليهم في الآبار والخابيء ، ثم خرجوا ٥٠٠٠ وتوجهوا نحو الجزيرة ففترقوا فيها ، وهدم الروم ملطية ، فلم يبقوا منها إلا هرباً ، فإنهم شحشوا منه

شيئا يسيرا ، وهدموا حصن قلوذية ، (١) .

في خلافة المنصور : فلما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة عمل على تحصين
مناطق الثغور الجزرية والشامية وشجعها بالمرابطة ؛ ففي سنة ١٣٩ كتب المنصور
إلى صالح بن علي العباسي يأمره ببناء ملطية وتحصينها ، ثم رأى المنصور أن
يجعل لهذه المنطقة الثغرية كيانا إداريا قائما بذاته ، ومنطلقا لغزو الروم ، فولى
على الجزيرة وثورها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، كما أمر في نفس سنة
١٣٩ بممران حصن المصيصة وكان قد قل سكانها وتغرب سورها ، فوجه
صالح بن علي إليها جبريل بن يحيى البجلي فأسكنها أهلها وبني سورها في سنة
١٤٠ هـ (٢) وسماها المعمورة ، وبني فيها مسجدا جامعيا في موضع هيك كان
بها (٣) ، وفرض المنصور فيها آلاف رجل ثم نقل أهل الخوصوص وهم فرس
وصقالبة وأنباط نصارى كان قد أسكنهم مروان بن محمد .

أما ملطية فقد توجه إليها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن
قحطبة في جنود خراسان ، فاستدعى جند الشام والجزيرة ، فتوافى معه مسمون
ألفا ، عسكر بهم على ملطية ، ثم جمع الفعلة من كل بلد ، فأخذ في بنائها . وكان
الحسن يطعم الناس من ماله ، ويحمل الحجر بنفسه ويناوله للبناء طلبا لثواب
الله . وبعد الناس في العمل حتى انتهوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر ،
وبنى للجند الذين سكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقها واصطبل ،
والعرافة عشرة نفر إلى ثمة عشر رجلا ، وبني لها مساحدة على بعد ثلاثين ميلا

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

منا ومسلحة على نهر قباقيب الذى يصب فى الفرات . ثم أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم ، ووضع فيها شحنتها من السلاح ، وأقطع الجند المزارع ، كذلك بنى حصن قلوذية . وفى سنة ١٤١ أقبلى إليها محمد بن إبراهيم فى جند من أهل خراسان ، فربط بها حتى لا يطمع فيها البيزنطيون ، ولهذا السبب اجتذبت المدينة عددا من السكان المدنيين ، ورجع إليها من كان باقيا من أهلها (١) .

وفى سنة ١٤٢ ، بنيت مدينة أذنة وعسكر عليها جند من الحراسانيين مع مسلم بن يحيى البجلي ، وجند من الشاميين مع مالك بن أدهم الباهلي ، وجهما صالح بن على العباسي لهذا الغرض (٢) . كذلك أتم صالح بن على ترميم حصن مرعش بعد أن خربته القوات البيزنطية إبان الفتنة التى قامت زمن مروان بن محمد ، وحصن صالح بن على هذا الحصن وندب الناس إليه على زيادة العطاء .

وهكذا نظم صالح بن على بتوجيه من المنصور مناطق الثغور وحصنها وحدد أسلوب القتال وتقاليده من صوائف وشواقى ، ووضع بذلك حدا لمطامع قسطنطين الخامس . وظلم فى أيامه قائد من قواد العرب العظام هو مالك بن عبد الخشمى ، غزا بلاد البيزنطيين فى سنة ١٤٦ وغنم غنائم كثيرة وأبلى بلاء حسنا فسمى لذلك بمالك الصوائف (٣) .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

(٢) البلاذرى ج ١ ص ١٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٢٧ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٦ .

في خلافة المهدي : وتابع المهدي نفس سياسة أبيه من حيث الاستقام
ببناء الحصون الثغرية وشحنها بالاجناد ، فحصد طرسوس وشحنها بالمقاتلة
وكانت خرايا وأمر الحسن بن قحطبة ببناها ، كما أمره ببناء حصن الحدث ،
فبدأ بالحدث وانتهى بطرسوس (١) . وفرض المهدي بالمصيصة لآلاف رجل ،
وكانت الطوالع تأتيها من أنطاكية كل عام إلى أن وليها سالم البرلسي (٢) .

وفي عهد المهدي ، سجد الإمبراطور ليسو الرابع المعروف بالغزري
(٧٧٥ — ٧٨٠) حملة ضد سميساط في سنة ١٥٩ (٧٧٦ م) ، فرد عليه
المهدي بحملة قوية بقيادة العباس بن محمد بلغت أنقرة (٣) . ولكن البيزنطيين
خرجوا في عام ١٦١ بقيادة ميخائيل (لعله ميشيل العموري قبل أن يرتقى
العرش) من درب الحدث في ثمانين ألفا ، فأتى حمق مرعش فقتل وسبى من
المسلمين عددا كبيرا وأحرق ما قابله من همران ، وما زال يعمق في الغزو حتى
وصل إلى مدينة مرعش ، وبها عيسى بن علي وكان قد غزا في تلك السنة ،
فحاصر ميشيل مرعش ، وعندئذ خرج إليه موالى عيسى وأهل المدينة ومقاتلتهم
فرشقوه بالنبال والسهم ، فظاھر بالانزعاج ، ثم كر عليهم فقتل من موالى
عيسى ثمانية نفر واعة صسم الباقون بالمدينة ، فحاصروهم بها ، ثم رفع الحصار
ومضى إلى جيمحان . وبلغ الخبر ثمانية بن الوليد العبسي وهو مقيم بدابق ، وكان
قد تولى قيادة الصائفة سنة ١٦١ ، فوجه إلى ميشيل خيلا كثيفة ، فأصيب
البيزنطيون إلا من نجى منهم (٤) .

(١) البلاذري ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٧ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١ .

(٤) البلاذري ص ٢٢٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٥ .

وأغار البينظليون على حصن الحدث في العام الثقال فهدموا سورته (١) ، وكان الخليفة قد وجه الحسن بن تخطبة بالصائفة لمساح في بلاد الروم وثقلت وطأته على أهلها حتى إنهم صوروه في كنائسهم وسموه للثنين ، ومرض الحسن في غزوته عبر درب الحدث ، فشاهدوا خربة ، فحدث المهدي في بنائها وبناء طرسوس وذلك عقب عودته من الغزو ، فأمر المهدي بتقديم بناء الحدث ، فأعيد بنائها سنة ١٦٩ وسميت الحمديّة أو المهديّة ، وفرض على ابن سليمان لمدينة الحدث لأربعه آلاف فأسكنهم فيها ونقل إليها إلى رجل من ملطية وشمشاط وكيسوم ودلوك ورهبان ، ولسكن الحدث لم تلبث أن تلت وتشت بنائها ولم يتم ترميمها وتحصينها إلا في زمن الرشيد (٢) .

وفي سنة ١٦٣ تمهز المهدي لغزو بلاد البينظليين ، فخرج على رأس جيش كثيف ، واستمع مع ابنه هارون ، ثم عبر الفراه إلى حلب ، ومضى هناك عهد إلى ابنه هارون بمواصلة الغزو ، وسير معه بصحبه يحيى بن موسى وعبد الملك ابن صالح والربيع الحاجب والحسن بن قحطبة والحسن وسليمان ابنا برمك ويحيى ابن خالد بن برمك ، وخرج المهدي مع الحملة مودعا لابنه هارون حتى قطع الدرب وبلغ جيحان وارتاد بها المدينة المسماة المهديّة ، وعندئذ ودع هارون عند نهر جيحان وعاد إلى حلب ، أما هارون فقد تابع حملته حتى نزل على حصن سمالو فحاصره ٣٨ يوما ونصب عليه المجانيق وفتحه بالأمان (٣) ، كما فتح فتوحا أخرى كثيرة . وفي العام الثقال أغزى المهدي عبد الكبير بن عبد الحميد بن

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٨ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٠٢ — الطبري ، ج ٩ ص ٣٤٥ — ابن الأثير ،

عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحادث ، فتصدى له ميخائيل البريق وطا زاد الارمنى البطاريق في نحو من تسمين ألف مقاتل ، فدب الرعب في قلب عبد الكبير ، وخاف أن يشترك مع البيزنطيين ، فنع الناس من القتال ، وعاد بهم فأراد المهدي قتله ، فشفع فيه ، فاكتمى بحبسه في المطبق (١) .

وعزم المهدي في العام التالي (١٦٥ هـ) أن يسير أبنة هارون إلى بلاد الروم كرد فعل لراجع عبد الكبير . ففي هذه السنة ، وجه المهدي الصائفة يوم ١١ من جمادى الآخرة بقيادة هارون لنزو بلاد الروم ، وخم إليه الربيع مولا ، فتوغل هارون في بلاد الروم ، فافتتح مابدة وتمددى له البيزنطيون بقيادة نقيطا Niceta قومس القوامسة ، فبارزه يزيد بن مزيد الشيباني فأخذته بالجراح ، والمهزم البيزنطيون ؛ وواصل هارون توسمه في قلب آسيا الصغرى متجهاً إلى القموودية (نيقوميديا) ليحارب الدمشقي صاحب المسالح ، وكانت عدة جيش هارون ٩٥٧٩٢ مقاتلاً ، ومازال يحد في زحفه حتى خليج القسطنطينية ، وكان لإمبراطور بزنطة في ذلك الوقت أيرين أرملة ليو الرابع والوصية على ابنها قسطنطين السادس . ويحبر الطبرى عن ذلك بقوله : حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية وصاحب الروم يومئذ أغسطس امرأة أليون ، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها ، (٢) . وخافت أيرين أن ينجح المسلمين في التملب على القسطنطينية العظمى ، وآثرت أن تشتري سلم المسلمين بالجزية ، فجرت بينهما وبين هارون الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة ودفع

(١) البلاذرى ، ص ٣٤٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٣ .

(٢) ويرجع اليعقوبى تاريخ هذه الفترة إلى سنة ١٦٤ خطاً ، في حين يحدده البلاذرى سنة ١٦٥ (انظر اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٩٦ — البلاذرى ، ج ١ ص ١٩٩) وكان ذلك بما أورده كل من الطبرى ، ج ٩ ص ٢٤٧ — ابن الأثير ج ٦ ص ٦٦) .

الجزيرة، فقبل هارون ذلك منها، واشترط عليها والبقاء بما أعطت له وأن تقيم له
الأدلاء والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا يخوفا على المسلمين،
فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون
ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران، فقبل ذلك منها،
فأقامت له في الأسواق في منصرفة ووجهت معه رسولا إلى المهدي
بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والنضة والمرضى، وكتبوا كتاب
الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الأسارى، (١).

وفي هذه النزوة الموفقة يقول الشاعر مروان بن أبي حفصة:

أطقت بقمسطينية الروم مسندا . . إلهما القنا حتى اكتسى الذل سورها
ومارستها حتى أنتك ملوكها . . بجزيتها والحرب تغلق دورها (٢).

في خلافة الرشيد: وهكذا أثبت هارون الرشيد أنه لم يكن الخليفة اللاهى
العابث كما تصوره القصص والروايات، وإنما أوتي من بعد النظر واتساع الأفق
وحسن القيادة ما جعله يظفر بما ظفر به من انتصارات، وإليه يرجع الفضل
الاعظم في تحصين منطقة الثغور وإنهاء منطقة العواصم في أول خلافته،
والعواصم منطقة ثغرية جديدة تضم قسما من أرض الفرس والجزيرة، فصلها
عن الثغور جميعاً وجعل قاعدتها منبج، ورتب لها جيشاً ثابتاً على طول
الحدود (٣). وفي سنة ١٧٠ أمر الرشيد هرثمة بن أعين قائد الصائفة لعام ١٧١
بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها، فعهد هرثمة إلى فرج بن سليم الخادم بعمارتها،
فلما أتم بناءها وحصينها وبناء مسجدها نزلتها فرقة أولى خراسانية قوامها

(١) الطبري، ج ٩ ص ٣٤٧ — ابن الأثير، ج ٦ ص ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ .

(٣) ابن الأثير، ج ٦ ص ١٠٨ .

ثلاثة آلاف رجل وفرقة ثانية تضم ألف رجل من أهل المصيصة وألفاً آخر من أهل أنطاكية ، زيد في عطايتهم عشرة دنانير لكل منهم ، وأقطع أهل طرسوس الحطاط في شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (١) . كذلك أمر الرشيد في سنة ١٨٠ ببناء مدينة عين زربة وتحصينها ، وندب إليها ندية من أهل خراسان وغيرهم فأعطاهم منازلها (٢) ، كما أمر في سنة ١٨٤ ببناء الحارونية التي نسبت إليه فبنيت وشغنت بالمقاتلة ومن نرح إليها من المطوعة ، كما أمر ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب إليها المقاتلة (٣) .

ولم تنقطع غزوات المسلمين عن بلاد البيزنطيين في عهد الرشيد ، وذلك بعد انتهاء فترة الهدنة ، وأهم الغزوات التي قام بها المسلمون في هذه المرحلة غزوة قام بها الرشيد في سنة ١٨١ ، من نتائجها افتتاح حصن الصفصاف . وفي نفس السنة غزا عبد الملك بن صالح آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وافتتح مطورة (٤) .

وفي سنة ١٨٢ (٧٩٧م) غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح بالصائفة ، فبلغ أفروس (٥) . وفي هذه السنة انقلبت الإمبراطورة أيرين على ولدها قسطنطين السادس وأمرت بالقهض عليه وسمل عينيه ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : « وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون ، وأقروا أمه

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) البلاذري ، ص ٢٠٢ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

(٤) ابن الأثير ، ص ١٥٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

ويعني وثلقب أغسطس، (١). وواجهت أيرين عند توليها العرش حكيماً من
الصحوبات وأهمها غزوات المسلمين في أراضيها بآسيا الصغرى، فاضطرت لكي
تتفرغ لمشكلاتها الداخلية والخارجية الأخرى أن تتقدم مع الرشيد معاهدة
صلح مماثلة للمعاهدة الأولى مقابل جزية سنوية تدفعها. ولكن العسكريين في
بزنطة قاموا بحركة انقلاب ضد أيرين في أكتوبر سنة ٨٠٢ آخر سنة (١٨٦ هـ)،
فخلعواها واختاروا نقفور الأول القيم على الخزانة الإمبراطورية
إمبراطوراً (٢)، وشغل نقفور في عامه الأول ببعض المشاكل الداخلية، فاستغل
المسلمون هذه الفرصة وزحف القاسم بن الرشيد - وكان أبوه قد هينه أمهرا
للعوامم - في آسيا الصغرى وذلك في شعبان من سنة ١٨٧ هـ، فترك على حسن
قرة Corum، ومن هناك سير القائد العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث إلى
حسن سنان فحاصره حتى جهد أهله، ولكن قلة المياه والاقوات حملته على أن
يقبل الانحساب في مقابل أن يفرج البيزنطيون له عن ٣٢٠ أسيراً من
المسلمين (٣). ولكن نقفور بعد أن ثبت أقدامه، واستوثق له البيزنطيون
بالطاعة، كتب إلى الرشيد يتحداه، فقال: «من نقفور ملك الروم إلى هارون
ملك العرب، أما بعد. فإن المصلحة التي كانت قبل أقامتك. قام الرخ وأقامت

(١) نفس المصدر، ص ١٦١.

(٢) ومنذ أن تولى نقفور العرش نفس الهدنة وامتنع عن دفع الجزية التي كانت
تدفعها أيرين، ويعبر الطبري عن ذلك بقوله: «وفي هذه السنة نقض صاحب الروم الصلح
الذي كان جرى بين الذي قبله وبين المسلمين، ومنع ما كان ضمنه الملك لهم قبله. وكان
سبب ذلك أن الصلح كان جرى بين المسلمين وصاحب الروم، وصاحبهم يومئذ، في...
فبادت الروم مل ديني وخلعتها وملكت عليها نقفور. والروم تذكر أن نقفور هذا من
أولاد جفنة من غسان وأنه قبل الملك كان يل ديوان الخسراج، ثم ماتت ربي بعد خمسة
أشهر من خلق الروم لإياها، الطبري، ج ١٠ ص ٩٢.

(٣) الطبري، ج ١٠ ص ٩١ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٤.

نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيةاً بحمل أمالها إليك،
 لكن ذاك ضمف النساء وحمتهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من
 أموالها، وافقد نفسك بما يقع من المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.
 فلما قرأ الرشيد الكتاب استهزه الغضب، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :
 « بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد
 قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام » (١).
 ثم زحف على النور على رأس سحود كثيفة من الجند واقتحم منطقة الثغور
 محتاحاً ما يقابله حتى نزل على باب هرقة، ففتح وغتم وخرب وحرق، وأرغم
 نقفور على طلب مراد عمه وسأله على جزية سنوية يؤديها المسلمين، فأجابته
 إلى ذلك. وما كاد يصل الرشيد في منصرفه من الغزاة إلى الرقة حتى تقعن
 نقمور العهد ونحان الميثاق، وهو يظن أن المسلمين لا يهزون في الشتاء، فلما علم
 الرشيد بذلك كره أن يرضه ولم يرضه حتى بلغ ما أراد (٢).
 وفي العام التالي غزا إبراهيم بن جبريل العاتفة ودخل أرض الروم من درب
 الصفصاف، وفي هذه الغزاة قتل من البزنطيين فيسما قيل أرمدون ألفاً
 وسبعمائة (٣).

وفي سنة ١٨٩ (٨٠٥ م) تم أول فداء جرى بين المسلمين والبزنطيين في
 العصر المباني ببلدة اللامس الواقعة على بعد نحو ٣٥ ميلاً من طرسوس في

(١) نفس المصدر، ص ٩٢ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٥.

(٢) الطبري، ج ١ ص ٩٣، ابن الأثير، ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٥ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٩٠.

خلافة الرشيد ، وكان الإمبراطور البيزنطي وقتئذ هو نقفور بن استراتي (نقفور بن ستوراكيوس) . ومثل الدولة العباسية في القداء أبو سليم فرج خادم الرشيد ، وسالم البرلسي مولى بني العباس في ثلاثين ألفاً من المرتقة وحضره من أهل الثغور ومن الأمصار نحو خمسمائة ألف ، قدموا في المسدد والحيل والسلاح ، وملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وقدمت مراكب الروم الحربية تحمل أسرى المسلمين وبلغ عدد من فودى به من المسلمين خلال ٢٢ يوماً ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير^(١) ، ولم يبق في بلاد بزنطة أسير مسلم إلا وفودى به .

ويبدو أن نقفور نكث عهده من جديد فامتنع عن دفع الجزية ، وسأول أن يستعرض قوته ، فخرج إلى عين زربة وكنيسة السوداء فأغار بقواته هناك وخرب عين زربة ، ولكن حامية المصيصة هاجموا قواته واسترجعوا معظم ما ظفر به من غنائم وأسرى وأسلاب^(٢) ، فوجه القاسم بن الرشيد وهو مقيم بدايق من حصن عين زربة وزاد في شجنتها^(٣) و غضب الرشيد لهذا الاعتداء وعزم على تأديب نقفور ، فخرج في سنة ١٩٠ (٨٠٦ م) على رأس جيش ضخم هدمته ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع والمطوعة ومن لا ديوان له ، وافتتح هرقة في شوال وأخربها وسبي أهلها وذلك بعد شهر واحد من الحصار ، وبث السرايا والجيوش في داخل الأراضي البيزنطية ، فافتتح قائده شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصنابلية ودبسة ، وافتتح يزيد بن غنك الصنصاف

(١) المسعودي ، الفتيه والإشراف ، بغداد ، ١٩٣٨ ، ص ١٦٠ ومايليها .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٩٨ — البلاذري ، ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ٢٠٣ .

وملقوية ، وزحف الرشيد إلى الطوانة Tyana فحسكرها ، لي وحل عنها
بعد أن خلف عليها عقبة بن جعفر وأمره ببناء منزل بها (١) . وأبدى نقفور
جزءه عن مواجهة جيوش المسلمين لانشغاله بمحاربة البلغار واستعداداته لخلقه
التي خرج فيها إلى أدرنة (سنة ٨٠٧ م) ، واضطر لذلك إلى طلب الصلح ،
وأرسل إلى الرشيد بالجزية وقدرها خمسون ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة
دينار وعن رأس ابنه استيراق (ستوراكيوس) دينارين ، وأهدى إلى
الخليفة مائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بريون واثني عشر بازيا ، وأربعة من
كلاب الصيد ، وثلاثة براذين ، وعقدت معاهدة للصلح اشترط فيها نقفور
على الخليفة ألا يخرب حصون ذى الكلاع وصمعة وسنان فيميدا إلى بزنطة
سالة ، كما اشترط عليه الرشيد ألا يهزم هرقة وعلى أن يحمل نقفور إليه ٣٠٠
ألف دينار (٢) .

وشغل الرشيد بخراسان ، فانتهر نقفور هذه الفرصة ونقض معاهدة الصلح
من جديد ، فسير الرشيد لنزو الصائفة لعام ١٩١ هـ قائده هرثمة بن أعين على
رأس جيش يتألف من ثلاثين ألف محارب من جند خراسان ، ثم مضى الرشيد
إلى ضرب الحدث ، فرتب عليه عبد الله بن مالك ، وعهد بمرعش إلى سميد بن سالم
ابن قتيبة . وحدث أن أغار البيزنطيون في هذه الآونة على مرعش ، وأصابوا
فيها عددا من المسلمين (٣) .

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٩٩ .

(٢) أغلب الظن أن هذا المبلغ هو جلة المبالغ التي تأخر في سدادها من قبل
مرعش الدولة البيزنطية .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ١٠٠ .

وفي سنة ١٩٢ كان الفداء الثاني باللامس ، وكان القائم بالفداء من جانب المسلمين ثابت بن نصر بن مالك الحزاعي أمير التنفور الغامية ، وحضر الفداء مئات الألوف من الناس ، وفودى في هذا العام من المسلمين في سبعة أيام نحو ألفين وخمسمائة رجل وإمرأة (١) .

ثم توفي الرشيد في ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٩٢ ، وشغل المسلمون عن غزو البزنطيين بفتنة الأمين والمأمون ، كما شغل البزنطيون عنهم بحرب البلغار ومصرع نقفور الأول في ١٩٤ (٨١١ م) (٢) ، وتولى ستوراكيوس ثم ميخائيل رانجاني صهره في نفس السنة ، ثم عزل هذا الأخير (في سنة ٨١٢) على يد ليو الأرمني الذي اعتلى العرش الإمبراطوري (في الفترة من ٨١٣ إلى ٨٢٠ م) .

في عصر المأمون : وتوقفت الاحمال الحربية والنارات الإسلامية في أراضي
بينظمة إبان فتنة الأمين والمأمون ، إلى أن أحاد المأمون وحدة الدولة ، وبدأ يتفرغ لمواجهة البزنطيين . وكان ميخائيل الثاني العدوي قد وثب بليو الأرمني وذبحه ذبحاً في سنة ٨٢٠ م وارتقى مكانه على العرش ، ولكن أحد زملائه في الجيش ويدعى توماس الصقلي ثار عليه في الفترة من ٨٢١ إلى ٨٢٣ م ، وتعتبر هذه الثورة من أهم الأحداث البارزة في تاريخ بينظمة في القرن التاسع الميلادي ، وكان توماس هذا قد اشترك في سنة ٨٠٣ في ثورة بردانيوس على نقفور

(١) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦١ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٠٩ ؛
وقيل بالبدندون Pondendos وليس باللامس (الطبري ، ج ١٠ ص ١٠٩) .
(٢) يحدد الطبري (ج ١٠ ص ١٣٨) وابن الأثير تاريخ الولا خطنا في سنة ١٩٣ هـ
(ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٢٦) .

الأول ، فلما فشلت هذه الثورة فر توماس إلى بغداد وأقام في حمى الخليفة إلى أن اعتلى المأمون الخلافة في سنة ٨١٢ (١٩٨ هـ). فلما قتل ليو الأرمي في سنة ٨٢٠، استغل توماس الفرصة للقيسامة بثورته على ميشيل العموري مدفوعاً في ذلك بنبوءة بمقتضاها يرتقى إلى العرش الإمبراطوري ، فاستولى على بعض نواحي أرمينية وبلاد بنطس الشرقية ، واجتذبت حركته الجماهير البائسة من سكان آسيا الصغرى وذلك منذ أن نادى بأنه محرر الفقراء من الظلم . وانتهز المأمون هذه الفرصة فأمدّه بقوات إسلامية من عناصر مختلفة بعضها من العرب والبعض من الفرس والآرمين والكرج ، إذ كان يدرك أن بإمكانه اصطناع توماس والإفادة من ذلك ببعض المكاسب الاستراتيجية ، فلم يتردد المأمون في عقد حلف مع توماس تعهد فيه بأن يزوده بمشيش قوى يمينه على محاربة ميشيل ، كما أمر المأمون بطريق أنطاكية - واسمه أيوب - بأن يتوج توماس إمبراطوراً . ولكن تأييد المأمون لتوماس مادياً وعسكرياً لم يلبث أن فتر بسبب انشغاله بثورة خطيرة هي ثورة الحرمية البابكية ، ولذلك لم يكتب لثورة توماس أن تنتصر ، وفشلت بمصرعه في سنة ٨٢٣ م . ثم شغل ميشيل بحادث آخر نقص عليه البقية الباقية من حياته ، وهو سقوط إقريطش في أيدي غزاة البحر الاندلسيين ، ونزول الأغالية في صقلية وذلك في سنة ٨٢٦ م (٢١٢ هـ) .

فلما تولى تيوفيل بن ميشيل العرش (٨٢٩ - ٨٤٢) بعد أبيه ، رأى في ثورة الحرمية البابكية سيفاً مسلطاً على الدولة العباسية ، ولم يكن قد نسى بعد موقف المأمون من ثورة توماس الصقلي على أبيه ميشيل ، ولهذا السبب احتضن تيوفيل أتباع بابك الحرمي وفتح لهم أبواب بلاده في زمن المأمون ، وكان من الطبيعي أن يتحرك المأمون للرد على هذا العدوان ، ففي المحرم سنة ٢١٥ هـ (٨٢٠ م) غزا الصائفة بنفسه ، فسار إلى منبج ثم إلى دابق فأنطاكية ،

- ٢٢٩ -

فالمصيصة فطر سوس ومنها تعمق في الاراضى البيزنطية ، كما دخل ابنه العباس اراضى بيزنطة من ملطية ، فأقام المأمون الحصار على حصن قره (١) حتى فتحه عنوة وهدمه كما فتح حصن ماجدة بالامان ، وسير أشناس القائد إلى حصن سندس ففتحته وظفر بالقيم عليه ، ووجه جديفا وجمعرا الحياط إلى حصن سنان فأطاعها صاحب الحصن . ثم قفل المأمون عائدا من غروته إلى دمشق ومنها إلى مصر (٢) عندما بلغه أن أهل البشروء الاقباط قد ثاروا ، وذكر الطبرى أنه لقي ابنه العباس ومعه منويل برأس المين وذلك بعد أن عاد من مصر ، والظاهر أن منويل هذا هو نفس مانويل البطارىق الذى ذكره اليعقوبى وأشار إلى أنه أحد قواد بيزنطة الكبار ، فر هارباً من أنقرة ولاذ بالمسلمين (٣) .

واستغل تيوفيل فرصة قفول المأمون من الصائفة وهاجم الثغور الشامية ، فقتل من أهل طرسوس والمصيصة ألفاً وستائة ، ولهذا السبب عاد المأمون لنزول بلاد البيزنطيين في عام ٢١٦ هـ (شهر جمادى الأولى حتى منتصف شعبان) . وذكروا أن سبب دخوله الاراضى البيزنطية إنما يرجع إلى أن تيوفيل كتب إليه ياداً بنفسه (٤) ، فاستاء من ذلك وتوغل في أرض الروم حتى نزل على

(١) يذكر اليعقوبى أنه افتتح ألقه نصفاً بالسيف ونصفاً بالصلح وأخربها وهرب منها للبطارىق مانويل (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٥) .

(٢) الطبرى ، ج ١٥ ص ٢٨٠ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١٩ .

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٤) ذكر اليعقوبى أن تيوفيل عاد إلى الكتابة إليه مقدماً اسم المأمون على اسمه ، وسأله أن يعزل عنه مائة ألف دينار وسبعة آلاف أسير مسلم بغير أن يدع لبيزنطيين ما افتتحه من مدن الروم وحصونهم ، ويكلف عنهم الحرب خمس سنين ، ولكن هذا العرض لم يلق قبولا من المأمون (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٦) .

أنطونيوا فدخلها صاحبا ، ثم سار إلى هرقلة ، فخرج أهلها على صلح . ووجه
أخاه المنتصم فافتتح ثلاثين حصنا وعلموه (منها ١٢ حصنا البقية مظلما
أي نقاط حصنة) ، كما وجه يحيى بن أكتم من طوالة فأغار على النواحي المجاورة
وقتل وأحرق ما صادفه من عمران ، وقفل المأمون بعد ذلك إلى دمشق (١) .
وفي العام التالي (٢١٧ هـ) عبر المأمون العروب الشريعة إلى أراضي بينظية ،
فنزّل على لؤلؤة وحاصرها مائة يوم أقام خلالها حصنين أول فيهما أخاه المنتصم ،
ثم رحل عنها بعد أن ترك عليها عجيفا بن عنبسة ومضى هو إلى قرية يقال لها
سلنوس ، فكر أهل لؤلؤة بهجيف ، فوقع له أيديهم وأسروه ، فكث في أيديهم
شبرا ، وكانوا يوفيل فأقبل إليهم فهزمه المسلمون بالحصنين وظفروا بهسكره
فاحتوا على ما كان به ، فلما طال الحصار بأهل لؤلؤة اتفقوا مع عجوف أن
يخلوا سبيله على أن يؤمن لهم أرواحهم فأطلقوه ، وافتتح المسلمون الحصن
على الأمان (٢) . وفي هذه السنة كتب يوفيل إلى المأمون يسأله الصلح ، وجاء من
فقرات هذا الكتاب :

... وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المصالحة راغبا في فضيلة المهادنة
لتضع أوزار الحرب عنا وتكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع
اتصال المرافق والنسج في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة ، فإن
أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا أنخرف لك في القول ، فإن الخائن إليك
غمارها ، آخذ عليك أسدادهما ، فمان خيلها ورجالها ، وإن أفضل فبعد أن

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٨١ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١٩ ،

(٢) البغدادي ، ج ٢ ص ٤٦٧ - الطبري ، ج ١٠ ص ٢٨٣ - ابن الأثير ، ج ٦

٢٢١ -

قدمت المعذرة ، وأقت بيني وبينك علم الحجة والسلام . . فرد عليه المأمون قائلاً :

« أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوتك إليّ من المهادنة ، وغلطت فيه من اللين والشدّة بما استعطفك به من شرح المتأجر واتصال المرافق وفك الأساوى ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التوبة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة . . . لجلعت جواب كتابك لخيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن نكلكم ، ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل لهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد ، هم أظلموا إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم ، موعدكم إحدى الحسينين . عاجل غلبة ، أوكريهم منقلب . غدير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي بثت الله بها عليكم الحجة من الدماء الك ولين معك إلى الوجدانية والشرعية الحنيفية ، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتشوش نظرة ، وإن تركت ذلك ففي يقين المعايينة لنموتنا ما يغنى عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من أتبع الهدى» (١).

وفي سنة ٢١٨ هـ وجه المأمون ابنة العباس إلى أرض الروم ، وأمره بنزول الطوافة وبنائها ، فابتدأ البناء على مسطح مساحته ميل في ميل ، وجعل لها أربعة أبواب ، وبنى على كل باب منها حصناً ، ثم أمر بأن تسمكنها فرق استقدمت من أجناد دمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر والجزيرة (٢) .

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

وفى نفس هذا العام عزم المأمون على غزو بلاد الروم وضرب القسطنطينية نفسها ، ويذكر اليعقوبي أنه قال : « أوجه إلى العرب فألقى بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة أفتمتحتها حتى أضرب إلى القسطنطينية » (١) . فأناه رسول من الإمبراطور تيوفيل يدعوه إلى عقد الصلح والمهادنة ، فلم يقبل هذه الدعوة ، وواصل المأمون زحفه حتى قرب من حصن لوازة ، فأقام أياما ، ثم نزل على نهر يقال له البندون يقع بين لوازة وطرسوس ، فاعتل هناك ، ثم توفي ، وحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس ، فدفنوا بدار سخاقان خادم الرشيد (٢) .

في خلافة المعتصم : شغل المعتصم منذ توليه الخلافة بحركة بابك وثورة الزط . وكانت الحركة البابكية قد استفحلت وأصبحت تشكل خطرا يهدد كيان الدولة العباسية ، فسخر المعتصم كل قواه العسكرية لضرب هذه الحركة وتوقف عن غزو بلاد الروم . فلما جرد المعتصم جيوشا ضخما بقيادة الأفشين وأيتاخ وجهنر الخياط للقضاء على بابك ، أرسل بابك إلى تيوفيل يحرضه على مهاجمة أراضي المسلمين مستمعا من ذلك أن يخفف الضغط عليه ، فاستجاب تيوفيل لندائه وخرج سنة ٢٢٢ في جيش عدته أكثر من مائة ألف د منهم من الجنود ييف وسبعون ألفا و بقيتهم أتباع ، و معهم من الحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال ، فلاحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب جماعة رئيسهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصبيهم مقاتلة يستعين

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٩٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٣٢ .

بهم في أهم أموره إليه (١). وذكر المسعودي أنه اشترك في جيش تيوفيل
وملوك برجان والبرغر (البغار) والعتالية، (٢)، وزحف تيوفيل بهذا الجيش
الضخم إلى زبطرة قاعدة الشفور الجزرية، فافتتحها بالسيف وقتل الصنف
والكبير وسبي النساء والذراى، وأحرق المدينة ودمر ممراتها، ومثل بمن ظفر
به من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم (٣)، ثم أغار تيوفيل على
المناطق المحيطة بها وعلى بلاد ملطية وحاصر شمشاط وأحرقها، فضج الناس
في الأمصار، واستنابوا في المساجد والديار، ودخل إبراهيم بن المهدي على
المتعمم فأثبته قائما قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بمن وحققنا ويحضنه على
الانتصار ويحثه على الجهاد، فنها:

يا غارة الله قد طابت فانتهمي . . . هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على أجرامها قتلت . . . ما بال أطنا لها بالذبح تلتهب

فخرج المتعمم من فوره نافرا، عليه دراعة من الصوف بيضاء، وقد تعمم
بمهمة النزاة فمسكر في غرب دجلة، وذلك يوم الإثنين ليلتين خلتا من جمادى
الأولى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ونهبت الأعلام على الجسر، ونودي في
الأمصار بالنفور والسير مع أمير المؤمنين، فسارت إليه المساكر والمطوعة
من سائر الإسلام، (٤). ويذكر ابن الأثير أنه بلغه أن امرأة هاشمية صاحبة
وهي أسيرة في أيدي الروم: وامتصاه! فأجابها وهو جالس على سريره:

-
- (١) نفس المصدر، ج ١٠ ص ٣٣٤ - ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٧٩ .
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٧٢ .
(٣) البيهقي، ج ٢ ص ٤٧٢ - الطبري، ج ١٠ ص ٣٣٥ - ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٧٩ .
(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٧٢ .

- ٢٢٢ -

لييك لبيك ، ونهض من ساعته وصاح في قصره : النفير النفير . . . (١) .
 وذكر اليمقون أنه لما انتهى خبر ما اجترمه تيوفيل قام من مجلسه نافرا ، حتى
 جلس على الأرض وندب الناس للنزو (٢) . ثم خرج المعتصم في العدد والعدة
 مجهزين لم يجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وسياض الأدم
 والبنال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ، ثم جعل على مقدمته أشناس
 ويلييه محمد بن إبراهيم وجعل على يمينه إيتاخ وعلى يساره جعفر بن دينار
 الحياط ، وعلى القلب عفيف بن عنبسة (٣) . وتحرك المعتصم من مدينة سامرا
 في ٦ جمادى الأولى سنة ٢٢٣ (أبريل ٨٢٨م) بجيش اختلفوا في تقدير أعداد
 عسكريه بين مكثر ومقل ، فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقل يقول مائتي ألف .
 فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر اللامس وهو بسوقية بالقرب من طرسوس ،
 وهناك أقام بعض الوقت وقسم الجيش إلى ثلاثة جيوش كل بمها يسير من جهة
 معينة على أن تلتقي الجيوش عند أنقرة ، فأمر الأفشين أن يمضي إلى سروج عبر
 درب الحدث وسير أشناس عبر درب طرسوس وأمره أن ينتظره بالانصاف ،
 ثم قدم المعتصم وصيفا بعد رحيل أشناس . أبا المعتصم فرحل بعد يومين من
 رحيل أشناس ، وكتب إلى أشناس يأمره أن يبعث فرقة من طلائع الجيش
 يلتقسون رجلا روميا لينتجوه على خط سير الإمبراطور تيوفيل .

وفي هذه الأثناء اتبع الأفشين طريق سيواس بعد أن عبر الحدث من ناحية
 الأرمنيقي ، وعلم الإمبراطور بسيره ، فاستخلف ابن خاله على عسكريه لإحاطة

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٨٠ .

(٢) الطبري ، ج ٧ ص ٤٧٥ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٣٥ - المعزدي ، ج ٣ ص ٤٧٢ .

زحف المتصم ، ومضى هو بمعظم الجيش البيزنطى فى اتجاه الأفشين . وكان
أشناس قد أسر عددا من عسكر الإمبراطور وأستجوبهم ، فعرف منهم وجهة
الإمبراطور ، فسيرهم أشناس إلى المتصم ، فكتب إلى الأفشين يحذره من مسير
تيوفيل إليه وإمره بأن يتوقف عن الزحف ، ولكن للكتاب لم يصل إلى
الأفشين الذى اشتبك مع تيوفيل بمعظم جيشه قرب دازيمون فموقعة عنيفة
انكشف فيها تيوفيل ومن كان معه من المحمرة عن كان استأمن إليه من أذربيجان
والجبال (١) ، وانتهت هزيمة ساحقة لجيش تيوفيل ، وانفتح على أثرها الطريق
أمام الأفشين إلى أنقرة حيث يتم لقاء الجيوش الإسلامية . وأمام أنقرة اجتمعت
الجيوش الثلاثة فوجدها المتصم جيشاً واحداً ، جعل أشناس على الميسرة
والأفشين على الميمنة ، واحتفظ المتصم بالقلب ، ثم انقسم كل من الميسرة والميمنة
والقلب إلى سافتين مهمنة وميسرة فرعيتين .

وكانت أنقرة قد أخليت ، وأمر تيوفيل بتركيز الدفوع فى عمورية تحت قيادة
خاله ياطس Aetius ، أما هو فقد رحل إلى القسطنطينية ليتأهب للدفاع
عن حاصته .

أما المسلمون فقد دخلوا أنقرة ، وأنزلوا بها الدمار والحراب ، ولما تم لهم
ذلك زحفوا بكل عيالهم وعدتهم نحو عمورية مسقط رأس الأسرة
الإمبراطورية الحساكية وعين النصرانية ، فحاصروها وتولى كل قائد

(١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٤٤ . وقيل فى هذه الموقعة أكثر بطارية
الإمبراطور وأعظم قواده . وذكروا أن تيوفيل أرسل بعد هزيمته رسالة إلى المتصم
يشتد فيها عن مذابح زهرة ويؤكدها أنها حدثت على غير رغبته ، ويخبره بأن يقوم بقتلهم
ويطلق سراح من سبي من أهلها وإطلاق جميع الأسرى ، على أن يتسدد الملح . ولكن
المتصم رفض مقابلة رسوله حتى سقطت عمورية (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٧٦) .

منهم مسؤولية ما بين السبرجين إلى عشرين برجاً من أبراج أسوارها ، ولهم رجل من المسلمين كان قد أسره أهل عمورية ونصر وتزوج فيهم ، ولهم على نفرة في سور المدينة قد بنيت على عجل بناء غير محكم ، فأمر المتصم فنهض بخيجه في ذلك الموضع ، ونصب الحائيق على ذلك البناء ، فتفتح السور من موضع الشفرة ، وحارل أهل عمورية أن يسدوا الشفرات بكمل الحشب ، ولكن محاولاتهم أخفقت لكثرة ضربات الحائيق وتواليها ، فكتب ياطس إلى تيوفيل والقسطنطينية يبلغه بسقوط جزء من السور وأن عسكر المسلمين قد أحاطوا بالمدينة في جموع كثيفة ، وأنه أخطأ بدخول المدينة ، وأنه قد اهتزم على أن يفتح أبوابها ليلاً في غفلة من المسلمين ويخرج دفعة واحدة بقواته مجمعة حتى يتخلص من الحصار ، ولكن الكتاب وقع في يد المتصم وأدرك نوابا ياطس ، فأمر عسكره بالتيقظ والحذر ، وركز المجدوم على موضع الثلمة ، فكثرت المحاربات في عسكرين نقطة وتفشى فيهم القتل ، وأيقن القائد (١) المدعول من القطاع المثلث من السور بمعية المقاومة ، فمزم على التسليم (٢) ، فدخل المسلمون المدينة في ١٣ أغسطس بعد أسبوعين من الحصار ، ووقع ياطس أسيراً ، وأقام المسلمون عليها أربعة أيام يهدمون ويحرقون ويقتلون ، وتم قتل ٣٠ ألفاً من الحامية (٣) البيزنطية ومعها ثلاثين ألفاً آخرين . ويذكر المسعودي أن المتصم أراد السير إلى القسطنطينية والزول على خليجها والتحايل على فتحها براً وبحراً ، ولكن أثناء ما أزعجه ، ونهض عليه وداه إلى الدول عن خطته ، فقد بلغه أن

(١) يسميه المسعودي لاوى (ج ٣ ص ٤٧٢) .

(٢) راجع التفاسيل في الطبرى ، ج ١٠ ص ٤٤١ - ٤٤٣ : ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٨٠ - ٤٨٣ .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٧٣ - الشيبوطى ، ص ٣١١ .

العباس بن المأمون تأمر على قتله وأن جماعة من الناس بايعوه ، وأنه كاتب
تيوفيل (١) ثم قفل إلى طرمسوس وقد هدم عمورية وعنى آثارها ، وأمر بأخذ
باب حديدى من أبوابها ، فأحضره معه إلى بغداد ، ونصب على أحد
أبواب قصر الخلافة وعرف بباب العامة (٢) .

وكان للهزائم المتواصلة التى منى بها البيزنطيون فى عهد تيوفيل فى أنقرة
وعمورية ، بالإضافة إلى سقوط جريرت ، إقرطش وصقلية فى أيدي المسلمين
أثر كبير فى قيامه بإرسال ثلاثة وفود أو سفاراه : أحدها إلى لويس الثرى
إمبراطور الفرنجة يلتمس منه أن يمينه بجيش لمهاجمة مصر والشام بهدف
استنزاف قوة الخليفة العباسى ، والثانى برياسة قراطيدوس الرومى أرسله إلى
الأمير عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس المناهض للعباسيين يستحثه على
التعاون معه ضد الخليفة العباسى المعتصم والعمل على طرد جماعة الأندلسيين
الذين استولوا على إقرطش . والثالث أرسله إلى الهندية فى سنة ٨٤٠ لإقامة
حلف مع البنادقة ضد الأغالبة الذين استولوا على صقلية . ولكن هذه السفارات
لم تؤد إلى نتائج مثمرة .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا مدحه أبو تمام بتصديده المهم . ورة التى قال
فيها :

(١) نفس المصدر ، وذكر الطبرى أنه بلغه أن ملك الروم يرهب الخروج فى أثره .
(ج ١٠ ص ٣٤٣) .

(٢) ابن طباطبا ، ص ٢١٠ .

السيف أصدق أنباء من الكتب . . في حده الحد بين الجهد واللعب
والعلم في شهب الأرماع لامعة . . بين الخيدين لا في السبعة الشهب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت . . عنك المنى حفيلا معسولة الحلب
أبقيت جسد بني الإسلام في صعيد . . والمشركون ودار الشرك في صهب

في خلافة الواثق : وفي عهد الواثق انصرف الخليفة عن الغزو في أراضي
بيزنطة بمهاكل داخلية عديدة ، كما شغل البيزنطيون عن الإغارة في أراضي
المسلمين بسبب وفاة تيوفيل وتولية ابنه الصغير ميشيل الثالث ، وانشغال
البيزنطيين في عهد بالفتن الدينية ، خاصة الفتن المعروفة بفتنة فوتيوس .

وقد تم القضاء الثالث في عهد الواثق ويعرف بقضاء نسبة إلى خاقان
الحاكم التركي ، وحدث هذا القضاء في المحرم سنة ٢٣١ باللامس ، وكان عدد من
فودى من المسلمين في عشرة أيام ٣٦٢ أسدًا وقيل ٤٠٥٧ (١) وقيل أكثر
من ذلك (٤٦٠) . وفي هذا القضاء أخرج أهل زبطارة ، كما فودى مسلم بن
أبي مسلم الحرى وكانت له معرفة بأهل الروم ومساكنها ، وله مصنفات في
أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومساكنها
وأوقات النزول إليها والنارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك . وحضر هذا
القضاء من قبل أحمد بن أبي ذؤاد قاضى القضاة رجل اسمه أحمد بن سعيد
ابن مسلم الباهلي ، كان يمتحن الأسرى من المسلمين وقت المفاداة ، فمن
قال منهم بخلق القرآن ونفى الرؤية فودى به ، ومن أبى ترك بأرض الروم (٢) .

(١) السعوى ، الخبى والإشراف ، ص ١٦٢ .

(٢) السعوى ، التنبيه والإحراف ، ص ١٦٢ .

ويصف ابن الأثير عمليات الفداء ، فيقول : « اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على النهر ، وأنت الروم ومن معهم من الأسرى ، وكان النهر بين الطائفتين ، فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيأتيان في وسط النهر ، ويأتى هذا إلى أصحابه ، فإذا وصل الأسير من المسلمين كبروا ، وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا ، حتى فرغوا ، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربع مائة وستين نفساً ، والنساء والصبيان ثمان مائة ، وأهل ذمة المسلمين مائة نفس ، وكان النهر غاصة تعبده الأسرى ، وقيل بل كان عليه جسر ، (١) .

ولما فرغ المسلمون من الفداء ، غزا أحمد بن سعيد بن مسلم — وكان الواصل قد عقد له على الثغور والعواصم — شاتيا فأصاب عسكره تلج ومطر ، فمات منهم مائتا شخص وأسرى ما يقرب من هذا العدد ، كما غرق بنهر البندنون عدد كبير ، وعندما تصدى له جماعة من الروم يقودهم بطريق من البطارقة أحجم عن اللقاء فحرضه عسكره ، وحشوه على مواجهة الروم ، ففعل وغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ، وقفل عائداً ، فمزله الواصل واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي (٢) .

(١) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٥٠ .

(٢)

مع شارلمان

تفرد المصادر اللاتينية ^(١) دون العربية والشرقية بالإشارة إلى قيام صلات دبلوماسية بين الدولة العباسية والدولة السكارولنجية في عصر كل من الرشيد وشارلمان ، وقد أدى أفراد هذه المصادر اللاتينية بالإشارات المذكورة - على اضطرابها وغموضها - إلى قيام خلاف كبير بين المؤرخين المحدثين بشأنها ، فح أن جميع هؤلاء المؤرخين يقررون صحتها - باستثناء بارتول - فإياهم يختلفون في تفسير نتائج هذه الصلات . وإياها ما كان الأمر ، فلا بد قبل مناقشة الموضوع أن نذكر طبيعة هذه العلاقات وفقا لما روته المصادر اللاتينية .

تذكر المصادر اللاتينية أن شارلمان أرسل إلى الرشيد سفيرين الأولي في سنة ٧٩٧ والثانية في سنة ٨٠٢ . أما الأولي فقد كانت تتألف من شخصيتين هما سيمون وولانغريد ومن يهودى اسمه اسحاق مهمته تذهب في ترجمة ما كان يدور بين الخليفة هارون وبين السفهين . وقد أمضى السفهين ثلاث سنوات مانا خلالها بعد أن أنجزا مهمتهما ^(٢) . نيل أن هارون رد على

(١) هذه المصادر لا تعدو حكايات سنه اينهارد Einhard من حياة شارلمان Vita Caroli Magni Imperatoris ، والأخبار الملكية الفرنجية Annales Regni Francorum وأخيرا روايات الراهب سان كول الذي كتب بعد وفاة شارلمان بنحو خمسين سنة ، مستندا في رواياته على اينهارد . ومعظم روايات سان كول -طورية بينما يعيل اينهارد في كتاباته إلى الفخيم سيده . أما الأخبار الملكية فقطضية لانهين على تحديد طبيعة هذه الصلات .

(٢) كارلس ديفز ، شارلمان ، ص ٣٠٢ - مجيد خدوري ، الصلات الدبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان ، بغداد ، ١٩٣٩ ص ٢٥ - عبدالعزيز الدوري ، ص ١٥٠ .

هذه السفارة بسفارة إسلامية تتألف من مبعوثين أحدهما فارسي والثاني من أفريقية يمثل الأغلبية ، وصلا في سنة ٨٠٢ م ولحق بها إسحق اليهودي الذي حمل لشارلمان فيلا أهدها هارون الرشيد إليه (١) ؛ أما الثانية فقد أرسلها شارلمان إلى الرشيد في سنة ٨٠٢ ، وتشهد الأخبار الملكية إلى هذه السفارة دون أن تذكر أسماء السفراء ولا مهمتهم ، بينما يذكر لينهارد في كتابه عن حياة شارلمان أن سفراء الإمبراطور السكارولنجي حملوا معهم هبات لكنيسة القيامة وأنهم رحلوا بعد ذلك إلى الرشيد ، وعندما عرض السفراء عليه رغبات شارلمان أجابها دون تردد بل أوكل إلى شارلمان أمر حماية الأماكن المقدسة . وقد رد الرشيد على هذه السفارة بسفارة إسلامية وصات إلى بلاط شارلمان في سنة ٨٠٧ ، ويمثلها رسول من الخليفة اسمه عبد الله كان يحمل معه هدايا نفيسة لشارلمان منها صوان ملون بألوان متعددة وأواني نحاسية كعبدة وقطع من النسيج الإسلامي الفاخر وعطورا وشمعدان وسراقد ، وأنها ساعة مائية غريبة تدق الساعات ، وفي دأرتها ١٢ نافذة تخرج منها في الساعة الثانية عشرة فرسان تطلق بمد خرطومهم ثم تفتح من جديد ليمودوا (٢) ، كذلك وعند الرشيد أن يحمل تحت سلطان شارلمان بيت المقدس والضريح المقدس .

وينكر بارتولد قيام أية صلات بين الرشيد وشارلمان استنادا على الحقائق الآتية (٣) :

(١) ظل هذا القيل خلال ٩ سنوات أروع ما كان يزوان به مظهر الإمبراطور شارلمان الحرب ، وقد نطق في سنة ٨١٠ (ديقز ، ص ٢٠٣) .

(٢) ديقز ، ص ٢٠٣ - خدوري ، ص ٣٧ .

Bucklar, Harun al-Rashid and Charles the Great, (٣)
Massachusetts, 1931 .

١ - لا يعقل أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحق اليهودي أيضا أرسل سفراءه قبله دون أن يحملوا معهم أى هدية ، ولهذا يرجح أن إسحق المذكور لم يكن مزججا وإنما كان تاجرا .

٢ - سكوت المصادر العربية عن ذكر مثل هذه العلاقات يعنى نفيا قاطعا لقيامها .

٣ - أن العلاقات بين شارلمان والبيزنطيين كانت إبان السفارة الأولى (٧٩٧) حسنة ، ففي سنة ٧٩٨ أرسلت أيرين وفدا إلى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف ، واقترحت عليه الزواج .

على أننا رغم صمت المصادر العربية عن ذكر أى إشارة لأية علاقات بين الدولة العباسية زمن هارون الرشيد والدولة الكارولنجية أيام شارلمان نميل إلى قيام مثل هذه الصلات . فالأوضاع السياسية في العالم شرقيه وغريه منذ قيام الدولة العباسية بخلافة السفاح في سنة ٧٥٠ م والدولة الكارولنجية بتأويج يبين التصدي ملكا على دولة الفرنجة في سنة ٧٥١ م حتم قيام أحلاف دولية بين الدولتين ضد الدولة الأموية في الأندلس التي تعتبر في نظر خلفاء بنى العباس وغير شرعية والدولة البيزنطية التي أصبحت في نظر الكنيسة بسبب سياسة أباطرتها اللايقونية خاصة في عهد الإمبراطور الإيسورى قنسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) مما أدى إلى التجاء البسايروات إلى ملوك الفرنجة لمساعدتهم ضد هجمات اللومباردين ، وهذا كذا ساعدت الخصومات القائمة بين العباسيين والأمويين في الأندلس من جهة وبين الفرنجة والأمويين من جهة ثانية وبين الفرنجة والبيزنطيين من جهة ثالثة وبين البيزنطيين والعباسيين من جهة رابعة ، على التقاء أهداف مشتركة بين الأطراف المتنازعة ؛ فبينما تقارب مع قرطبة ، ومنداد تقارب

مع آخن . وإذا كانت الصلات السياسية بين الدولة البيزنطية والاموية في
الاندلس قد قامت متأخرة منذ سنة ٨٢٩ م ، فإن الصلات بين الدولة العباسية
والفرنجة سبقتها بهد طويل ؛ ففي سنة ٧٩٥ أوفد إيبين للقصر (٧٤٩ - ٧٦٨)
سفارة إلى بلاط الخليفة أبي جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) حادت بعد ثلاث
سنوات مصحوبة برسل من المنصور إلى إيبين ، يحملون إليه عددا من الهدايا (١) .
ونعتقد أن الهدف من هذه السفارة هو تأكيد الشعور بالتقارب السياسي
والاهداف المشتركة منذ أن أرسل المنصور إلى الأندلس القائد العلاء بن
صنيث اليحصبي في سنة ٧٦٣ (١٤٦ هـ) لقلب الحكم الاموي بحكم اشتراكها
في العداء لبني أمية في الأندلس ، ثم توقفت هذه العلاقات الرديئة بعد وفاة إيبين
القصر واستمرت راکدة حتى ظهور شارلمان ، والظاهر أن العلاقات الدبلوماسية
تهددت بينه وبين المهدي العباسي (٧٥٥ - ٧٨٥) استنادا على المؤامرة الكبيرة
التي تدخل بمقتضاها شارلمان حريبا في الأندلس ، وإن كانت المصادر اللاتينية
والعربية تلتزم الصمت عن تبادل السفارات في عهد هذين العاهلين ، فتدخل
شارلمان لا يمكن أن يتحقق ما لم يكن هناك اتفاق بينه وبين أصحاب المصلحة في
هذا التدخل وأحق بهم العباسيين الذين - بحكم بعد الأندلس عن م - ول أمهم -
اعتمدوا على الثوار والمعتزليين لتحقيق مآربهم ، بدليل أن أحد زلاء الثوار
وهو الرماحس الكفائي ، لجأ إلى بغداد بعد فشل ثورته ، وأن - بيان الأعرابي
اتصل بشارلمان ليدعوه إلى دخول الأندلس .

وفي خلافة الرشيد توترت العلاقات بينه وبين إيرين ، في الوقت الذي

(١) ورد على أبي جعفر المنصور بعد تأسيسه بغداد رسول من قبل الفرنجة يدعيه
الطبري « بطريقا من بطارقة الروم » وقد أمر المنصور وزيره الربيع بن يونس بأن
يطوف به بغداد (الطبري ، ج ٩ ص ٢٦٢ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤)

توثقت فيه الصلات بين شارلمان والبابوية وتدهورت بين البابوية وبين الدولة البيزنطية، وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على وجود تقارب واضح بين الرشيد وشارلمان، فالباپا كان يرغب في توثيق صلاته بكنائس القدس وأنطاكية والإسكندرية، فبشاركتهم ضد حركة اللايقونية، وهذه المشاركة دعتهم إلى مناصرة الفرنج ودعم نصيادتهم على الغرب المسيحي عن طريق تقوية شارلمان في سنة ٨٠٠ م إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة، وقد أثار ذلك سخطه لأن أباطرتها يعتبرون أنفسهم أحق من الكارولينجيين في وراثة الإمبراطورية الرومانية، وهم وحدهم أصحاب الحق الشرعي في تمثيل الإمبراطورية الرومانية (١).

ويحل بكل قيام المباسيين بنزو أراضي الدولة البيزنطية زمن هارون الرشيد والمأمون بانقطاع العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة والغرب وأن ما حدث في سنة ٨٠٦ من استيلاء شارلمان على البندقية ودلماشيا أي في الوقت الذي غزا فيه الرشيد أملاك بيزنطة في آسيا الصغرى ربما يشير إلى تحالف بين شارلمان وهارون، وأن هذا التحالف هو الذي أرغم الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني على الاعتراف بشارلمان إمبراطورا في سنة ٨١١ م (٢).

(١) مجيد خدوري، الصلات الدبلوماسية، ص ٢٠.

(٢) ديفز، شارلمان، ص ٣٠٣ — ١٧٠، Buckler, op. cit., وقد حاولت بيزنطة بعد ذلك - كرد فعل على الصلات الودية بين المباسيين والفرنجة - أن تحسن علاقاتها بالكارولينجيين ذلك عندما أوفد ثيوفيل - سفارة إلى لويس الثاني في سنة ٨٣٩، في نفس الوقت الذي عمد فيه إلى تدمير علاقاته ببنو أمية في الأندلس وإنهاء حلف معهم ضد الأغابة، الذين هددوا الممتلكات البيزنطية في إيطاليا وضد المباسيين الذين شجعوا الأغابة على غزو سواحل القروية، والإريطيين على غزو جزر ليبيجة وسواحل آسيا الصغرى الغربية. أما الحلف مع الفرنجة فلم يكن ليتم على الإطلاق بسبب حالة العداء القائمة بين الأمويين في الأندلس والفرنجة والتي استمرت حتى وفاة الأمير محمد في سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م)، وأما حكام مسع الأمويين في الأندلس فلم يتم هو الآخر، وانحصرت العلاقات بين الفرنجة والأمويين على تبادل السفارات اليومية.

أما ما يتعلق بقبول الرشيد لفكرة قيام شارلمان بالإشراف على الأماكن المقدسة ، فربما كان القصد منه التخلص من النفوذ البيزنطي في بيت المقدس ، ويستدل بذكره في ذلك بمثل يأتي به تعبيراً عن كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين البيزنطيين ، فقد أرسل رهبان دير جبل الزيتون في سنة ٨٠٨ إلى البابا يخطرونه بأن رئيس دير القديس سابا ، زعيم بالهرطقة وطردهم من كهف كنيسة المهد في بيت لحم ، ومن الواضح أنهم كانوا يأملون في حماية ملك الفرنجة منافس نقفور وحليف الرشيد من ظلم البيزنطيين المنتظرين .

الفصل الرابع

الإدارة ونظم الحكم

(١)

الخلافة

الإمامة أو الخلافة رئاسة دينية ودينيوية نيابة عن النبي (ص) أو على حد قول الماوردي ، الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، (١) ، أو على حد قول ابن خلدون : « حمل السكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدينيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارح [أي المشرع] إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » ، (٢) . والخليفة على هذا الأساس هو رئيس ديني وسياسي يجمع بين السلطتين الدينيية - باعتباره إماما للمسلمين يؤمهم للصلاة ويسهر على تطبيق العدالة ويحيي الدين ويذهب عنه - والدينيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدينيوية والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبي (ص) دون أن ينص على الخلافة عينا لأحد من الناس ، لا لابي بكر ولا لعلي ، وكأنما أراد رسول الله بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم حجريا على النظام القبلي الذي ألفه العرب . والإمامة لانورث بإجماع الفقهاء وإنما بالاختيار . ونظام الحكم الوراثي على هذا

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، مصر ١٢٩٨ هـ ، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١ م ، ص ٣٢٨ .

التصوغ مشرف به في الإسلام (١) ، ومع ذلك فقد أقر الفقهاء أن جواز انعقاد الإمامة بولاية العهد ثابت بالإجماع أصوة بأن بكر الذي عهد بها إلى همر فأنبت المسلمون إمامة همر بمهد أبي بكر (٢) استنباطاً على أن الإمام هو ولي المسلمين والأمين عليهم وأنه هو الذي ينظر في مصالح الأمة لدينتهم ودنيائهم . ويذكر ابن خلدون أنه يشترط في الخليفة خمسة شروط : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء والنسب القرشي (٣) ؛ وقد استعبرت الخلافة سارية في همر الخلفاء الراشدين أي المرشدين من قبل النبي للسيد على نهجه في الحكم . ثم تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي ورائ على غرار ماكان معروفاً عند الفرس والروم ، وقد أطلق العرب على هذا النظام أسماء مختلفة منها والفرعونية ، بمعنى حكم الفرد المستبد أو حكم الجور والظلم ، والكسروية والهرقلية وكلاهما يحمل نفس المعنى ، مع زيادة المظاهر الملوكية من الآبهة والترف وإحاطة نظام الوراثة (٤) ، فقد عدل الأمويون في حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين إلى نظام الملك القائم على التوريث والمستند على الدنيا ، واستعالت الخلافة بذلك إلى نظام أقرب ما يكون إلى النظام الملكي مع تمسك شكلي بفكرة البهمة التقليدية والالتزام بمبادئ الخلافة من تحريم الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق (٥) باستثناء

(١) عهد ضياء الدين الرئيس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ ،

ص ١٦٩ .

(٢) الماوردي ، ص ٨ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٤٢ .

(٤) ضياء الدين الرئيس ، ص ٩٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٢ .

الخلفاء المتأخرين من بني أمية الذين سغروا طبيعة الملك لتحقيق أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم من ركوب السموات والملاذ ومن استخفاف بحق الرئاسة^(١)، ولم يتفهم نظام الخلافة في العصر الأموي من حيث الشكل منه في عصر الراشدين من حيث ارتكازه على قاعدة دستورية ثابتة هي الإجماع.

ثم ظهر التنوير في نظام الخلافة ومدلوله منذ قيام الثورة العباسية وبالأذات منذ خلافة أبي جعفر المنصور، الذي تعدى لمشاكل عديدة واجهته وتطلب عليها جميعاً، ولذلك يعد المنصور صاحب الفضل في إرساء الأساس الحقيقي للنظام العباسي، وحرص خلفائه من بعده على الدفاع عن هيبة الخلافة وعلى تحقيق صورتها المركزية فيما يتعلق بالولايات التابعة لسلطانها، ففاضل المنصور وخلفاؤه من أجل تأكيد سلطان الخلافة وتحقيق المركزية، إلا أنه عندما فشل الخلفاء في تمكين سلطانهم في المغرب بسبب غلبة التيارات الإقليمية عمدوا إلى تطوير نظام المركزية وذلك بتفويض قسم من السلطات إلى نائبين عن الخليفة في شرق العالم الإسلامي وغربه يستبدانها من الخليفة، والإقرار بالنزعات الإقليمية. ويتمثل ذلك في دولة الأغالبة في المغرب الأدنى التي أقامها الرشيد لكي يعمل على طاعتها أعباء الخلافة في الغرب، والدولة الطاهرية التي أقامها المأمون في خراسان وأسند رئاستها إلى قائده الفارسي طاهر بن الحسين. وبمسيرة الخلافة العباسية للظروف الإقليمية، ضمنت الإبقاء على نفوذها الروحي. ويعبر التقسيم الذي أجراه الماوردي في نظام الإمارة على البلدان إلى إمارة استكفاء في حالة محافظة الخلفاء على المركزية^(٢) وإمارة استهلاء في

(١) ابن خلدون، نفس المصدر، ص ٤٧٢.

(٢) درس الخلفاء في هذه المرحلة على تغيير الولاية وبدياهم خطاً لاستمرار تطور السيادة المركزية وتجنباً لقيام مراكز قوى في الدولة.

سألة الإقرار بالإقليمية ، يعبر هذا التقسيم عن التطور الذي طرأ على نظام الخلافة من صورته المركبة إلى صورته الإقليمية .

كذلك استجابت الخلافة للظروف الجديدة في ناحية أخرى وهي الجمع بين نظامي الخلافة والإمامة (١) ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى جنوح الخلافة إلى الاستبداد بالسلطة ، وقد يكون ذلك ناتجا عن احتفاظه بالسلطان الروحي المستند على نظرية عصمة الإمامة على نحو ما فعله الشيعة الإمامية والإسماعيلية ، أو على أساس الإجماع على عدم جواز تعدد الإمامة بما يكفل نوحا من السيطرة على أقاليم الدولة الإسلامية (٢) ، أو ناتجا عن تأثره بنظرية الحق الملكي المقدس التي كان يقول بها الفرس ، بمعنى أن الخليفة يحكم بتفويض من الله لامن الشعب (٣) من جهة ، واستنادا إلى أن خلفاء بني العباس هم ورثة النبي من جهة ثانية . وقد ترتب على ذلك أن خلفاء بني العباس سعوا إلى الاحتفاظ بالخلافة في دولة تيموقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ، إبرازا للتطور الذي طرأ على السلطة الخليفة منذ العصر الأموي (٤) . فكان الخليفة يرتدى بردة الرسول عند توليه الخلافة أو في بعض الحفلات الدينية بحكم كونه نائبا عن النبي في حكم المسلمين ، والتزم الخلفاء بلقب الإمام ، وإن كان هذا اللقب فقد دلالة الأولى من حيث إمامة المسلمين في الصلاة ، وادعى الخلفاء أنهم يعملون على

(١) حسن محمود ، العالم الإسلامي ، ص ١٢٢ .

(٢) الرئيس ، النظريات السياسية الإسلامية ، ص ١٧٣ .

(٣) وقد عبر المنصور بقوله : « إنما أنا سلطان الله في أرضه » .

(٤) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ : العصر العباسي الأول ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٥٠ .



لإحياء السنة وإعادة الحكم القائم على العدل والمحاواة ، فأخطوا أنفسهم بالفتشاء واستشاروهم في مشاكل العولة ، واتخذوا من الدين دجاجة لتثبيت مركزهم السياسي . وما دامت الخلافة العباسية أصبحت تمسند على نظرية الحق الملكي المقدس فهي تقدر نظام الوراثة في البيت العباسي ، وليس ضرورياً أن تكون وراثة مستقرة في الأبناء ، وإنما كانت الخلافة تسند إلى الأقدر على تحمل تبعاتها من أفراد البيت العباسي ، ويتم ذلك عن طريق أهل الحل والعقد أو أهل الاختيار وعلى رأسهم الخليفة ومن يحيط به من الخاصة وكبار القادة والوزراء . وكان قرار تعيين ولي العهد قراراً ملزماً يعطى لصاحبه حقاً في عتق من يأمروه ، ولقد سار العباسيون على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد ، ولم يتعظوا بما سببه ذلك من نكبات للدولة الأموية دفعها إلى السقوط ، ولهذا السبب اعتبر إبدال ولاية العهد بعد تعيينهم بآخرين نكثاً بالعهد ، وكان من نتائجهم نشر بذور العداء والحقد بين أفراد البيت العباسي ، ونجمت عنه أزمات خطيرة ظهرت آثارها في فتنة الأمين والمأمون .

(٢)

السوزادة

استند العباسيون على الفرس في تطوير نظمهم الإدارية كما استندوا عليهم في تأحيث دولتهم إلى حد رسخت معه التقاليد الإدارية الفارسية القديمة في صميم نظم الإدارة العباسية ، بحيث يمكننا أن نطلق على العصر العباسي الأول بحق العصر الفارسي الأول أو عصر إحياء التقاليد الفارسية . عهد أن الانحسار إلى إحياء التقاليد الفارسية لم يصدر دفعة واحدة في العصر العباسي ، فقد سبقته مرحلة تمهيدية منذ خلافة حمزة بن الخطاب الذي اقتبس نظام الديوان من الإدارة

الفارسية متبهماً في ذلك معصورة الفميزان (١). وثابع الأمويون سياسية الانقلابات من الإدارة الفارسية ، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين واتخذوا الحليج ليقوم مقام الخليفة في بعض المهام الخلافية ويحجب الخليفة عن العمامة ويمتلك بسابه دولهم ، كما اتخذوا الطراز الذي أصبح مظهراً من أبهة الملك وفخامة السطان .

وبقيام الدولة العباسية ، ازداد النظام الفارسي الذي كان يعمل به زمن الساسانيين قوة . وسيطرت التقاليد الفارسية على أجهزة الدولة سيطرة شاملة ، وحلت جماعات من الموظفين الفرس محل الأرستقراطية العربية التي كانت تحيط بالخليفة الأموي ، واستحدث منصب الزوراء بنفس اختصاصاته المعروفة عند الفرس ، ولم تكن سلطات الوزير قد تحددت بعد في بداية قيام الدولة بصورة واضحة (في وزارة ابن سلة الخلال) ، إلا أنها مستدرج في النمو وتنضج بمضى الوقت حتى تتخذ شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول .

وليس من شأننا أن نتحدث عن لفظ الوزارة وشتقاته اللغوية (٢) ، كما أنه ليس من شأننا أن نتبع تطور استعمال لفظ الوزارة عند العرب منذ العصر

(١) الجهاوي ، الزوراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١١ .

(٢) راجع في دراسة مشتقات اللفظة في اللغة العربية : الماودي ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٠ - ابن طباطبا ص ١٣٦ - ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الخامس ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٨٧ - الفيروز يادي ، المعجم والمحيط ، ج ١ القاهرة ١٣٤٤ ، ص ٣٦٣ - الزبيدي ، تاج العروس ، ج ٣ القاهرة ١٣٠٦ ص ١١ - أحمد أمين ، ضمن الإسلام ، ج ١ القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٧٦ - Dominique Sourdel, Le vizariat - Abbasside, vol. I, Damas, 1959, pp. 48-46.

الجاهل (١) ، فهذا يخرج بنا عن موضوع الدراسة ، ولكن إذا كانت الوزارة
كاختصاص ومهام ولقب قد استحدثت في العصر العباسي ، فإنها عرفت كاختصاص
فقط دون اللقب في العصر الأموي ، فكان عبد الحميد بن يحيى بن سعيد كاتب
هروان بن محمد يقوم في الخلافة مقام الوزير (٢) من حيث تقريب الخليفة له
واهتداده عليه في المشورة والرأي .

ولم يكتف العباسيون باقتباس نظام الوزارة من نظم الإدارة الفارسية
القديمة ، بل حملوا على اختيارهم وزرائهم من الفرس ، وكان أبو سلة الخلال
أول من وزير لبني العباس (٣) ، وسمى وزير آل محمد (٤) ، وعلق ابن خلكان
على استيزار السفاح له بقوله : « أن أبا سلة أول من وقع عليه اسم الوزير ،
وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعم »
لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول . (٥)

وكان اختصاص الوزراء الأول لبني العباس كاختصاص الكتاب عند
الأمويين ، فكان الخلفاء العباسيون يحرصون دائماً على اختيارهم لوزرائهم أن

(١) انظر في ذلك : المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٩٤ - ابن قتيبة ،
الشعر والفعراء ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٢٥٢ - ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في
العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١ .

(٢) الإبريل ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٥٨ .

(٣) الإبريل ، ص ٥٤ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٥٦ - ابن طباطبا ، ص ١٣٨ .

(٥) ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

يكونوا بمن يعيد الكتابة (١)، ويمبر ابن طباطبا عن ذلك بقوله : « والوزارة لم تتمد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل فلم تكن مقتنة القواعد ، ولا مقروء القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أقباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار بذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى بجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كانباً أو مشيداً ، (٢) . ولما قتل أبو سلمة الحلال لم يلقب أحد من استوزهم السفاح بعده بلقب الوزارة تعظيماً لما لحق به ، فعالة بن برمك على الرغم من مكانته السامية التى تبوأها كان يعمل عمل الوزراء ولم يتسم بالوزير (٣) ، كذلك تلقب أبو أيوب السورى بالذى استوزره المنصور العباسى وأُسند إليه عمل الدواوين بكتاب الخليفة (٤) . وظلت الوزارة في خلافة المنصور إسماعيل غير مسمى لاستبداده المطلق وتركيز السلطات في يده ، وفي ذلك يقول ابن طباطبا : « لم تكن الوزارة في أيامه طائفة لاستبداده واستغنائاه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور في الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه

(١) كان أبو سلمة فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والفسير ، حاضر الحجة ، فلما هوى السفاح استوزره وفوض الأمور إليه وسلم إليه الدواوين ولقب وزير آل محمد (ابن طباطبا ، ص ١٣٨) ، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور فصيحاً كافياً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والأعمال ، وكان أبو عبد الله يعجب من داود وزير المهدي كاتباً لنصر بن سيار أمير خراسان (ابن طباطبا ، ص ١٦٦) .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٩ .

(٤) الجهم غياري ، ص ٧٧ ، ٧٩ .

وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق ، (١) . ولهذا السبب اتسمت الإدارة العباسية في العصر العباسي الأول بالمركزية المطلقة ، فكان الخليفة مصدر السلطات ، أما الوزير فكان مجرداً من كل سلطان ، ولم يحظ بمركز الوزارة وتستقر قواعدها إلا منذ أيام المهدي ، وكان وزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار هو الذي رتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب الديوان ، وأوحد الناس حذقا وعلميا وخبرة (٢) . وليس أدل على ارتفاع مكانة الوزير في دولة بني العباس بعد المهدي (٣) من الإشارة إلى المكانة التي تبوأها البرامكة في خلافة الهادي والرشد ، فقد قبضوا على أزمة الحكم وأصبحت شؤون الدولة في أيديهم يتصرفون فيها كما شاءوا ، إلى أن نكسهم الرشيد في سنة ١٨٧ هـ . ومن الأمثلة الدالة كذلك على سمو مكانة الوزير ، استبعاد الفضل بن سهل وأخوه الحسن بدولة المأمون ، والفضل بن الربيع بدولة الأمين .

وكانت الوزارة في العصر العباسي تنقسم إلى نوعين (٤) :

(١) ابن طباطبا ، ص ١٥٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

(٣) يقول ابن خلدون معبرا عن ضخامة سلطات الوزراء : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت رايته وارتفعت ، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وأمينت مرتبته في الدولة » وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل له النظر في ديوان الحساب (ديوان المال) لما تحتاج إليه خطته من قسم الأمطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر في القلم والترسيل لمعون أسرار السلطان . . . فصار اسم الوزير جاعلا لحظي السيف والقلم وسائر مافي الوزارة والمعاونة حتى لقد دهم جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة . »

(٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٨ .

١ - وزارة تنفيذ (وهي أيضا وزارة القلم وسلطانها محدودة) : وهي التي تقتصر مهمة الوزير فيها على تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف في شؤون الدولة من تلقاء نفسه ، وإنما كان يعرض الأمور على الخليفة ويتلقى أوامره منها ، وبذلك كانت مهمة الوزير أشبه بما تكون بمهمة الوسيط بين الخليفة والشعب .

٢ - وزارة تفويض (وتعرف أيضا بوزارة السيف) : وهي أن بكل الخليفة الوزارة إلى شخص يشق فيه ويفوض إليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شؤونها دون الرجوع إليه بحيث لا يبقى للخليفة بعد ذلك من السلطان إلا ولاية العهد وحق عزل من يوليهم الوزير . ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول آل برمك وآل سهل والفضل بن الربيع الذي كان حاجبا للرشد ثم استوزره بعد نكبة البرامكة . ومن دلائل ارتفاع منزلة الوزير إبان الفتنة بين الأمين والمأمون تلقب الفضل بن سهل وزير المأمون بذي الرئاستين بلحه بين السيف والقلم ، وتلقبه بالوزير الأمير (١) ، واستنار المأمون بعده لمحمد بن سهل وزواجه من ابنته بوران وتلقبه بلقب ذي الكفایتين (٢) . ومن أشهر وزراء التنفيذ في عهد المأمون والمعتصم : أحمد بن أبي خالده ، وأحمد ابن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات .

(١) ابن طباطبا ، ص ٢٠٢ . ويعتمد بالرياستين : رئاسة الحرب ورئاسة التدبير (الجهشتاري ، ص ٢٥٠) وقد عُد له المأمون على ستان ذي عمبتين ، وأعطاه مع الدولة خلافا قد كتب عليه لقبه . وكان الفضل بن سهل أول وزير اجتمع له اللقب والتأثير (الجهشتاري ، نفس المصدر) .

(٢) الصامي ، رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل حواد ، بغداد ١٩٦٤ ص ١٣٠ .

وكان يشترط في الوزير لاهمية منصبه - باعتباره وسيطا بين الخليفة والبيعة - أن يكون في طبعه جانب يناسب طباع الملوك وجانب يناسب طباع العوام حتى يتمكن من معاملة كل من الفريين بما يهيئهم على الاحتفاظ بحقوق كل منها بالقبول والمحبة والرضا ، وأن يكون أميها صادقا شجاعا ، وأن تتوفر فيه الكفاية والفطنة والدماء والحزم ، بالإضافة إلى صفات أخرى لا غناء له عنها ، كالانضال والكرم ، ليصطنع الانصار ، والرفق والاناسة والتشيع في الأمور ، والحكم والوقار ونفاذ القول (١) .

وفي ضوء هذه الشروط كان الوزراء يختارون بدقة ، فقد روى عن المأمون أنه قال : « إن التمسك لأمرى رجلا جامعا لحصال الجهد ، ذاعقة في خلقاته واستقامة في طرائقه . قد هدبته الآداب وأحكمته التجارب ، إن أو تمن على الاسرار قام بها ، وإن فلد مهمات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينظفته العلم وتكليفه الاحفظه وتنفيه اللمعة ، له حولة الامراء وأمانة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بمخزمان هذه ، يسترق قلوب الرجال بخلافة لسانه وحسن بيانه . ومع ذلك ففي كنهه من الاحيان كانت تدخل بعض العوامل في اختيار الوزير ، فكان أحيانا يقلد الوزاة مكافأة له على جهد بذله أو عون قدمه لشخص الخليفة . على أنه لم يعد ضروريا أن يراعى في اختياره لا الجمع بين الصفات السابقة ولا ما قدمه للدولة أو للخليفة من أفضال ، وذلك عندما أصبحت الخلافات السياسية بالانحلال والاضعف وأصبح اختيار الوزراء يتم وفقا لأغراض أخرى

من أبرزها الرشوة التي أصبحت الوسيلة العملية لترهيب لهذا المنصب الكبير .

وكان من مهام الوزراء في العصر العباسي الأول الإشراف على دواوين الدولة والشؤون المالية وشؤون الترحيل والمكاتب والدفوف الحربية ، ولهذا أصبح الوزير يجمع في عمله بين السلطتين المدنية والحربية ، أو بمعنى آخر بين السيف والقلم . كذلك كان من مهامه النظر في قضايا الناس ومطالبهم ، وتعيين الولاة .

ومن الملاحظ أن معظم من تولى الوزارة في العصر العباسي الأول منذ قيام الدولة حتى خلافة الرشيد كانوا يتنقون فأسرين : الأول أنهم من الفرس ، وهناك ميل للعلويين وسيميم في الحفاء على نقل الخلافة إليهم ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت الحففاء على نكبتهم لهم والتشكيل لهم (١) .

وفي عصر المتعصم لم يعد للوزراء ما كان لهم من نفوذ وسلطان زمن المأمون بسبب اتساع نفوذ قواد الجيش الأتراك من جهة وسيطرة الخليفة على النواحي السياسية والإدارية من جهة ثانية . وهناك ظاهرتان واضحتان في وزراء هذا العصر هما : —

١ — لم يكن من بين وزراء المتعصم والوافق على كثرتهم من كان أدينا بحسن المعرفة بالعلم إلا محمد بن عبد الملك الزيات ، فالفضل بن مهران أول وزراء المتعصم لم يكن من الكتاب وإنما كان حاميا لا علم لديه ولا معرفة وكان سيء السيرة جاهلا بالآداب ، وكذلك كان أحمد بن همار بن شاذي وزير المتعصم بعد الفضل — رغم ثرائه — جاهلا بأدابه للوزارة قليل الثقافة .

(١) إبراهيم سان ، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، ص ٢٥ وما يليها .

٢ - كان معظم وزراء هذا العصر ضحايا مطامع الخلفاء في أموالهم ،
فكثيراً ما نكسبهم الخلفاء وصادروا أموالهم واستصفوا أملاكهم كما حدث للوزير
الفضل بن مروان في عصر المعتصم وابن الزيات في خلافة الواثق .

(٢)

الحجابه

في عصر الدولة الأموية ظهرت وظيفة في البلاط لها أهميتها بالنسبة
للخليفة هي وظيفة الحاجب ، من اختصاصاته حجب الخليفة عن الناس وتنظيم
مشورهم أمام الخليفة وفقاً لمرآتهم وأهمية أعمالهم ، ويعتبر مساوية أول من
أرعى السور من الخلفاء في الإسلام (١) واتخذ الخلفاء الأمويون من بعده
حجاباً لهم تشبهاً بالملوك والأكاسرة وحرصوا على أنفسهم من خطر الاغتيالات
السياسية ، فكان الحجاب يوجبون الخليفة عن العامة ويفلقون بابه دواهم (٢) .
والحجابه عما اقتبس العرب من الإدارة الفارسية ، عندما أخذوا بمظاهر
الكسروية ، ومن أشهر حجاب الأيوبيين : خالد وسعيد مولى الوليد بن عبد الملك
وحاجباه (٣) ، وأبو عسكر مولى سليمان بن عبد الملك وحاجبه (٤) ،

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٢٢ ، كان الحجاب يمتنعون الناس من الدخول على
الخلفاء إلا بأذن خاص ، ولم يستثنوا على حد قول عبد الملك بن مروان إلا صاحب الطعام
والأذان للصلاة والبريد .

(٢) الأول ، ص ٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١ .

وحبيلس ومواحم مولياهر بن عبد العزيز وحاجباه (١)، وسعيد مولى يوهن
ابن عبد الملك وحاجبه (٢)، وغالب مولى هشام وحاجبه، والابرش الكلبي
حاجبه، وكان هذا الحاجب يدخل عليه فيقول فلان بالباب وفلان، فيقول:
الذن، فلا يزال الناس يدخلون عليه حتى إذا انتصف النهار وضع الطعام
ورفعت الستور (٣). ومن حجاب الأمويين أيضا قطرى مولى الوليد بن
يزيد (٤)، وقطر مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحاجبه وحاجب إبراهيم
ابن الوليد بن عبد الملك (٥)، وصقلاب مولى مروان بن محمد وحاجبه (٦).

والخذ الخلفاء العباسيون الحجاب أيضا وبالنوا في ذلك تعديها بالأكسرة
وحاية لأنفسهم من الساعطين عليهم، وزادوا في منح الناس عن ملاقاتهم إلا
فيما عظم من الأمور، وازدادت أهمية هذه الوظيفة منذ عهد المهدي العباسي،
ومن أشهر حجابيه: الربيع بن يونس والفضل بن الربيع والربيع بن حمين
والحصين بن سليمان (٧). وما يدل على أهمية الحجابة أن الربيع بن يونس كان
وزيرا للصور، وظل يقوم بمهمة الوزارة إلى أن مات المنصور بمكة، وقام
الربيع بأخذ البيعة المهدي العباسي، فشكر له المهدي ذلك ولم يستوزره وإنما

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٢.

جعل حاجبه ، وذكروا أنه لم ير في الحجابة أحرف من الربيع ومن ولده الفضل
الذي حجب المرون الرشيد ومحمد الآمين ، ومن عباس بن الفضل الذي حجب
الآمين ، بمعنى أن عباس هذا كان حاجبا ابن حاجب ابن حاجب ، وقد مدحهم
أبو نواس بقوله :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم .: أن حصلوا إلا أغر قريش
عباس عباس إذا احتدم الوشى .: والفضل فضل والربيع ربيع (١)

ويأتى ابن طباطبا بمثل آخر يدبر عن أمية منسوب الحاجب ، فيذكر أن
الربيع بن يونس لما قدم من مكة بعد موت المنصور وأخذ البيعة للمهدي وفد
إلى باب أبي عبيد الله صافية بن هار (كاتب المهدي ونائبه قبل أن يلى الخلافة ،
وكان غالبا على أمور المهدي لا يهوى قولاً ، ولهذا استوزره المهدي ، وفوهو
إليه تدبير الدولة وسلم إليه الدواوين) لزيارته زيارة بجملة ، قال : فوصل
الربيع إلى باب أبي عبيد الله الوزير ، فوقف ساعة حتى خرج الحاجب ، ثم
دخل فاستأذن له ، فأذن له ، فلما دخل عليه لم يقم له (مع أن الربيع بن يونس
كان وزيرا للمنصور) ثم سأله عن سيره وحاله فأخبره ، وشرع الربيع يحمد
بما جرى في مكة من موت المنصور واجتهاده في أخذ البيعة للمهدي ، فمكث ،
وقال : لقد بلغت الخبر فلا حاجة إلى إعادته . فاعتناظ الربيع ، ثم ثم ، فمخرج ،
وقال لابنه الفضل : هل كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجامى فى مغرومه وإزالة
نمته . ومضى الربيع إلى المهدي فاستحبه واختص به كما كان مع أبيه .
وما زال الربيع بن يونس يكمه له في شخص ابنة (أى ابن أخته عبيد الله) لدى

الحليفة تارة يرميه ببعض حرم المهدي وتارة يرميه بالزندقة حتى رسخ في ذهن المهدي زندقة ابن الورير ، فأمر وزيره أبا عبيد الله بقتل ابنه ، فقام الوزير وعثر ووقع وارتعد ، فأعماه من قتله وأمر بعض الحاضرين بقتله ، فضربت عنقه . واستمر الوزير في خدمة المهدي ، إلى أن أمر المهدي حاجبه الربيع بحجبه عنه فحجبه (١) .

وعن طريق الربيع بن يونس استوزر المهدي يعقوب بن داود ، لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، فجعل يشئ على يعقوب في خلواته بالمهدي حتى استوزره (٢) . وغلب على المهدي حاجبه الفضل بن الربيع (٣) . ومن سحاب الرشيد بشر بن ميمون مولاه ومحمد بن خالد بن برمك (٤) ثم الفضل بن الربيع (٥) أما المهدي فقد استعجب وصيفا التركي ، كما استعجبه أيضا الواثق .

(١)

الكتاب

كان يعين الوزراء وأصحاب الدواوين في مهامهم أعوان من أرباب الأعلام عرفوا بالكتاب . وكانت لهذه الطائفة أهمية خاصة لارتباطهم بالوزراء وأصحاب الدواوين ، بدليل أن الكثير منهم يتدرج في الرقي حتى يصل إلى منصب الوزارة ولاهمية الكتاب ألفت فيهم الكتب ، فمن بين من كتب في

(١) ابن طاطايا ، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

(٣) اليعاقبة ، ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٤) الإبريل ، ص ١٧١ .

(٥) الجيهشباري ، ص ١٨٤ . صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكي من حجابته ولقدما

الفضل بن الربيع في سنة ١٧٩ هـ .

هذا الباب : ابن قتيبة الذي صنف كتابه أدب الكاتب ، وابن درستوريه الذي ألف كتاب الكتاب ، ومحمد بن دardin المراج صاحب كتاب الوزراء ، والجهشياري صاحب كتاب الوزراء والكتاب . وقد تعددت اختصاصات الكتاب فمنهم من كان من كتاب الرسائل أي مخاطبة المال والأمرأ ، ومنهم من نولى كتابة الخراج ، ومنهم كتاب الجند يقدمون أسماهم وصفاتهم وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات سلاحهم ، ومنهم كتاب الشرطة ، وكتاب القضاة . وأهظم هؤلاء الكتاب جميعا في الكتابة كتاب الرسائل الذين يعتبرهم الحكم نظام الأمور وكما ، الملك وبعاء السلطان وهم الألسنة الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمنائهم على رعيهم وبلادهم (١) ولحساسية حملهم وأهميته كان الخلفاء يتخيرون الكتابة أشخاصا تتوفر فيهم صفات معينة . وفي ذلك يقول ابن خلدون : «إن صاحب هذه الحطة لابد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأكمل المروءة والخفصة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فإنه معرض في أصول العلم لما يمرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم . من أمثال ذلك ما تدعو إليه حشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في التيسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها ، (٢) » .

وقد شارك الكتاب ومن وصل منهم إلى منصب الوزارة في نشر الثقافة ، لأنهم بحكم مناصبهم كانوا مضطرين إلى معرفة أحوال الناس الاجتماعية وأن يعرفوا من اللغة والآداب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ طرقا ، لاحتياجهم

(١) الجهشياري ، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٨ . ويأتي ابن خلدون برسالة نعيم الحيد الكتاب

إلى الكتاب فيها تضمين لما يدور فيهم .

إلى هذه العلوم في موافقهم^(١)، كما أن الكثير منهم لجمعهم بين الآداب العربية والفارسية، أسهموا بدور كبير في إحياء الثقافة الفارسية القديمة، وبفضلهم اتسعت آفاق الفكر وترعرعت شجرة الثقافة الإسلامية^(٢)، وترجم إلى العربية العديد من الكتب الفارسية واليونانية، وقد لمع من هؤلاء الكتاب أسماء كثيرة منها يعبد الله بن المقفع ويحيى بن خالد وأحمد بن يوسف وأحمد بن أبي هذاف والفضل بن سهل ومحمد بن عبد الملك الرياض، وأما من هؤلاء الكتاب بحسن الكتابة وغزارة العلم وسعة الاطلاع، فكان جعفر البرمكي كاتباً بليغاً، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاطاته^(٣)، وكان أحمد بن يوسف ابن صبيح كاتب الرشيد على سطح كبير من الثقافة الإسلامية وكان كاتباً فاضلاً أديباً شاعراً فاعلاً بصيراً بأدوات الملك وآداب السلاطين^(٤).

(٥)

الدواوين

نوسع المباسيون في الدواوين بحكم اصطلاحهم لتنظيم الإدارة الفارسية^(٥)، وكلمة الديوان كلمة فارسية تأتي للسجل الذي يكتب فيه ما يفتتح به وقوف

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٧٧.

(٢) مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٣٥٣.

(٣) الجبشيارى، ص ١٥٨.

(٤) ابن طباطبا، ص ٢٠٦.

(٥) دواوين الدولة العباسية هي: ديوان الخراج وديوان الدية وديوان الرطام وديوان الجند وديوان البريد وديوان زمام النفقات وديوان الرسائل وديوان الحسوانج وديوان الأحكام وديوان المنع أو القضاة، وديوان الأكرية وديوان الزنادقة.

الإدارة ، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكتاب على اختلاف مهامهم ، وقد أصبح لموظفي الدواوين في العصر العباسي شأن كبير في الدولة ، وكانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة كالدواة والكرسي والواداة والمسند والقميصة ، وهي أدوات كانت تستخدم في الكتابة والجلوس في الديوان . ويرجع الفضل في تنظيم إدارة الدواوين في العصر العباسي الأول إلى خالد بن برمك ، فقد كان سبيل ما يلبث في الدواوين أن يلبث في صحبة ، فكان خالد أول من سجله في دفتر^(١) ، وهو الذي أشار على السفاح - عندما حرم على التخلص من أبي مسلم الخراساني - أن يأمر بإسقاط من لم يكن من أهل خراسان من الجند في ديوان الجند ، فأسقط عدداً كبيراً من أصحاب أبي مسلم^(٢) . ولما تولى أبو جعفر المنصور ، صرف خالد بن برمك عن الديوان . وقلده أبا أيوب المورياني . وإلى المهدي يرجع الفضل في إنشاء ديوان الزمام سنة ١٦٢ لجمع ضرائب العراق وهو أول من أحدث هذا الديوان ؛ وفيما يلي أهم الدواوين في الدولة العباسية :

١ - ديوان الرسائل :

وكانت مهمة صاحبه إذاعة المراسيم والمنشورات وتحرير الرسائل السياسية وختامها بخاتم الخلافة . وقد انعقد هذا الديوان في العصر العباسي عنه في العصر الأموي ، وتعددت اختصاصاته وكثر عدد من يعملون فيه ، وذلك حتى يرقى إلى مستوى السياسة العباسية ومواجهة احتياجات الدولة ومشاكلها . وقد استقرت دوائره في هذا الديوان منذ أيام المنصور ، وجعله الخليفة قريبا من قصره

(١) الجهمباري ، ٥٩٠ .

(٢) نفس المصدر ، ٢٨٠ ص .

في بغداد وأسنده إلى أبان بن صدقة (١) ، وقد تعرض هذا الديوان للطور في المهود التالية وفصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة التي أصبح يشرف عليها الوزراء إشرافاً مباشراً ، وأصبحت لصاحب ديوان الرسائل مكانة بارزة عند الخليفة بحكم التصاقه به ، وكان الخليفة يستشير به ويدينه منه (٢) .

وكان يعمل بديوان الرسائل موظفون تعددت مهامهم ، فقد وجد كتاب رؤساء يقومون بالإنشاء وكتابة الردود والتوقيعات (٣) وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبويض ، وأصبح لهذا الديوان محنوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن (٤) ، فكانت أصول المراسلات وتسحبها الواردة تنظم في خلاصة يقال لها أضابير توضع عليها بطائق تدل على محتوياتها ليسهل الرجوع إليها عند الضرورة . وكان الكاتب يصدر السجلات من الديوان ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم الخليفة - وهو طابع منقوش فيه اسم الخليفة أو شارته ينمى في طين أحمر مذاب بالماء يسمى طين الختم - ويطابع به على طرف للسجل عند طيه وإصاقه ، وعرف التوقيع الخلفاني في العصر العباسي بالعلامة (٥) .

(١) المسعودي ، ج ٧ ص ٢٨٥ .

(٢) حسن محمود ، العالم الإسلامي ، ص ١٤٤ .

(٣) كانت أرواق الرؤساء في زمن المنصور ٣٠٠ درهم للرجل ، وظل الحال كذلك حتى زمن الفضل بن سهل في خلافة المأمون فوسع الجاري (الجنه يارى ، ص ٨٩) .

(٤) ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦ .

(٥) كذلك عرف التوقيع الخلفاني في عصر الدولة الفاطمية بالعلامة (راجع مجموعة

الوثائق الفاطمية ، نقرأها المذكور جمال الدين الشيال ، القاهرة م ١٩٥٨) .

٢ - ديوان الخاتم :

كانت مهمة صاحب هذا الديوان حزم الأوامر الخلافية والرسائل وختمها بالشمع ثم الضغط عليه بخاتم صاحب الديوان حتى لا تتعرض للتزوير .

٣ - ديوان البريد :

استعدته معاوية بن أبي سفيان حتى تصل الأخبار إليه بسرعة ، وتوسع فيه العباسيون وطوروه بحيث وصل في عصرهم إلى درجة عالية من الكمال ومن المعروف أن الفضل في تطويره وتحسين نظمته ووسائله يرجع إلى أبي جعفر المنصور ، مستهدفاً في ذلك الوقوف على أحوال الولايات والكشف عن حركات التمرد والثورة والاعتناء عليها في وقتها ، وقد زاد ارتباط عمال البريد في عهده بالعاصمة بعداد مباشرة دون أن يخضعوا لنفوذ الولايات ، وكان هؤلاء العمال البريديون إلى جانب حملهم الأساسي - وهو نقل الرسائل - يشتغلون بالتجسس على كبار الموظفين ومراقبة الولاة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية ، ولهذا السبب حظى صاحب ديوان البريد في عصر المنصور بمكانة عالية تسمى مكانة الرالي نفسه (١) . وفي عصر المهدي زادت أهمية البريد ، فأقيمت له سنة ١٦٦ محطات

(١) كان المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أحد منهم ، فليل له : يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السر لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن التفت واحدة فهدم وهي : أما أحدهم فإني لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستصفي ولا يظلم الرعية ، وإني عن ظله غني ، والرابع ثم هن على أمهته السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب برده . يكتب إلى خبر هؤلاء على الصحة » (الطبري ، ج ٩ ص ٢٩٧) .

بين مكة والمدينة واليمن^(١) ، واتخذت له البنال والإبل خاصة بعد ثورة الحسين في الحجاز ، وأصبح لديوان البريد أهميته إبان النزاع بين الأمين وأماون ، فعندما تبين للأماون نوايا الأمين ضده بادر بقطع البريد عنه في سنة ١٩٤ هـ ، كما ظهرت أهمية البريد في عصر المعتصم عندما تولى عفيف مهمة القضاء على حركات الزط بالبصرة وأمكنه بفضل البريد من إبلاغ الخليفة بكل أخبار قومه لها ، فقد أمر الخليفة بترتيب الخيل في كل سكة من سلك البريد تركض بالأخبار فتمكن الخبر بخروج من عند عفيف فيصل إلى المعتصم من يومه^(٢) . كذلك أدى البريد خدمات جليلة للمعتصم عندما تصدى للقضاء على حركة الحرمية والحسرة ، ولولا سهولة الاتصال بمواقع البايكية عن طريق سلك البريد لما أمكن لقادة المعتصم أن يقعدوا على بابك . وكان المعتصم يوجه إلى آلافدين كل يوم منذ أن رحل من برقة إلى أن وافى سامرا فرسا وخمسة ، وكان المعتصم لشدة اهتمامه بأمر بابك وأخباره ، ولفساد الطريق بسبب الثلج وغيره جعل من سامرا إلى عقبة حلوان غيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرسا معه بحر مرتب ، فكان يركض الخبر ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدأيد ، وكان ما خلف حلوان إلى آذربيجان قد رتبوا فيه دواب المرج ، كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم دواوبة [حراس] على رؤس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينصروا إذا جاءهم الخبر ، فإذا سمع الذي يابيه التمهيد تنهيا فلا يبلغ إليه صاحبه الذي أمر حتى يتف له على الطريقين فيأخذ الخريطة

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٨ ، السيوطي ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن منظور ، أسان العرب ، مادة بردج ٣ طبعة صادر من ٨٦ .

[الرسالة] منه ، فكانت الخريطة تعمل من عسكر الافسين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل^(١) .

وما دنا بصدد الحديث عن البريد فلا بد من معرفة أصل لفظة بريد ومشتقاتها ومن المعروف أن هناك تفسيرات مختلفة لكلمة بريد ، فبعضهم يجعل البريد لفظا عربيا مشتقا من المصدر برد أو أبرد بمعنى أرسل البريد^(٢) أي أرسل الرسل على دراب البريد ، وقيل إنها لفظة فارسية — وهو الأصح — مشتقة من كلمة « بريد دم » ومعناها مقصود الذاب ، وذلك أن الفرس كانوا يتصون ذئب بفل البريد تمييزا له عن غيره من البهائم . وقد انتقلت كلمة بريد العربية إلى اللاتينية Veredus بمعنى خيل للبريد^(٣) ، ومن وسائل النقل في البريد الخيل والجمال والإبل ، التي كانت تقام لها مراكز أو منازل في الطرق الرئيسية الموصلة إلى أقاليم الخلافة . كذلك استخدم الحمام الزاجل في نقل الرسائل وكان يعرف باسم جناح المسلمين ، وتوسع المسلمون في استخدامه إبان الحرب الصليبية .

٤ - ديوان الزمام أو الأزمة :

استحدث هذا الديوان في خلافة المهدي في سنة ١٦٢ ، وفي ذلك يقول الجهمياري : « وقد عمر بن بريع دواوين الأزمة في ستة اثنين وستين ومائة ، وقد قيل إن المهدي أول من أحدثها »^(٤) ، فلما تضعضعت حال عمر بن بريع في

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٠٦ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٣٢ .

(٣) Steingass, Persian English Dictionary, London, 1947, (٣)
p 182 — Charlton Lewis, A Latin dictionary, Oxford, 1966,
p. 1973.

(٤) الجهمياري ، ص ١٠٦ — الطبري ، ج ٩ ص ٣٤٢ .

سنة ١٦٨ قلد المهدي عليا بن يقطين زماما على الأزمه (١) ، فلما تولى الهادي الخلافة أقر الريح بن يونس على ديوان الأزمه ، إلى أن تولى الريح في سنة ١٦٩ ، فقلد الهادي إبراهيم بن ذكوان الحراني هذا الديوان (٢) ، وظل إبراهيم يتقلد هذا الديوان إلى أن نكبه الرشيد ونصب مكانه أبا عبيد الله معاوية بن عبد الله وزير المهدي ، ولكنه استعفى لكبر سنه (٣) ، وكانت من اختصاصات صاحب هذا الديوان مراجعة حسابات الدواوين فيها يتعلق بالوارد والنفقات ، وفي ذلك يقول الطبري : « وذكر أحمد بن موسى بن حمزة عن أبيه قال : أول من حمل ديوان الزمام عمر بن ربيع في خلافة المهدي ، وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر فإذا هو لا يضبطها إلا بوزام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمه ، وولى كل ديوان رجلا ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح ، ولم يكن لبني أمية دواوين أزمه (٤) ، وكان يتولى زمام خراج المراق النعمان بن عثمان (٥) .

(٦)

نظام القضاء

لم تكن السلطة التنفيذية منفصلة عن السلطة القضائية في زمن الرسول (ص)

(١) نشر المصدر ، ص ١٢٥ — الطبري ، ج ١٠ ص ١٠ . وبسمي الطبري هذا الديوان زمام الأزمه .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٤) الطبري ، ج ١٠ ص ١٠ .

(٥) الطبري ، ج ٩ ص ٣٤٢ .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يتولى الفصل في الخصومات بنفسه تطبيقاً لأحكام الشريعة الإسلامية . ومنذ أن انتشرت الدعوة الإسلامية في الجزيرة أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد ، كما أذن لبعضهم بالفتيا . وفي خلافة أبي بكر أسند القضاء إلى عمر ، ولكن منذ أن اتسعت الدولة العربية بالفتوحات في زمن عمر وارتبط العرب بمسيرهم من الشعوب ، استلزم الأمر إدخال نظام تشريعى لنقض الخصومات ، فكان عمر أول من عين القضاء في الأقاليم للفصل في الخصومات وفقاً لأحكام الشريعة . وظل القضاء في العصر الأموى بسيطاً كما كان الأمر في عصر الخلافة الراشدة ، وكان القاضى يعتمد على الاجتهاد في الأحكام مستعيناً بالكتاب والسنة والإجماع وكان يصدر أحكامه مستقلاً في رأيه عن أى تأثير خارجى عليه ، بخلاف ما حدث في العصر العباسى ، إذ كان الخليفة الإمام يتخول لنفسه الحق فى أن يقضى على استقلال القضاء ، وكان يتدخل فى الأحكام ويوقف بعضهم إذا صدرت على غير هواه ، إذ كان يخشى أن تتعارض أحكام القضاء مع مبادئه ، (١) بل إن الخليفة كان يبيع نفسه أن يختار قضاته على الأقاليم بنفسه فى كثير من الأحيان (٢) وأول من ولى قضاء الأمصار من خلفاء العباسيين المنصور (٣) .

[وقد تمعد نظام القضاء فى العصر العباسى لتمعد الحياة الاجتماعية وما طرأ

(١) حسن إبراهيم حسن ، النظام الإسلامية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٨١ . ولد حل ذلك الكثير من اللضاة على الاعتذار من عدم قبول مناصبهم القضائية .

(٢) السكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاء ، طبعة جست ، ١٩١٢ ص ٣٧١ .

(٣) نفسه ٤ ابن أبيك ، درر النيجان وغرر نواريج الأزمان ، مخطوطة رقم ٤٤٠٩ بدار الكتب المصرية ، ورقة ٢٤٩ .

هل المجتمع العراقي في هذا العصر من أساليب جديدة في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى ظهور المذاهب الأربعة مما ترتب عليه ضعف روح الاجتهاد في الأحكام ، بحكم التزام القضاة في أحكامهم بأحد هذه المذاهب ، فكان قاضي العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة ، بينما ساد في مصر المذهب الشافعي وفي الشام والمغرب والاندلس المذهب المالكي . وقد نتج عن ذلك أن أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدعون ببقائه مذهبهم (١) .

وكان يعترض في اختيار القضاة الذكورية والبلوغ والعقل والحرية والإسلام والعدالة والعلامة في السمع والبصر والعلم (٢) ، هذا بالإضافة إلى شروط أخرى إلزامية كالشرف والانابة والتفقه . وقد اتسمت مرحلة القضاة ، فبعد أن كان عملهم يقتصر على الفصل في الخصومات أصبح يجمع إلى ذلك استفتاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنن ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتوزيع الأمانات عند فقد الأولياء ، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية ، وتمنح الشهود والأضواء والفواب (٣) . ونظرا لتوسع مهام القضاة وتعدد اختصاصاتهم كان يمينهم مساعدون ونواب يرفعون بنواب الحكم ، وكان القاضي يتخذ شهودا عرفوا بالأمانة والتفقه في الدين ولذلك سمووا بالشهود المدول أي الذين لا يهلك في ذمهم ، وكان المجلس الذي يتولى فيه القاضي الحكم يعرف بمجلس الحكم أو كان

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) الأوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣٩٢ .

يمتد في المسجد الجامع^(١) ، ثم أصبح يمتد في دار القاضى ، وذلك بعد أن تعددت المساجد الجامعة في المدينة الواحدة ، وكان يمتد في قصر الخلافة في حالة إذا ما كان القضاء متمثلاً بالمظالم^(٢) . ويتألف مجلس الحكم من القاضى والشهود العدول والموقعين الذين يجلسون محضر الجلسة والحجاب الذين يقومون بإدخال الخصوم . وكان القاضى في عصر الدولة الأموية يجلس مجلسه بدون مراسم ، إلا أنه منذ العصر العباسى أصبح يتخذ لنفسه بعض الرسوم ، كأن يضع الطيلىسان على منكبيه ويمتد بوسطه سيفاً ويهتدشج بالسواد أو البهاض حسب مذهبه ، وأول من ميز لباس القضاة والعلماء هو القاضى أبو يوسف ، فأصبح القاضى يتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة^(٣) .

ثم استحدثت في زمن الرشيد منصب قاضى القضاة، وهو يقابل منصب وزير العدل في العصر الحديث ، إذ كانت له الرئاسة على جميع القضاة فكان يستقرب عنه القضاة في الأقاليم . وأول من تولى هذا المنصب القاضى أبو يوسف يعقوب صاحب ابن حنيفة لعله ودرايته بالشؤون القضائية والإدارية ، فقد كان أبو يوسف أفقه أهل عصره ، فلم يتقدم عليه عليه أحد في زمانه ، وكان بالهامة في العلم والحلم والرئاسة والقدر والجلالة ، وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب ابن حنيفة ، وأمل المسائل ونشرها وبث علم ابن حنيفة في أقطار الأرض^(٤) . وأبو يوسف يعقوب هذا هو يعقوب بن إبراهيم بن

(١) ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٤٨ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة .

(٣) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٣٧٨ .

(٤) ابن المياد ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٣٠١ - الإبريل ، ص ١٢٩ .

حبيب بن جنبه الانصارى ، سمع أبا أسحق الشيبانى وسليان بن يحيى بن
سعيد والاحش وهشام بن عروة بن الزبير ، ولأه الهادى القضاء ، ثم استخدمه
الرشيد . وعرف بمصاحب ابن حنيفة ، إذ كان يتردد عليه وهو فقير ، وكان
أبو يوسف يقول : « توفى والدهى وخافنى منها فى حجر أمى فأسلتنى الى قصار
أخدمه ، فكنت أدع القصار وأمضى الى حلقته ابن حنيفة فأجلس ، وكانت أمى
تجسسه خافى فتأخذ بيدي وتذهب بي الى القصار ، وكان أبو حنيفة يعنى بي لما
يرى من حرصى على التعلم ، . . . ثم لومته فذمعتنى الله بالعلم ورفعنى حتى تقلده
القضاء ، وكنت أجالس الرشيد آكل معه حل مائدته (١) . »

وارتفعت منزلة القضاء فى عصرى المأمون والمعتصم ، فقد عهد المأمون إلى
قاضيه ابن عمر يحيى بن أكرم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء
وأهل العلم فى بغداد (٢) كذلك أدان المأمون إليه ، وكان إذا ركب مع المأمون
فى سفر ركب معه بمنطقة وقبـاء وسيف بهاليق وشاهية ، وإذا كان العتاء
ركب فى أقبية الحمر وقلانس السمور والسروج المكشوفة (٣) . وبلغ من
أهمية القاضى بن أبى ذؤاد أن المعتصم لم يكن يبيت فى أمر إلا برأيه (٤) . وكان
القضاء ينقسم إلى قضاء شرعى وقضاء مدنى ، وكان القاضى الشرعى يفصل فى
المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والموارث والأوقاف ، أما القضاء المدنى
فيشتمل على ثلاثة خطوط هى : النظر فى المظالم والشرطة المدنية والحسبة

(١) الإبريل ، ص ١٣١ .

(٢) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٤٠ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٥ ص ١٩٨ .

١ - النظر في المظالم :

هو منصب قضائي هام تختلط فيه سطوة السلطنة واصفة القضاء ويحتاج إلى علو يد وعظيم رغبة ، ويتقاضى برفع الظلم عن كامل المظلوم ، وكان متولى النظر في المظالم يعطى ما عجز القضاء عن إحصائه ، لأن سلطته تفوق سلطة القاضى عندما يتظلم المتقاضون من حكم جائر . وكان يرأس محكمة المظالم الخليفة نفسه أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة . وأول من جلس للنظر في المظالم في الدولة الأموية عهد الملك بن مروان الذى خصص يوما لبحث الشكايات (١) ، وظلت المظالم ترفع إلى الخليفة مباشرة حتى قهزم الدولة العباسية ، فهدوا بالنظر فيها إلى قاض يعرف بصاحب المظالم ينوب عن الخليفة ، ولا يفترط فيه أن يكون قاضيا ، فقد يكون وزيرا . وكان مقر النظر في المظالم قصر الخليفة أو المسجد الجامع . ويعتبر المهدي أول من اهتم من خلفاء بني العباس بالنظر في المظالم (٢) ، وكان يجلس في كل وقت لرد المظالم ، وروى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال : « أدخلوا على القضاء ، فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى » (٣) ، وتابع الخلفاء العباسيون بعده الجلوس للمظالم ، ومن هؤلاء الخلفاء الهادي الذى كان يجلس للمظالم ويفصل فيها بنفسه ، ولكنه كان يستغل جلوسه لمضايقة من كان يحقد عليهم ؛ ويذكر الجهمياري أنه كان يحتشد على حمارة بن حمزة (متولى الخراج بالبصرة) أيام كان وليا العهد ، فلما ولي الخلافة دس إليه رجلا يهدى عليه أنه غصبه الضيعة المعروفة بالبضاء بالسكوفة ، وكانت قيمتها ألف ألف

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ٧٤ .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

درهم ، ه فبينما الهادى ذات يوم قد جلس للنظام وعمارته بمحضته ، وثب الرجل
فتمظلم منه ، فقال الهادى لعمارته : ما نقول فيما ادعاه الرجل ؟ فقال : إن كانت
الضيعة لى فهى له ، وإن كانت له فهى له ، وانصرف عن المجلس ، (١) .

وذكروا أنه تأخر عن الجلوس للنظام إماما ، فدخل عليه على بن صالح
وقال له إن العامة لا تستقيم أمرها إن لم تجلس للنظام ، فقال : ائذن للناس على
بالجنلى لا التقرى . فخرج على بن صالح وهو لا يدري ما أراد وخاف مراجعته ،
فسأل أهرايبا عن الجنلى والتقرى ، فأفهمه أن الجنلى دعوة المموم والتقرى
دعوة الخصوص ، فأمر على بن صالح برفع الستور وفتح الأبواب ، فدخل
الناس ولم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل (٢) .

وفى عصر الرشيد فوض إلى جعفر النظر فى قصص المتظلمين ، فكان جعفر
يجلس للنظر فيما (٣) ثم تابع المأمون سياحة المهدي والهادى ، وكان يجلس
للمظالم ، ويروى ابن طينفور أن المأمون قدم يوما للمظالم ، فقدم سلم صاحب
الحوائج بضعة عشر رجلا ، فنظر فى مظالمهم ، وأمر فقتضوا حوائجهم ، وكان
فيهم نصراني من كشكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه ، فلما
بصر به المأمون أثبتته معرفة فقال : ابطحوه ، فضر به عشرين درة ، ثم قال اسلم :
قل له تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصراني : قل له أهود
وأهود وأهود حتى تنظر فى حاجتى . فأبلغه سلم ما قال ، فقال : هذا مظلوم

(١) الجبهيارى ، ص ١٠٨ .

(٢) الإردى ، ص ١٠٤ .

(٣) الجبهيارى ، ص ١٦٤ .

مواطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ، ثم قال لابن هبادة : انقض حاجته هذا
 كأننا ما كانت الساعة ، (١) . ولم يكن المأمور يكتفى بالنظر في المظالم في المجلس
 وإنما كان ينصف المتظلمين الذين يتردعون موكبه ، والأمثلة عديدة في كتب
 التاريخ والأدب ، منها أنه اعترضه - وهو راكب بالشمسية ببغداد وخلفه
 أحمد بن هشام - رجل من أهل فارس وصاح به : والله الله يا أمير المؤمنين ،
 فإن أحمد بن هشام ظلمني واعتدى علي ، فقال له المأمون : دكن بالبأساب حق
 أرجع ، ، فلما جاز الموضع التقت المأمون إلى أحمد وعذبه ، ثم أمره بأن
 ينصفه من نفسه ، وقال له ولا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من أئمتك ، فوالله
 لو ظلمت العباس ابني كنت أفل تكيرا عليك من أن تظلم ضمينا لا يحدني في كل
 وقت ، ولا يجولوا له وجهي وسيا من تجشم السفر البعيد وكابد حر الحواجر
 وطول المسافة ، (٢) .

وكان صاحب المظالم ينظر في القضايا التي يقيمها الأفراد على الولاة إذا
 تبعت اشتغالهم في جميع الضرائب أو الجزية أو منع بناء كنائس أو من سوء
 معاملة الموظفين للأهالي ، كما ينظر في ظلمات من نقصت أرزاقهم . وكان
 المتظلم يقدم تظلمه كتابة عن طريق رقعة أو قصة يقال لها عاصمة أو شكوى
 أو ظلامة ، فتعرض هذه للظلامة على مجلس المظالم .

ب - الحسبة :

ليست هذه الوظيفة في الواقع منسبة قضائيا ، وإنما هي منصب ديني

(١) ابن طيفور ، ص ٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

أخلاق أساسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ملحق بالقضاء لأن فيه حكما ، ثم تعدت الحسبة هذا المبنى الدفين إلى أمور مادية تنفق مسع مصالح المسلمين ، فأصبحت الحسبة أشبه بخدمة إجتماعية إقتصادية لسكان المدن كالمحافظة على نظافة الطرق ومراقبة الأسواق ، والكشف عن صحة الموازين والمكاييل ، والرأفة بالحيوان ، ومنع مملو الصبيان من ضرب الأطفال ضربا شديدا ، ومنع الناس عن شرب الخور . ولكن العمل الاساسي للحسبة لم يلبث أن تطور بعد أن تجاوزت الحياة في المدن فأصبح اقتصاديا يقوم على منع الغش في الصناعة والمعاملات ، وخاصة الإشراف على صحة الموازين والمكاييل ، وكان المحاسب يسير بنفسه في الأسواق ومعه أعوانه من الخبراء في شئون الاسوان يعرفون بالعرفاء ، يحملون الموازين والمكاييل الصحيحة ، فيدس المحاسب أحد أعوانه على البائعين ويختبر وزن السلعة أو كيلها .

وكانت المحاسبة سلطة تنفيذية مفوضة إلى رأيه وهو ما يعرف بالتميز (الحر) الذي يعني نوعا من العقاب لم يقرره القرآن ، ولكن اتفق عليه في البلاد التابعة للخلافة العباسية ، وكان يستعمل في تنفيذ العقاب بالاهدوان . والعقاب أنواع منه الردع على شيء محرم والتوبيخ بالقول أو الضرب بالسياط أو الدرة ، والنفي من البلد ، أو التدهيد والتجريس .

وكثيرا ما كان القضاء والحسبة يستندان معا إلى رجل واحد رغم ما بين العاملين من الاختلاف ، فعمل القاضي ينبثق على التحقيق والإنابة في الحكم ، وعمل المحاسب قوامه الشدة والسرعة في العمل (١) .

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السني ، ج ٢ ص ٢٩٥ .

٥ - الشرطة :

هم جماعة من الجنود كان يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في حفظ النظام والتبص على المجرمين ، ويتمرن حملهم بنظام الحراسة والعسس في الليل ، وكانت في الأصل ملحقة بالقضاء لأنها تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وصاحبها يتولى إقافة الحدود . وكان أصل ومنها في الدولة العباسية ، لمن يقسم أحكام الجرائم في حال استبدالها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها ، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرح إلا في استيفاء حدودها . والسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن ، لما توجبه المصلحة العامة في ذلك . فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء واستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدعاء بإطلاق وأفردوا من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة ، وفلادوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليتهم ، (١) .

وكان صاحب الشرطة يختار عادة من أهل العصبية والقوة ، لأن عليه تقع مسؤولية المحافظة على الأمن في البلاد ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وكان يسمى عند العامة بصاحب الليل إذ كانت خطته تمن الطواف بالليل ، وكان من مهامه بث العسس في الأزقة والعيوارع للقبض على اللصوص والسطار وهم طوائف من عامة الناس اشتهروا بالسرقات وكانوا يستدرجون ضحاياهم ويسلبونهم ما معهم بحيل لا ينظنون إليها مع التظاهر بالبراءة (٢) ، ونشطت حركتهم في أعقاب الفتنة بين الأميين والمؤمنين

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٥ .

(٢) الفتنخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٣٣ ، القاهرة ١٩٥٥ .

ومن الشخصيات البارزة التي تولت الشرطة القائد الكبير طاهر بن الحسين،
ولاه المأمون الشرطة في سنة ٢٠٠ هـ (١). وذكروا أنه لما إليه بعد توليه الشرطة
أن في المحبس رجلا تنصر، فأمر حاجبه يحيى البوشنجي بأن يحمل السيف والتمنع
ويأتى به دار المأمون إلى مجلسه، ثم استدعى الرجل وقال له : يا همدو الله
تنصرت بعد الإسلام؟ قال : أصلح الله الأمير، والله ما تنصرت وما أنا إلا مسلم
ابن مسلم، ولكن جئت في كساء بدرهمين سنتين، فلما رأيت أمرى طال،
وليس لي مذكر يذكرني قلت إنى مصراني، وأنت أيها الأمير مصراني، وهذا
وهذا مصراني، وأنا رجل من أصحابك أيها الأمير فكبر طاهر، ودخل
على المأمون فأخبره الخبر، وأمر أن يوهب له ثلثمائة درهم وأن يغسل مسيحه،
فأمر طاهر بذلك (٢).

ويعتبر الرشيد أكثر خلفاء بني العباس حرصا على توفير الأمن في البلاد،
فقد دس شبكة من الميون بإمرة صاحب الشرطة حتى يمنع الاضطراب الذي
يحدث من كثرة الوافدين إليها، وأقام الحراس بالليل للمحافظة على الدروب (٣).

وكان صاحب الشرطة يعاقب المفسدين إما بالحد والرجم وهي عقوبة من
يشرب الخمر ويحمل المنكر، أو بقطع اليد اليمنى من مفصل المرفق للسارق لأول
مرة أو الرجم بالحجارة أو الجلد بالسياط أو السجن في المطبق وهو المحبس.

(١) ابن طيفور، ص ١٣.

(٢) ابن طيفور، ص ١٤.

(٣) النويري، ص ١٧٦.

(٧)

العباسيون الدفاعية

١ - الجيش :

اعتمد الخلفاء العباسيون حتى عصر المعتصم على العناصر الخراسانية بوجه خاص والفرس بوجه عام أكثر من اعتمادهم على العرب ، وأصبح الفرس في المكانة ما كان للشاميين في العصر الأموي ، ومع ذلك فقد كانت فرق الفرسان عند العباسيين تشكل من العرب في حين كانت فرق المشاة من الفرس وخاصة أهل خراسان .

وعلى الرغم من أن العصر العباسي الأول شهد غلبة الفرس في قيادات الجيش والإدارة والوزارة والحجابه ، إلا أن بعض العناصر العربية على العمدة العباسية (١) ، فإن البنصر العربي ظل يحتفظ بوجوده وكيانه في كثير من المناصب القيادية والإدارية وإن كان قد تخلى عن السيادة ، والأمثلة على ذلك كقصة : فمندا أراد السجاج القضاء على ثورة منصور بن جهور في الهند في سنة ١٣٤ اصطلع قائداً عربياً هو منصور بن كعب سهره على رأس جيش من ٣ آلاف من العرب والموالي وألف رجل من بني تميم خاصته . وعندما قامت

(١) مثل ثورة عبد الله بن مروان بن عبد الأموي في الشام سنة ١٦١ في خلافة المهدي ، وعلى الأخص ثورة نصر بن شيبان بالجزيرة بعد مصرع الأمين ، وكانت ثورة موجهة ضد النفوذ الهارسي وليس ضد الحكم العباسي ، فمندا ذهب بعض العلويين وطلب منه البيعة لمطوى وفس بقوله : « إنما هوأى مع بني العباس ، وإنما حاربهم لمخافة من العرب لأنهم يمدون عليهم للمعجم » .

حركة سنابذ في اعقاب مصرع أبي مسلم ، تولى إخمادها قائد غربى هو أبو جعفر
 جمهور بن مرار (١) . كذلك تولى القائد العربى خازم بن خزيمة إخماد حركة
 أسفاذ سيعس المسلية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . وتأنف أسرات عربية
 في الجيش العباسى منهم : آل قحطبة وآل المهلب وآل هريث . ثم
 تضعض مركز العرب بالتدريج وسرى فيهم الضعف نتيجة الصراع بين اليمنية
 والنزارية ، وبالتدريج فقد العرب مرا ذرهم البارزة في الجيش .

ولما تولى المتصم الخلافة ، رأى أن يطعم جيوشه بمنصر حربى جديد يعتمد
 عليه في حماية الدولة العباسية ، فاستكثر من الأتراك في الجيش ، وآثرهم على
 العرب والفرس ، ومعظم أجناده للترك كان يحملهم من أشروسنة وقرغانة وبلاد
 القاش وما وراء النهر ، وعمل على عزل هذه العناصر للتركة عن سائر الناس ،
 فبنى لهم مدينة سامرا ، وأفرد لهم قطائع متميزة حتى لا يختلطوا بالعرب والفرس ،
 وبالغ في ذلك إلى حد أنه — حرصاً منه على أن يحتفظوا ببقاء دعاتهم —
 واشترى لهم الجوارى ، فأزوجهن منهم ، ومنهم من أن يتزوجوا ويصاهروا
 إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى
 لجوارى الأتراك أرزاقاً قائمة ، وأثبت أسماءهن في الدواوين ، فلم يكن أحد
 منهم يقدر يطلق إمرأته ولا يفارقها ، (٢) . كذلك اتخذ لأجناده الأتراك زياً
 خاصاً ، ألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلقة المذهبة ، وميزهم في
 الرى عن سائر جنوده (٣) .

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٢٦ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٦٥ .

ومع هذا الاهتمام بالأتراك ، اتخذ المعتصم فرقة من عرب مصر من القيسية والبنية سهام المناربة (١) ، كما اشترك في جيده فرق من الفرس من أصحابان وغورين والجليل وأذربيجان وغيرها . وبالإضافة إلى هذه الفرق ، اشترك في الجيش العباسي في زمن المعتصم جماعة من العرب المطوعة ، كان يستخدمهم الأتراك في مقدمة الجيش لإنهاء قوى العدو قبل الدخول في المعركة .

ولستدل من وصف الحملات التي قادها الرشيد والمعتصم ضد البويعيين ، وخاصة حملة المعتصم على حمورية ، أن الجيش كان ينقسم إلى كراديس وبين كل كردوس وكردوس قدر رمية سهم (٢) ، منها كراديس للرجال وكراديس للفرسان ، وبعض كراديس الرجال ناشبة تحمل النشاب . وكانت الكراديس تنقسم جميعاً إلى مقدمة وسينة وميمنة وقلب يتولى على كل منها قائد ، ثم يلي ذلك الساقة وفيها الانتقال والجابق وآلات الحديد والأناط والارواح كحياض الأدم والروايا (٣) . وكان يفتك في الجيش طهية من الأدلاء يعرفون المسالك والطرق والجبال . ولستدل من وصف المسعودي لحصار جيش المأمون بغداد أن المتحاربين كانوا يتخذون على رؤوسهم خوذاً من الخوص ودرقا أو ترسا من الخوص ، أما الفرسان فكانوا يضمنون على صدورهم الجواخن وهي كسوات حديدية من حلقات متصلة تغطي الصدر وقد تصل إلى الخواذات وتحمي بالوردية السابلة ، ويكسبون خيولهم التجاليف ، ويكسبون بالرماح والفرق التهمة (أي المصنوعة في التوت) (٤)

(١) نفس المصدر .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٢٠ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٢٦ .

(٤) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٠٣ .

ب - البحرية :

توقفت النشاط البحري للمسلمين في مصر والعام في بداية العصر العباسي فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة بسبب انصراف الدولة العباسية - التي انتمت منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراجان - من شؤون البحر ، ونفض يدها من بحاربة البيزنطيين في البحر المتوسط (١) ، بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية . وقد ساعد على تجميد النشاط البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البيزنطية هي الأخرى من المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية والمهاكل الخارجية التي عصفت بها كالزاع اللايقون الذي تجدف منذ أن اهتلى ليوالخامس الأرضي العرش البيزنطي ، وثورة توماس الصقلي التي احتدمت نارها في أعقاب مصرع ليوالخامس في سنة ٢٠٥ هـ (٨٢٠ م) ، والصراع مع البلغار منذ عهد قسطنطين السادس وأمه إيرين ، كما ساعد على ذلك أيضا انفصال المغرب الإسلامي والأندلس عن المشرق سياسيا ، وتطلعه إلى القيام بدور بحري فعال ، واعتماده في ذلك على مقوماته الذاتية مع استغلاله للظروف السيئة التي كانت تمتازها الإمبراطورية البيزنطية .

ومع ذلك كله فقد أبدى خلفاء بني العباس ابتداء من الرشيد اهتماما خاصا بالشؤون البحرية ، فلهذا يرى يهودي إلى ذلك بقوله : وقد رأينا من اجتهد أمهر المؤمنين هارون في النزور ، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمرا عظيما : أقام من

(١) فتح عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ج ١ ص ٣٨٢ ، ج ٢ ص ٣٤٧ ، القاهرة ١٩٦٧ .

الصناعة (أى دار صناعة الأسطول) ما لم يقيم قومه ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل ، وأشجى الروم وقهمهم ، وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل ، وأن تشحن بالمقاتلة ، (١) . والرشيد - كما يشهد الطبرى - ولي حميد بن مهوف سواحل بحر الشام ومصر في سنة ١٩٠ هـ ، فنزوا جزيرة قبرص عندما نكث أهلها العهد مع المسلمين ، وهدم وحرق وسبي من أهلها ستة عشر ألفا ، فأقدمهم الرافقة ، فتولى يدهم أبو البختري ، فبلغ أسقف قبرص ألفى دينار ، (٢) ، كما غزا جزيرة إقريطش (٣) . وعلى هذا النحو بدأ المهاجمون يسهون منذ خلافة الرشيد إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط الشرقي (٤) لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والاندلسيين الذين آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربي . ولكن الاوطاع في البحر المتوسط الشرقي أخذت تنهض بالتدريج لصالح المسلمين ، ليس بفضل الجهود التي بذلها الرشيد والمتوكل فحسب بل بفضل جهاد غزاة البحر الاندلسيين (٥)

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٩ - ابن الأثير ، ج ١ ص ١٩٦ - السبولى ، ٢٦٨ .

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) وما يثبت هذا السعي والاهتمام أت الرشيد وام أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القزم مما يلى بلاد القرم نحو بلاد تنيس ، فنهضه يحيى بن خالد البرمكى بالانصراف عن تنفيذ ذلك المشروع وخوفه من دخول أكابر الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز ، فعزل الرشيد عن المنفى في تنبليز (المهودى ، ج ٢ ص ٢٦٤ - السبولى ، ٢٦٦) .

(٥) راجع ما كتبه في : تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ص ٧٠ - ٥٣ ؛ تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ١٢٨ - ١٤٥ ؛ تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٧ - ٨٢ ، ١٢٢ - ١٢٦ .

ونشاط البحرية الأغلبية (١) وذلك عندما تمكنت طائفة من الفراء البحرية
الاندلسيين من النزول في إفريطش ، والاستلاء عليها في ٢٠٢ هـ في الوقت الذي
كان القاضي أسد بن الفراء قائد الأمه زيادة الله بن الأغلب ينزل مع قواته في
ماز من موانئ صقلية ويشرح في فتح هذه الجزيرة الكبرى (٢)

وهذا أن تمر كز الاندلسيون في إفريطش ، استأنفت البحرية الإسلامية
نشاطها في مصر والشام ، فلم تلبث إفريطش أن دخلت في طاعة الخليفة العباسي
لتسقط بجماعته ، بسبب ما منهم من بلادهم وبنو جديرتهم من سواحل مصر (٣) ،
وأصبح إفريطش في التقسيم الإداري للدولة العباسية إقلياً تابعاً لمصر (٤) ،
حتى سقطها في أيدي البيزنطيين في سنة ٢٥٠ (٩٦١ م) ، وكانت مراكب
إفريطش ، تدير أهل مصر بخرات جديرتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل
إلى عمال مصر ، (٥) ويشهد التويري السكندري إلى أنه كان يحمل عن إفريطش

-
- (١) راجع أيضاً : المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٨٥ - ٣٩٢ : تاريخ البحرية
الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٩٥ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٢ .
- (٢) مارتينو مارتينو مورينو ، المسلمون في صقلية ، بيروت ١٩٥٢ ، ص ٥ - سالم ،
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٠٤ .
- (٣) انظر نص رسالة عبد الرحمن الأوسط إلى الإمبراطور نيوفيل في : لبني يروفسال ،
الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، ص ١١٥ - ١١٨ .
- (٤) إبراهيم أحمد المدوي ، إفريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن العاشر
الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ،
ص ٥٩ .

- (٥) القاضي النعمان ، قضية إفريطش في عهد الخليفة ، تحقيق فرحات الدشراوي ،
حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ١٩٦٥ ص ٣٣ .

والمسل النحل والجبن الكثير لصبر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا ، (١) نسبة إلى مدينة كنديا أو الخندق ، قاعدة إقريطش وكانت مصر تنقل توريدهم بالسلاح والمعدات ، كما كانت دار صناعة دمياط تزودهم بما يلزمهم من السفن التي تلتحقها من أخشاب إقريطش . وبفضل هذا الأسطول تمكن أهل هذه الجزيرة من مهاجمة جزر بحر الارخبيل ، وفرطوا سعادتهم في حوض البحر المتوسط الأوسط ، وبالقدر يج أصبحت إقريطش منذ النصف الثاني من القرن الثالث أم قاعدة بحرية المسلمين في النصف الشرق من حوض البحر المتوسط ، وبفضل جهاد أهل إقريطش في البحر وتضامنهم مع أهل مصر والشام وازدياد نشاطهم في غزو سواحل الروم وجنود بحر إيجه ، استعادت البحرية الإسلامية في العصر العباسي في مصر والشام نشاطها واستردت سيوتها .

وإقريطش تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز في وسط البحر المتوسط ، فهي تؤلف جسرا يربط بين شبه جزيرة البلبونين وشبه جزيرة الأناضول ، ولهذا فهي تتمتع بحكم هذا الموقع في الممرات المائية إلى بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى ومقدونيا ، ثم هي تجاوز عددا لا يحصى من جزر بحر إيجه مثل جزيرة رودس وسكرونتو وميلوس وساموس ونخسوس ولخوس وتاسوس وميتيليني التي تشكل جميعا خطا دفاعيا أمامها لسواحل الإمبراطورية البيزنطية المطلة على بحر إيجه وبحر مرمرة ، ولهذا السبب يتيسر لفاتحى هذه الجزيرة تهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديدا مباشرا . وجزيرة إقريطش بالإضافة إلى ذلك

(١) النويرى ، الإمام بما لغت به الأحكام ، ص ١٢٣ . ويسميه ابن الأثير «كند»

(ابن الأثير ، السكاكيل ج ٧ ص ٦٩) .

كله غنية بالأشجار التى يمكن أن يستغلها المسلمون فى إنشاء الأساطيل ، وغنية بأراضيها الخصبة الممتدة على السهول الساحلية فى شمال الجزيرة . ولقد فطن معاوية بن أبى سفيان إلى أهمية هذه الجزيرة ، فزادها فى أيامه بجنادة بن أمية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة النفوذ الإسلامى بعد سنوات قليلة من حركة جنادة ، على أثر الفشل الذى انتهى إليه حصار المسلمين الأول للقسطنطينية فى سنة ٦٠ هـ (٦٧٩ م) . ثم غزاها حميد بن مسروق الحمداوى الذى ولاه الرشيد سواحل بحر الشام (فى سنة ١٩٠) فى خلافة الرشيد ، ففتح جانباً منها (١) ، ولكن النفوذ الإسلامى لم يلبث أن انحصر عن الجزيرة مباشرة على أثر رحيل النزاة . وظلت جزيرة إقريطش تابعة للهنديين الذين حرروا على الاحتفاظ بها فى قبضتهم بسبب ما تتمتع به من استراتيجيّة تكفل لمن تكون فى حوزته السيطرة الفعلية على مداخل بحر إيجة ، والتحكم فى الجزر العنقبة الممتدة ما بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق ، إلى أن تمكنت قوة من المغامرين الأندلسيين — وهم طائفة من النزاة البحرين كانت قد أرغمتهم الظروف بعد إحدى غزواتهم على إرساء سفنهم على ساحل منطقة الرمل بالإسكندرية فى سنة ١٩٨ هـ (٨١٤ / ٨١٥ م) لابتهاج ما يصلحهم من الماش وشحن سفنهم بالمؤن والأقوات التى تكفيهم لموسم غزوم التالى ، على نحو ما كانوا يفعلون من قبل فى كثير من غزواتهم البحرية — (٢) من استغلال الأوساخ الساحلية السيئة فى البلاد المصرية ، واضطراب العرب المقيمين

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) البلقوس ، تاريخ البيقوسى (طبعة النجف) ج ٣ ص ١٧٤ - الكندى ، كتاب الولاة وكتاب الفضائل ، تحقيق جست ، ص ١٥٨ - سالم ، تاريخ الإسكندرية ص ١٣٧ .

بالإسكندرية ونواحيها من لحم وبنى مدلج ، فدخلوا طرفا فى النزاع ، وأهدوا
عمر بن هلال الهدايا على خصومه وأعادوه إلى ولاية الإسكندرية ، وتمبسا
لهم بذلك اجمال النزول بأرض الإسكندرية والإقامة فى برها على الأقل أثناء
فصل الشتاء الذى يتوقف فيه النشاط البحرى ، بدلا من البقاء على ظم-ور
السفن ، ثم انتقلوا على ابن هلال واشتبكوا مع النخمين فى قتال عنيف ،
فهمزهم ، ودخلوا الإسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦)
واستبدوا بقدونيا .

وهزم المأمون العباسى على وضع حمد للاضطرابات العالمية فى مصر ،
فسهر جيشها من الحراسانيين إليها فى سنة ٢١٠ (٨٢٥ م) ثولى قيادته
عبد الله بن طاهر ، وبعد ابن طاهر فى طالب بعض السفن العباسية المرابطة
فى الثغر (طرسوس) إلى نفيس ، وتمكن بفضل قواقه من السيطرة على المارقف ،
وحاصر الأندلسيين بالإسكندرية ، فصالحوه على أن يخرجوا منها إلى حيث
أرادوا من جزائر الروم ، فاختاروا إقريطش (١) التى سبق لهم أن أثاروا
عليها وعلى غيرها من الجزر اليونانية فى عام ٢١١ هـ ، يقودهم إبراهيم أبو حفص
عمر بن شعيب فى أربعين سفينة إلى جزيرة إقريطش حيث نزلوا فى خليج
سودا (٢) . ويذكر البلاذرى أنهم افتتحوا من إقريطش حصنا واحدا ، ثم
توسعوا بعد ذلك ، ففتحو إقريطش حصنا حصنا (٣) ، حتى آتوا فتحها فيما

(١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ،

ج ١ ص ٤٥ .

Vasiliev, Byzance et les Arabes, t. . la Dynastie (٢)
D' Amerium, Bruxelles, 1935, p. 54.

(٣) البلاذرى ج ١ ص ٢٢٩ .

يقرب من سنة ٣٣٠ هـ (٨٤٠ م) (١) مستغلين في ذلك حالة الضعف التي أصيب بها البيزنطيون في أعقاب فتنة توماس .

وكان طبيعيا أن يلتزم مسلسلو إقريطش الأمان في ظل سلطنة إسلامية تظلمهم بحمايتهم ، فدخلوا في فلك الدولة العباسية ، ثم أخذوا يمارسون ليشاطهم البحري ضد البيزنطيين ، فهاجروا جزر بحر إيجة ، وهددوا سواحل آسيا الصغرى واليونان ، وأدرك ميخائيل العموري مدى الخسارة التي أصابت نقطة بضائع جزيرة إقريطش التي أصبحت على حد قول ياقوت « من أعظم بلاد المسلمين تكاية على الروم » (٢) فبذل محاولات مائة لاستردادها ، ولكنها باءت جميعها بالفشل ، وأدى الفعل المتلاحق الذي منيت به حملاته البحرية على الجزيرة إلى تخليه نهائيا عن فكرة استردادها . وما إن كف البيزنطيون عن محاولاتهم لغزو الجزيرة في عهد تيوفيل حتى تفرغ أهلها للجهاد البحري ، وأحرزوا على الأسطول البيزنطي الكثير من الانتصارات (٣) ، وظلوا يشكلون خطرا جديا على لدولة البيزنطية التي عجزت تماما عن القيام بدفعهم أو وضع حد لغاراتهم .

وإلى جانب هذه القاعدة البحرية الهامة للعباسيين في شرق البحر المتوسط ، كانت لدى العباسيين قواعد بحرية هامة منها :

١ - الاسكندرية:

حرص ولاية العباسيين في مصر على مواصلة الاهتمام بها بحيث أصبحت

(١) أهرام الحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ مادة إقريطش .

(٣) سالم ، البحرية الإسلامية في مصر والقام ، بهوت ١٩٧٢ ص ٤٢ ، ٤٣ .

المركز الرئيسي للعمليات العسكرية في المغرب انتمرد على العباسيين . ففي سنة ١٢٦ هـ سار أبو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة حامر بن إسحاق بن زياد ، كما أمر بإرسال المشي بن زينا الحامسي إلى الإسكندرية ليجهر المراكب منها للإفلاق نحو طرابلس الغرب (١)

٢ - دمياط :

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهامة في العصر العباسي بوجه خاص لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرق النيل الذي سمي باسمها من جهة ثانية . وكان من دوايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع حوض المتوسط على حوض البحر المتوسط . ولم تبرز دمياط كساعة هامة منافسة الإسكندرية إلا منذ أن استولى هؤلاء البحار الأندلسيون على إقریطش ، إذ ارتبطت إقریطش بدمياط ارتباطا مباشرا ، وكانت دمياط تزودها بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلوع من إنشاء دار صناعة دمياط أو جزيرة الروضة .

٣ - طرسوس :

كانت تمتد ما بين الإسكندرية وطرسوس حصون ومسالح الروم أخلاها أهلها وانتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفا من غزوات المسلمين في العصر الأموي ، فتمسكت هذه الحصون بمرور الزمن ، فكان المسلمون إذا غزوا البلاد البيزنطية ألغروا خالية غربة . وكانت طرسوس حصنا من هذه الحصون الحربية التي كان يمر بها المسلمون عند غزورهم لبلاد الروم وتقع طرسوس على

الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في خليج إسكندرونه ، ويشقها نهر صغرى يقال له
البردان (١) ، وأول من أوصى بإعادة بنائها وتحصينها لتكون قاعدة للجيش
المسلمين القائد الحسن بن قحطبة الطائى ، إذ أحس بأهميتها أثناء مروره بها
في سنة ١٠٦٢ هـ ، في عهد المهدي المباسى ، ولكن تعميرها وتحصينها لم يتم إلا في
سنة ٧١٠ هـ على يد الرشيد . ولما أحكم بناؤها (٢) نزلها طائفة من أهل خراسان
عدتهم ثلاثة آلاف للدفاع عنها ، ثم نزلها ألف من أهل المصيصة ، وألف من أهل
الطاكية ، فأقطعت لهم الإقطاعات والمخططات ، وأصبحت طرسوس منذ ذلك
الحين مركزا هاما للرباط ، وأعظم القواعد البحرية في الشور الهامة .

(١) لاسكندى ، كتاب الولاية وكتاب القضاء ، ص ٢٢٩ .

(٢) الطبرى ، ج ٢ ص ١٠ - الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٥٥ .

الفصل السّاوي

الانتظامات الإجتماعية والعمرائية والإقتصادية

- ٢٩٥ -

أولا

صورة للمجتمع المدني في العراق في العصر العباسي الأول

(١)

مجتمع الخاصة

نقصد بمجتمع الخاصة مجتمع الطبقة الحاكمة من كبار موظفي الإدارة المركزية والقواد والقضاة والوزراء والكتاب والحجاب ، ويتميز هذا المجتمع بـسبوع الترف والنلو له اسطناع الابهة ومظاهر الملوكية بحكم التأثير بتقاليد الفرس القديمة والنزوع الى الرفه في الاطعمة والاشربة والازياء والفرش والآنية ، والتأنيق في الحياة والتماس المتعة في المساكن والمباني بإقامة القصور المنمقة الجدران الموزونة الابعاد وغرس الرياض والجنان والركون إلى الدعة ، وبمعنى آخر تجاوز ضرورات العيش إلى الرفه والكما الى (١) .

وإلى المام —دى العباسى يرجع الفضل في إضفاء مظاهر الابهة والفتخامة التي غلبت على بلاط الخلفاء العباسيين وسادت المجتمع الخاص منذ بداية خلافته ، فابن طباطبا يقول عنه : « وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة . . . » (٢) ، والمسعودى يذكر أنه كان مسرفا في العطاء ، « بسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار سوى ما جباه في أيامه . . . » وقيل إنه فرق في عشرة أيام من صلب

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٩٥ .

(٢) ابن طباطبا . ص ١٦٣ .

ماله عشرة آلاف ألف درهم (١) . وتابع خلفاء بني العباس بعده هيباً سنة
الإسراف ، والعلو في حياة الترف والاهتمتاع بالحياة لم يلتزم بها الخليفة
المؤمنان للدولة وأعطى بهما : السقاج والمنصور ، وكلاهما انضم حد الاعتدال
في حياته الخاصة ، واتسم همد كل منهما بالافتصاد في الترف على الرغم من قوتها
وعظم سطوتها ، ولا شك أنهما كان يدركان حق الإدراك مسؤولياتها الكبرى
باعتبارهما مؤسسين للدولة فتية على أفتاح دولة قوية كان في مقدور صناعتهما
إحياءها من جديد في قلب العالم الإسلامي ، لولا نقطة مؤسسى الدولة العباسية .
ومع ذلك فقد توصل أمهر من سلافة بني أمية إلى تحقيق هذا الهدف في أقصى
الأنطراف الغربية للعالم الإسلامي مؤسساً دولة بني أمية في الأندلس . وعلى
هذا النحو تفرغ السقاج والمنصور لتسكين الفتن وإخماد الثورات التي
احتدمت في عهديهما ، ونجح المنصور في أن يترك لابنه المهدي ملكاً ثابتاً وطيد
الأركان يسوده السلام والأمن .

ويذكر عن حياة الترف التي طرأت على المجتمع العراقي في العصر العباسي
الأول الهدايا النفيسة التي اعتاد كبار رجال الدولة تقديمها إلى الخلفاء في
المناسبات المختلفة ، ويشير البيهقي إلى أن الرشيد تلقى من الهدايا ألف غلام
تركى بيد كل منهم حلتان . لولتان من الششترى (٢) والأصفهاني (٣)

(١) الم. هودى ، ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢) لششترى نوع من التبج الفارسي اشتهرت به ششتر (بالقوت ، معجم البلدان ،
مجلد ١ ص ١٩٦ . Dozy, Supplément aux dictionnaires Arabes, Vol. I, p. 755, Beyrouth 1968.) .

(٣) لششترى اشتهرت به أصفهان (Dozy, op. cit., p. 26.) .

والسلاطون (١) والملحم من الديباج التركي والهدارى (٢) وغهد ذلك من
الأنواع . ووقف النذلان بهذه الحلل وعلى أثرهم جاءت ألف جارية تركية
بيد كل واحدة كأس من ذهب يحتوى على الياسمين وملوّه المسك والكافور
والعنبر وأصناف العطر وطرائف السلاط ، ثم مائة غلام هندي ومائة جارية
هندية فى غاية الجمال مرتدين ملابس ثمينة ، ويبد الغلمان سيوف هندية من
أجود ما عرف فى السيوف ، وكانت الجوارى يحملن الثياب الرقيقة فى أسفاط
من القصب ، ويبدن أفيال خمسة منها أنثيين عليهما سروج الديباج وحرابا من
الذهب والفضة والأنثيين منهما عليهما مهدان من الذهب أحمرتهما وعدتهما
مرصتان بالجواهر البديعية (٣) والفهدوز ، ثم خيول جيلانية ومائتا فرس من
خراسان بسروج من الديباج ، وعشرون عقابا وعشرون شامينا ، وألف جمل
منها مائتان بعدد والأجمة منطاة بالحريير والديباج ، وثلاثمائة أخرى عليهما
الحامل والممود ، عشرون منها عليها حامل مذهبة ، وما بين خمسمائة وثلاثمائة
قطعة من البلور من شتى الأصناف ومائة زوج من الأبقار ، وعشرون
عقدا من الجواهر الغالى القيمة وثلاثمائة ألف حبة من القلور ، ومائتا قطعة من
الصيفى المنفورى ، من الصحنون والكؤوس وغدها بمالم يشهد مثلها فى قصر أى
ملك ، وألفا قطعة أخرى من الصيفى من الألوان الكبيرة والكاسات الواسعة
وزهرات صينية كبدية وصفيدة وأنواع أخرى ، وثلاثمائة من الستائر الملكية

(١) تبيح من الحرير المطرز بخيوط الذهب ولهله الختم المرقوم بالذهب
(Dozy, op. cit., p. 663).

(٢) نوع من الثياب الحريرية (Dozy, op. cit., Vol I, p. 481).

(٣) نسبة إلى مدينة بدخش أو بدخشكت من بلاد الشاش (بالقوت ، ترجم البلدان ،

جند ١ (س ٣٥٧) .

ومائتان من سجاد القصور ومائتان من السرو . (١) كذلك قدرت الهدايا التي أهداها يحيى بن خاله البرمكي للرشيدي باثني عشر ألف ألف دينار (٢) ، وهو مبلغ ضخم يدل على عظم جاه البرامكة وراثتهم . ويروى ابن طباطبا أن الرشيدي بعد أن نكب البرامكة حرم على الشعراء أن يروهم ، فاعتقل بعض الحرس رجلا في يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة ، فهدده ويهكي ، فلما مثل أمام الرشيدي وصّأ له عن ذلك واعترف رغم تحريم الرشيدي لرثاء البرامكة ، قال للرشيدي : يا أمير المؤمنين إن أذنت لي في حكاية حالي حكيتهما ثم بعد ذلك أنت ورايك ، فسمح له الرشيدي ، فذكر له أنه كان كاتباً من أصغر كتاب يحيى بن خاله وأرغمهم حالا ، فطلب منه يحيى يوماً أن يضيّفه هذا الكاتب في داره ، فطلب منه الرجل أن يسهله بعض الوقت حتى يصلح داره ويهيئ أسباب الدعوة ، فأمله حتى أصلح شأنه ، ثم دعا الوزير وإبنيه جهمراً والفصل ، فلما أكلوا قام يحيى يتمشى في الدار حتى انتهى إلى جدار منها وطلب بناء ، فاهتزس الكاتب صاحب الدار على هدم الجدار خشية أن يفتح هذا الجدار على بيوت جيرانه ، فألح الوزير ، وفتحوا الجدار وخرجوا من الفتحة إلى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه وبه من المنقاص والمساكن والآلات وانعمرش ما يروق كل ناظر ، فنال له يحيى : وهذا المنزل وجميع ما فيه لك ، وأخبره أنه منذ أن حدثته في أن يضيّفه قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة له وهرها داراً فخمة ونقل إليها من كل شيء . ثم أنه وهب كاتبه ضيعة لئلا عليه مالا

(١) البيهقي ، تاريخ البيهقي ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٦

ص ٤٤٢

(٢) باحسين ، البرامكة ، بغداد ، ١٩٦٢ ص ٨٢ .

يستطيع أن ينفق منه على الدار والخدم ، ووجه عشرة آلاف دينار على القور (١) . وتنب لنا حفلات الأعراس التي يجيها الخلفاء وأبناؤهم عن حياة الابهة والفخامة التي تتوفر في مجتمع الخاصة ، من ذلك زواج الرشيد بريدة ، فقد ذكر أنه قدم لها من الآلة وصناديق الجوهر والحلى والتهجان والاكاليل وقياب الفضة والذهب والعطيب والكسوة ، ولما زف إليها في ١٦٠ بقصر الخلد جمع الناس من الأقاليم رثاء عليهم الأموال ، فكانت الدنانير توضع في جامات (أى أطباق مستديرة) من الفضة بينما كانت الدراهم الفضية توضع في جامات الذهب ، وفرق عليهم نوافج المسك وأقداح العنبر وقوارير العطيب ، وخلع الوشى المنسوجة ، وبلغ ما أنفقته الرشيد من ماله الخاص خمسين ألف ألف درهم (٢) . ومنها زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد ذكروا أن المأمون أمهرها بمائة ألف دينار وخمسة ملايين درهم ، وقيل أمهرها ليلة زفافها بألف حصاة من الياقوت ؛ ويصف المسمودي ما قدمه الحسن بن سهل يوم زفاف بنته فقال : « ونثر الحسن في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثره ولم ينفقه ملك في جاهلية ولا في إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجه ينادق مصك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصحات دواب وعير ذلك ، فكانت السندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحملها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فبعض إلى الوكيل الذي نصب لذلك فيقول له : ضمة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا من

(١) ابن طهطا ، ص ١٨١ .

(٢) الشافعي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ ص ١٠٠ .

درستاقى كذا ، رجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا . ثم ثم بعد ذلك هل سائر الناس الهنايز والدرام ونوافج المسك ، وبيض العذير ، وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده إمام مقامه عنده حتى المكاريين والحمالين والملاحين . وكل من ضمنه العسكر من تابع ومتبوع مرتفق وفهد ، فلم يكن أحد من الناس يهتري شيئاً في عسكر المأمون بما يطعم ولا بما تقتلفه البهائم (١) . وذكر ابن طباطبا أن الحسن بن سهل قد فرش للمأمون حمداً منسوجاً من الذهب ولتر عليه ألف لواقية من كبار اللواق ، وبلغت جملة ما أخرج يومئذ خمسون ألف ألف درهم (٢) .

وذكروا أن المتعصم كافاً لألفين — بعد أن أخذ حركه بابك وقهض عليه — بأن توجه بتاج من الذهب مرصع بالجوهر ولاكليل ليس فيه من الجوهر إلا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب ، وألبسه وشاحين ، وزوج المتعصم الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس وزفت إليه وأقيم لها عرس تجاوز المقدار في البهاء والجمال (٣) .

هذه أمثلة قليلة للتعبير عن مدى الثراء الذي كان يتمتع به الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ، ولكي نكمل صورة هذا المجتمع لابد من تصوير حياتهم الخاصة داخل القصور . فن المعروف أن خلفاء بني العباس أسرفوا في الترف في الأبهة والتأنق وحرسوا على إنشاء الصروح العالية والقصور التي تميل إلى

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٢) ابن طباطبا ، ٢٠٣ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧١ .

الذاكرة لإيران كسرى رنصور غمدان والخورني والسدير ، ولعل خير شاهد على ذلك القصور التي أسسها المنصور في بغداد ومنها قصر الخليفة المسمى قصر باب الذهب أو قصر القبة الخضراء ، إذ كانت تطلوه عند منتصف أسفله قبة عظيمة تحضراء القرن بأعلاها تمثل فارس في يده رمح ، ومنها قصر الخلد الواقع خارج باب خراسان على ضفاف دجلة (١) ، ومنها قصر الرصافة الذي أسسه المنصور في سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) لابنه المهدي وتم بناؤه في سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) على الضفة الشرقية لدجلة قبالة مدينة المنصور ، ومنها القصر الذي شيده جعفر البرمكي ليكون موضع طوره ومكان أسسه بالقرب من الرصافة ، وعرف القصر الجعفري ، ثم تبدل اسمه في عهد المأمون فسمى بالقصر المأموني حينئذ والقصر الحسن (نسبة الحسن بن سهل الذي أقام فيه بعض الوقت) حينئذ آخر ، ومنها قصران آخران أسسهما جعفر البرمكي على ضفاف دجلة وفيما وراء البساتين المتقدمة هما الفردوس والتاج ، وقدمها هدية للمأمون (٢) .

اتخذ الخلفاء داخل هذه القصور المجالس والقاعات وفرشوها بفاخر القروش وكسوا أرضياتها بنفيس الطنافس وجدرانها بروائع الصور والإخرفة والتسقيقات . وفي هذه القاعات أقيمت مجالس النور والطرب والغراب . وكان السباح رغم قصوته وعنفه يطرب من وراء الستارة أي دون أن يظهر للمنفين والموسيقين ، ويصيح بالطرب له من المنفنين : أحسنت والله أهد هذا للصوت . وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مطريه إلا بصلة من مال أو كسوة ،

(١) في لسنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فرامس ، بغداد

١٩٣٥ م ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٠٨ - ٢١٠ .

ويقول: لا يكون سرورنا مهجلا ومكافأة من سرنا وأطربنا مزجلا، (١)
أما المنصور فقد شغل بالفتن والثورات، فأنصرف عن عقد مجالس اللهو والفناء
والطرب فإذا حضر مجالس الغناء لم يكن يظهر نفسه قط ويجهل بينه وبين
الستارة عشري ذراعا وبين الستارة والندماء مثلاً. فإذا غناء المغنى فاطربه
حركات الستارة بعض الجوارى، فأطلع إليه الخادم صاحب الستارة فيقول:
قل له أحسنت بورك الله فيك (٢)، وكان بهيلاً وشبه في ذلك بعبد الملك في بني
أمية، وذكروا أنه شوهده يوماً وعليه قميص مرقوع، وكان من عادته ألا يجتمع
أحد من أدماله وضيئه شيئاً من المال، وروى في ذلك أن سلام الحمادي
الذي كان يضرب به المثل في الخدماء حدا به يوماً فطرب حتى كاد يسقط من
الراحلة، فأجازه بنصف درهم، فقال سلام: يا أمير المؤمنين، والله لقد
حسنت لخدمك [بن عبد الملك] فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقال المنصور:
تأخذ من مال المصلدين ثلاثين ألف درهم من أجل حدا، يا ربيع: وكل به من
يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمتق بينهما وأروض المنصور
فما سكنت حتى قبل سلام على نفسه أن يحسدو للمنصور في ذهابه وإيابه بنهر
مؤونة (٣).

ويقول المهدى الخليفة تالقت فنون الفناء والموسيقى وأبهر الناس ذلك

(١) المسعودي، ج ٣ ص ٢٦٥.

(٢) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، القاهرة ١٩١٤ ص ٣٤، وأول من ظهر

لندماء من بني العباس الخليفة المهدى (السيوطي، ص ٢٥٩).

(٣) الإغبي، المستطرف من كل فن مستظرف، القاهرة ١٢٩٢ هـ، ج ١ ص ١٧٢ -

السيوطي، ص ٢٤٩.

حق غلبته شهوة الفناء والطرب على طبقات المجتمع العباسي على اختلافها .
 وكان المهدي من أكثر خلفاء بني العباس حبا لهذا الفن ، وكان بلاطه يكتظ
 بالمغنيين وذوى المواهب الفنية أمثال حاتم الوادي وسباط وإبراهيم الموصل .
 ويشهد ابن خلدون إلى أنه كان أحسن الناس صوتا ، وكان يضيع الأصوات
 ويلحن للطرب وليس للتكسب ، كما كانت يتفنن الإيقاع على الطبل والورقي
 النحاسي (١) ، وقد بالغ المهدي في دأبه بالطرب وترك أمور الدولة لوزيره
 يعقوب بن داود إلى حد أن بشار بن برد يخبر عنه ويستثير بني أمية على
 استغلال هذه الظروف فيقول :

بني أمية هبوا طال نومكم .
 خادع خلافتكم يا قوم فالتمسوا .
 الخليفة الله بين الناي والعود (٢)

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي العباسي من كبار المغنيين والموسيقيين
 في بلاط الرشيد والأمين ، وقد إبراهيم هذا زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية
 الفارسية بخلاف إسحاق الموصل الذي تزعم المدرسة التقليدية العربية (٣) . وكان
 طالما بمن الموسيقى والفن ، فألف كتابا في الفناء (٤) .

(١) سمر شيخاني ، أشهر مغنيين عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٩٥ .

(٢) الجهمياري ، ص ١١٨ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٠ .

وفي الجهمياري بين الزق والعود .

(٣) فاروق ، ص ١٤٢ .

(٤) ذكر ابن الزديم أنه كان لإبراهيم بن المهدي د صنعة في الفناء يتقدم بها كل
 أحد ، وكان إسحاق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ويتحاكم المغنون إليه في صناعتهم ، (المفهرست ،
 ص ١١٦) .

وكان الهادى رغم قصر عهده مغرما بالفناء والموسيقى، ولهذا فقد قرب إليه ثلاثا من المغنين هم : إبراهيم الموصلى وابن جامع وحكم الوادى . أما هارون الرشيد فقد أسرف في عنايته بالمغنين والمغنيات والموسيقين ، وأنفق في ذلك الأموال الطائلة حتى تجمعت لديه من أصحاب المراهب شخصيات عديدة لامعة ، منهم : ابن حامص ، ويحيى المكي ، وزلول ، ويزيد - حوراء ، وفليح بن أبي الموراء ، وعبد الله بن دحان ، وإسحق الموصلى ، وغارق ، والغنوى ، وعبد الرحيم الهفاف ، وابن قتيلا الطنبورى ، ومسكين المدنى ، وفريدة ، وعلوية ، وابن الحارث ، وعمر والنزال ، وبرصوما الزامر ، ومحمد الهف (١) ومن العوامل التى ساعدت على ظهور هذه الأعداد الهائلة من المغنين والمغنيات اشتغال كثير من الناس بتجارة الرقيق والنفخاة في بغداد ، واتساع ثرواتهم لذلك ، وشغف الناس بالنقاء مما اسلزم اهتمام النخاسين بتلقين الجوارى أصول فن الفناء والموسيقى مع القدرة على العزف بالآلات وتحصيل قدر واف من فنون العصر والأدب (٢) .

وكانت مجالس الرشيد تنص بكبار المغنين والجوارى والمغنيات والموسقيات ، وروى أنه اتخذ الفنى جارية لكل منها ميزة خاصة تميزها عن غيرها ، تصحبهن ثلاثمائة فنية للفناء والموسيقى ما بين جنكبة (أى ضاربة على الجنب) وعودية ودفية وقانونية وزامرة وراقصة ومغنية وسنطرية (أى ضاربة على السنطرة وهى آلة وترية) وذكروا أنهم حضرن يوما بين يديه ، فغننته المغنيات منهن ،

(١) فاروق ، ص ١١٢ .

(٢) الحفنى ، إسحق الموصلى الموسيقى فى القديم ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، ص ٥٨ .

فطارب جدا وامر بمال فنثر عليهم ، وكان مقدار ما حصلته كل مفتحة في ذلك اليوم ثلاثة آلاف درهم^(١) . وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم إبراهيم الموصلي وابن جهم وغيرهما ، وكان له رامر يقال له برصوما ، وكان إبراهيم أشدهم تصرفا في الغناء وابن جهم أحلامهم نغمة ، فقال الرشيد يوما لبرصوما : ما تقول في ابن جهم ؟ قال : يا أمير المؤمنين وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقته فهو طيب . قال : فإبراهيم الموصلي . قال : بستان فيه جميع الأزهار والرياحين^(٢) .

وكان الأمين بن الرشيد مولعا باللهو والطرب ، حتى آثره على جميع لذاته ، وروى إبراهيم بن المهدي أن الأمين بعث في طلبه أيام كان محاصرا ، فذهب إليه ، فإذا هو جالس في طارمة خضيبها من عود وصندل عشرة في عشرة ، وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في جوف الطارمة ، وهي قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنًا بأنواع الحرير والذهب المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبرسم ، فسلم وجلس بإزاء سليمان ، وكان أمام الأمين قدح بلوري مخروز فيه شراب وبين يدي سليمان مثله ، فقال له الأمين : دعوتكما لأفروح بكما وبجدهكما ، فأقبل يحدثنه حتى سلاهما كان يحدده ، ودعا بجارية من خواص جواريه فغنت^(٣) . وذكر الطبري أنه وجه إلى جميع البلدان في طلب الملحين ، وضمهم إليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن أخويه وأهل بيته واستغف بهم ويقواده ، وقسم ما في بيوت الأموال ، وما يحضرته من الجواهر في فتيانه

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ص ٢٢٠ .

(٢) الإشبيلي ، ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) للعودي ، ج ٣ ص ٣٩٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٠ .

وجلساته ومحدثيه، وأمر ببناء مجالس لمختزماته ومواضع خلواته ولمهوه ولحميه،
وحمل خمس حراقات في جملة على صورة الأسد والفيل والمقاب والحية والفرس،
وأنفق في حملها أموالاً ضخمة (١). وانفمس الأمين في اللهو واللذات حتى
أففل شئون الدولة، وذكروا أنه إذا طرب لى نفسه. وذكر أنه أبتنى سفينة
عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم واتخذ أخرى على شكل دلفين
بحرى (٢). وروى الطبرى عن غارق قال: دمرت فى ليلة ما مرسى بى مثلها
قط، أبى لى منزلى بمد ليل، إذ أتانى رسول محمد وهو خليفة [يقصد محمد
الأمين] فركض بركضا، فأتى بى إلى داره، فأدخلنى، فإذا إبراهيم بن المهدي
قد أرسل إليه كما أرسل إلى، فوافينا جميعا، فأتى إلى باب مفض إلى صحن
فإذا الصحن ملوء شمعا من شمع محمد العظيم، وكان ذلك الصحن فى نهار، وإذا
محمد فى كرج (٣)، وإذا الهار ملوء وصائف وخداما، وإذا العابون يلعبون
ومحمد وسطهم فى الكرج يرقص فيه، فجاءنا رسول يقول: قال لكما قوما
فى هذا الموضع على هذا الباب مما يلى الصحن ثم أرفعا أصواتكما مبرا ومقصرا
عن السورناى [آلة موسيقية]. وأتبعنا فى لحنه: قال: وإذا السورناى
والجوارى والعبون فى شىء واحد:

• هذى دنايبر تنسائى وأذكرها •

(١) الطبرى، ج ١٠ ص ٢١٥ - ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٩٤.

(٢) الطبرى، ج ١٠ ص ٢١٦.

(٣) يتكون عن تماثيل خيل مسرجة من الخشب تعلق بأطراف أقبية تلبسها النساء
بحاكنها انتطاء الخيل، ذبكرون وبهرون ويتنافسون فى الولايم والأعراس والأحياء
ومجالس التراجيح واللهو (ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٦٦).

يتبع الزمار؛ قال : فلو الله ما زلت وإبراهيم قائمين نقولها، تشق بها حلوقنا حتى
انطلق الصبح ، ومحمدى الكرج ما يسأله ولا يله حتى أصبح يدنو منا ، أحيانا نراه
وأحيانا يحول بيننا وبينه الجواري والخدم (١) .

وروى الطبري عن إبراهيم بن المهدي أنه غنى محمد بن زبيدة :
هجرتك حتى قيل لا يعرف القلى . . . وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فطرب محمد وقاله : دأقروا زورقه ذهباً ، (٢) .

أما المأمون فلم يكن يميل كثيراً للطرب ، حتى قيل إنه أقام بعد عودته إلى
بغداد عشرين شهراً لم يسمع فيها فناء ، ثم أخذ يضمه من وراء حجاب (٣) .
وكان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالفناء ، وكان يسمع الألحان المسجوعة ،
ويغنى بها شعره وشعر غيره ، فقال الواثق لإسحق الموصلي يوماً : يا أبا محمد
لقد فقت أهل العصر في كل شيء ، فغنى شعراً أرتاج إليه وأطرب خليطه يومى
هذا ، فغناء إسحق هذه الأبيات :

ما كنت أعلم ما في البين من حرق . . . حتى تنادوا بأن قد جرى بالسفن
قامت تودعني والدسمع ينابها . . . فبهيمت بعض ما قالت ولم تبين
مالك إلى وضعتني لترشفتي . . . كأنهم لسم الرياح بالنفن
وأعرضت ثم قالت وهى باكية . . . باليت صرقتي لياك لم تكن

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٢٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

(٣) شينخا ، ص ١٢٦ .

قال إسحق : « فنخلع على خلة كانت عليه ، وأمر لي بمائة ألف درهم ،^(١). ولم تكن مجالس الطرب قاصرة فقط على الخلفاء وإنما كانت شائعة لدى الخاصة من الوزراء والكتاب ، فكان جعفر بن يحيى البرمكي يجلس للشراب والحلوة مع ندمائه الذين يأنس بهم ، وكانوا إذا جلسوا مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحر والصفير والخضر ، ثم تدار عليهم الكزوس وتخفق العيذان^(٢) . وروى إبراهيم بن المهدي أنه دعى يوما في خلوة لجعفر بن يحيى مع ندمائه ، قال : « فأقننه عند الفجر فوجدته الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد ، فازلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه ، فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المتاعمة ، وضئنا بالحلوق ، وانتقلنا إلى مجالس الطرب ، ومدت الستائر ، وخنفت القينات ، فظلنا بأنعم يوم ،^(٣) .

وقد اهتم المهاسيون بتدوين الغناء ومذاهبه ، وأول من دون الغناء يونس بن سليان الكاتب المعروف بيونس الغنى في العصر الأموي ، فوضع كتابا في الغنم^(٤) ، والحليل بن أحمد الذي صنف كتابا في الموسيقى ، قيد فيه الألحان وأصناف الغنم^(٥) ، ويحيى بن أبي مرزوق المسكي الذي ألف كتابا في الأغاني جمع فيه اثني عشر ألف صوت . وألف إسحق الموصلي كتابا في الأغاني

(١) الإشبيلي ، المتطرف ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) ابن طباطبا ، ١٨٧ .

(٣) الإشبيلي ، ج ٢ ص ١٨٦ .

(٤) ابن النديم ، الفهرست ص ١٥٤ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

وأخبار عزة الميلاء وكتاب أغاني مبد، وكتاب الأغاني الكبير (١) : ومن كبار الكتاب في الأغاني أبو الحسن علي بن هارون بن علي ، ألف رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهدي وإسحق الموصلي في الغناء (٢) . ومن كتب في الأغاني من المهتمين بالموسيقى والغناء : جملة البرمكي وكان حاذقا بصناعة غناء الطنور، وصنف كتاب الطنوريين (٣) ، وأبو أيوب المدني المغني الذي ألف هذه كتب في أخبار المغنين، وقرىص المغني من حذاق المغنين ، وألف كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنين .

وفي العصر العباسي الأول دخلت أنواع جديدة من آلات النغم ، فقد أدخل زلول نوطا من العيذان سمي بالعود الكامل والعود المشبوط (٤) ، وأدخل زرياب وترا حامسا في العود ، واتخذت آلات جديدة كانت مروفة عند الفرس كالكرج والحنك والقبوز والنأي والكوس ، وظهرت التخصصات في طائفة من المغنين والموسيقيين : فزلول كان إمام العوادين ، وبرصوم كان أبرع من حرفي بالنأي والمزمار ، وجعفر الطليل كان خبيرا من وقع الطبل والكوبة ، وإبراهيم الموصلي أول من وقع بالقضيب (٥) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٤) طرير ، ص ١٣٠ .

(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٦ ص ٣٢ .

(٢)

مجتمع العمالة

وهو مجتمع عامة الشعب وسواده الأعظم ، وهم طبقتان :

١ - طبقة وسطى تشتمل على فئات من الناس أقل نسبياً في المستوى الاجتماعي من الخاصة ، ومنهم المؤدبون والوظائف والشعراء والمغنون والتجار والأطباء .

٢ - طبقة العامة ، ومنهم الزراع والسطار والعميارون وأرباب الحرف والصناعات والباعة والخدم .

أما الطبقة الأولى من العمالة وهي التي سمينها الطبقة الوسطى فكانت موضع احترام وتقدير الخاصة والعامّة على السواء ، ومنهم المؤدبون الذين هذبوا إلى الخفاء والوزراء وكبار رجال الدولة بملهم وثقافتهم ، وكان الخاصة يهدون إليهم بتأديب ابنائهم ويذكر الجاسط أن المعلمين على ضربين . من رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، (١) ، وكانت مهمة المعلمين أو المؤدبين لا تعدو تعليم الفقه والأدب وأصول الحرب وتاريخهم (٢) ، وآداب الملوك وقواعد السلوك التي يلتزم بها الخاصة . كنع الضحك إلا في وقت ، وشغل أوقاته الفراغ بما يفيد ، والتعويض باللائحة ثم بالشدة والفاظ والتشريف بمواقع الكلام وبداء (٣) والتعجب إلى

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، طعة دار الفكر للجمع ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

(٢) الجاحظ ، نوادر الجاحظ ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٨٢ .

(٣) للحمودي ، ج ٣ ص ٣٥١ .

الناس (١) ، ومن أشهر مؤدب أبناء الخلفاء الكسائي عالم اللغة المصهور وكان مؤدبا الرشيد ثم للأمين والمأمون (٢) ، ويحيى بن المبارك النحوي مؤدب المأمون (٣) ، والاحمر النحوي مؤدب الأمين (٤) ، وجعفر بن محمد بن الأشعث ، والفضل بن يحيى مؤدبا الأمين (٥) .

وكان يحيى بن خالد البرمكي قيا بأمر الرشيد ، وكان الرشيد يدعو دائما بالآبوة (٦) ، وكان حميد الجوهري قيا بأمر المأمون ، وكان مؤدبه أبو محمد الزبيدي ، وكان يستخدم القصة لتقويمه (٧) وكان الزبيدي من كبار النحويين في العصر العباسي الأول ، وكان يتولى تأديب ولده يزيد بن منصور الجوهري حال المردى ، ففسب إليه ، ثم اتصل بالرشيد فجعل المأمون في حجره يؤدبه ، بينما كان الكسائي يؤدب الأمين ، وعلم الزبيدي المأمون النراة والفقر (٨) .

ومن أشهر مؤدبي الخاصة أبو عمرو إسحاق بن مرار القتيبي (٩١٣ هـ) وكان راوية واسع العلم باللغة ثقة في الحديث كثير السماع (٩) ، ومنهم أبو هيب

(١) الجهني ، ص ١٣٧ .

(٢) الإربل ص ١٥٧ - ابن النديم ص ٦٥ .

(٣) ابن النديم ، ص ٦٥ .

(٤) المسودي ، ج ٣ ص ٣٥١ .

(٥) الجهني ، ص ١٤٨ .

(٦) المسودي ، ج ٣ ص ٢٢٣ - الإربل ، ص ١٦١ .

(٧) الإربل ، ص ١٨٦ .

(٨) الإربل ، ص ٢٠٦ .

(٩) ابن النديم ، ص ٦٨ .

القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) وكان حلالاً ثم اشتغل مؤدياً لبني هرثة (١) .
ومن مؤدبي العامة أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير (ت ٢٣١) وكان معلماً
للأمة وأحد القراء (٢) .

وكان المؤدبون بوجه عام من الشخصيات المرموقة في المجتمع العباسي ،
وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة تختلف حسب الطبقة التي يشتملون عليها ، كما
كانوا يحصلون على كثر من الهبات والمطايا .

ويمكن أن نعتبر الوعاظ من نفس مرتبة المؤدبين ، مع الاختلاف الواضح
بين عمليهما ، فالوعاظ ينصح الكبار بمظانته التي اكتسبها بدراسته للسهر والتاريخ ،
أما المؤدب فيقتصر على تعليم الصغار آداب السلوك واللغة والفقه وما إلى
ذلك . ومن الوعاظ المعروفين زمن المهدي صالح بن عبد الجليل ، وكان ناسكاً
حنوفاً ، يهبط المهدي فيمكيه طويلاً (٣) . ومنهم أبو العباس محمد بن صبيح
الوعاظ المعروف بابن السماك وكانت له مواعظ كثيرة ومقامات عظيمة ، وكان
يهبط الرشيد حتى يمكيه (٤)

ويزخر في عداد الطبقة الأولى من مجتمع العامة الأطباء والجراحون
والكحالون والأسنانيون وأطباء النساء والمحاض ، وأطباء الجذائير ، وقد
اشتهر في هذا العصر عدد من الأطباء منهم آل بختيهدوح النصارى الفرس وأولهم
جورجيوس بن جبرائيل الذي خدم المنصور ، وكان حظياً عنده رفيع المنزلة

(١) نفس المصدر ، ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(٣) الجهمياري ، ص ١٠٩ .

(٤) الإبري ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

ونقل له كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية، وكان المنصور يهرل عليه بالأموال (١)، وتألق بختيشوع بن جورجس في عهد الرشيد، وفاق أطباء البلاط العرب وعلى رأسهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري (٢)، وكان ابنه جبرائيل ابن بختيشوع مشهوراً بالفضل جيد التصرف في المداولة والملاج حظياً عند الخلفاء رفيع المنزلة عندهم، ونال منهم هبات كثيرة لم يتلها عهد من الأطباء، وكان صاحب الفضل في علاج حظية الرشيد، بدون أدمان، فأمر الرشيد له بخمسمائة ألف درهم وأحبه مثل نفسه وجمعه رئيساً على جميع الأطباء، وكان الرشيد يقول لأصحابه: «كل من كانت له إل حاجة فليخطب بها جبرائيل لأنني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني»، فكان اقواد يقصدونه في كل أمورهم (٣). ولما تولى محمد الأمين الخلافة أدنى إليه جرائيل وأكرمه ووهب له أموالاً جليلة أكثر مما كان الرشيد يهب له، وكان الأمين لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه (٤)، كذلك حظى بتقدير السامون، وأمر له مرة بألف ألف درهم والف كر من الحنطة (٥).

كذلك برع من الأطباء عهد الله الطيفوري وابنه زكريا الصيدلاني، ويؤيد بن زيد بن روحنا متطبب المأمون؛ وسهل الكوسج طبيب هرثمة بن أعين، وموسى بن إسرائيل الكوفي متطبب إبراهيم بن المهدي، وسلمويه

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٨٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٨.

(٤) نفس المصدر، ص ١٨٩.

(٥) نفس المصدر، ص ١٩٠.

ابن بنان متطبيب المعتصم ، وجبرائيل كمال المأمون ، وياسويه طبيب الرشيد ،
وابنه يوحنا طبيب الامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وغيرهم (١) .
وقد ترتب على عظم مكانة الاطباء وسمو منزلتهم تضخم ثرواتهم ، فجبرائيل
ابن بختيشوع قدوت ثروته التي كونها من خدماته إلى الخلفاء والخاصة بنحو
٩٠ مليون درهم (٢) ، كما أن أباه بختيشوع اكتسب من عمله في خدمة الخلفاء
من السفاح إلى الرشيد ما لم يكسبه أحد (٣) .

ويستبر الصافي التجار — لكثرة ثرواتهم — من طبقة الخاصة ، ولكننا
نعدم من العامة لتعاملهم مع الآمال والعماء واحتكاكهم مبهمة — اشارة بالسوق
والدهماء ، ولجوء الكثير منهم إلى الغش والكذب ، وكان معظم تهمير العراق
في العصر العباسي الأول من اليهود الرمدانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية
والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلية (٤) ، ثم أقبل المسلمون على
التجارة عندما نهضت الحركة التجارية بسبب كثرة الوارد والصادر وظهور
الشركات التجارية . والتجار في العصر العباسي الأول ثلاثة أنواع : التجار
الحازن ، الذي يخزن نوما من السلع لا يطره إلا عند ارتفاع ثمنه بسبب عدم
توفره في السوق ، والتاجر الركاض ، الذي ينتقل من موضع إلى موضع
وهو ركب السهل والصعب ويهترط فيه المعرفة والتبصر ، وأخيرا التجار المجهزون

(١) راجع : ابن أبي أصيبعة ، ص ٢١٤ — ٢٧٣ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ١٩١ — القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ١٤٣ .

(٣) القفطي ، تاريخ الحكماء ، ليزج ، ١٩٠٣ ص ١٠١ .

(٤) ابن خردادبة ، المسالك والممالك ، ص ١٠٣ .

المستقر في السوق ببلده (١) . وأهم هؤلاء التجار جميعاً أولئك الذين ينتقلون في أقطار الأرض ، فبعضهم الصين والهند والمغرب والاندلس وبلاد الرافدين والبلغار والحبش والصقالبة ، فيستوردون ويصدرون ، وقد أورد لنا الجاحظ قائمة بأسماء السلع التي كانوا يستوردونها كالحرير والنفط (الخرف) والكافور والياقوت والصندل والابنوس والادم والمقيش والمسك والعمود والنفك (دواب ذات أفرجة) والطنافس والثياب الموشية ، والقولن ، والمبيد والرقون (٢)

وقد أثرى هؤلاء التجار ثراء فاحشاً لكثرة ما كانت تدور تجارتهم عليهم من الأرباح ، إلى حد أن يهضمهم أفراس إبراهيم بن المهدي مالا كثيراً عندما وثب على الخلفاء ، وبطبيعة الحال كانوا ينتمون بهيئاتهم ويمشون في قصور فخمة ، ويقتنون الجوارى والإماء ، ولهذا أثرؤا في المجتمع العباسي تأثيراً عميقاً .

أما المغنون والقصراء فكانت لهم منزلة عليا في الدولة العباسية ، ولولم الخلفاء بمجالس الأدب والطرب ، وقد ظهر في العصر العباسي الأول عدد كبير من المغنيات أو الجوارى المغنيات امتزن بجمال الصوت ورقته ، وبسمو الثقافة ، وكان إبراهيم الموصلي يقف منهن الكثرات ، يشتريهن من أسواق النخاسة ثم يتولى تدريبهن حتى يتقن الغناء ، ويبيعهن إلى الأمراء والوزراء والحكام وأصحاب النفوذ بأعداد مرتفعة ، وقد برهن منهن دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي ، وذاته الحال التي اشتراها الرشيد بسبعين ألف درهم ، وبذل جارية

(١) صلاح حيدري ، المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول ، ص ١٠٧ .

(٢) راجع : الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص ٣٣ - ٤٢ .

الأميين ، وعرب جارية المأمون ، ومثيم الهاشمية جارية المعتصم ، وكانت لشدة أناقتها أول من عقدت زفافا وخيطة من الحرير في طرف الإزار .

وحفل العصر العباسي الأول كذلك بعدد هائل من لشعراء الكبار الذين ضمنوا شعرهم الكثير من الموضوعات واستحدثوا في الشعر العربي أغراضا جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب ، من أشهرهم أبو نواس ، الشاعر الخليع الذي يمكن شعره صورة مجتمع الخاصة والعامة على السواء ، وبشار بن برد الذي أكثر من شعر الفول والتشبيب بالنساء ، والشاعر أبو العتاهية الذي عرف بهاعر الزهد والوعظ .

أما الطبقة الثانية من مجتمع العامة ، فكانت تشمل فئات وأخلاق غدير منظمة من العامة ، في مقدمتهم أرباب الحرف والصناعات ، وهم فريقان : فريق يعمل في المؤسسات الخاصة والحكومية كدار الطراز ودار الضرب أو المصانع الخاصة بالزجاج والبلور وصناعة الخزف المعدنية والماجية والعرقاء والبناءون ، وفريق يشغل الحساب الخاص كالنحارين والحصارين والنجارين والصنارين والوراقة والصاغة والذساجين والقصايين والبهاعة والاساكفة والحياطين ، وكان معظم المشتغلين بهذه الصناعات من أصول غدير هربية أو من أهل الذمة يهودا ونصارى كما اشتغل بها فئات من الرقيق (١) . وكان أصحاب الحرفة الواحدة يرتبطون فيما بينهم برابطة الانتماء إلى المهنة التي يعملون بها ، وقد ساعد ذلك على تجمع كل منهم في سوق خاصة بالحرفة التي ينتمون إليها ، وقضايتهم فيما بينهم ، وكان لذلك أعظم الأثر في قيام تنظيمات حرفية تشرف

(١) الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢ .

عليهم وتدافع عنهم أقرت الدولة بوجودها ، ويسمى رئيس كل حرفة بشيخ الصنف (١) ، أو شيخ الصنعة ويليه الأستاذ ، ثم الصناع المحترف ، ثم المبتدئ (٢) . وبفضل عناية الحكومة العباسية وإشرافها على الصناع وأرباب الحرف عن طريق المحتسب ، تقدمت بعض الصناعات ، كالنسيج العسافي الذي أصبحت له شهرة عالمية ومنه الموصل والعتابى والتستري .

أما الزراع فكانوا يمثلون السواد الأعظم من سكان القرى ، وكان معظم الزراع من الموالي الفرس أو من بقايا الزط أو من العبيد الزنج ، ومهدت الدولة العباسية إلى منع الزراع من الهجرة إلى المدن خشية أن تتناقص الأيدي الزراعية العاملة في الريف (٣) . واهتم الخلفاء العباسيون منذ أبي جعفر المنصور بنظام الري فحفروا القنوات وطهروا الترع ، رشحسوا بذلك على ازدهار الزراعة وتحسين حال الزراع .

(٣)

الآزياء وأصوات الزينة

تأثر العباسيون في العصر الأول بالتقاليد الفارسية في جميع مناحي الحياة ، ويتجلى هذا التأثير بصورة واضحة في الآزياء ، فالتقدم للعباسيون بين طبقات المجتمع في الزي جاريه في ذلك على نفس التقاليد التي كان يعمل بها ملوك الفرس الساسانيون ، فكان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة

(١) البطون ، البلدان ، ص ٢٤٨ — التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٢) رسائل إخوان الصفاء وخلال الوفاء ، القاهرة ١٩٢٨ ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) صلاح جدي ، ص ١٢٧ .

عن في خدمتهم لباسا لا يلبسه أحد من في عهد تلك الطبقة ، فإذا مثل الرجل أمام الملك عرف صنمته من لباسه (١) .

وكانت الأزياء على هذا النحو تختلف في العصر العباسي في أشكالها وأنواعها وطرق صناعتها باختلاف الوظائف وحتى الأديان ، فكان للقضاة زي والشرطة زي والكتاب زي ولكتاب الجندي زي (٢) ، والتجار زي (٣) ، وكان لحرابر النساء زي ولكل ملوك زي والإمام زي (٤) ، وكذلك اختلفت الميائم فكان للفقهاء حمائم وللخلفاء حمائم وللنصارى حمائم (٥) ، وكان أصحاب السلطان ومن دخل داره على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطنة ، ومنهم من يلبس الحريرة (٦) ، ومنهم من يلبس القباء ومنهم من يلبس الباز بكفد ويعلق الخنجر ويأخذ الحز ويقتصد الجملة (٧) ، وكان الشمراء يلبسون الوشي والمقطعات والاردية السود (٨) .

وكان اللون الأسود هو اللون السائد في الأزياء في العصر العباسي ، واستمر السواد رمزا للخلافة العباسية ، ويذكر المؤرخون أن الرشيد لبس بطون

(١) الجيهاري ، ص ٢ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٠٦ .

(٣) ابن الجوزي ، ذم الموى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص ٤٧٥ .

(٤) الجاحظ ، ص ٩٥ . وذكر الخطيب البغدادي أنه كان للدوذين زي والخطباء

المساجد زي (الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ، ج ١ ص ٤٨) .

(٥) الجاحظ ، ص ١٠٦ .

(٦) ص ١٠٦ مخطوطة .

(٧) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(٨) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

يوم وفاته جبة سوداء خز بنفوس قيص وعليها فنك وفوقها دراعة خز سوداء
مبطنة بفنك ، وعلى رأسه للذسوة طويلة وحمامة خز سوداء وتطلس بطيلسان
أسود (١) ، وكان الأميين يوم قتل يلبس ثيابا بيضاء وسراويل وعليها طيلسان
أسود (٢) . وكان المأمون قد منيع السواد يوم بايع على الرضا بن موسى
الكاظم بولاية العهد وأمر بتغيير لباس آباءه بلباس الخضر (٣) فلما عاد إلى
قصره ببغداد بعد مصرع الأميين ، كان الناس يختلفون إليه في كل يوم مسلمين ،
ولباسهم الثياب الخضر ، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا في خضرة ، وساد اللون
الخضر في أهل بغداد جميعا ، وكان الناس يهرقون ويمزقون كل ما لديهم من
الأردية السوداء باستثناء القلانس ، ومع ذلك فكان بعضهم يلبس القلانس
السوداء متخوفا ، وبخلاف القلانس لم يكن أحد يتجرأ على لبس أقبية أو
طيلانس أو أعلام سوداء . فلما حادثه بنو هاشم في ذلك وقدم طاهر بن الحسين
وغاطبه هو وقادة أهل خراسان ، استجاب لهم واستدعاهم فقدموا ، ولما
اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ، ودعا بخضرة سوداء فكساها طاهر بن الحسين ،
وسلخ على عدة من قواده أقبية وقلانس سوداء ، فلما خرجوا من عنده وطمع

(١) الجعفي ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٥ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

وفي ذلك يقول : وأمر المأمون بجمع لباس السواد ولبس الخضر ، وكان هذا في
خراسان ، فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من تقلب الخلافة من البيت العباسي
إلى البيت العلوي وتغيير لباس آباءه وأجداده بلباس الخضر أنكروا ذلك .
وفيه يقول المسعودي : « وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام وأظهر بدلا من
ذلك الخضر في اللباس والأعلام وغير ذلك » (ج ٣ ص ٤٤١) .

السواد ، طرح سائر القواد الحضرة ولبسوا الواد ، (١) .

وإذا كان السواد أصبح اللون السائد في الثياب الرسمية ، فقد اتخذت
المنادمة ثياب مصبوغة زاهية (٢) ، وهي ثياب نخر معلم ، أو ثياب مصبوغة
بالألوان الحمراء والصفراء والخضراء (٣) . وكان يعقوب بن داود وزير
المهدي يلبس في بعض الأحيان ثياباً وردية (٤) ، ولبس الرشيد طيلساناً
أزرق اللون يوم وفاة الخيزران (٥) ، وكان المنصور يأمر أهل بيته بحسن
الهيئة وإظهار النعمة وبلوغ الوشى والطيب (٦) ، كما أمر بعدم لبس السراويل
الكتانية (٧) .

وتنقسم الألباء الرجالية إلى ثياب للرأس وأخرى للبدن ، فأما لباس
الرأس فيقتصر عادة على العمامة أو العصابة والقنصوة ، والعمامة والمصابة سواء
في رأى الجاحظ (٨) ، وكانت العمامة لباس الرأس عند العرب منذ عصر
الجاهلية ، ولهذا قال عمر بن الخطاب : العمامة تهبان العرب ، وقيل لأعرابي :
إنك لتكثر لبس العمامة ؟ قال : إن شئتاً فيه لسمع والبصر لحدير أن يوقى من

(١) ابن ميمون ، ص ٢ .

(٢) الإلهي ، ج ٢ ص ١٨٦ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٧٨ .

(٤) البهشاري ، ص ١١٩ .

(٥) الإبريل ، ص ١١٧ .

(٦) الطبري ، ج ٩ ص ٣١٦ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣١٤ .

(٨) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٦ .

الحرب والقر (١) ، ويمبر أبو الاسود الهذلي عن قائدة امامة فيقول : دجينة في الحرب ومكنة من الحر ، ومدفأة من القرو ، ووقار في الندى ، وواقية من الأحداث ، وزيادة في القامة ، وهي بعد عادة من عادات العرب (٢) وكانت الهامة تتخذ من الشروب الرابضة أو القطن أو الوشي المذهب ، ومن حيث اللون كانت المعائم في العصر العباسي عادة سوداء ، أما إذا كانت صوفية فتكون مصبغة (٣) .

وإذا كانت المعائم تيجان العرب وعادة من عاداتهم ، فإن القلائس كانت تعبر مظهرا من مظاهر كمال الرجولة عند العرب ، فقد قال الامام علي رضي الله عنه : تمام جمال المرأة في خفها ، وتمام جمال الرجل في كفته [أي قلنسوته] (٤) ، ولهذا تفتن الناس في أشكالها ومادتها ، وأصبحت القلائس تسمى بأسماء اللاد التي تصنع لها ، فمن حيث الشكل وجدت في العصر العباسي قلائس مستديرة ، تدعى بالهدنية لأنها تشبه الهدن . والقلائس للطاوية التي تطوق الرأس وتمسك به ، والقلائس الدورية ذهبها بالفضة (٥) ، ومن حيث المواضع التي اشتهر بصناعتها وجدت القلائس الرصافية (٦) (من

(١) البيان والبيان ، ج ٣ ص ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) بدره فهد ، الهامة ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ .

(٤) البيان والبيان ، ص ٩٠ .

(٥) صلاح حيدري ، ص ١١ .

(٦) الجعباري ، ص ١٦٧ .

الرصافة () والقلانس السود الشاشية (١) والقلانس المسكية (٢) ، ومن - ث
الصناعة اتخذت القلانس من الكاغ - (٣) أو القصب أو السمور (٤) .

وفي سنة ١٥٣ أمر المنصور الناس بلبس القلانس الطوال المقرطة الطول ،
فقال أبو دلامة

وكنا نرجى من إمام زيادة . . . فراد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها . . . دنان يهود جللت بالبرانس (٥) .

أما ثياب البدن ، فهي الداخلية كالقمصان والسراويل ، فكانت القمصان
تصنع من الكتان الناعم وكان يغلب عليها اللون الأبيض ، أما السراويل فكانت
بيضاء في العادة ومذيلة ، وفي بعض الأحيان يلبسون القمائل الرقاق وذكر
ابن الأثير ، أن السفاح ترك بعد وفاته تسع جباب وأربعة أفصة وخمسة
سراويل وأربعة طيالة وثلاثة مطارف خر (٦) . أما الثياب الخارجية التي
تلبس فوق الأفصة والسراويل فهي الدرايع والطيالة والجباب والأفصة .

— الدرايع : (جمع دراعة أو مدرعة) ، وهي جباب مشقوفة من

(١) المهديارى ، ص ١٢٤ ، ١٧١ — نسبة إلى بلاد الخاش (انظر : Dozy ،
Dictionnaire des Vetements, p. 420) .

(٢) ابن طيغور ، ص ٩٣ .

(٣) ابن العاد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٥) الطبري ، ج ٩ ص ٢٨٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦١٠ — الإبري ، ص ٨٥ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٠ .

فكانت المراكب لا تخلو من بابها (١) وفي عهد الرشيد أصبحت الخيزران هي
الناظرة في الأمور، وكان يحيى بن خاله الوزير يصدر الأمور إلى هرون بن
رايها (٢). ولما توفيت في ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧٣ هـ فشهد الرشيد
وعليه طبلستان أزرق قد شد وسطه وطو أخذ بقائم السرير حافيا يمدو في الطين
حقايق، مقامر قريش، فضيل رجله ودعا لمخنف، فصلى عليها ودخل قبرها،
فأبداً خرج من المقبرة ووضع له كرسي، فجلس عليه ودعا الفضل بن الربيع وقال:
« بحق المهدي إن الأهم بالشئ لك من القيل القولية وظهرها فتمنعني إلى فأطبع
أمرها... » (٣). وذكر ابن الأثير أن وفاة الهادي إنما حدثت بترتيبها،
فقد أمرت عدداً من جوارها بقتله، « وكان سبب أمرها بذلك أنه لما ولي
الخليفة كانت تستبد بالأمور وتساك به ملك المهدي حتى مضى أربعة
أشهر، فانتال الناس إلى بابها... » (٤). وذكر السيوطي عندها تعرض لذكر
الهادي: « كانت أمه حاكمة مستبدة بالأمور الكبار » (٥). ولكن استبدادها
سواء في عصر المهدي أو الهادي أو السلتين الأوليين من خلافة الرشيد لم يكن
من جهل. والظاهر أنها كانت مستفيدة على قدر كبير من الثقافة، ومن
المعروف أن جميع المنهآت العلمية وحركة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية
التي قام بها المهدي إنما نفذت بتأثير زوجته الخيزران، وكانت تقول البت في

(١) المسودي، ج ٣ ص ٢٢٧.

(٢) الإبريل، ص ١٠٨ - ابن الأثير، ج ٦ ص ١٠٨.

(٣) الإبريل، ص ١١٧.

(٤) ابن الأثير، ج ٦ ص ١٠٠.

(٥) السيوطي، ص ٢٦١.

الأمور في عهد الهادي والرشد ، ووافقت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم محمد الأمين (١) ، التي يرجع إليها الفضل هي الأخرى في تنفيذ بعض المشروعات الإصلاحية ، فإنها يناسب حفر بئر زمزم في سنة ١٩٠ هـ ، فقد اتفق أن حجت في هذه السنة فتال الناس عطش جديد ، وغارت زمزم حتى نصب ماؤها ، فأمرت بتعميق البئر تسع أذرع ليزيد الماء (٢) . وكان الرشيد يجهدها وجدا شديدا (٣) ، ويستجيب لرغباتها ، وهي التي حرصت على البرامكة ، إذ كانت تكره يحيى بن حمالة وتذمه وتشبه أكثر ما يثلب به أحد (٤) . وكانت بوران بنت الحسن بن سهل وزوجة المأمون قد طلبت منه أن يعفو عن إبراهيم بن المهدي ، وكان قد سجنه في دار أحمد بن أبي خاله ، فاستجاب لرغباتها وأطلقه ورضى عنه (٥) على الرغم من أن إبراهيم كان قد خرج على المأمون وبويع له بالخلافة .

ومن المجدد بالذكر أن نساء الخلفاء كن مستنورات ، وكانت بعضهن شاعرات ينظمن الشعر ويحضرن بالمجالس والمناظرات من وراء الستار ويهتركن في مناظرة الرجال (٦) . وبالإضافة إلى نساء الخلفاء ، فإن للجواري المنعيات أثر كبير في تقدم الحركة الفنية والأدبية ، فقد كانت بعضهن شاعرات ، تذكر منهن عريب جارية المأمون التي قيل عنها إنه لم يرا امرأة قط أحسن وجها

(١) تزوجها الرشيد في سنة ١٦٥ هـ ، وكنيتوا أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور .

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٣) الجعفي ، ص ١٢٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٥) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

(٦) ابن قيم الجوزية ، أخبار النساء ، طبعه بيروت ، ١١٧ .

أو الطيرية وكلها ملونة أما لعلمن فكانت حمراء اللون (١) ، وكان يلبسهم فوق
جوارب صوفية أو حريرية وكانت الحنيران زوجة الهادي تتخذ الخفاف
المرصعة بالجواهر (٢) ، وكانت بعض النساء يتنقبن بمقنعة ، حتى لا يبدو
وجوههن سافرة ، (٣) أو يمددن إلى التنقنغ تشبهاً باله سان والرؤساء كما فعلت
البانوقة بنت الهادي عندما سارت على هيئة الفتيان وعليها قباء أسود ومنطقة
وشاشية (٤) ،

ونتيجة عن تسلل الإباحية في المجتمع العراقي يتسأئد من الفرس ، ورواج
المفاسد والمبازل ، وإدمان الناس على حياة اللهو والترف والرفه ، وإقبالهم
على مجالس الغناء والطرب ، وتهافتهم على اقتناء الجوارى والقيمان ، نلج عن
ذلك كله شيوع لون من الانحلال الإجتماعي كان من آثاره استقامة تناس إلى
المذات وتفنن النساء في الزينة والتبهرج ، وبالتالي تطور سريع في فنون الزينة
والفنون الصناعية المتعلقة بها كصياغة الحلى وفنون الترسيع (٥) . فالحق كان
طبيعياً في مجتمع يروج فيه بيع الجوارى والإماء أن يتم الفخاسون بثقاتهم
وتتمية أذواقهم وإحساسهم الجبالي ، كما يتمدوا بظهورهم ، ويحاولوا عرضهم
في سور مغرية جذابة لرفع أثمانهم .

(١) الأنشيه ، ج ٢ ص ١٨٩

(٢) الشاشقي ، الديارات ، ص ١٠١ .

(٣) ابن ميفور ، ص ١٠١ .

(٤) الطبرى ، ج ٩ ص ٢١ .

(٥) كالخلاخل والأساور والخواتم المرصعة بالياقوت والمقصوس وعقود الزؤل مثل
مقد الشبا وكان لزيدة أم جعفر زوج الرشيد ، والأعلاق النفيسة الى تدلفق على الأسواق
بعد وفاة الأمن أو قبل ذلك بقليل عندما اشتد الأمر به أمام حصار قوات المأمون
لغداد ، واضطراره إلى بيع ما بقي في خزائنه التي انتهت (الطبرى ، ج ١٠ ص ١٩١) .

وهناك عامل آخر ساعد على تطور فنون الزينة عند المرأة هو مساهمة بعض حريم الخلفاء. والخاصة من كان لهم دور بارز في المجتمع المراقى أمثال الخيزران أم الهادي ، وزبيدة أم الأمين ، وزينب بنت سليمان بن علي وعليه بذت المهدي في ترويح ابتداءات جمالية استحدثتها كابتكار فكرة تعصيب الرأس بمصائب مكللة بالجوهر (١) وانتشار هذا التقليد الجسديدي سريريا في المجتمع الخاص والعام ، أو شيوخ الثياب المصبغة والنعال الملونة المرصمة عند النساء أو رواج طريقة معينة لتنظيف الشعر واتخاذ أوضاع خاصة للذوايات (٢) ، أو اتخاذ الجوهر منظوما على الشعر (٣) ، أو تزيين الرأس بتاج مرصع بترجم من الذهب والفضة (٤) . وكانت النساء يتوسلن — لإبراز مقفاتهن وجمالهن — بأنواع الأصباغ كالحناء أصبغ أطراف أصابع اليدين والرجلين ، والحدود والصفاء والشعر ، كما استخدمن الكحل لتكحيل أجنان العيون والأهداب بمرارد من الخشب أو الزجاج أو التماس أو الذهب ، أو بأنواع من الطيوب والدهان مركبة من العنبر والمسك والبان (٥) .

(١) اتخذت فريدة جارية الواثق مصابة على رأسها كتب عليها بالذهب :

هين بكى حذر البين . . ما أسخت الفرقة لهين

لم أرق الحب ولو صاته . . أوجع من فرقة إلين

(راجع ابن السامى ، نساء الخلفاء ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، القاهرة ، عدد ٣٨ من مجلة ذخائر العرب ، ص ٦٢) .

(٢) أحمد محمود حدى ، مدات التجميل بمتحف الفن الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢ — ١٤ ؛ صلاح حيدرى ، ص ١٦٢ .

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ٤٣ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢٠ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ١١٥ .

(٤)

الاطعمة والاشربة

شاعت في العصر العباسي الأول في العراق أصناف من الأطعمة من أصول فارسية نتيجة طبيعية للتأثيرات الفارسية العميقة في المجتمع الإسلامي ، وأسرف الخلفاء في أنواع المآكل وتعددتها ، فكانت مائدة الرشيد تحمل بألوان الطعام حتى قيل إن الطهاة كانوا يطمون له ثلاثين لونا من الطعام ، وكان الأمراء يبالغون أيضا في ذلك حتى قيل إن عيسى بن علي العباسي ، استضاف الخليفة فقدم له ولا يتبعه من ألوان الطعام : الخبز ولحم المدي والدجاج والبيض واللحم البارد وأسنة السمك وأكباد الدجاج وصدورها والمخ والسكك ثم الحلوى . وكان المنصور والمهدي يستطحيان ألوانا من المخ المذقود بالسكك والطيرزد والمسل (١) ، وكان المهدي يحب من الطيور الحمام (٢) ، وفي عهده استجذبت أنواع من الأطعمة الفارسية منها السككاج الذي اعتبر أفضل أنواع الأطعمة عند العباسيين (٣) ومنها المضيرة (٤) ، ومنها الاصفيداج (٥) ، والديك بكة (٦) .

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ٢٩٨ ، ٣١٠ .

(٢) السيوطي ، ص ٢٥٦ .

(٣) الإنشيهي ، ج ١ ص ٢١١ .

(٤) الشدادى (محمد بن الحسن) : كتاب الطبيع ، تحقيق الدكتور داود الحاي ،

الموصل ١٩٣٤ ، ص ٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٢ - ابن الجوزي ، ذم المسوى ، القاهرة ١٩٦٢

ص ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

والطباهاجات (١) ؛ ومن أصناف الحلوى : اللوز ينج بالفستق والفالوج
والخشكناج والأرنين (٢) .

وأما أطعمة الأعراب والبدو فكانت بسيطة للغاية ولا تخرج عن الحن الشعير
والرثية والبقل والحضروات مع شرب اللبن في الأكراش ، هذا إلى جانب
ما كان مروقاً من الأطعمة عند العرب كالأريد والشواء والتقديم إلى ذلك (٣)
أما المشروبات ، فقد غلب شرب النعيد في الركوات ، والشراب المصنوع من
النر والتين والجر (٤) .

(•)

الأيام الإسلامية والمسيحية

وأصل المباشيون الاحتفال بالأيام الإسلامية التقليدية كالعيدين (الفطر
والأضحى) ، و ليلة القدر ، وكانت هذه الاحتفالات تتخذ مظهرين أحدهما
دني حيث يتوافد المسلمون إلى المساجد الجامعة اسماع آيات القرآن ، وخطبة
العيدين ، والآخر اجتماعي حيث يجلس الخليفة للتسلم على الوزراء والمهاشميين
والقواد في إيوان من قصره ، ثم يستقبل الشعراء من وراء الستر أو الحجاب ،
فيسمع شيئاً من قصائدهم ، ثم يأمر بإعداد سباط حافل بألوان الأطعمة إبتهاجاً

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٤ — ٨٠ .

(٣) راجع : المسعودي ، ج ٣ ص ٣١٠ ، ٣١١ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٨٣ —
ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

(٤) الجاحظ ، رسالة في الشارب والمغروب ، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٥ — ٢٢٠ .

بالمناسبة (١) ، أما الجماهير فكانت تعبر عن فرحها بقرع الطبول والنفخ في الأبواق والظهور بأفخر الثياب ، ويخرج الناس للزفة على ضفاف دجلة والفرات ويركبون الزوارق التي تزدهان بالزهينات المختلفة .

والجانب هذه الاحتفالات بالأعياد العربية الإسلامية . احتفل المسلمون بأعياد فارسية بحكم اختلاط العرب بالفرس ، من هذه الأعياد النوروز والمهرجان والرام ؛ فاحتفال بالنوروز يتم في بداية كل ربيع من السنة ، ولم يكن هذا الاحتفال مقصورا على الفرس فحسب بل أصبح عهدا شعبيا عاما يحتفل به الخلفاء احتفالا رسميا ، وكان الناس يتبادلون في هذا العيد الهدايا . وأول من استحدث فكرة الإهداء في النوروز أحمد بن يوسف الكاتب ، فإنه أهدى المأمون سيف ذهب فيه قطعة هود هندي في طوله وعرضه ، (٢) وإن كان هناك ما يؤكد أن فكرة الإهداء سبقت عصر المأمون بفترة طويلة ، فقد كتب بعض الشعراء إلى خاله بن برمك في يوم نوروز - وقد أهدى الناس إليه هدايا فيها جامات من فضة وذهب - :

ليت شعري أماننا حفظ . . . يهدايا الوزير في النوروز
ما عل خالده بن برمك في الجو . . . د نوال ينيه بمرو
ليت في جام فضة من هدايا . . . ه سوى ما به الأمير مجيز

فأمر له بجميع ما كان حاضرا بين يديه من الجوامات والأواني الفضية

(١) الصافي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٢٤ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعهر ، ج ٢ ص ٤٢٠ .

والذهبية (١) . كذلك احتفل المسلمون بالمهرجان (روز مهر أى محبة الروح) في كل يوم ٢٦ من تشرين الأول ، ويستمر الاحتفال به ستة أيام ، ويسمى اليوم السادس منها المهرجان الكبير (٢) ، وفيه جرى الناس على تنميط فرشهم وآلائهم وثيابهم (٣) ، واعتادوا قرع الطبول والنفخ في الأبراق وتعليق الزينات في ذلك اليوم .

أما عيد الرام فكان أيضا من الأعياد الفارسية القديمة ويسمى رام روز ، ويقع في اليوم الحادى والعشرين من شهر مدهاء الفارسي .

وكان النصارى يحتفلون بأعيادهم في الأديرة العديدة المنتشرة في العراق ، وكان لكل دير عيد خاص يحتفلون به في أوقات معينة من السنة (٤) ، ومن رسوم الاحتفال خروج أهل الدير في موكب يتقدمه القساوسة وهم يلبسون وقد ارتدوا حللهم السوداء وحملوا الجمار في أيديهم ، أما بالنسبة لطوائف النصارى فقد كانوا يلبسون في أعيادهم المسيحية فاخر ثيابهم من مطارف الخبز والدجاج . ويروى الجاحظ أن أبا قابوس النصراني الحيرى ، دخل على جعفر ابن يحيى في يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر البرد فألقى إليه مطرف خبز كان شراء جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتس في ثيابه ، ما يداكل ذلك المطرف فلم يحده . فقالت له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فمرفته سالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا ، فكتب إليه :

(١) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ - للعياد ، النوروز ، ص ٤٨ .

(٢) الفارسي ، ص ٤٠٨ ج ٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٢ .

(٤) الشافعى ، كتاب العبادات ، ص ٣ .

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا	١٠	رايت مباحاة لنا في الكنائس
فلو كانت هذا المطرف الخرجية	١١	لباهت أصحابي به في المجالس
فلأريد لي من جبهه من جبابكم	١٢	ومن طيلسان من جهاد الطيالس
ومن ثوب قوي (١) وثوب فلاة	١٣	ولا بأس لو أتبعك ذاك عفاص
إذا تمت الآثواب في اليد خمسة	١٤	كتمتك فلم تفتح إلى لبس سادس
امرك ما أفرطت فيما سألته	١٥	ولا كنت لو أفرطت فيه بيأس
وذاك لأن الشعر يراد جعدة	١٦	إذا ما البلى أول جده الملبس

فوجه إلى أن قابوس كل صنف ذكره عشر قطع ، (٢) .

وكان المسلمون يشاركون أعيادهم ، في الأحد الأول من أعياد
الموسم الكبير حيث يجرى الاحتفال بالعيد في دير العاصمة الواقع على نهر
المهدى ، في موضع نزهة تكثر حوله البساتين والأشجار ، يرددح الناس نصارى
ومسلمين على السواء (٢) ، وفي الأحد الثاني يحتفل بالعيد في دير الزرقية ، وفي
الأحد الثالث في دير الزندورد الواقع في الجانب الشرقى من بغداد في منطقة
زراعية يكثر فيه الكروم فيجتمع هناك الطرب ورواد السزومة ، وفي الأحد
الرابع في دير درمالس الواقع بجانب الشامية يجتمع نصارى بغداد ومن يسمى
إلى اللهو والنزهة للذمة والفرجة (٣) وفي عيد القديسة أشمونى يحتفل دير
أشمونى الواقع في منطقة قطربول بالجانب الغربى من بغداد هذا العيد في

(١) أى من بلاد قومه ههنا (بلاد الجبال) .

(۲) الجیشیاری ، ص ۱۶۴ .

(۳) الشافعی، کتاب الخیارات، ص ۹.

(٤) نفس المصدر ، ص ٣ .

تفسيرين الأول احتفالاً راعياً يمد من الأيام البهيجة لدى أهل بغداد ، فيقصدون إلى الديرة عن طريق نهر الفرجة ، ويركبون السفن المختلفة كالطيارات والسفريات والزوارب وتد لبسوا أبهى حللهم ، ويقضى بعضهم هذا اليوم إما في الخلاء أو في الحانات حيث يتناولون على شراب النبيذ ، والاعتناء منهم ينصب خيمته (١) .

(٦)

الزواج والطلاق

مركز المرأة : لعبت لساء الخلفاء العباسيين والخاصة دوراً فعالاً في توجيه السياسة العباسية منذ أيام السفاح الذي تزوج أم سلمة بنت يعقوب فنالت عليه ظلية شديدة حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبإقرارها حتى أفضت إليه الخلافة فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حجرة ولا إلى أمة (٢) ، كما أسهمت بعضهم في النهوض بالفنون والآداب في هذا العصر ، فأمدي أطلق يد زوجته الخيزران أم وهدي الهادي والرشيد ، وكانت جارية يمنية اشتراها المدي فاعتقها وتزوجها (٣) ، وأوصاها بأن تلزم زينب بنت سليمان بن علي لتقتبس من أدبها وأخلاقها (٤) ، كما أخذت العلم على الأزواج ، وكان الهادي كثر الطاعة لها محيياً لها فيما تسأل من الحوائج للناس

(١) القابشي ، الديارات ، ص ٣٠

(٢) المصمودي ، ج ٣ ص ٢٦١ .

(٣) الإبري ، ص ١١٦ .

(٤) المصمودي ، ج ٣ ص ٣١٣ .

الصوف أو الديباج الموشى أو الدبيق ، وكانت اللباس الرسمي للكتاب ، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الخلفاء والوزراء وعامة الناس . فالرشيد عندما خرج للفتوة لبس دراعة قد كتب على ظهرها « حاج » وعلى صدرها « غاز » (١) والربيع بن يونس عندما ولأه المنصور خطة المرض كان يلبس دراعة وطيلسان (٢) ، وإدريس بن هيد الله بن الحسن يوم فر إلى مصر فالمغرب لبس مدرعة صوف خشنة وحمالة غليظة (٣) .

٢ - الطيلاسة : (جمع طيلسان) ، وهو مربع الشكل يجعل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ، وينطلى به أكثر الوجه ، ثم يدار طرفان منه تحت الفم إلى أن يحيطا بالرقبة ، ثم يطرحان على الكتفين ، أما طرفاه الآخران فيسبلان على الظهر (٤) . وكانت الطيلاسة لباس الخاصة من العلماء والمشايع والقضاة

٣ - الجيباب : (جمع جبة) ، تهيئ بالبدن ولها كان ، وكانت الجباب تصنع من الديباج الموشى (٥) أو الصوف ، وكان الخلفاء العباسيون يلبسون الجيباب ، وما يؤثر عن المنصور أنه كان يكثر من لبس جبة هروية (٦) ، وكان

(١) الجيهشيارى ، ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٩ .

(٣) البكري ، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١١٨ - الجزائى ، ص ٩ .

(٤) بهري ، فهد ، الطيلسان ، مجلة كاتبة الشريعة ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ .

(٥) الجيهشيارى ، ص ١٨٣ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠ .

السفاح يكثُر من لبس الجلباب ، حتى إنه ترك بعد وفاته منها تسماً (١) .

وكان الرجال ينتعلون النعال ، ويتركون للنساء الحُف ، واعتبروا النعال مظهراً من مظاهر الرينة الرجال ، فقالوا لا حُف واستجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال (٢) . وكان العرب يلحقون بذكر النعال في حين كان الفرس يلحقون بذكر الخفاف ، وكان صحابة الرسول يفتنون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر (٣) . وفي العصر العباسي شاع ارتعال الخاصة الخفاف الحمر على عادة الفرس (٤) .

أما ملابس النساء فكانت داخلية وعارجية بالإضافة إلى الثياب الخاصة بالرأس ، فن ملابس الرأس : العصاية المكللة بالجواهر ، والفضل في التماثيل ، يرجع إلى عليّة بنت المهدي ، التي ابتكرتها وكانت ترصعها بالجواهر ، ومنها : أيضاً البرانس الأسود المنظوم بالجواهر ويمرّف اليوم بالموطّة (٥) أما الملابس الداخلية ، فلا تعدو الغلائل الرقيقة والسرّاويل (٦) والأقصة الإسكندرانية (٧) ، وأما الملابس الخارجية فهي ملاحف (٨) ، أو أردية يقال لها الرشيدية

(١) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٤) صلاح حيدر ، ص ١٤٤ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٤٥ .

(٦) الطبري ج ١٠ ص ١١٩ — الإشبيلية ، ج ٢ ص ١٨٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٨) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

وأدبا وغناء وضربا وشعرا ولعبا بالشطرنج منها . ومن عنان جارية المناطق
التي كانت تهيد نظم القمر حتى أعجب بها الرشيد فاشتراها من صاحبها (١) .

أما المرأة المسلمة العادية فكان دورها في المجتمع العباسي يكاد يكون سلبيا ،
فقد كان لتسلل الأفكار الفارسية القديمة والمناداة بالإباحية في هذا العصر أثر
بالغ في شيوع الفحش ، وأدخل الفرس نوعا من الشعر الرخيص في الدور
بالمذكر ، وظهر المتخشعون والمنفلون في الصبيان ، وترقب على ذلك أن بالسف
الرجال في حجز الحرائر من النساء في الحدور وتشديد الحجاب عليهن .

الزواج والطلاق

كان الزواج يتم عادة بموافقة الآباء ، ويتم الزفاف في حفل تجتمع فيه
أسرتا العروسين وتقام الولائم وتذبح الذبائح ، ويتم العرس في جو بهيج
تتخلله الأغاني والأوسيقى والرقص على الآلات الوترية والمزامير والمفوف ،
وقد وصل إلينا الحسن الحظ وصحت تفصيلي لزوج المأمون من بوران بنت وزيره
الحسن بن سهل ، وهذا الزواج وإن كان مباليا في تفخيمه (باعتبار زواج
أحد الخلفاء) إلا أنه يصور لنا جانبا من جوانب المجتمع العباسي ؛ وفيما على
ما أورده ابن طيفور في وصف بناء المأمون ببوران في ٢٦ شهر رمضان
سنة ٢١٠ هـ - ثنى الحارث بن نصر المذحج - وكان من أصحاب الحسن بن سهل -
قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران ، ركب من بغداد زورقا
حتى أرقى على باب الحسن بن سهل ، وكان العباس بن المأمون قد تقدم على
ظهور ، فتلقى الحسن خراج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطئه دجلة

ينفي له فيه جوسق قال : فلما عاينه العباس نفي رجلاه لينزل ، فحلف عليه الا يفعل ، فلما ساروا نفي رجلاه الحسن لينزل ، فقلده العباس : بحق أمير المؤمنين لا تنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب ، ثم أمر أن يقدم إليه دابته ودخلا جميعا إلى منزل الحسين ، ووافى المأمون في الصباح ، وذلك في شهر رمضان من سنة هجر ومائتين ، فأفطروا والحسن والعباس ، ودينار بن عبد الله قائم على رجلاه حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بعراب ، فأتى بهما ذهب فصب فيه وشرب ، فدس يده بهما فيه شراب إلى الحسن [بن سهل] فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فصر دينار بن عبد الله الحسن ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك وأمرك ؟ فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمد يدي إليك . فأخذ [الحسن] الحام فشربه فلما كان في الليلة الثالثة جمع بين محمد بن الحسين بن سهل ، والعباسية بن عبد الفضل [بن سهل] ذي الرئاستين (١)

فلما كان في الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حدة ونة [بنت هخمي] ، وأم جعفر ، ووجدتها . فلما جلس المأمون معها نثر عليها جودتها ألف فرة كانت في صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسأله عن عدد الدر كم هو ؟ فقالت ألف حبة . فأمر بمدها ، فتقصت هجرة ، فقال : من أخذها عنكم ردوها فقالوا : حسين رجلة ، فأمر بردها ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما نثر لناخذ ، قال ردوها ، فإن أخلفها عليك . فردها ، وجمع المأمون ذلك الدر في الآنية ووضعه في حجرها وقال : هذه تهلكك فأسأل حوائجك ؟

(١) كان من التقاليد الشائعة في المجتمع العباسي أن يتزوج الرجل بنت عمه (ابن عمه الجوزية ، أخبار النساء ، ص ١٠٦) .

فأمسكت : فقالت لها جدتها : كلمي سيدك واسأليه حوائجك فقد أمرك .
فسأله الرضى عن إبراهيم بن المهدي فقال : قد فعلت ؛ وسألته الإذن لأم
جعفر في الحج ، فأذن لها ؛ ولبستها أم جعفر البذلة الأجمرية (١) ، وابتنى بها
في ليلتها ، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منساق تدور ذهب ،
فأفكر المأمون ذلك عليهم ، وقال : هذا سرف ، (٢)

وذكر الإربلي أن يحيى بن خاله البرمكي أراد أن يزوج ابنته حائفة من
ابن عمه ، فقمع في دكة وسط بستان مع مائة رجل من المدعوين يخدمونهم نحو
مائة خدام وفي يد كل منهم بمهرة ذهب فيها قطعة عنبر ، بخشروا المدعوين ،
وأقبل يحيى بن خاله إلى القاضي وطلب منه عقد الزواج ، فقمع ، ثم أمر يحيى
بنشر فئات المسك وبنادق المنبر وتماثيل الفد على الحاضرين ، فالتفت الناس .
ثم جاء الخدم يحمل كل منهم صينية من الفضة عليها ألف دينار مخطوطة بالمسك
فأخذ كل من الحاضرين صينية بما فيها (٣) .

وكان الزوج يتقدم صداقا للمعروض يتفاوت قدره حسب يسره ،
فأبو العباس السفاح قبل أن يلى الخلافة كان فقيرا ، أحبته أم سلة بنته بمقرب
ابن سلة بن عبد الله بن الوليد بن المنهدة الميموني بعد أن تولى مقام بن
عبد الملك ، فأوصاه له مولاه لها ترجى عليه أن يتزوجها ولقدس له مالا يمد
أن عرفته أنه يلقى لا حال له ، فأصدقها من مالها . . . ودينار (٤) .

(١) يوب أخيه باللفظان مرسع بالدر والياقوت .

(٢) ابن طينور ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) الإربلي ، ص ١٥٣ .

(٤) السعدي ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

وشاع في العصر العباسي الأول اتخاذ الجوارى إلى جانب الزوجات
الجوارى، بل إن كثيراً من الزوجات كن يهدين أزواجهن ما يرضاهن من
الجوارى، كما فعلت السيدة زبيدة مع الرشيد (١)، وهذا يفسر أن معظم خلفاء
العصر العباسي الأول كانوا من أمهات أولاد باستثناء السفاح والمهدي والأمين،
ولقد أمر أن الأمة كانت توفر لها كل وسائل الراحة مع قلة المؤونة وحسن
الخدمة ثم من تحمل مشكلة الإنجاب. وقد حدد الجاحظ بعض محاسن الزواج
بالمملوك فقال: «كثير يقال من أن أمة قلة المؤونة ونخبة النفقة وحسن الخدمة
ولأنها باع بالحاجة فخلع بالإمام دون الحرارة. وكان يصلح أن يسلط يقول:
صحيح على المشتري بالسراري كيف يتزوج المملوك؟» (٢).

أما الطلاق فلم يكن شائعاً في العصر العباسي الأول، وكان من ذواحيه سوء
سلوك أحد الزوجين (٣)، أو إقبال الرجل على الجوارى وإعماله لزوجته الحرّة
التي تزوجها دون أن يرى وجهها

(١) الإعيى، ج ٢ ص ١٦٠.

(٢) الجاحظ، الحاسن والأضداد، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٣٠.

(٣) إعيى، قيم الجوزية، ص ٧١.

(٧)

مراسم الاحتفالات الجنائزية

لا تختلف جنائز الموق في العصر العباسي الأول عنها في العصر الأموي أو العصور التالية ، فثل هذه الرسوم قلما تتغير ، وحتى إذا تطورت فإن هذا التطور لا يحدث فجأة وإنما يتجلى على مراحل تدل على تطور مختلف الجنائز من حيث عدد المشيعين باختلاف شخصية المتوفي الاجتماعية ومنزله ومكانته في المجتمع ، فإذا كان عالما كبيرا ازدهر عليه مشيعيه ، كما حدث عند وفاة الإمام أحمد بن حنبل إذ شيعه ٨٠ ألف رجل (١) ، وألف إهراق ، وذكر الجيهياري أنه لما حاض الفصل بن يحيى البرمكي في ١٠ من المحرم سنة ١٩٣ هـ على عليه أكثر الناس ، واشتد الطروع من الخاصة والعامة عليه ، وأغم عليه جموع من عرفه ، وكثر التضامط في التواضع في جنازته (٢) . وقد يشترك في الجنائز شخصيات بارزة رسمية ، ولقد يكون من بين المتواضعين على المنزلة شخصيات جليلة ، كما حدث فعندما قبض الإمام علي بن موسى الرضا بإواس قصلي عليه الأمن (٣) كذلك على الرضا على أمه الحيزان (٤) وعند وفاة رجل جليل هزت المادة أن تغلق الأسراني ، وتخرج النساء حسانا اشيرات الصعور يلطمن وجوههن ويذرن تعرها عن فجوهمهن بالمصاب ، وقد يحضن حافيات ، ويضربن صدورهن بالهال (٥) . وإذا كانت الفاجدة في أحد

(١) الجيهياري ، ص ٢١٠ . وذكر القسطنطين أن ثلثات بمصر عوم الطيب كانت جنازة مشهورة (ص ١٤٢) .

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٤١ .

(٣) الإربيل ، ص ١١٧ .

(٤) المساحظ ، البيهقي ، ج ٣ ص ١٠٤ . وقد يشارك الرجال البهائم في القطم وشق الحبوب والبكاء كما فعل الربيع بن إواس عندما مات المنصور (ابن الأثير ج ٦ ص ٢٤) .

الابتداء ، يجرع الابوان عليه جرعا شديدا وقد يمتنان من الطعام والشراب ،
وذكروا في ذلك أنه مات ابن سليمان بن علي فجرح عليه وحرم على نفسه الطعام ،
وجعل الناس يمررونه فلا يحمل بذلك ، حتى دخل عليه يحيى بن منصور فعراه
بالبيت التالي :

وهون ما أتى من الوجع أنى . . . أساكنه في داره اليوم أو غدا
فقال له أحد ، فأما ، فتأذى على الفور غلامه يأمره بالغذاء (١) . وعندما
ماتت الباقوة بنت المهدي ، وكان معجبا بها لا يطق الصبر عنها حتى إنه كان
يلبسها لبس النملان ويركبها معه ، وجد عليها وأمر أن لا يجيب عنه أحد (٢) .

ومات لعبد الرحمن بن مهدي ابن فجرع عليه جرحا شديدا ، فبعث إليه الإمام
المصافي يقول : يا أخى من نفسك بما تعرض به نفسك ، واستقبح لنفسك
ما استقبحه من غيرك ، واعلم أن بعض المصائب فقد سرور وحرمان أجمع ،
فكيف إذا اجتمعنا مع الحزن والهم ؟ ألمك الله عند المصائب صبرا ،
وأجزل لنا ولك بالصبر أجرا ، (٣) .

وكان أمراء يتم على مرحلتين : الأولى قبل دفن المتوفي والثانية بعد الدفن ،
وتكره التمازي بعد ثلاثة أيام من الوفاة حتى لا تتجدد أحوال المصاب ، إلا في
حالة غياب المولى أو صاحب المصيبة حال الدفن (٤) .

-
- (١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٨٧ .
(٣) الإبيسي ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٣٤ .

وكان يقام للشخصيات البارزة أضرحة لقبورهم ، توارى في الأعياد أو بعض المناسبات الدينية ، فقد دفن يحيى بن خاله بن برمك بالرافقة على شاطئ الفرات وبنى على قبره بناء عال (١) ، وكذلك كان يقام للأولياء وكبار العلماء أضرحة ذات قباب ومآذن . وجرده المادة أن تكون ملابس الحداد سوداء أو زرقاء كما حدث عندما بلغ زبيدة أم الأمين بيا مصرع ابنها ، فأمره بلباسها فحودت ولبس معها من شعر (٢) ، كذلك لبس الرشيد يوم وفاة أمه طيلسانا أزرق اللون (٣) .

ومن آثار الأضرحة والمقابر الباقية حتى اليوم في بغداد من العصر العباسي الأول ، جامع وتربة الإمام أبي حنيفة النعمان التي دفن فيها سنة ١٥٠ ، ومعبد الكاظميين الذي دفن فيه الإمام السابع موسى الكاظم سنة ١٨٧ هـ (٨٠٧ م) ودفن بعده بثلاثين سنة حفيده الإمام التاسع محمد الجواد الثاني ، وتربة الشيخ معروف الكرخي (٢٠٠ هـ) وقبور مريديه من الصوفية .

(١) الجوهري ، ص ٢١٠ .

(٢) المحمودي ، ج ٣ ص ٤١٥ .

(٣) الإدري ، ص ١١٢ .

- ٢٤٢ -

ثانيا

التنظيمات العمرانية

(١)

المراكز العمرانية الجديدة في العراق

١ - بغداد دار السلام او مدينة المنصور .

يتمتع الظروف التي قامت فيها الدولة العباسية على الخليفة الاول
أبى العباس السفاح أن يتحول عن دمشق حاضرة الأمويين لعدة أسباب : منها
أنه من شأن الإسرات الحاكمة الجديدة أن تتخذ مراكزها وقواعدها بين قوم
أولي عصبية يمتزجون بهم ، ولما كانت دمشق أموية وبعيدة عن خراسان مركز
الثورة العباسية ، فقد اقتضى الأمر قاعدة تقرب من خراسان وتبعد عن الشام
مركز المصبات العربية التي اعتمد عليها الأمويون . ومنها تطلع الدولة العباسية
من الوجهتين السياسية والحربية نحو الشرق بدلا من البزنطيين ، لأن أواسط
آسيا والشرق الأقصى سيصبح مسدود الفتوحات الإسلامية في العصر العباسي
الاول ، ومنها أن موقع دمشق لا يتيح للعباسيين الاندخال التجاري ببلاد الهند
والهند الصينية والصين . وعلى هذا النحو فكر السفاح منذ توليه دس الخلافة
في أن يتخذ مقرا له في العراق ، واختيار هذا المقلم يتم نهائيا بالإسناد لإنهاء
بغداد في خلافة المنصور ، بمعنى أن تأسيس بغداد واتخاذها المتر النمائ للخلافة
العباسية طوال قرونها الخمسة مر مرحلتين :

١ - مرحلة إنشاء هاشمية الأنبار :

انتقل أهل العباسي السجاح من الحيرة ، فنزل الأنبار (١) واتخذ بها مدينة سماها الهاشمية في سنة ١٣٠ هـ ، ونظرا لأن أخاه المنصور سوسس مدينة أخرى بهذا الاسم في موضع آخر ، فقد سميت هاشمية السجاح هاشمية الأنبار بسبب قيامها بجوار الأنبار المدينة الفارسية القديمة الواقعة على ضفة الفرات الشرقية عند تفرع نهر عيسى من الفرات (٢) . ويذكر الحقوقي أن السجاح اشترى من الناس أراضي كثيرة بنى فيها منقعات المدينة ، ثم عوضهم عنها بماله ، ولما مات دفن في قصره بهاشمية الأنبار (٣) .

٢ - مرحلة إنشاء هاشمية الكوفة :

لما يويج المنصور بالخلافة في سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) نزل الحيرة ثم شخص إلى الأنبار مدينة أبي العباس فطم إلى أطراف أخته وخزائنه (٤) . ثم انطلق في أول خلافته مدينة جديدة بنواحي الكوفة سماها الهاشمية وكانت تقع وفقا لإحدى الروايات بين المعسكر العربي في الكوفة وبين الحيرة أي على جانب الفرات (٥) الغربي ، ووفقا لرواية أخرى قبالة مدينة ابن مبرة الواقعة بجوار

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) في التلويح ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ص ١٣ .

(٣) الطوسي ، ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ .

(٥) ابن طاباطبا ، ص ١٤٣ .

الكوفة (١). وفي هذه المدينة وقعت واقعة الراوندية التي كاد يقتل فيها المنصور، ولهذا السبب كره المنصور الإقامة فيها بعد أن انتهى على حركة الراوندية، كما كره الإقامة فيها لامل آخر هو مجاورة أهل الكوفة الشيعة لها، فقد كان لا يأمنهم على نفسه، وكانوا قد أفسدوا عليه جنده (٢). وقد خُطب في الهاشمية بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن فقال في جملة ما قاله . . . ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه، فخدمه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والفتن والإغراق في الفتن، أهل هذه المدرة للسوء (وأشار إلى الكوفة)، ثم أوقفه ما هي لي بحرب فأحاربها ولا هي لي بسلم فأسلمها، ففرق الله بيني وبينها (٣). وذكر الهمداني أن أبا جعفر أخذ في بناء الرافقة فسيا بحرب من سنة ١٠٥٠، وكان أخوه السفاح قد ابتدأ ببنائها، ولما فرغ المنصور من إنشاء الرافقة لم يزلها (٤). ولما نزلها الرشيد واتخذها مقرا له (٥).

وهكذا لم يوفق إلا السفاح ولا المنصور في تأسيس مقر ثابت لدولتهما، وتحتّم على المنصور البحث عن موضع جديد أفضل من المواضع السابقة وتوفر

(١) الإبريل، ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٥٨ — ابن طباطبا، ص ١٤٣.

(٣) المسعودي، ج ٣ ص ٣٠٠.

(٤) اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٧٠. وهم الرافقة بالقرب من الرقة، وما زالت آثارها موجودة حتى اليوم، ويحتمل في أطلال قصر الرشيد. ويذكر كونها أن المنصور حوّل تجرّه مدبته المدورة (بغداد) عندما وضع تخطيط الرافقة على شكل حدود الفرس. وما زالت أسوارها المحصنة بالأبراج المشيدة بالطين تحتفظ بأشكالها.

(٥) كوتل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٤.

(٥) الجبشيارى، ص ٢١٠ — ابن طيفور، ص ٨٥.

فيه جميع المزايا الإستراتيجية والمناخية والإقتصادية ، وفي هذه المرة كان لابد أن يقع الاحتيار في منطقة خصبة وحديثة في آن واحد ، بعيدة عن حد الصحراء التي تمتد على طيف الفرات حيث تقع الجهة والعكفة والاببار والحاشية (١) . وبذكر المورخون أنه خرج يرتاد منزلا يزل فيه ويتخذ مقر الدلائل وأجناده ، فاستدرك إلى جرجرايا الواقعة على دجلة ثم أصعد مسج النهر شمالا إلى الموصل ، وهناك ذكر له موضع قريب من بارما إلى جنوب الموصل حيث يقطع نهر دجلة جبل حرين ، ولكنه لم يستحسنه ، وهناك قدم إليه أحد الجنود وأبلغه أن طبيبيا إسرائيليا كان يدالج عينيه من رمد أصابه الحجرة بأنه سمع أن مدينة سقته بين دجلة والفرات تدعى الزوراء ، فعاد المنصور ونزل عند الدير القائم بجدار قصر الخلد ، وهناك شاور الدهقان صاحب الموقع الذي حددوه له واسم الموقع بئداد (٢) ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، سألتني عن هذه الامكنة وما تظن مني ، وإن أرى أن تزل أربعة طاسيج [أي نواحي] في الجانب الغربي طسوجين وهما قطربل وبادوريا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهر يوق وكلواذي ، فيكون بين نهر والماء ، وإن أجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الآخر العبارة . والله

(١) لتاريخ ، ص ١٥ .

(٢) بدل هذا الاسم على أن بئداد مدينة قديمة من أيام الفرس وكانت تجمع عدد من دجلة الغربية بأعلى مصب نهر الفرات تماما . وثبت من الحفريات الأثرية التي أجريت حديثا في موقع بئداد أن الموقع قديم للغاية بدليل الواجزة المشيدة من الأحجار البابل التي لا تزال تحاذي دجلة الغربية عند بئداد ، وبدليل أن كل قطعة من الأجر مخفومة باسم لودخد نصر وألفا ، ثم إن اسم بئداد شبيه باسم بكده والجل في السجلات الأثرية (راجع له تاريخ ، ص ١٦) .

يا أمهيد المؤمنين هل الصراة ، تهيمك المهدة في السفن من المغرب في الفرات
وتهيمك طرائف مصر والشام ، وتهيمك المهدة من الصين والهند والبصرة
وواسط وديار بكر والروم والموصل وغيرها في دجلة ، تهيمك المهدة من
أرمينية وما اتصل بها في ناعرا حتى يتصل بالزاب ، فأنت بين أنهار لا يصل إليك
هذوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل
إليك ، ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسطة للبحرة
والكوكة وواسط والموصل والسراد ، وأنت قريب من البحر والبحر
والجبل ، (١) فانتفع المتصور بكلامه وعم على انزول في ذلك الموضع .

أما بغداد واسماؤها الأخرى :

رأينا أنه كان يحوم في نفس موقع بغداد آثار قرية فارسية قديمة تحمل
إسم بغداد ، وقد استندنا في ذلك على ما أسفرت عنه الحفريات الأثرية من جهة
وعلى الروايات التاريخية من جهة ثانية ، ونضيف إلى هذين السندين سند ثالث
أدب يمثّل في بيت من الشعر من قصيدة أنشدتها الحسين الخليل عند حصار
طاهر بن الحسين لبغداد فغريبت وخاف الناس أن تبقى خرابا ، والبيت منه :

ما أحسن الحالات إن لم تمد . . . بغداد في القلعة بغدادا (٢)

(١) المقدسي ص ١١٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ ؛ وقار ذلك بالإيراد ،
ص ٧٧٠ ، ٧٣ — البلقيني ص ٢٧٢ ، ووصفها البلقيني بأنها « مفرقة لدنيا » تصل
إليها نتاجر واسط والبحرة والآلة والأهواز وفارس والبحرين عمان وما بأي دجلة من
الموصل وديار بكر . . . (اللغات) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٧٢ . ومعنى ذلك أنه يرجو ألا تعود بغداد (مكر
الغلاة) إلى ما كانت عليه بغداد القرية القديمة .

واسم بنداذا الذي كانت تعرف به وحرف فيا بعد إلى بنداذا (١) اسم فارسي مشتق في رأي لسترنج من د ب ع ، أي (الله) و د ا ذ ا ، أي إلهاء وتأسيس ، فيصبح معنى اسم بنداذا على هذا النحو (أسسها الله) (٢)

وهناك قد جرات أخرى الاسم - أوردوها الجغرافيون العرب ، فبعضهم يوثقونها بأنها مشتقة من مقطعين د ب ب ا ن خ ، وتعني بالفارسية (بستان) و د ا ذ ا اسم شخص اسمه دادويه ، وببعضهم يجعلون معنى اسم مينم أو د ا ذ ا ، عن المصدر الفارسي د ا ذ ن بمعنى عطية ، وبذلك تعني بنداذا عطية العظم ، ولهذا السبب يند المصو اسمها ويسماها مدينة السلام (٣) وهو الاسم الرسمي لبنداذا الذي نقش على العملات العباسية ، ولكن الناس حافظوا على اسمها القديم

ويمتدح الاستاذ بشير ف. السيس أن اسم بنداذا آراى مبني ومعنى (١) ، وأنه يتألف من مقطعين : الأول : د ب ، بمعنى بيت (مثل باجرمى وباجرمة وباطنايا وبكمايا) ود ا ذ ا بمعنى عظم ، ويصبح معنى بنداذا أو بكداها بيت عظم أى سور العظم (٢) . ويؤيد هذا الرأي عن من استاذ نواز أكرام

(١) ورد الاسم في القامع الجغرافية صور مختلفة منها بنداذا وبندان ومنداذا ومنداذ ومنادات .

(٢) لسترنج ، ص ٨ .

(٣) السعوى ، ج ٣ ، ص ٢٩٧ — اللافرى ج ٢ ص ٣٦١ .

(٤) بغير فرنسيس ، بنداذا ، تاريخها وآثارها ، بنداذا ١٩٥٩ ص ٦ .

(٥) لسترنج ، ص ١٨ هامش رقم ٧ .

البستاني (١) والله كتور عبد العزيز الهوري (٢) اعتقاداً إلى التفسير اللغوي وإلى الإيتم القديم لبنداه بمعنى سوق النعم . ويدعم الله كتور الهوري موافقته بنص أورده الطبري ذكر فيه : « وذكر عن حماد التبركي أن المنصور يهبط رجالاً يطلبون له موحداً يعني فيه المدينة ، فطلبوا ذلك في سنة ١٤٤ قبل خروج محمد بن عبد الله سنة أرفوها ، فوقع اختيارهم على موضع ببنداد قرية على شاطئ الصرأة سماها على الخلد ، وكان في موضع بناء الخلد دير ، وكان في قرن الصرأة سماها على الخلد من الجانب الشرق أيضاً قرية ودير كبير كانا تسمى سوق البقر وكانت القرية تسمى القتيبة ، وهي التي اقتطعها الشيخ بن حازم القتيبي (٣) . ويؤكد بشهر قرطيس أن الاسم ورد في الكتابات الآشورية بصورة بنداد وأوبكدادو (٤) .

ومن أسماء بنداد مدينة المنصور ومدينة السلام والمدينة المدورة ، وكان جانبها الغربي يسمى بالزوراء لأن نهر دجلة ينحني عندها ، أما جانبها الشرق فكان يسمى الروحاء لأقصاه وانفراجة في هذه الأثناء من الشهر .

(١) نؤاد أفرام البستاني ، أصل اسم بنداد ، مجلة الشرق سنة ١٩٣٤ عدد ٤ ص ٦٦ — ٦٩ .

(٢) النظر الباقى الأول ص ٩٧ .

(٣) الطبري ، ج ٩ ص ٢٤١ . ويؤكد البلاذري عدم بنداد فيقول : « وكانت بنداد قديماً فصرها أمه المؤمنين المنصور روجه الله وأبى بها مدينة » (البلاذري ، ج ٢ ص ٢٦١) ؛ وذكر الطبري ههنا من أحمد بن محمد بن حبيسة أن مدينة المنصور كانت قبل بنائها مزرعة لبندادين يقال لها المباركة (الطبري ، ج ٩ ص ٢٤٣)

(٤) بشير قرطيس ، ص ٦ .

ب - الموضع وبداية التخطيط :

كان موقع بغداد يفضله عدد من أديرة الرهبان الفساطرة ، الذين أشاروا على المنصور باختياره موطناً لمدينته لأن بقعة تمتاز عن غيرها من الأراضى الواقعة على دجلة بخلوها من الوباء الذى يهدد البعوض ، ولطيب لياقتها وصفاتها حتى فى أشد أيام الصيف حرارة. وفى اختيار الموقع لدينا روايتان: الأولى رواية عمر بن شبة عن سليمان بن جباله نصها : « أفسد أهل الكوفة جند أمه المؤمنين المنصور عليه ، فخرج نحو الجبل يريدون أن يبنوا منزلاً والطريق يومئذ على المسدات ، فخرجنا على سبابط ، فتخلف بعض أصحابى لمرمد أصابه ، فأقام بمالج هنيئ ، فسأله الطيب : أين يريد أمه المؤمنين . قال : يريدون منزلاً . قال : فإذا نجد فى كهف عندنا أن رجلاً يدهى مقلصاً يبنى مدينة بين دجلة والفرات تدعى الوراء فإذا أسسها وبنى مرقاً منها أتاه فتق من الحجاز فقطع بناءها ، وأقبل على إصلاح ذلك الفتق ، فإذا كاد يلتئم أتاه فتق من البصرة هو أكبر عليه منه ، فلا يملك الفتقان أن يلتئما ، ثم يعود إلى بنائها فيتمعه ، ثم يعمر محرراً طويلاً ويهتق الملك فى عقبه . قال سليمان : فإن أهدى المؤمنين لباطراف الجبال فى ارتقاء منزل ، إذ قدم على صاحبى فأخبرنى الخبر ، فأخبرته به أمه المؤمنين ، فدعا الرجل ، فحدثته الحديث ، ففكر راجعاً هوذا على بدنه ، وقال : أنا والله ذاك ، لقد سميت مقلصاً وأنا صهي ثم انقطع عني » (١) . ويواصل ابن شبة سرد روايته فيقول : « وذكر عن بشر بن ميمون الشروى وسليمان بن جباله أن المنصور لما رجع من ناحية الجبل سأل عن خبر القائد الذى حدثه عن الطيب الذى أخبره عما يهددون فى كتبهم من خبر مقلص ، ونزل الله الذى هو حذانا

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٣٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ .

قصده المعروف بالحد ، فدعا بصاحب الهير ، وأحضر البطريق صاحب رحا
البطريق وصاحب بندقاد وصاحب المخرم وصاحب الهير المعروف ببستان
النس وصاحب العنقة (١) ، فسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحضر والبر
والأقطار والحوادث والبق والمقام ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم ،
فوجه رجلا من قبله وأمر كل واحد منهم ببيت في قرية منها ، فبات كل رجل
في قرية منها ، وأثناء بغيرها ، وشاور المنصور الذين أحضرهم وتحرأخبارهم ،
فجميع اختارهم على صاحب بندقاد ، فأحضره وشاوره وسأله ، فهو الهذقان
الذي قرينه قائمة إلى اليوم في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان
الطوسي ، ولباب القرية قائم بتأولها إلى اليوم وداره ثابتة على حالها ، فقال :
يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وطبيها وما يختار منها ، فالذي أرى
يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طسوجين ، في الجانب الغربي طسوجين واما
طسوجين وبادورها ، وفي الجانب الشرقي طسوجين واما هريوق وكراوذي ، ..
إلى آخر الرواية ، (٢) .

والروية الثانية رواها الهيثم بن عدي عن ابن عياش : قال لما أراد
أبو جعفر الانتقال من الهاشمية بمنى روادا يرتادون له موعضا ينزله واسطاً ،
وافقا بالعام والجد ، فتمت له موطع قريب من بارما ، وذكر له منه غداء
طوبى ، فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه ، وبات فيه ، وكرر نظره فيه ، فرآه
مرحناً طيباً ، فقال لجناحة من أصحابه منهم سليمان بن بجالة وأبو أيوب

(١) كانت بندقاد والمخرم والعنقة لبري قد ورد ذكرها أهم المصنفات العربية
السيرات .

(٢) الطبري ، ج ٩ ص ٧٤٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ .

الحوزي وعبد الملك بن حميد. الكاتب وظهرهم : ما رأيكم في هذا الموضع ؟ قالوا :
ما رأينا مثله ، وهو طيب صالح موافق . قاله : صدقتم هو هكذا ، ولكنه لا
يحمل الجند والناس والجحافات ، وإنما أريد موضعاً يترفق الناس به ويوافقهم
مع موافقتهم ، ولا ينفق عليهم فيه الأسوار ، ولا تهتد فيه المؤونة ، فكيف إن
ألقه في موضع لا يحمل إليه من البر والبحر شيء خلف الأسوار وقلة المأفقه ،
عاشت فيه المؤونة وشق ذلك على الناس وقصد حروب في طريق على موضع
فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه وباءت به ، فإن اجتمع لي فيها طلبة
من طيب الليل والموافقة مع احتماله الجند والناس أبتني . قال المهيم بن عدي :
فخبرت أنه أتى ناحيته الجسر فمبى في موضع قصر السلام (١) ، ثم صلى الصبح
وكان في صيف ، وكان في موضع انقصر بركة قس ، ثم بات ليلة حتى أصبح ،
فبات أطيب مبيت وأرفقه ، وأقام يومه فلم ير إلا ما يحب ، فقال : هذا
موضع أبي فيه ، فإنه تأتيه الماده من الفرات ودجلة وجمعه من الأنهار ، ولا
يحمل الجند والعامة إلا مثله ، فخطبها (٢) ، وأما ما كان الاختلاف بين
الروايتين ، فإن الذي لا شك فيه أن المنصور لم يكتشف موقع بغداد بنفسه
ولما دله عليه رجاله الذين أرسلهم لارتداد الموقع ، وأنه قسم بنفسه إليه وسأل
أصحابه عنه فأقنوه بحسن هذا الاختيار . وأنه لم يكتف بذلك بل أراد أن
يجرب المبيت فيه ليخبر مناخه ، فألفاء طيب الهواء ، وأنه لوقوعه على الصراة
وبين نهر دجلة ونهر بوق حصين لا يرام على أساس أن دجلة والفرات خنادق
طبيعية ، وأنه لوقوعه في أرض السواد على ضفاف دجلة سهل الاتصال

(١) بقصد الخلد الذي بناء المنصور فيها بعد عند شروعه في تأسيس بغداد .

(٢) الطبري ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ .

بالبصرة المركز التجاري الهام لتجارة الهند والصين (عن طريق دجلة) وسهل
الاتصال بالموصل والجزيرة والشم (عن طريق الصراة) .

الموقع الذي اختاره المنصور لإنشاء مدينة السلام جدير بالاختيار
استراتيجيا ومناخيا واقتصاديا ، وقدر لهذه المدينة أن تصبح قلب العالم
الإسلامي حتى سقوطها في أيدي التتار ، وكانت أعظم مدن العالم بعد
القسطنطينية .

وما كاد اختيار المنصور يقع على هذا الموضع حتى شرع في وضع الأساس
في وقت اختاره له أبو بخت المذبح (١) ، وأرسل في عهد المهندسين والبنائين
من كل بلد (٢) ، فوجه من حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجليل
والكوفة وواسط والبصرة فأحضروا ، وأمر باختيار قوم من ذوى الفضل
والعدالة والنقمة والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فكان من أخصر لذلك : الحاج
ابن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ثم أمر بخطط المدينة وحفر الأساسات
وضرب اللبن وطبخ الآجر ، فبدى بذلك ، وكان الشروع فيه سنة ١٤٥ هـ (٣)
وذكروا أنه أحب أن ينظر إليها ويدرس تخطيطها قبل أن يحفر الأساس ، فأمر
أن يخطط بالرماد ، ثم أقبل يدخل من كل باب ويعرف فصلاتها وطاقتها ورحابها
وهي مخطوطة بالرماد ودار عليهم ينظر إليهم وإلى ما خط من خنادقها ، فلما

(١) الإدري ، ص ٧٤ .

(٢) البيهقي ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٦١ — الطبري ، ج ٩ ص ٢٤١ — ابن الأثير ، ج ٥
ص ٥٥٨ — ابن طبري ، ص ١٤٥ — الإدري ، ص ٧٤ . وبمحمد السبوطي تاريخ
العروج في البناء سنة ١٤٥ هـ (السبوطي ص ٢٤٣) .

فعل ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط باب القطن وينصب عليه النفط، فنظر إليها والنار تشتعل، ففهمها وعرف رسمها، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم، (١). وما إن تمت مرحلة حفر الأساس حتى بدأت مرحلة إرساء الأساس، فتولى المنصور بنفسه وضع أول لبنة بيده، وقال: بسم الله والمحمد، والارض لله يورثها من يشاء من عباده، والمساوية للفقيرين ثم قال: واهتوا على بركة الله، (٢).

وكان تخطيط بغداد على شكل دائرة (وسميت لذلك بالمدينة المدورة) ثلاثا يكون الخليفة إذا نزل وسطها إلى موضع منها أقرب منه إلى موضع (٣)؛ يعنى بذلك أن الخليفة يكون في قصره الواقع في مركز المدينة على بعد واحد من جميع أنحاء المدينة. والتخطيط الفارسي لبغداد فريد من نوعه بين المدن الإسلامية على الإطلاق، وأهل المنصور تأثر في ذلك بتخطيط المدن الفارسية القديمة مثل مدينة أكتان (هم. ان الحالية) عاصمة الميديين، فقد كانت محاطة بسبعة أسوار لا ترتفع عن بعضها إلا بمقدار المقاريف، وكان على قصر الملك وبينه ماله في وسط القصور الداخلي يديها تقع بيوت الرعية بين الأسوار (٤)، وفكرة المركزية المنغلقة بسور داخلي يفصل أحياء الأهالي عن مقر الخليفة تنفذ ونوع السلطان المطلق الذي أضطلع المنصور على نفسه تأثرا بالفرس وبالإضافة

(١) الطبري، ج ٩ ص ٢٤١ — ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٥٩ — الإبري،

ص ٧٤.

(٢) الطبري، ج ٩ ص ٢٣٩ — الإبري، ص ٧٤ — ابن طباطبا، ص ١٤٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٦١ — ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٧٤.

(٤) البستاني، المرجع السابق ص ٧٦ — ٧٨، الدوري، ص ٩٧.

الى التعليلين السابقين لاستعدادة بغداد يرى بعض المحدثين أنها بتدبير مدبرة لتكون مدينة صحية ، لأن البناء المدور يكون عادة أكثر تعرضا للشمس والهواء من أى بناء آخر (١) . وأضيف إلى هذا التعليل تعليلًا رابعًا (٢) هو أن التخطيط المستدير أفضل في الدفاع والاستراتيجية الحربية من التخطيط المربع أو المستطيل ، فالأسوار المستديرة تنجح للدفاعين بسهولة التحرك والرؤية ، بينما تعجب زوايا المربع أو المستطيل جانبا من المنطقة المحيطة بالصور وتعرض للدفاعين ، فيضطرون إلى التزام أركان المستطيل أو المربع ، ولا شك أن المنصور كان يستهدف موقعا حصينا تدور به الأسوار الحصينة بدليل أنه قيل للمنصور : « فإن الله قد من على أمير المؤمنين بكثرة جيوشه وقواده وجنده ، فليس أحد من أعدائه يطعم في الدوا منه ، ولقد ظهر في المدن أن تتخذ الأسوار والخنادق والحصون ، ودجلة والفراخ خنادق لمدينة أمير المؤمنين » (٣) ، وبدليل أن المنصور أقام لمدينته سورين خارجين ثم أقام حول مركز المدينة الذى يضم القصر والجامع سورا داخلية ثالثا ، ومعنى هذا أن المنصور كان يتم بحصانة مدينته ضد أعدائه فبالغ في تنفيذ هدفه بهذا التخطيط المستدير ، لأن الصور المدور يحقق له الحصانة من جهة وهو بر عن نظام حكمه الاستبدادى المقدس بحكم التأثير الفارسى من جهة أخرى .

(١) حال الدين الفيل تاريخ الدولة العباسية ، الإسكندرية ١٩٦٨ م ، ص ٢٧ .

(٢) ويمكن أن أضيف تعليلًا خامسا هو أن طبيعة قرن العماراة أو نهر العماراة الذى يتخذ مجراه شكل قوس ، يسير بمسار السور المستدير الذى أتت على المنصور شكل مدينته المستدير .

(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤ .

ومن المعروف أن المنصور اتخذ من مدنه حورين خارجيين المدخل منها أكثر ارتفاعاً من الخارجى (١) على نمط ما كان معروفاً عند الفرس والروم والسور الأمامى كان يعرف عند الفرس باسم برجانة وقد عرفه العرب عن الفرس والروم معا وسموه بالخوام البرانى ، ووظيفة السور الأمامى أنه يمنع العدو المهاجم من هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ويعطى تقدمه لفتح الثغرات التي يمكنه أن يتخذ منها إلى داخل المدينة (٢) بسبب وجود التفصيل الواقع بين السورين - وفيه تركز قوة الدفاع الرئيسية - والخندق ، وهذا السور الأمامى بخندقه يهكل على هذا النحو خطا دفاعيا أماميا . وفتح في هذا السور (الأمامى والريمى) أربعة أبواب مزدوجة على مسافات متساوية عن بعضها بهذا (٣) وبهذا أحدها الآخر ، بين كل بابين ٢٨ برجاً (٤) :

- ١ - باب الكوفة : ويقع في الجنوب الغربي ويشرف على الصراة ويتخرج منه طريق الحج .
- ٢ - باب البصرة : ويقع في الجنوب الشرقى ويشرف على الصراة التي تأخذ من الفرات وتصل إلى دجلة (٥) .

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦١ .

(٢) سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٩ ،

ص ٤٤٣ .

(٣) ذكر الطبرى أنه جعل أبوابها أربعة على تدبير المساكن في الحروب .

(٤) ماعدا المسافة بين بابي البصرة والكوفة فكان يركز على سورها ٢٩ برجاً .

(٥) اليعقوبى ، ص ٣٧٣ .

٣ - باب خراسان : ويقع في الشمال الشرقي ويشرف على الجسر الكبير القائم على نهر دجلة ، وكان هذا الباب يدهى باب الإقبال أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان .

٤ - باب الشام : ويقع في الشمال الغربي ويؤدي إلى طريق الأنبار الذي يصل الضفة الشمالية من نهر الفرات إلى الجبل .

وبالغ المهندسون في تحصين هذه الأبواب ، فكان على كل من الأبواب الأربعة مساكن الأبراج محاسن بقباب مذهبة يصعد إليها على الخيل (١) ، وفي ذلك يقول الإربل :
 ودعى كل أزج من أزاج المدينة مجلس ودرجة وعليه
 قبة عظيمة عليها تمثال تديره الريح (٢) ،
 ولول في محاسن كل باب فرقة من
 الجند ، فكان على باب الشام سليمان بن محمد في ألف ، وعلى باب البصرة
 أبو الأزم التميمي في ألف ، وعلى باب الكوفة خالد العلي في ألف ، وعلى باب
 خراسان مسلمة بن حبيب الغساني في ألف (٣)

وخصص المنصور قلب المدينة ومركزها لقصره ، المسمى باب الذهب ،
 وللمسجد الجامع وحولها تركت رحبة واسعة مستديرة طوقت بهدار داخلي ،
 فتحصن فيه أربعة أبواب في اتجاه الأبواب الخارجية ، وامتدت من هذه
 الأبواب أربع طرق رئيسية تشعبت من المراكز نحو الأبواب الخارجية ،
 عرض الواحد ٤٠ ذراعاً . ويستطيع أن نستنتج من أقوال المؤرخين أن كل

(١) الطبري ، ص ٣٧٤ .

(٢) الإربل ، ص ٧٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٦ .

باب من الأبواب الأربعة في السور الخارجى المدينة كان له بابان، بمعنى أن السور الأمامى كان لكل باب من أبوابه بابان وكان لكل باب من أبواب السور الرئيسى بابان، ولكل باب من أبواب جدار الرحبة المركزية باب، فأصبح لوأما على من يرغب في الوصول إلى الرحبة المركزية أن يمر بخدمة أبواب.

واتخذ المصور لهذه الأبواب أبواباً حديدية ضخمة، فنقل من واسط أبوابها الخمسة ونصب أربع منها على أبواب مدينته في السور الداخلى والخامس نصبه على باب قصره، وجعل على باب خراسان الخارجى باباً جرم به من الشام، وعلى باب الكوفة الخارجى باباً جرم به من الكوفة كان قد عمله خالد بن عبيد الله القسرى، وأمر باتخاذ باب حديدى لباب الشام فصنع في بغداد فجاء هذه الأبواب الحديدية كلها (١).

وقفرت من الطرق الأربعة الرئيسية في المدينة دروب وسكك قدر عددها في الجانب الشرقى نحو أربعة آلاف درب وسكة، وستة آلاف في الجانب الغربى (٢).

ج - بناء الاسوار والقصر والجامع والدواوين :

لما أمر أبو جعفر بفتح الخندق وإنشاء بناء الأساس أمر أن يعمل عرض السور من أسفل خمسة ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا، (٣) وقيل عرضه

(١) الطبري، ج ٩ ص ٢٦١ - ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٧٤.

(٢) الإبريل، ص ٨٢.

(٣) الطبري، ج ٩ ص ٢٤١ - الإبريل، ص ٧٤.

من أسفل سبعون ذراعا (١) ، وقيل هرطه من أسفل عشرون ذراعا وارتفاعه
٣٥ ذراعا (٢) ، فلما بلغ ارتفاع السور قامه أثناء خبر خروج محمد بن عبد الله
ابن الحسن فقطع البناء وخرج إلى الكوفة (٣) ، فلما فرغ من ثورة النفس
الوكية عاد إلى بغداد وواصل بنيان أسوارها ، وكان الإمام أبو حنيفة يقول
مهما ضرب اللبن للمدينة وعده ، حتى فرغ من استتمام البناء بسور المدينة
مما يلي الخندق ، وكان أبو حنيفة يمد اللبن بالقص وهو أول من فعل ذلك
ويرجع السبب في إشراك أبي حنيفة في أعمال البنيان أن المنصور أراد أن يولي
على القضاء والمظالم فاستأج ، فأقسم المنصور أن يولي إجملا ، فولاء القيام بضرب
اللبن ليخرج من يمينه (٤) . وكان أبو حنيفة يتخذ قوالب ضخمة لمن ابن
طوله ذراع وهرطها ذراع ، وهذا يفسر ضخامة سمك السور وعظم النفقة
في بنائه . وفي نفس الوقت عهد المنصور إلى أربعة قواد من قواد دولته ببناء المدينة
(كل يبنى منها ربعا) . وتولى الحاج بن أرطاة مهمة تخطيط المسجد الجامع
وبنائه ، ولكن قبلة الجامع جاءت منحرفة غير مستقيمة لأن بناء الجامع
حدث بعد بناء القصر وكان جدار القصر غير مستقيم من القبلة (٥) ، ويشتمل
بناء القصر مركز المدينة . وكانت تقوس القصر قبة خضراء على رأسها تمثال
لأرس في يده رمح (٦) ، على نفس نظام التماثيل القائمة بأعلى قباب مجالس

(١) الطبري ، ص ٣٧٤ .

(٢) الإدري ، ص ٧٥ .

(٣) الطبري ، ص ٢٤١ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٦٠ — الإدري ، ص ٧٥ .

(٥) الطبري ، ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ص ٥٧٤ .

(٦) الإدري ، ص ٧٦ .

الأبواب وجميع هذه القباب مكسوة بالتراميد الخضراء ، وزينت بطونها
بنقوش ذهبية (١). وكان قصر المنصور بناء ضخما يتوسط المدينة وكان يعرف
باسم باب الذهب (٢) أو قصر الذهب (٣) أو قصر القبة الخضراء (٤) ،
وبلغت مساحته ٤٠٠ ذراع في مثلها ، وفي أدنى القبة الكبرى مجلس منفذ
يتقدمه إيوان ضخم .

أما الدوران فقد أقيمت بعد ذلك حول الرحبة المركزية . وكانت تضم
بيت المال وخزانة السلاح ودوران الرسائل ودوران الخراج ودوران الخاتم
ودوران الجند ودوران الخوارج ودوران الاحتشام ومطابخ العامة ودوران
النفقات (٥) .

ولما بنى المنصور بغداد وعظمت عليه النفقة ، أشار إليه أبو أيوب
المورياني سديم إيوان كسرى بالمداين ويعرف بالقصر الأبيض ، واستعمال
انقاضه في أبنية بغداد ، فاستفاد المنصور من ذلك ، فنهض عن
مطرب القصر بحجة أنه « علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر إليه على أنه
لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دينا ولا عسا هو على أمر دين ، وهو مع

(١) البطون ، ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٢) الميوسوب ج ٢ ص ٣٧٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٤ .

(٣) الإدري ، ص ٧٥ . وسمى أيضا قصر السلام (الطبرى ، ج ٩ ص ٢٣٩) .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٦ .

(٥) لسترنج ، ص ٣٥ .

هذا يا أمه المؤمنين فإن فيه مصلى على بن أبي طالب صلوات الله عليه . .
فقال له أبو جعفر : هيات يا خاله أبيت الا الميل إلى أصحابك الأماجم ، (١)
وأورد ابن طباطبا رواية شبيهة مع بعض الاختلاف الطفيف ، فبعد أن
نصحه خاله بعدم هدمه باعتباره علما من أعلام الإسلام ومصلى لعلى بن
أبي طالب ، قال له : والمؤنة في نقضه أكثر من نفعه ، فرد عليه المنصور قائلا :
د أبيت يا خاله إلا ميلا إلى العجمية (٢) ، ثم أمر المنصور بهدم إخوان كسرى ،
فهدمت منه ثلثة ، فبلغت النفقة على هدمها أكثر من النفقة على بناء ما يسادها
من البنيان الجديد ، فأمدك المنصور عن هدمه (٣) .

وفي سنة ١١٠٠ تم بناء القصر والجامع والدواوين ، فنقل المنصور إلى
بنداد الخزان والدواوين وبيوت الأموال (٤) ، ثم أقطع المنصور مواليه
وقواده القرائن داخل المدينة ، ودروب المدينة تذهب إليهم ، وأقطع آخرين
من نقواد على أبوابها وأقطع الحشد أرباضها وأقطع أهل بيته الأطراف (٥) .
ثم نزل مدينته في ربيع الأول سنة ١١٠٦ هـ نزول مستوطن ، وكانت الأسواق
داخل المدينة ، فأخرجها إلى الكرخ سنة ٥٧٠ هـ (٦) . وذكر الطبري في أسباب
نقل الأسواق من داخل المدينة بالطائفت الأربع في المدينة إلى ناحية الكرخ

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢٦١ .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ .

(٣) الطبري ، ص ٢٦١ - ابن الأثير ، ص ٥٧٣ - الإرادى ، ص ٧٤ .

(٤) الإرادى ، ص ٨١ .

(٥) اليعقوبى ، ص ٣٧٤ .

(٦) اليعقوبى ، ص ٣٧٤ - الطبري ، ج ٩ ص ٢٨٨ .

أن بطريقاً من بطارقة الروم قدم على المنصور وافداً في سفارة ، فأمر المنصور
الربيع بن يونس ، أن يطوف به في المدينة وما حولها لهدى العمران والبناء ،
فطاف به الربيع ، فلما انصرف قال : كيف رأيت مدينتي — وقد كان أحمد
إلى سور المدينة وقباب الأبواب — قال : رأيت بناء حسناً إلا أني قد رأيت
أعداءك منك في مدينتك . قال : ومن هم ؟ قال السوقة ، فلما رحل الرسول
أمر المنصور بإخراجهم إلى ناحية الكرخ وبنیان أسواقهم هناك ويجمعلوها
صفـرفا ويوتوا لكل صنف (١) ، وذكر بعضهم أن السبب في نقل أبي جعفر
للتجار من المدينة إلى الكرخ وما قرب منها مما هو خارج المدينة أنه قيل
لأبي جعفر إن الغرباء وغدهم يبيتون فيها ولا يؤمن أن يكون فيهم جواسيس ومن
يعترف الاختبار ، أو أن يفتح أبواب المدينة ليلاً لموضع السوقي . فأمر بنقل
الأسواق من المدينة وجعلها للشرط والحرس ، وبنى للتجار بواب طاق الحراني
وباب الشام والكرخ (٢) . وهناك سبب ثالث اعتقد أنه الرئيس في نقل
الأسواق للتجارية إلى محلة الكرخ وغدها ، فقد ذكر الطبري أيضاً أن محتسب
بغداد والأسواق واسمه أبو زكريا يحيى بن عبد الله كان شيعياً حسنياً ساءه
أن يتبع المنصور أنصار الحسينيين ، فجمع جماعة من السوقة وحرضهم على
القتل ، فثاروا في أسواق بغداد ، فأرسل المنصور إليهم أبا العباس الطوسي
فأسكنهم ، وقبض على أبي زكريا وقتله على باب الذهب في الرحبة ، وأمر
المنصور بهدم الدور التي تعترض الدخول إلى المدينة وتوسعة الطريق إلى

(١) الطبري ، ص ٢٦٢ — ابن الأثير ، ص ٥٧٤ .

(٢) نفس المصدر .

أرسلين ذراعا ومدم ما زاد من المباهة على هذا القدر ، ونقل الأسواق إلى الكرخ (١)

٥ - النور والقصور الأخرى .

وإلى جانب قصر الذهب أو القبة الخضراء الذي تحدثنا عنه أقام المنصور بعد بضع سنين قصر الخلد ، ويقع خارج باب خراسان على ضفة دجلة ، وأصبح قصر الذهب المقر الرسمي للمنصور ومن خلفه من الخلفاء حتى الرشيد الذي أتم الإقامة في قصر الخلد طوال لبته في بغداد ، ولكن الآمين حاد إلى الإقامة في قصر الذهب ، أما قصر الخلد فقد كان يقيم فيه أيام العرض أو الراحة ، ويذكر الطبري في أحداث سنة ١٥٧ هـ أن المنصور عرض جنده في السلاح والحيل على عينه في مجلس اتخذته على شط دجلة دون قطربل ، وأمر أهل بيته وقرايته وصحابته بومئذ بلبس السلاح ، وخرج هو وقد لبس درعا وقلنسوة سوداء من الذبيح المصري تحت البهضة (أو الخوذة) (٢) وفي العام التالي (أي سنة ١٥٨) نزل المنصور قصره الذي يعرف بالخلد (٣) ، مما يقطع يقيناً بأن بناء قصر الخلد بدأ قبل سنة ١٥٧ ، وانتهى سنة ٥٨ هـ .

ومن القصور التي أقيمت في العصر العباسي الأول ببغداد قصر الجعفرى الذى شيده جعفر البرمكى أقرب المقربين إلى الرشيد ليكون موضع لموه ومجلس أسسه ، وكان يقع على ضفة نهر دجلة في بغداد الشرقية . ثم تبدل اسم القصر بعد تسمية البرامكة وبعد أن أقام فيه المأمون فسمى القصر المأمونى ، ولما أقام فيه

(١) الطبري ، ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ .

الحسن بن سهل سمى القصر الحصن ، وكان المأمون قد أضاف إلى هذا القصر وزاد فيه الميدان الممد لسباق الخيل ولعبة الصولجان التي كان الرشيد أول من لعبها في بغداد (١) ، وجعل فيها حوض الوحوش .

ولما تولى المعتصم الخلافة أقام لنفسه قصرا في غلة المخرم إلى الجنوب من باب خراسان ، اتخذها مقرا له حتى سنة ٢٣١ (٢٠٦) التي أسس فيها سامراء ، فانتقل إليها (٢)

ومن القصور العباسية أيضا قصر عيسى بن علي العباسي أول ما شيد من قصور أمراء بني العباس في بغداد ويقع في الجانب الأيمن من نهر عيسى عند التقاء هذا النهر بدجلة ، وظل هذا القصر قائما فترة طويلة حتى القرن الرابع الهجري (٣) ، ومنها قصر حميد بن عبد الحميد (ت ٢١٠ هـ) الذي لعب دورا هاما في القضاء على حركة إبراهيم بن المهدي العباسي ، وكان يقع على ضفة نهر دجلة (٤) ، ومنها قصر القرار (أي قصر البركة) وكان يقع في أدنى قصر الخلد على مسافة قليلة من أهل قرن لأصراة ، وسمي هذا القصر أيضا بقصر زبيدة أم الأمين ، وعرف أيضا بقصر أم جهمر لقب زبيدة (٥)

ويمكن أن نصنف إلى القصور السائفة الذاكرة قسرا أصبح بؤرة لمدينة

(١) الرشيد هو أول من لعب بالموالجة والعكرة ورمى النشاب في السرجاس (المعوطى ص ٢٧٤) .

(٢) لسترنج ص ٢١١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٣ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٩١ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٩٦ .

تُعرف بالرصافة ، ويقع هذا القصر في الجانب الشرقي من بغداد ثم اتسعت المرافق حوله حتى أصبحت تؤلف مدينة مستقلة لها سور وخندق وميدان وبستان (١) .

ويرجع سبب بناء المنصور للرصافة أن بعض الجنود شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، فدخل عليه ثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس - وكان شيخاً ونوراً مقدماً عند القوم - فاستشاره المنصور في الأمر ، فنصحه بإقامة مدينة أخرى يزلها ابنه المهدي ويقيم معه فيها قسم من الجيش من عصبية تخالف نوع عصبية جند بغداد ، فإذا فسدت جند بغداد أمكنه ضربهم بجند الرصافة ، فاتفق المنصور بهذا الرأي وباشر بناء الرصافة في شوال سنة ١٥ هـ (١٦٨) ، وتولى أعمال البناء صالح صاحب المصل (٢) . ولم يتم العمل في بناء الرصافة حتى سنة ١٥٦ هـ (٧٧٦ م) أي في السنة الثانية من خلافة المهدي . وأول بناء أقيم في الرصافة هو جامعها الكبير وتبعه القصر ، ولهذا السبب جاء انهاء قبة الجامع صحيحاً بخلاف قبة جامع بغداد التي أملى الجدار المنحرف بالقصر اتجاهها المنحرف . وكان يحيط بقصر المهدي في الرصافة سور وخندق وبجوارده رحبة ، وأجرى المنصور المياه إلى بساتين الرصافة من نهر المهدي (٣) .

٥ - دور قصور بغداد ابان الفتن بين الامين والمأمون :

في سنة ١٩٧ حاصر طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهيد بن المسيب

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢٨١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٤ .

(٢) الطبري ، ص ٢٨٢ - ابن الأثير ، ص ٦٠٤ .

(٣) راجع ما قوت ، معجم البلدات مادة (رصافة) .

بغداد، فنزل زهير بركة كلواذى، ونصب المجانيق والمرادات وحفر الخنادق،
وعزل مائة نهرين وخندق هناك، ونزل هبيد الله بن الوضاح بالشامية فوكل
طاهر البستان الواقع بباب الأنبار، وتبادل المحاصرون والمحصرون الرمي
باللقط والمجانيق فأحرقت عدة الحربية (١) الواقعة إلى الشمال من باب الهام
وتنسب إلى حرب بن عبد الله صاحب شرطة المنصور في بغداد، وعهد طاهر
إلى هدم الدور وتحصين الدور، بالخنادق، فكثر الحراب والمسلم ببغداد
ودرس المنازل، ووكل الأميين إلى حل الفرامند بالدفاع عن منطقة قصر
صالح وقصر سليمان بن المنصور حتى دجلة، وفألح في إحراق الدور والدور
والرمي بالمجانيق، وفعل طاهر مثل ذلك، فأرسل إلى أهل الأرباض من
طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها، فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم
ومن أين إجابته قاتله وأحرق منزله، وحدثت بغداد وخربك، (٢) وفي ذلك
يقول بعض فتيان بغداد:

بكيت دما على بغداد لما . . . فقدت حضارة العيش الأبيق
تبدلتنا هموما من سرور . . . ومن سعة تبدلتنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين . . . فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار كسرا . . . ونالحة تنوح على غريق (٣)

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

وامر طاهر بن الحسين بالهدم والإحراق ، فهدم دور من خالفه من بين
دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وريض حميد وغير
كثيراها . وفي سنة ١٩٨ هـ دخل طاهر الكرخ بالسيف ، وقصد إلى مدينة المنصور
وطوقها ، وحاصره هراخلد ، ونهب المجانيق بإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ،
فلاذ الآمن مع أمه وأرلاهة إلى مدينة المنصور وتمنن بها (١) . وأصيب
قصر الذهب إصابات بالغة بقذائف المجانيق طاهرا ، ولم يبق من القصر بعد
مصرع الآمن سوى أجزاء قليلة ، وبقيت القبة الخضراء قائمة إلى أن سقطت
في سنة ٢٩ هـ (٩٤١ م) بسبب صاعقة دهرتها (٢) .

كذلك أصيب قصر الخلد بأضرار فادحة ، ولكنه كان أقل بكثير مما أصاب
قصر الذهب ، فعندما عاد المأمون إلى بغداد بعد مصرع الآمن ب خمس سنوات
اتخذ مقره أولا في قصر الخلد بما يدل على أن الإصابات لم تكن بالغة . أما قصر
زبيدة فقد تهدم جانب منه وأملت جدرانها بفعل أحجار المجانيق التي قذفها
أعدوان طاهر عليه (٣) . وقد تهدم الخلد تماما خلال السنتين سنة التي انتقل
فيها الخلفاء إلى سامراء ، وظل مهدما إلى أن أقام عتيد الدولة البويهية على إلقاضه
البيارسقان العظيم المنسوب إليه وذلك في سنة ٢٦١ هـ (٩٧٩ م) (٤) .

لأيا - مدينة سامراء :

كان المنتصم قد استكثر من الأتراك ، فاجتمع له منهم أعداد ضخمة إليهم

(١) ابن الأثير ، ص ٢٨٠ .

(٢) لتزيج ، ص ٣٩ .

(٣) نفس المرجع ص ٩٦ .

(٤) نفس المرجع .

أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ويميزهم من سائر جنده ، وكان هؤلاء الجنود يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع فيصدمون المنارة من الرجال والنساء والصبيان ، فيثور الأهالي عليهم وتندب معارك قد تلتقي يقتل من الطرفين ، فاعترض المعتصم في موكبه يوم عيد شيخ وقال له : « لا جواك الله من الجوار خيرا ، جاورتنا رجعت هؤلاء العلوج من هلمناك الاتراك ، فأمكنتم بيننا ، فأيمست صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا ، (١) فتلالم المعتصم وهم على الخروج من بغداد واتخاذ مقرر شهرها ، فخرج إلى الشامية وهو موضح كان المأمون يقصده وينزل به الأهم والشهور ، ولكنه بعد أن أقام هناك كرهه اضيق أرضه وقربه من بغداد (٢) ، ورحل من هناك يرتاد موصلا يصلح لإنشاء مدينة التي يرمع اتخاذها مركزا له ، فنزل بالبراذان (٣) فلم يستطع هواءها فلم يزل يتنقل ويتقرب الموضح إلى دجلة وغيره حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول (٤) ، فأعجبه الموضع واستطابه ، وكان بهذا الموضع قرية يسكنها قوم من النبط فبنى المعتصم هناك قصرا ، وبني الناس ، وانتقلوا إلى القاطول . ولكن المعتصم ناله من شدة برودة الجو هناك وصلاية الأرض (٥) ما دعه إلى ترك القاطول بحثا عن موضع آخر ينزل فيه

(١) ابن الأثير ' ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٢) اليعاقبة ' كتاب البلدان ' ص ٢٥٥ .

(٣) المسعودي ' ج ٣ ص ٤٦٦ .

(٤) القاطول نهر كان في موضع سامراء قبل أن يعمره حفره الرشيد وبني على فوهته قصرا سماه أبا الجند (حين أجهن) سامراء في ظيل الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ص ١٧٨ .

(٥) المسعودي ، ص ٤٦٦ .

إلى أن انتهى إلى وضح سامرا ، وكان صحراء من أرض الطبرستان لا هجرية فيها إلا دير قديم لنصارى ، فكلم بعض رهبان الدير وسألهم عن اسم الموضع فأخبروه أنه سامرا ، ثم سألهم عن معناها فأجابوه أنهم لوثأروا في كتب التاريخ الماسية أنها مدينة سام بن نوح ، وأنها ستعمر على يد ملك جليل مظهر منصور ينزل وينزلها ولده . فغفر المتهم حوالبه فالتق فضاء فسيحها لا حدود له ، واستطاب هوامها فأقام هناك ثلاثة أيام يتصيد ، فلحجب بالموضع ، ودعا رهبان الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار (١) ، وأمر ببناء القصور والحدود سنة ٢٢١ ، واستقدم المهرة من الصناع والفنيين لتهديد القصور وجميع منشأته ، وجلب أصناف الأشجار المثمرة من جميع البلدان ، فمرست البساتين في كل مكان ، وجعل الأتراك قطائع متحيزة ، وجاورهم بالمرغنة والأشروسية وغيرهم ، وهدى إلى كل رجل من أصحابه ببناء قصر ، ففوض إلى خاقان هرطوج ابن الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني ، وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالمصري ، وإلى ابن الوزير ببناء قصر الوزير ، وخط القطائع للقواد والكتاب ، وخط المسجد الجامع واخطت حوله الأسواق صفوفا ، وجعل لكل صناعة وتجارة شارع على مثال ما رسمت عليه أسواق بغداد ، وأقيمت دواوين الدولة ، وشهدت ثكنات لسكنى ٢٥ ألف جندي (٢) ، واستقدم لكل هذه الأعمال الإيشاقية القملة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات . وكتب في حمل الحاج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن أنطاكية وسائر سواحل الشام (٣) .

(١) المسعودي ، ص ٣٦٧ - بالوثق ، معجم البلدان ، مادة (سامرا) .

(٢) حسين أمين ، سامراء في ظل الخلافة العباسية ، ص ٧٩ .

(٣) الخطوبى ، البلدان ، ص ٢٥٨ .

وأقطع المعتصم أشعس القزكي ووقافة الأتراك الموضع المعروف بـ كرخ
سامرا، ومن فراغته من أنولهم الموضع المعروف بالعمري والجسر (١)، وأقطع
الأفندي في آخر الهناء مشرقا، وسمى الموضع الذي أقطعه إياه المطهرة، كما
أقطع أصحابه الأشروصنية حول داره، وأمره أن يبنى فيها سوقا تضم
حرايت ومساجد وحمامات (٢)، وفي الشارع الأعظم المعروف بالسريجة
قطائع قواد خراسان، منها قطيعة هاشم بن بانيجور وقطيعة صهيف بن عنبسة
وقطيعة الحسن بن علي المأموري، وقطيعة مروان بن نعم، ومواقع الرطابين
ودوق الرقيق وجلس الشرط والحبس الكبير والسوق الكبير، ثم المسامع
القديمة، وتمتد القطائع بعد ذلك باستعداد الخارج مروان بن عمار مروان بن
المعتصم (وهو الوائلي) وذلك عند دار العامة، ثم باب العامة ودار الخليفة
العامة التي يجلس فيها يوم الإثنين والخميس (٣)، وهناك شوارع أخرى
شقت في هذه المدينة فيها قطائع لخصمها بارزة، فأخرج ابن أحمد بن الرشيد
بنقظم ديوان الخراج الأعظم وقطيعة الكتائب، وتصل به قطائع ابن دواد
والقطيل بن مروان ومحمد بن عبد الملك الزاهدي وبنا الصنو وبنا الكه
وصيا الصمعي وبرغن ووصيف وقطيعة إيشاخ من باب البستان ونصير
الخليفة، وفي شارع صالح الساس قطائع الأتراك والفراخنة، وفي شارع الحمد
الجديد قطائع قواد الفراخنة والأشروصنية وغيرهم، ويطل على دجلة شارع
يعرف باسم شارع الخليل حيث تعداد المدن التجارية التي ترد من بغداد

(١) المسعودي، ص ٤٦٧.

(٢) اليعقوبي، ص ٢٥٩.

(٣) حنين أمين، ص ٨١.

وراسط رككرك وصائر الحواد من البصرة والابلة والاهواز ؛ وينتظم
هذا الفارح قطائع المناربة (١) وتنفق بهم العرب اليمنية والمطرية الذين
استقدمهم المصطفى من مصر وسام المناربة (٢) .

وفي عهد الوائق بالله أنشئ القصر الحاروني الواقع على دجيسة في ظاهر
سامرا وبازائه من الجانب الغربي قصر المشوق (٣) . وظلت سامرا تزدحم
وتعمر في عهد الوائق ؛ إلى أن بلغت ذروة تطورها العمراني في زمن المتوكل ،
ومن أشهر مباني المسجد الجامع بسامرا ومثله المروقة بالمقوية ، وما زالت
آثار هذا الجامع بالية حتى اليوم ، وبنى في هذه أيضا جامع أبي ذلف الذي
يصبه سكانها حتى في المئذنة جامع سامرا . كذلك أنشأ قصر الجعفرى في
الموضع المعروف بالماحوزة ، وبقي هذا القصر لأنوار تهاجم اليوم على حفة
دجلة في شمال السور الداخلى لمدينة المتوكلية المنسوبة إليه .

ثم مجرت سامرا بعد أن سكنها ثمانية خلفاء بنى عباس في الوائق حتى
المستعد ، وفي هذه انتقل مقر الحكم إلى بغداد ، ومنذ ذلك الحين ذهب فيها
الحراب ، وفقدت روائها وعظمتها ، وقد أجريت في أطلال سامرا حفريات
أثرية قام بها مرتسلد فيما بين عامى ١٩١١ ، ١٩١٣ أسفرت عن كشف تخطيط
القصور والفارح الأعظم والجوامع والقصور والحدود . واستندل من هذه

(١) نفس المرجع ، ص ٨٣ .

(٢) السعوى ، ص ٤٦٥ .

(٣) بالوت ، ص ١١١ .

الكشوف الأثرية بالنسبة للقصور على أن تأنيدها إهران كسرى الذي يقوم حتى اليوم في المدائن على نهر دجلة على العبارة العباسية كان عميقاً ، ويحتل هذا التآنيده في بقايا قصر الجوسق الخاقاني ويشغل القصر على قاعة كبرى تعلطها بمائل حرف T وهو نفس النظام الذي كان معروفاً في قصور المناذرة بالحيرة مما يهبر من تأنيده مباشر . والبناء بالآجر هو الظاهرة الواضحة في آثار هامة . وكانت جميع المساكن تبنى في أسسها بطبقة من الجص ثم تنظم بأعلاماً حنياً وطاقات مختلفة الشكل ، وكانت الطبقة الجصية تزدان بزخارف نباتية وهندسية محفورة حمراً مائلاً ، من طابع أقرب ما يكون إلى الفن الصيني الطوري (١) . كذلك كشفت الحفريات الأثرية عن كهف هائلة من قطع الحرف بعضها من النوع الصيني الأبيض وبعضها من نوع الحرف ذي البريق المعدن .

(٢) أرست كوزل ، الفن الإسلامي ' مجلة أجد موز ' القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢ .

(٢)

المراكز العمرانية الجديدة في افريقية ومصر

أولا - مدينة العباسية (القصر القديم) :

أحس الامير ابراهيم بن الاغلب في سنة ١٨٥ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال جنوبى القهروان^(١) ، ويبدو أن سبب بناء ابن الاغلب لهذه المدينة يرجع إلى أن سكان القهروان بما كانوا ينصرفون به من تدين وروح ، أبدوا منخلهم على الامير لإلباله على الحر ، وانفاسه في حياة اللهو والملاحة ، فاحضر ابن الاغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيدا عن أنظار رعيته ، فلا يناله شيء من هزيع فقساتهم وانقراضهم لسلوكه . ولعله احتذى حذر الخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذ مدن أمورية خارج عواصمهم أو إشباعا لرغبته في الظهور بمظهر الأبهة والاهتمام .

ولقد اشترى بن الاغلب لهذا الغرض أرضا من بنى طالوت ، وبني قصرا للإمارة نقل إليه السلاج والعديد سرا ، فأسكن حوله عبيده وفتيانها ومواليه وأهل الثقة من خدمة^(٢) ، وسمى بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادته الذي بناه الامير ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٤^(٣) ، وعرف بالقصر الأبيض ربما

(١) ابن مغازى ، ص ١١٧ . ويذكر اليعقوبى أنها تقع على ميلين من القهروان (البلدان ، ص ٣٤٨) .

(٢) ابن مغازى ، ص ١١٧ .

(٣) فى المصدر ، ص ١٥٤ .

لبياض لون جدرانه . ولقد أطلق إبراهيم بن الأهلبي على هذه المدينة اسم
العباسية إماماً في إظهار ولائه للعباسيين (١) . وفي هذه المدينة استقبل رسل
شارلمان إليه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) عندما قدموا لنقل رفات القديس
سان سيرين (٢) وظلت هذه المدينة داراً للإمارة لعهد خلفاء إبراهيم بن الأهلبي ،
وأسس فيها زهادة الله بن إبراهيم القصور والمنهاج ، وحصنها سنة ٢٠١ هـ (٣) .
كذلك أقام الامير أبو الفراتي محمد بن أحمد في العباسية ، وكان يرقا مهذرا
شغولاً باقتناص الطهر ، وكان له برج في موضع منها يدعى بالساحلين يستطيع
أن يركن فيه إلى هوايته المفضلة ؛ وكان لمدينة القصر القديم جامع له موصلة
مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم ير أجمل منها (٤) .

واتسمت العباسية وأصبحت مدينة كبيرة مسورة ، وكان يفتح فيها خمسة
أبواب منها بابا الرحمة والحديد في السور الجنوبي ، وبابا ظبورن والريح
في السور الشرقي ، وباب السمادة في السور الشرقي (٥) . وقد أقيم في المدينة
كثير من المنشآت من حمامات وفنادق وأسواق ومراجل (محلات مهيا
مكشوفة) ؛ ويذكر البكري أيضاً أنه كان يتوسطها ميدان فسيح أقيم تجاهه

(١) ياقوت ، معجم البلدان مادة (عباسية) .

(٢) Marçais, L'architecture musulmane d'Occident p. 26

(٣) ابن هذال ، ص ١٢٣ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة (بصر القهوان) .

البكري ، ص ٢٥ .

قصر يعرف بالرفافة (١). ولما كانت سنة ١٢٦٤ هـ هجر الأغالبة مدينة القصر القديم وانتقلوا إلى مدينة جديدة هي رقادة. وقد انتهى القصر القديم إلى الدمار، ولكن موقعه ما زال معروفًا حتى اليوم. ولقد أجريت على طول الجانبين الشمال والغربي من الأطلال حفريات أثرية في سنة ١٩٢٢ أحفرت من حكتف بعض الغرف الصغيرة، كما كشفت عن بعض القبوات والمخازن المنقورة في باطن الأرض (٢).

لانيا - مدينة رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميال جنوب القنودان، وهي الحاضرة الأغلبية الثانية، شرح إبراهيم بن أحمد الأغلب في تأسيسها سنة ٢٦٢ هـ وتم تأسيسها في سنة ٢٦٤ هـ، وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بني الأغلب حتى انقراض دولتهم. ويصفها البكري بقوله: «وأكثرها بساتين، وليس بأفريقية أحسن هواء ولا أرق لسيما ولا أطيب نوبة من مدينة رقادة»، وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق يومًا، وشرط الكرم عن جنتيه، فلم يبق، وأمر بالخروج والسير فلما وصل إلى هذا الموضع نام، فسمي رقادة... والذي بنى رقادة واتخذها دارًا هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، انتقل إليها من مدينة

(١) وجدت تصور كثيرة بهذا الاسم في العالم الإسلامي: منها رصافة معجم بن عبد الملك بالشام، ورصافة بغداد، ورصافة قرطبة، ورصافة بلنسية، ورصافة النجاسة. وظاهر أن كلمة الرصافة لها علاقة بالطريق المرصوف، ولعل القصر كان يطل على ساحة مرصوفة من عهد الأوائل.

القصر القديم ، وبني بها قصورا عديدة ، وجامعا ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق ، (١) ، وكان من قصورها قصر بغداد والخضراء والمفتح وقصر المروس وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الأجر والطين أصلحه الأمير زيادة الله الثالث حتى يصحمن فيها عند محاصرة أبي عبد الله الصيمى لها .

ولم تول هذه المدينة بعد ذلك دار ملك بنى الأغلب حتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قواهم أبي عبد الله الصيمى ، فاحتلها عبيد الله المهدي ، وأقام في قصر الصحن برقادة حتى سنة ٢٠٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة . ثم فتحت رقادة بالتدريج مكانها القديمة ، وأخذ الخراب يدب في قصورها ودهارها ، حتى تولى محمد بن إسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم ما بقي منها ، وأصبحت رقادة مجرا تسفخرج منه مواد البناء في الماء والثلالة . وقد تبقى منها اليوم آثار حوض لعله حوض القصر المعروف بقصر البحر (٢) .

الثالث — مدينة الصكر :

أتيح لمصر الإسلامية أن تشهد مركزا هرايبيا جديدا بعد أولي عواصمها الإسلامية عندما أقدم عمرو بن العاص على تخطيط التسطاط في سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) في المنطقة الممتدة ما بين النيل والجبل للشرق المعروف بالقطم ، وقسمها من حصن بابليون ، ومنذ ذلك الحين أصبحت التسطاط مقرا للولاية في عهد الخلافة

(١) البكري ١ ص ٢٧ .

(٢) واجم التفصيلات في : Marçais, op. cit., p. 28

الراشدة وصر الدولة الأموية ، وقاعدة للإدارة والجيش (١) ، فلما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ودخلت مصر في تلك الدولة العباسية ، رأى العباسيون أنهم يتخذوا للإدارة العباسية في مصر مركزاً حراً لها جديداً إما رغبة في التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة في الشرق ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل مصره قد أشعل النار في القسطنطينية فدمرت جانباً منها ، أو لضيق القسطنطينية من الاتساع لمسكر العباسيين في مصر ، أو لهذه الأسباب كلها مجتمعة ، فأنشأ صالح بن علي العباسي والي مصر (في المحرم سنة ١٣٢) حاضرة جديدة في مصر في موضع عرف باسم الحمراء القصوى كان يمتد إلى جبل يشكر الواقع إلى الشمال الشرق من القسطنطينية . وأسس صالح بن علي دار الإمارة ومساكن المسكر ، وأقام ابنه الفضل بن صالح في سنة ١٦٩ مصجداً جامعاً لهذه المدينة العباسية لصق دار الإمارة عرف باسم جامع المسكر ، وأحيط هذا الجامع بالأسواق وكثرت حوله للمعابر ، واتسمت المدينة بالمنشآت حتى اتصلت مبانيها بمبنى القسطنطينية . وظلت المسكر قاعدة رسمية لمصر الإسلامية ما يزيد على قرن من الزمان (١٣٢ - ٥٢٦ هـ) إلى أن استقل أحمد بن طولون مصر وأسس القطائع .

(١) انظر في ذلك : المهرزي ، المواظ والامتنان بذكر الضعفاء والآثار ، ج ٢ ص ١٠٨ طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ - ابن دقاق ، كتاب الاثني عشر لواءاً في عهد الأمصار ، بولاق ١٣١٠ هـ ص ٤٢ - محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ القسطنطينية ، القاهرة ١٩٣١ - عبد الرحمن زكي ، القسطنطينية وضواحيها المسكر والقطائع ، القاهرة ١٩٦٠ - عبد المنيز سالم ، القسطنطينية دار صغار الفقهاء ، عدد ٧٩ القاهرة ١٩٦٠ .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية

- | | |
|------------|--|
| ابن الأثير | (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاة) : كتاب الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ . |
| الإباضي | (شهاب الدين أحمد) : المستطرف من كل فن مستظرف ، ج ١ ، القاهرة ، ١٢٥٢ هـ . |
| الأنليدي | إعلام الناس بما وقع لعوامك مع بني العباس ، القاهرة ، ١٣٠١ هـ . |
| ابن الأثير | (عز الدين) : الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ . |
| الاريلي | خلاصة الذهب للديوك ، بغداد ، ١٩٦٤ م . |
| الأصفهاني | (أبو الفرج) : مقاتل الطالبين ، بيروت ، ١٩٦١ . |
| ابن أبيك | درر التيجان في غرر تواريخ الأزمان ، مخطوطة رقم ٤٤٠٩ ، بدار الكتب المصرية . |
| الباروني | (أبو الربيع) : مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٣٨ . |
| البغدادى | (الخطيب) : تاريخ بغداد . |
| البغدادى | (عبد القادر بن طاهر) : الفرق بين الفرق ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، القاهرة . |
| البغدادى | (محمد بن الحسن) : كتاب الطبيع ، تحقيق الدكتور داود الحاي ، الموصل ، ١٩٣٤ . |
| البكري | (أبو عبيد الله) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، ١٩١١ . |

- البكرى
مجمع ما استعجم (٤ أجزاء) القاهرة ، ١٩٤٥ - ١٩٥١ .
- البيروني
(أبو الريحان محمد) : الآثار الباقية من القرون الخالية ، ليدرج
١٨٧٨ .
- البيهقي
(محمد بن حسن) : تاريخ البيهقي ، ترجمة دكتور يحيى الخشاب
وصادق نشأت ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- التنوخى
الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- الجاحظ
(أبو عمرو) : كتاب البصر بالتمجارية ، تحقيق الأستاذ حسن
حسنى عبد الوهاب ، بيروت ، ١٩٣٦ .
-
الناج في أخلاق الملوك ، القاهرة ، ١٩١٤ .
-
البيان والتبيين ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، وج ١ طبعة بيروت
١٩٦٨ .
-
رسالة في المنار والمشراب ، بيروت ، ١٩٦٩ .
-
الحامض والأضداد ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- الجزائقي
(أبو الحسن هل) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ،
لشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢ .
- الجهشياري
(أبو عبد الله محمد بن هيدوس) : كتاب الوزراء والكتتاب ،
تحقيق الأستاذة معطى السقا إبراهيم الإياري وعبد الحفيظ
شلي ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ابن الجوزي
(أبو الفرج عبد الرحمن) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،
ج ٥ طبعة حيدرآباد الدكن ، ١٣٥٧ هـ .

- ابن الجوزي ذم الهوى ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ابن خردادبة (أبو القاسم عبد الله) : المسالك والممالك ، تحقيق دى غريب ،
لندن ، ١٨٨٩ .
- ابن الخطيب (لسان الدين) أعمال الاعلام فيمن يبيع قبل الاحلام من
ملوك الإسلام ، تحقيق الدكتور أحمد غنار العبادى والأستاذ
محمد إبراهيم الكتانى ، دار البيضاء ، ١٩٦٤ .
- ابن حلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، طبعه بيروت ١٩٦١ ، وطبعة
القاهرة ١٩٦٦ .
- ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، طبعه بيروت ١٩٥٧ ،
- ابن خلكان (أبو العباس أحمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٥
طبعة القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ابن دقاق (إبراهيم بن محمد بن أيمن الملاى) : كتاب الانتصار بواسطة
هند الأمصار ، طبعه بولاق ، ١٣١٠ هـ .
- الهنورى (أبو حنيفة أحمد) : الاختصار الطوال ، تحقيق الأستاذ
عبد للنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد) : العبر في خبر من غير ، تحقيق
الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ج ١ ، ١٩٦٠ .
- الزبيدي (محمد المرتضى) : تاج العروس ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ
- ابن الساهي (تاج الدين علي) : لساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء
من الحرائر والإماء ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، القاهرة
عدد ٢٨ من سلسلة ذخائر العرب .

- السلاوى (أبو العباس أحمد) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،
ج ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .
- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء ، بيروت .
- الشافعى : كتاب الديارات ، تحقيق الأستاذ كوركيس هواد ، بغداد
١٩٥١
- الشهرستانى (أبو الفتح محمد) : الملل والنحل ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، وطبعة
القاهرة ١٩٦١ .
- الصافى (أبو الحسين هلال) : كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ،
تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ١٩٥٨ .
- الصافى : رسوم دار الخلافة ، تحقيق الأستاذ ميخائيل هواد ، بغداد
١٩٦٤ .
- ابن طباطبا (محمد بن هلى) : كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول
الإسلامية القاهرة ، ١٣١٧ هـ .
- الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، القاهرة ، ١٩٦٦
وطبعة دار القاموس الحديث ، بيروت .
- ابن طيفور (أبو طاهر أحمد) : كتاب بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ،
بغداد ، ١٩٦٨ .
- ابن عديبه (أبو عمر أحمد) : العقد الفريد ، ج ٤ تحقيق الأستاذ أحمد أمين
القاهرة ، ١٩٤٤ ، وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .
- ابن العبرى (أبو الفرج غريغوريوس) : مختصر تاريخ الدول ، تحقيق الأب
أطون صالحانى اليسوعى ، بيروت ، ١٩٥٨ .

- ابن هذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي) : البيان المغرب في أخبار
الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ
- ابن القتيبة الحمداي (أبو بكر أحمد) : مختصر كتاب البلدان ، تحقيق ذى غريه ،
لندن ، ١٨٨٥ .
- الفهرور ابادي القاموس المحيط ، القاهرة ، ١٣٤٤ هـ
- ابن تينة (أبو محمد عبد الله) : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٠٩
- ابن تينة الشعر والشعراء ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- القرطبي (ذكره ابن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبعة
صادر ، بيروت ١٩٦٠ .
- ابن تقي (جمال الدين أبو الحسن) : تاريخ الحكماء ، ليزج ، ١٩٠٢ م
- القلقيسندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأمل في صناعة الإلشاء ، ج ٥
القاهرة ، ١٩١٣ .
- ابن القزطبي (محمد القزطبي) : تاريخ افتتاح الأندلس ، مدريد ، ١٩٢٦
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أحمد) : كتاب أخبار الفناء ، بيروت ، ١٩٦٤
- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ،
طبعة رفن جست ، بيروت ، ١٩١٢ .
- للاوردي (أبو الحسن علي) : الأحكام السلطانية ، مصر ، ١٢٩٨ هـ
- المسعودي (أبو الحسن علي) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢
القاهرة ١٣٤٦ هـ . ج ٣ ، طبعة بيروت دار الأندلس .
- المسعودي : التنبيه والإشراف ، بغداد ، ١٩٣٨ .

- المقدسى البشارى (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، ١٩٠٦ .
- المقريزى (تقي الدين أحمد): كتاب المواقظ والاهتبار بذكر الخطوط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٧٠ هـ .
- شذير العقرد في ذكر النقود، تحقيق الطباطبائي، النجف ١٣٥٦ هـ .
- ابن منظور لسان العرب، طبعة صادر، بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٦ .
- جمهرل أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس، نشره لافونتي القنطرة، مدريد، ١٨٦٧ .
- رسائل لأخوال الصفاء وخلان الوفاء، ج ١ القاهرة، ١٩٢٨ .
- أخبار الدولة المملوكية، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٩٧١ .
- النجفي (علي بن الحسين الهاشمي): تاريخ الأوبار، بيروت ١٩٧٤ .
- الزيمان (القاضي أبو حنيفة بن محمد): قضية إفريطش في عهد المماليك لدين الله، تحقيق فرحات الدشرابي، حويلات الجامعة التونسية، العدد الثاني ١٩٦٥ .
- النوبختي (أبو محمد الحسن): كتاب فرق الشيعة، استنبول ١٩٣١ .
- التويري السكندري (محمد بن قاسم): الإمام ما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية، نسخة معصورة من المخطوطة، نسخة الهند، المحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، برقم ٧٢٨ م .
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله): معجم البلدان، طبعة بيروت، ١٩٥٠ .
- اليقوتري (أحمد بن جعفر): تاريخ اليقوتري، ٣ أجزاء طبعة النجف، ١٣٥٨ هـ .

المراجع الحديثة

أرسلان (الاستاذ شكيب) : تاريخ غزوات العرب .

أنطهر (القاضي مبارك بوري) : العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز هرت ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

أمين (الاستاذ أحمد) : ضحى الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

أمين (دكتور حسين) : سامراء في ظل الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨
براون (إدوارد) .

Browne (Edward) : A literary history of Persia, London,
1909.

بروفنسال (ليني) :

Lévi-Provençal (E) : Histoire de l'Espagne Musulmane,
Leyden, 1950.

بروفنسال

Extraits des Historiens arabes du Maroc, Paris, 1948.

بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد

عبد العزيز سالم ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة د. أمين فارس

ومنهم الهلبيكي ، بيروت ، ١٩٤٩

الإبستاني (دكتور فزاد أفرم) : أصل اسم بغداد ، مجلة المشرق ، عدد ٤ ،
بغروت ، سنة ١٩٣٤ .

بكر :

Buckler, Harun al-Rashid and Charles the great, Massachu-
settes, 1931.

بوفنا :

Bouvat : les Barmécides; Paris, 1912.

ابن تاريت (الاستاذ محمد الطنجي) : دولة الرستمين ، مقال بصحيفة المهد
للمصري بمقريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ .

حسن (المكتور زكي محمد) : الصين وفنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤١
حسن (المكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الاسلام الحياى ، ج ٢ ، القاهرة
١٩٦٢

..... : النظم الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

الباحسين : البرامكة ، بغداد ، ١٩٦٢
الحفنى (دكتور محمود أحمد) : أسبق الموصل الموسيقىار القديم ، سلسلة
أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، القاهرة .
حمدى (الأستاذ أحمد ممدوح) : معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامى ،
القاهرة ، ١٩٥٩ .

حورانى (جورج فاضل) : العرب والملاحسة فى المحيط الهندى ، ترجمة
الدكتور يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

حمى (بدر الدين الصبى) : العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ .

حيندى (صلاح) : المجتمع العرفى فى العصر العباسى الاول ، رسالة ماجستير
بجامعة الاسكندرية .

خندورى (الاستاذ مجيد) : الصلات الدبلوماسية بين مروان الرشيد وشارلمان ،
بغداد ، ١٩٣٩ .

الحضرى (الشيخ محمد) : محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ، ١٩٥٩

الهدوى (دكتور عبد العزيز) : العصر العباسى الاول ، بغداد ، ١٩٤٥

ديفيز (كارلس) : شارلمان ، ترجمة الدكتور الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٥٥
دوزى :

Dozy (R.) : Dictionnaire des vetements, Amsterdam, 1845
Supplement aux dictionnaires arabes, 2 vols., Beyrouth, 1968.

ديل (شارل) : Dozy;

Diehl (ch.) & Marçais (g) : Histoire du Moyen Age, t. II, le
monde Oriental, Paris. 1936.

رستم (الاستاذ احمد) : الروم والعرب ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٥٦

الريس (دكتور محمد ضياء الدين) : النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ،
١٩٥٢ .

زكى (دكتور عبد الرحمن) : الفسطاط وضاحيتاها المسكر والتطالع ، القاهرة
١٩٦٦ .

زيتون (الاستاذ محمد محمود) : الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة اقرأ ،
القاهرة ، ١٩٦٤ .

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : البحرية الإسلامية فى مصر والشام ،
بالاشتراك مع الدكتور مختار العبادى ، بيروت ١٩٧٢ .

سالم :

- تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ .
- :..... القسطنطين ، مقال بذاتة معارف الشعب ، عدد ٧٩ ، القاهرة ١٩٦٠ .
- :..... قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس ، ج ١ بيروت ، ١٩٧١ .
- :..... تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، عدد ٢٩٦٦ .
- :..... تاريخ مدينة المدينة الإسلامية ، بيروت ١٩٥٩ .
- :..... المغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الإسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .
- :..... تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٧٩١ .
- السرنجباري (الأستاذ عبد الفتاح) : الدولة العباسية ، اضمحلالها وسقوطها ، القاهرة ١٩٤٠ .
- سلمان (الأستاذ ابراهيم) : نظام الوزارة في العصر العباسي ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٩ .

سورديل (دومينيك) :

Sourdel (Dominique) Le vicariat abbasside, vol. ٢, I, Damas, 1969

سرافيه (جان) :

Sauvaget (g.): Relation de la Chine et de l'Inde, Paris 1948.

شتاينجاس :

Steingass : Parsan-English Dictionary, London 1947:

- للشكعة (دكتور مصطفى): رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، بيروت ١٩٧٢
- :..... الادب في مركب الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- الشيبال (دكتور جمال الدين) : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨
- :..... تاريخ الدولة العباسية ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- شيخاني (الأستاذ سمير) : أشهر للفننين عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ .
- الصياد (دكتور فزاد عبد المعطي) : النوروز وأثره في الادب العربي ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- المبادي (الأستاذ عبد الحميد) : صور وبعوث من التاريخ الإسلامي ، ج ٢ الاسكندرية ، ١٩٤٨ .
- المبادي (الدكتور أحمد مختار) : في التاريخ العباسي والفاطمي .
..... : حركة الزط في العصر العباسي الأول ، من بعوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية ، الدوحة ٢١ - ٢٧ مارس ١٩٧٧ .
- عباس (الدكتور إحسان) : العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- عثمان (الدكتور فتحي) : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والإتصال الحضاري ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- الهدوي (الدكتور ابراهيم أحمد) : المجتمع العربي ومناهضة الشيوعية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- : إفريقيا بين المسلمين والمسيحيين في القرن التاسع الميلادي ، مقال بالجملة التاريخية المصرية ، العدد الثاني ، المجلد الثالث ، أكتوبر ١٩٥٠ .
- المريني (الدكتور السيد الباز) : الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- العل (الدكتور صالح أحمد) : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- هنان (الأستاذ محمد عبد الله) : عصر الإسلام وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١ .
- فارس : تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين صار ، القاهرة ١٩٥٦ .

تأليف :

Vasiliev : Byzance et les Arabes, t. I : la Dynastie d'Amorium, Bruxelles, 1935.

فرلسيس (الأستاذ بشير) : بغداد : تاريخها وأثرها ، بغداد ١٩٥٩ .

فلهاوزن (يوليوس) ، الدولة العربية ، ترجمة الدكتور العشي .

فهد (دكتور بدرى) : الطبايعان ، مقال بمجلة كلية الشريعة ، بغداد ١٩٦٦

..... : العامة ، بغداد ، ١٩٦٨ .

فوزى (دكتور فاروق عمر) : طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت .

..... : حركة المقنن الحراساني ، المجلة التاريخية ، عدد ١ ، السنة الأولى ،

بغداد ١٩٧٠

..... : سياسة المأمون تجاه العلويين ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، العدد

١٦ ، بغداد ١٩٧٣ .

..... : الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والشارع حمزة بن عبد الله

الخارجي ، المجلة التاريخية ، العدد ٣ ، بغداد ١٩٧٤ .

قدورة (دكتورة زاهية) : الشموبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، بيروت

١٩٧٢ .

كوتل (إرلست) : الفراء الإسلامية ، ترجمة الأستاذ أحمد موسى . القاهرة، ١٩٦١

لستريج (غي) : بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة جبير يوسف فرلسيس

بغداد ، ١٩٣٥ .

لويس (برنارد) : العرب في التاريخ ، معرب الدكتور نبيه أميز فارس

والدكتور محمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ .

لويس (شارلتون) :

Lewis (Charlton) : A latin dictionnary, Oxford, 1906.

ماجد (دكتور هبة المنعم) : تاريخ الحضارة في المصور الإسلامية الوسطى ،
القاهرة ، ١٩٦٣ .

..... : العصر العباسي الأول ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧٣ .

مؤلس (دكتور حسين) : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

عمود (دكتور حسن) : العالم الاسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٦٦
مرسيه (جورج) :

Marçais (g.) : La Berberie et l'Orient au Moyen âge, Paris
1946.

Marçais (g.) : L'architecture Musulmane d'Occident, Paris
1954,

محمد (دكتور محمد حلي) : الخلافة الموحدة في العصر العباسي ، القاهرة ، ١٩٥٩

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة	
١٤ - ١	المقدمة
٥٠ - ١٥	الفصل الأول
	قيام الدعوة العباسية
١٧	١ - الدعوة العباسية وتنظيماتها السرية
٣٠	٢ - عوامل نجاح الدعوة العباسية
٤٣	٣ - انتشار الثورة العباسية وآثاره في التاريخ الاسلامى العام
	الفصل الثانى
٩٦ - ٥١	التعرف بمخلفاء العصر العباسى الاول وأهم أعمالهم
٥١	١ - أبو العباس السفاح
٥٨	٢ - أبو جعفر المنصور
٦٦	٣ - المهدي بن المنصور
٦٨	٤ - الهادى بن المهدي
٦٩	٥ - هارون الرشيد
٧٣	٦ - محمد الامين
٧٩	٧ - هبة الله المأمون
٩٢	٨ - محمد المعتصم
٩٥	٩ - جعفر اوائق بالله

الفصل الثالث

١٦٦ - ١٧

السياسة الداخلية

١ - سياسة خلفاء العصر العباسي الأول مع الأمويين

والعلويين والفرس

٩٧

(أ) مع الأمويين

١٠٥

(ب) مع العلويين

١٢٤

(ج) مع الفرس

١٤١

٢ - الحركات الدينية الهداية والمرطقات

١٤٣

(أ) حركة بها فريد

١٤٣

(ب) ثورة - فباذ

١٤٤

(ج) ثورة المسلمية

١٤٥

(د) حركة الراولدية

١٤٨

(هـ) الزنادقة

١٥١

(و) المقتنبة

١٥٥

(ز) البابكية الحرمية

الفصل الرابع

٢٤٥ - ١٦٧

السياسة الخارجية للدولة العباسية

٢٦٩

١ - سياسة الدولة العباسية مع الأمويين في الأندلس

١٨١

٢ - سياسة الدولة العباسية مع دوليات المغرب الاسلامي

٢٠٨

٣ - سياسة العباسيين مع الترك والهنود والصينيين

ص

٢١٤

٢٤٠

٤ - سياحة الدولة العباسية مع البيروني

٥ - سياسة الدولة العباسية مع شارلمان

الفصل الخامس

الادارة ونظم الحكم

٢١٢ - ٢١٧

٢٤٧

٢٥١

٢٥٩

٢٦٢

٢٦٤

٢٧٠

٢٨١

١ - الخلافة

٢ - الوزارة

٣ - الحجابة

٤ - الكتاب

٥ - الدراوين

٦ - نظام القضاء

٧ - القوي الدفاعية

الفصل السادس

٧٦ - ٢٩٣

التنظيمات الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية

٢٤٢ - ٢٩٥

أولا - صورة المجتمع المدني في العراق

٢٩٥

٣١٠

٣١٧

٣٢٧

٣٢٨

٣٣٢

١ - مجتمع الخاصة

٢ - مجتمع العامة

٣ - الازناء وأدوات الزينة

٤ - الاطعمة والأشربة

٥ - الأعياد الاسلامية والمسيحية

٦ - الزواج والطلاق

- ٢٩٨ -

صفحة	
٢٧٦ - ٢٤٣	ثانيا : التنظيمات العمرانية
٢٤٢	١ - المراكز العمرانية الجديدة في العراق
٢٤٦	(أ) بغداد وأسماؤها الأخرى
٢٤٩	(ب) الموقع وبداية التخطيط
٢٥٧	(ج) بناء الأسوار والقصر والجامع والدواوين
٢٦٢	(د) الدور والقصور الأخرى
٢٦٤	(هـ) دثور بغداد
٢٦٤	١ - مدينة سامراء
٢٧٢	٢ - المراكز العمرانية الجديدة في إفريقية ومصر
٢٧٢	١ - مدينة العباسية
٢٧٤	٢ - مدينة رقادة
٢٧٥	٢ - مدينة العسكر

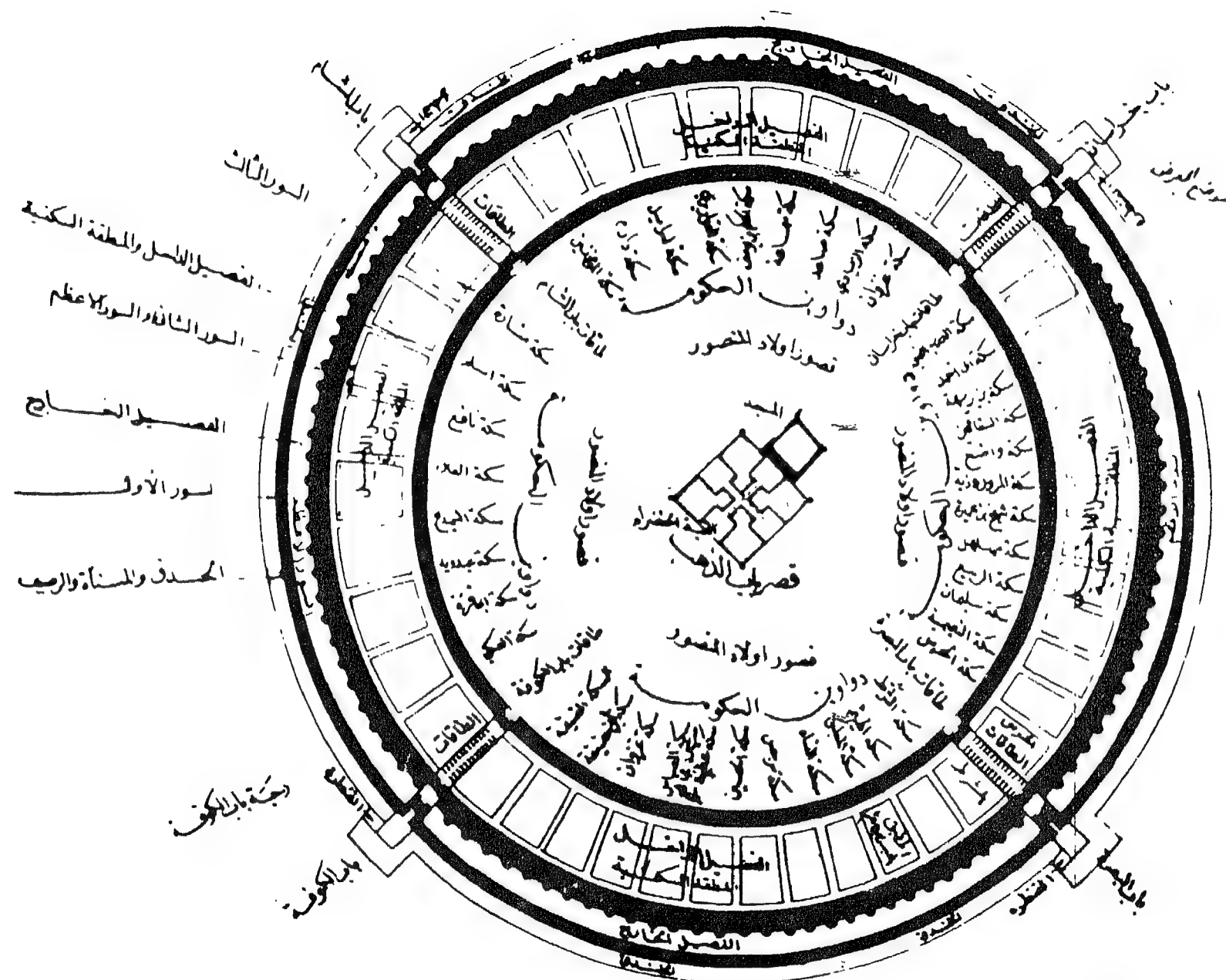
مطبعة الاندلس

لطباعة الافونسو

كوم الدكة خلف شركة ميناء الاسكندرية

ت : ٤٩١٦٥٩٧

مطبعة صبرى



المخطوط (١)
بغداد المنورة

سـ ابو جعفر المنصور مدته السلام بالجانب الغربي على مقربة
من موقع الكاخنة اليوم وبسـ قبالتها مدته الرصافة بالجانب الشرقي
اسفل من مشهد ابي حنيفة . ولاحظ في هذا المخطط ان المدينة مبنية
على اربعة مداخل وبسـ هي باب حراسان في الشمال الشرقي يعالته
باب الكوفة في الجنوب الغربي وباب الشام في الشمال الغربي يعالته
باب البصرة في الجنوب الشرقي وقد احصوا على عشرين بابا من الحديد
وقد حصنها المنصور بثلاثة اسوار واحاطها بغندق ملـ ها . من بهر
كرخاها . وجعل فيها اثني عشرة رحبة مبلطة واربع قباب عظيمة على
دهاليز السور الاعظم كما جعل في قصره قبة شاهقة ارتفاعها لمانون
لرأها نزل بالقبة الخضراء . وجعل مساحة قصره ٤٠ الف متر مربع
ومسجده الجامع عشرة الاف متر مربع والخط فيها اربعة اسواق وجعل
ما بين السور الثاني والثالث اماكن لسكنى الناس تحتفلها من الطرق
والسكنى اربعون سكة . وجعل الحز الاعظم بين بابي البصرة والكوفة
وسمى الطريق .

شکل (۱)

(غلام من کتاب تخطیط بغداد مؤلفه حاجی معروف)

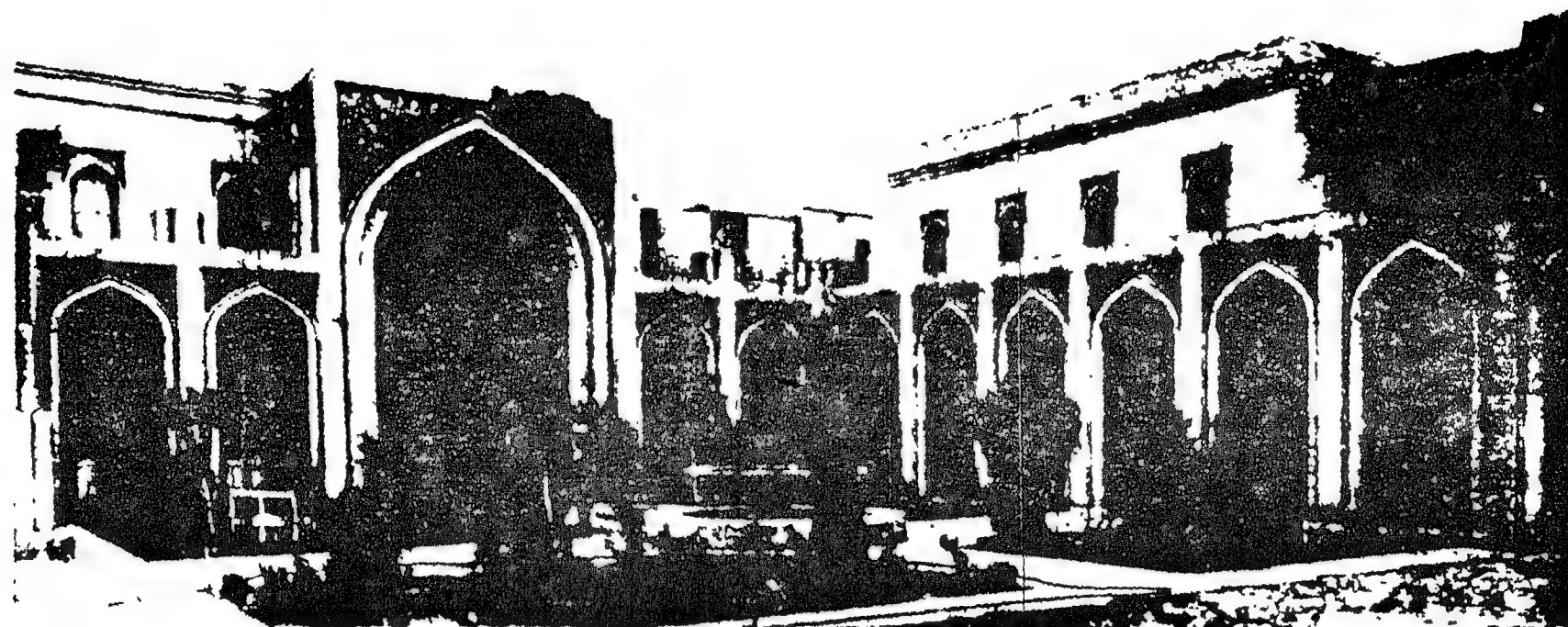
(المقابر)





شكل (٢)

الهندسة الطوبىة بجامعة سامراء
(نقل من كتاب معالم أثرية في العراق)



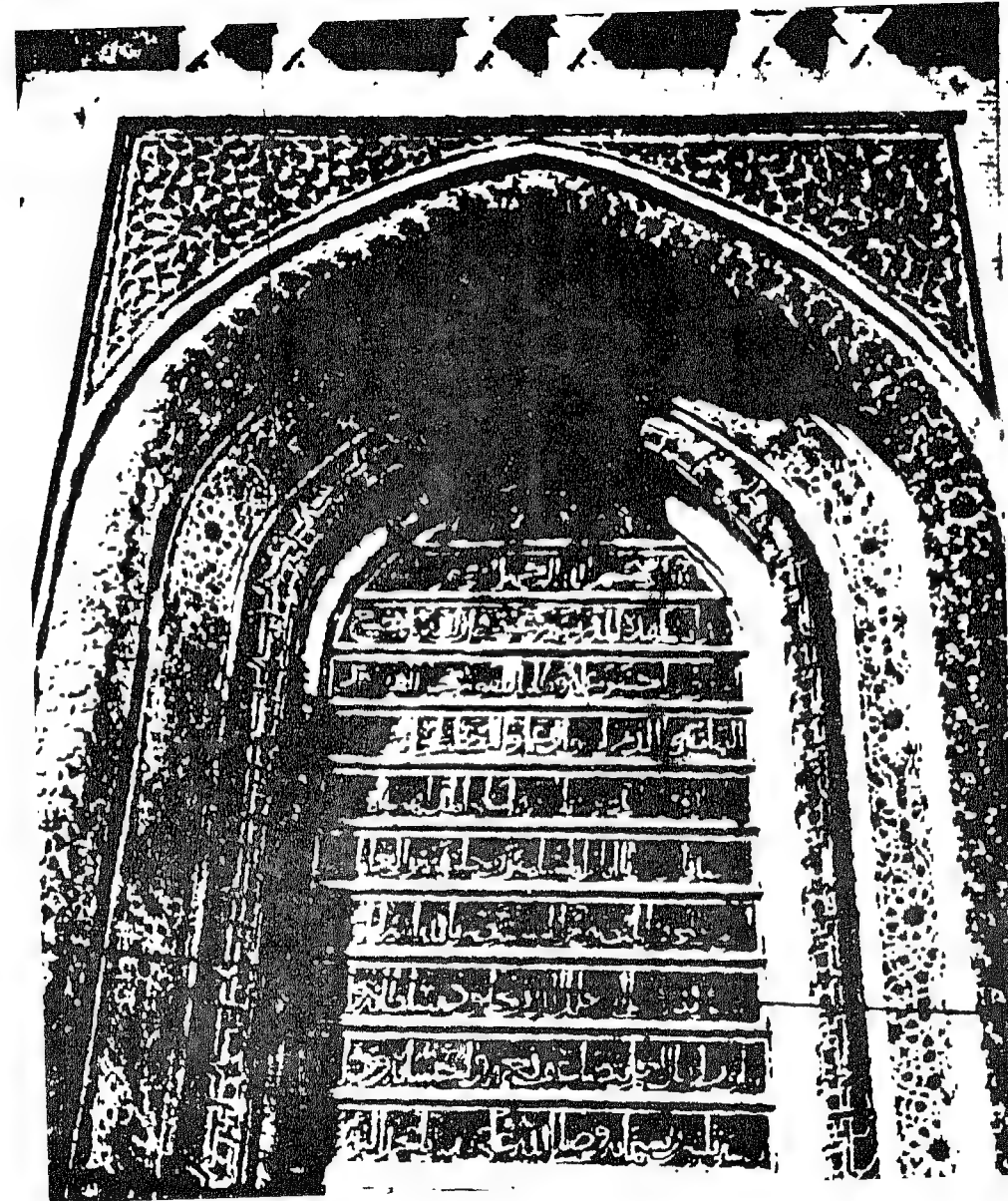
شكل (٢)

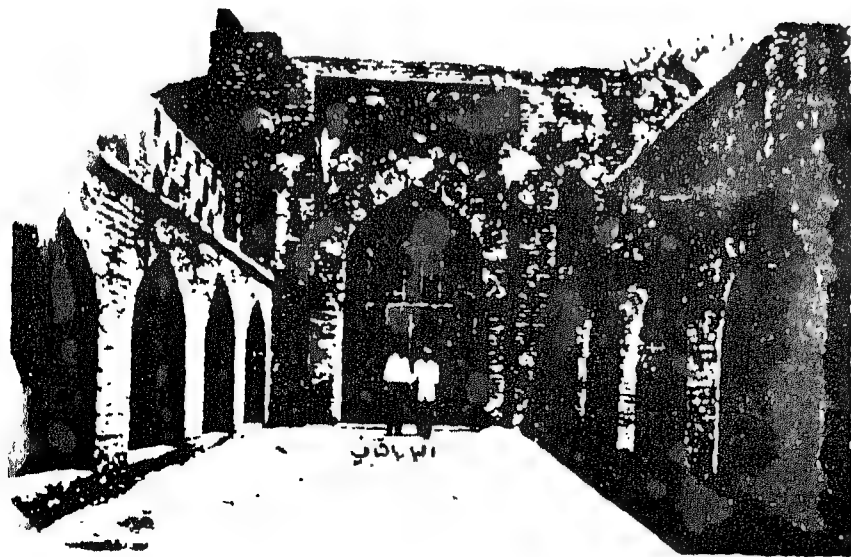
منظر داخلي لمصر الخليفة المماليك الناصر لدين الله
(علا من كتاب معالم أثرية في العراق)

شكل (٤)
معرضات لسقف العصر العباسي
(نقلا من كتاب معالم أثرية في العراق)



شكل (٥)
اللوحة التأسيسية لدحل المدرسة البصيرية من عهد
(نالا من كتاب معالم أثرية في العراق)





شكل (٦)

منظر للباب الوسطاني بأسوار بغداد
(تعلقه كتاب تخطيط بغداد لمؤلفه ناجي معروف)

